شعراء عباسيون

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد
منشية الصدر - القاهرة
١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

رقم الإيداع ١٤٨٢٣ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977 - 10 - 1400 - 5

شعراء عباسيون

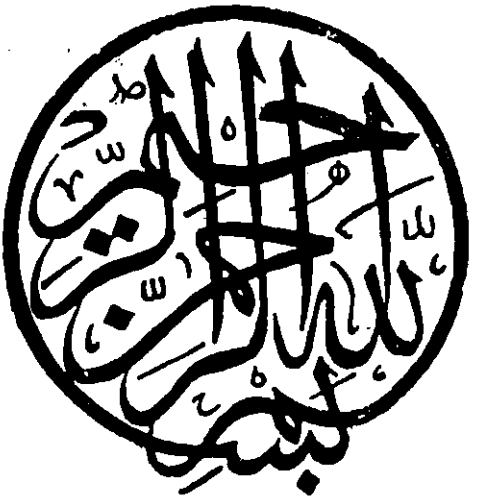
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يضم هذا الكتاب اثنى عشر فصلاً كلٌّ منها يتضمن دراسة لأحد شعراء العصر العباسى من غير الفحول المشاهير . وقد حاولت بقدر إمكانى أن يكون هناك تنويع فى الشعراء الذين درستهم ، سواء من جهة شخصياتهم ، أو الموضوعات الشعرية التى اشتهر بها كل منهم ومذاق فنه الشعرى : فشاعر غزل كربيعة الرقى ، وآخر ينظم فى الزهد والحكمة كمحمود الوراق ، وثالث يتشيع ويبكى زوجته التى قتلها بيديه ويقول فى الغلمان ، وهو ديك الجنّ ، ورابع يسرف فى لزوم ما لا يلزم كالحسن الفارقى ... وهكذا .

وقد حرصت فى دراستى لكل شاعر على أن أحلّل ديوانه تحليلا مستقصيا يبرز الموضوعات الشعرية التى نظم فيها ، واللون الذى اشتهر به من تلك الموضوعات ، والسمات الفنية التى يتميز بها إنتاجه ، فضلاً عن تناولى للقضايا المهمة التى تتعلق بحياته وشخصيته وشعره . ومن هذه القضايا مثلا تصنيف الدكتور حسين عطوان لشعر ربيعه الرقى على أنه يشبه شعر الشعراء العذريين ، واتهام بعض الباحثين للخُرَيْمى بالشعوبية ، وادعاء بعض آخر منهم أن ديك الجن كان زنديقا ... إلخ . وقد حاولت بكل جهدى أن يكون معتمدى فى مناقشة هذه القضايا على المعلومات الوثيقة المتعلقة بحياة الشاعر وكذلك على شعره ، لا على الأقاويل التى يتناقلها الخلف عن السلف دون برهان .

وأملى أن أكون بهذه الدراسات قد ساهمتُ فى تجلية بعض الزوايا

التى لم تكن واضحة بما فيه الكفاية من العصر العباسى ، وتمحيص عدد من المسائل الفنية والسياسية والعَقَدية المهمة المتصلة بأولئك الشعراء الذين يضمهم الكتاب . والله من وراء القصد .

أبو الشمقمق

هو مروان بن محمد ، على اسم آخر خلفاء بنى أمية ، الذى كان أبو الشمقمق مولًى له . وهذا تطابق فى التسمية غريب . وهو بخارى الأصل . وكنيته أبو محمد (١) ، وقد ناداه بها بشار بن برد حين وفد عليه يطلب منه الإتاوة التى كان يفرضها عليه هو وبعض الشعراء الآخرين ، فأعطاه بشار مائة درهم قائلاً : « خذها يا أبا محمد » (٢) .

أما « أبو الشمقمق » فلقبه . وقد يُخْتَصَر إلى « شمقمق » فقط ، كما فعل بشار أيضا فى الرواية الماضية ، إذ نادى جاريته أن « هاتى مائة درهم لشمقمق » (٣) ، أو « الشمقمق » (بالألف واللام) كما يسمِّى الشاعرُ نفسَه فى شعره :

عاد الشمقمق فى الخسارهْ ... وصبا وحنَّ إلى زرارهْ (٤)

* * *

كنتَ المرزّق مرةً ... فاليوم قد صرتَ المرزَّق

لما جريتَ مع الضلا ... ل غرقتَ فى بحر الشمقمق

أو « شمقمقىّ » (بياء النسب) كما لقبه يزيد بن مزيد والى اليمن حين قصده الشاعر على رجله فمدحه بأبيات أنهاها بقوله :

ولقد أتيتك واثقا بك عالما ... أن لستَ تسمع مدحة بِنَسِيَّهْ

فقال يزيد : « صدقت يا شمقمقى . ولست أقبل مدحة بنسيئة . أعطوه ألف دينار » (٥) .

وقد ذُكِر فى تفسير « الشمقمق » أنه « الطويل » . وحاول جرونباوم أن يربط بينه وبين ملامح الشاعر فقال : « لعل هذا اللقب أطلق عليه

لأنه كان عظيم الأنف أهرت الشدقين (والشمقمق معناه الطويل) . وقد وُصِف بأنه كان منكر المنظر » (٦) . وهو ربط غير مفهوم ، إذ ما وجه العلاقة بين عظم الأنف وهَرَت الشدقين وبين « الشمقمق » ، التى تعنى « الطويل » ؟ يبدو لى ، والله أعلم ، أن أبا الشمقمق قد سُمِّى كذلك لطول كان فيه ولما عرف عنه من خفةٍ وتهوُّر فى الشتم أحمق ، إذ « الشمقمق » معناه : « الطويل الجسم ، والنشيط » . وأعتقد أنه نشاط الحماقة ومرح الجنون ، فـ « الشَّمَق » ، وهو جذر الكلمة ، يعنى « النشاط ومرح الجنون » (٧) . وقد تكون الكلمة ، كما قال خير الدين الزركلى ، تركية معناها « المدلَّل » (٨) . فإذا كان الأمر كذلك يكون قد لُحِظ فى هذه التسمية الحُرّيةُ التى كانت متاحةً لشاعرنا فى السخر بالآخرين وهجوهم ، فكأنه مدلَّلٌ يعبث بهم ويسلقهم بلسانه على هواه لا يُراجَع فى ذلك .

وإن صيغة « الشمقمق » ، بجرسها الموسيقى وتتابع الميم والقاف فيها مرتين على هذا النحو ، لتبعث فى حدّ ذاتها على الضحك والاستهزاء . ولابدَّ أن من لقبوه بهذا القلب قد لحظوا فيه لياقته صوتيا لشخصية الشاعر وشكله .

ولا يستبعد د. محمد سعد الشويعر أن يكون الشاعر هو الذى لقب نفسه بهذا اللقب (٩) . وهذا جائز جدا ، ويكون الشاعر قد أراد أن يستكمل آلة الفكاهة التى تروِّجه عند الناس ، فأطلق على نفسه هذا الاسم الذى يكفى أن يسمعه الناس ليضحكوا ، مثلما انه قد صوَّر نفسه وأحواله المعيشية وبيته تصويرًا مستهزئًا مضحكا .

وكان أبو الشمقمق فقيرًا ، ولم يَرُجْ عند الخلفاء ، وإن كان قد مدح بعض رجال الدولة وحصل منهم على مكافآت . كما أنه قد تكسب بهجائه لبعض الشعراء كبشار وسلم الخاسر ومروان بن أبى حفصة ، إذ كان كلما سمع أن أحدهم كسب شيئًا على مديحٍ له بادر إليه فيعطيه نصيبًا مما كسبه ، خوفا من لسانه السامّ .

ويصوِّر صاحب « العقد الفريد » فقر أبى الشمقمق بقوله : « وكان صعلوكا متبرمًا بالناس . وقد لزم بيته فى أطمار مسحوقة . وكان إذا استفتح عليه أحدٌ بابه خرج لينظر من فروج الباب ، فإن أعجبه الواقف فتح له وإلاّ سكت عنه . فأقبل إليه يوما بعض إخوانه الملطّفين له فدخل عليه ، فلما رأى سوء حاله قال له : أبشر أبا الشمقمق ، فإنا روينا فى بعض الحديث أن العارين فى الدنيا هم الكاسون يوم القيامة . فقال : إن صحَّ والله هذا الحديث كنت أنا فى ذلك اليوم بزّازا . ثم أنشأ يقول :

أنا فى حال تعالى الله ... ـه ربى أى حال
ليس لى شىء إذا قيل : ... « لمن ذا ؟ » قلت : ذا لى
ولقد أفلست حتى ... محت الشمس خيالى
ولقد أفلست حتى ... حلّ أكلى لعيالى » (١٠)

وقد ذكر القدماء أنه بصرى (١١) ، أما ابن خلكان فيصفه بـ « الشاعر المشهور الكوفى » (١٢) . ونسبه من كتبوا عنه فى العصر الحديث إلى البصرة ، كالدكتور شوقى ضيف ، الذى يجعله « بصرى المنشأ والمربى » (١٣) ، والدكتور عمر فروخ ، الذى يقول عنه إنه « نشأ فى البصرة ... ثم قدم إلى بغداد فى أول خلافة الرشيد » (١٤) ، ود. حسين

عطوان ، الذى يذكر أنه وُلد ونشأ بالبصرة (١٥) ، ود . محمد سعد الشويعر ، الذى ينقل أنه « من أهل البصرة » (١٦) .

ويشغل الشعرُ الذى جمعه المستشرق جرونباوم لأبى الشمقمق (فى كتابه « شعراء عباسيون ») سبعا وعشرين صفحة بالتعليقات . ومعظمه مقطوعات أو أقل من ذلك .

ومعظم شعر أبى الشمقمق فى وصف فقره وصفا ساخرا لا يخلو فى ذات الوقت من تألم ، وفى الهجاء . وهناك بعض المديح وبعض الأبيات الماجنة .

ومما صوَّر به فقره هذه الأبياتُ التالية التى اقترحها خيال عجيب فنان ذو تصورات لا تخطر على بال إنسان :

برزتُ من المنازل والقباب ... فلم يَعْسُر على أحدٍ حجابى
فمنزلىَ الفضاء ، وسقف بيتى ... سماء اللـه أو قطع السحاب
فأنت إذا أردت دخلت بيتى ... علىَّ مسلّما من غير باب
لأنى لم أجد مصراع باب ... يكون من السحاب إلى التراب
ولا انشقَّ الثرى عن عود تخت ... أؤمّل أن أشار به ببابى
ولا خفتُ الإباق على عبيدى ... ولا خفتُ الهلاك على دوابى
ولا حاسبتُ يوما قهرمانى ... محاسبةً فأُغْلِظ فى حسابى
وفى ذا راحةٌ وفراغ بال ... فدأب الدهر ذا أبدا ودابى

وهى تذكرنا بالمثل العامى القائل : « الشحاذ له نصف الدُّنيا » ، فقد جعل أبو الشمقمق منزله كل الفضاء ، وجعل سقف هذا المنزل هو السماء . ويمضى فى هذا الوهم فيقول إنه لا يحتجب عن الناس ، ومن يرد الدخول إلى بيته فلن يجد أحدًا يصده أو بابا يمنعه . ثم يرى أن عليه توضيح

السبب فى ذلك فيقول إنه لم يجد لبيته هذا العريض ذى السقف العالى الذى يبلغ السماء بابا يصلح له ، إذ من أين له بباب يصل بين السماء والأرض ، أو كما قال هو « يكون من السحاب إلى التراب » ؟ وكأن هذا غير كافٍ ، فيذكر سببا آخر كله تهكم وعبث ، إذ يقول إنه لا يخاف أن يهرب عبيده أو أن يسرق أحد دوابه ، ومن ثم فلا داعى للباب . ووجه التهكم والعبث فى هذا الكلام أن الشاعر لا يملك عبيدًا ولا عنده دواب ، فعدم خوفه على هؤلاء وأولئك راجع فى الحقيقة إلى ذلك ، لا إلى أن عنده ، كما يوحى كلامه ، عبيدا ودواب ولكنه لا يخشى هرب الأولين وهلاك الآخرين !

ثم يختم الأبيات مؤكدا أن عدم وجود بيت له أو ممتلكات قد كفل له راحة باله وفراغ قلبه من الهموم والقلق . والواقع أن الفقر فى جانب منه هو كذلك ، وأن الغِنى إن كان يكفل لصاحبه حياة ناعمةً فإنه فى ذات الوقت يجمع عليه القلق والانشغال بتثميره والخوف من فقده . ومع هذا فلا أحد ، إلا فى النادر الشاذ الذى لا يعوَّل ولا يقاس عليه ، يفضل الفقر على الغنى ، إذ إن حب المال بل « القناطير المقنطرة من الذهب والفضة » هو غريزة متأصلة فى أعماقنا . فأبو الشمقمق إذن يتعلَّل ويتصبَّر ويعزّى نفسه ، ولا يعبّر عن موقف مبدئى أصيل عنده ، وإلاَّ ففيم كان ارتحاله هنا وهناك مادحًا سائلاً ؟ وفيم كان هجاؤه لهذا وذاك مخوِّفا أو مغتاظًا حانقا ؟

وفى الأبيات كما أسلفت خيال عجيب ، فأبو الشمقمق يقول إن من يزوره يدخل عليه من غير باب ، وكأنه فعلاً داخلٌ منزلاً . ولكن كيف

يكون دخولٌ وليس ثمة جدران ولا باب ؟ وهو يعلل عدم وجود باب بأنه لم يجد بابا يصل ما بين السحاب إلى التراب ، وكأنه فعلاً قد بحث محاولاً شراء مثل هذا الباب لكن المشكلة أنه لم يعثر على باب بهذه المقاييس العجيبة ؟ ألم يسأل الشاعر نفسه عمَّن يستطيع أن يركِّب هذا الباب لو افترضنا المستحيل ووجده ، وكيف . لكن الشاعر بطبيعته لا يعنّى نفسه بهذه الأسئلة ، لأنه شاطح فى أجواء الخيال العجيبة .

وما أجمل مخادعة الشاعر لنفسه حين يقول : « عبيدى » و « « دوابّى » و « قهرمانى » و « حسابى » ، رغم أنه ليس له من ذلك كله شىء . فهو يريد أن يوهم نفسه ويوهمنا أنه يملك ذلك لكنه لا يخاف على فقده ، ومن ثم فإنه لا يهتم بتركيب باب لمنزله .

ومن خياله الفتان ، والبذىء أيضا ، فى تصويره لفقره أنه يتمنى لو استطاع أن يتخذ عضو ذكورته دابة يمتطيها ، ما دام قد حُرِم امتلاك الدواب الحقيقية . وهى شطحة خيال عجيبة . وقد حاولت أن أتخيل كيف يمكن أن يسافر أبو الشمقمق على هذا النحو فوجدت فى نهاية المطاف أن ركوب القدمين أهون وأسرع . قال :

الحمد لله شكرا ... أمشى ويركب غيرى
قد كنتُ آمل طرفا ... فصرت أرضى بعَيْر
ليت الـ ... (١٧) دوابٌ ... فكنت أركب ... (١٨)

لقد استبد الفقر بالشاعر ، فأخذ يتراجع أمامه من خط دفاع متقدم إلى الخط الذى يليه حتى أصبح يحارب وظهره ، كما يقول الإنجليز ، إلى الحائط . لقد كان يطمح أوَّلاً إلى أن يكون له « طرْف » أى جواد كريم ،

ثم تنازل ورضى بأن يكون له حمار . ثم لمَّا وجد أنه حتى هذا الطلب البسيط لم يتحقق لم يعد أمامه إلاَّ أن يفكِّر فى امتطاء هَنِه .

ويبدو أن أبا الشمقمق قد اقتنع بعد محاولاته الفاشلة أنه لن يستطيع اتخاذ ذلك مركبًا فعاد إلى استخدام رجله مطية ، ليعود فيتمنى أن تكون له مطيةٌ حقيقية . وهو يصوّر رجله ونعله تصويرا ساحرًا - إذ يقول عن نفسه إنه ليس نفسه فقط ، بل نفسه وزيادة . إنه نفْسُه ورَحْله . ذلك أن رجله جزء منه ، وفى رجله نعله ، ونعله هو رحله :

أترانـــى أرى مـــن الدهـــر يومًـــا ... لـــى فيـــه مطيـــة غيـــر رجْـــلى ؟
كلمـا كنـتُ فـى جميـع فقالـوا : ... « قرّبـوا للرحيـل » قربـت نعلـى
حينمـــا كنـــت لا أُخَلِّـــف رحـــلا ... مـــن رآنـــى فقـــد رآنـــى ورحلـــى

وهو يعود إلى هذه الصورة فى مدحة له فى يزيد بن مزيد أيام ولايته على اليمن ، إذ ذهب إليه فى حال رثة ، وكان قد سار على قدميه حتى هلك ، فقال :

رحـل المطـىَ إليـك طُـلاّبُ النـدى ... ورحلـتُ نحـوك ناقـةَ نَعْليّـةْ
إذ لم تكـن لـى يـا يزيـد مطيـةٌ ... فجعلتهـا لى فـى السّفـار مطيّـه
تحـدو أمـام اليعمـلات وتعتلى ... فـى السيـر تتـرك خلفها المهريّـه
من كـل طاويـة الحشـى مـزورّة ... قطعـا لكـل تنوفـة دَوّيّـه
تنتـاب أكبـر وائـل فـى بيتهـا ... حَسَبًـا وقبّـةُ مجدهـا مبنيـةْ

وقد قال أبو نواس مثل ذلك فى البيتين التاليين موجها الخطاب إلى الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى :

إليك أبا العبـاس من بين من مشى ... عليهـا امتطينـا الحضرميَّ المُلَسَّنـا
قلائص لم تعرف حنينا على طَـلا ... ولم تدر مـا قرع الفنيـق ولا الهنـا

كما فعل المتنبى الشىء نفسه فى قوله :

لا ناقتـــى تحمـــل الرديـــف ولا بالســـوط يـــوم الرهـــان أجهدهـــا
شراكهـــا كورهـــا ، ومثفرهـــا زمامهـــا ، والشســـوع مقودهـــا

إلاَّ أن فى أبيات أبى الشمقمق تهكما بنفسه وبفقره .

ولم يكن فقر أبى الشمقمق مقصورًا على عدم امتلاكه دابة ، بل كان فقرا شاملاً ، فقد تكرر تصويره لفراغ بيته من أى طعام حتى إن الفئران قد هجرته لعدم وجود ما يمكن أن تأكله أو تقرضه ، ولم يبق معه إلا سنّوره ، الذى يحاول أن يصبِّره ، ولكن السنور الجائع لا يصبر ، فيطلقه طالبا منه إذا ما سمع أن فى البيت خيرا أن يعود إليه ، فينطلق المسكين غير مصدّق بإطلاق سراحه :

ولقد قلتُ حيـن أحجرنـى البـر دُ كما تُحْجِر الكـلابُ ثُعالَـهْ
فـى مبيـت مـن الغضـارة قفـر ليـس فيـه إلا النـوى والنُّخَالَـهْ
عطَّلَتْـه الجِـرْذانُ مـن قلـة الخيـ ـر ، وطـار الذبـاب نحـو زُبالَـهْ
هاربـات منـه إلـى كـل خصـب حيـن لـم يرتجيـن منـه بُلالـه
وأقـام السِّنَّـوْر فيـه بشـرّ يسـأل اللـه ذا العـلا والجلالـه
أن يـرى فـارة ، فلـم يـر شيئـا ناكسًـا رأسـه لطـول الملالـه
قلـت لمَّـا رأيتُـه ناكـس الـرأ س كئيبـا يمشـى على شرّ حالـه
ويك ! صبرا ، فأنـت رأس السنانيـ ـر ، وعلّلتـه بحـسن مقالـه
قال: لا صبـر لى . وكيـف مُقامـى فـى قفـار كمثـل بيـد تَبَالَـهْ ؟
قـد رآنـى أنفـض الـرأس جوعًـا ثم أمشى فى البيـت مشى خيالـه
قلت : سر راشدا ، فخـار لـك اللـ ـه ، ولا تعْـدُ مذبـح البغّـاله
وإذا مـا سمعـتَ أنـا بخيـر مـن نعيـم فـى عيشـةٍ ومنالـه
فَأْتنـا راشـدا ، ولا تعدُوَنَّـا إن من جـاز رحلنـا فـى ملالـه
قـال لـى قولـةً : عليـك سـلامٌ غيـر لعـبٍ منـه ولا ببطالـه
ثـم ولّـى كأنـه شيـخ سـوء أخرجـوه مـن محبـس بكفالـهْ

وللشاعر قصيدة أخرى على نفس الوزن (الخفيف) تتناول الموضوع نفسه بتفصيلات متشابهة وعبارات فى بعض الأحيان هى هى أو جدّ مقاربة ، ورويها الراء . وأولها :

ولقد قلت حين أفقر بيتى ... من جراب الدقيق والفخارهْ

...

فأرى الفار قد تَجَنَّبْن بيتى ... عائذات منه بدار الإمارهْ
وأقام السِّنَّوْر فى البيت حولا ... ما يرى فى جوانب البيت فارهْ
ينغض الرأس منه من شدة الجو ... ع وعيش فيه أذى ومرارهْ
قلت لما رأيته ناكس الرأ ... س كئيبا ، فى الجوف منه حرارهْ :
ويك ! صبرا ، فأنت من خير سنو ... ر رأته عينای قطُّ بحارهْ
قال : لا صبر لى . وكيف مقامى ... وسط بيت فقر كجوف الحمارهْ ؟

... إلخ .

وفى قصيدة ثالثة يقص علينا كيف هاجمت الفئران زرافاتٍ زرافاتٍ بيته فى وضح النهار وصفعوا سنوره صفعةً ازرقّت منها عيناه :

نزل الفأر ببيتى ... رُفْقَةً من بعد رُفْقَهْ
حلقا بعد قطار ... نزلوا بالبيت صفقه
ابن عرس رأس بيتى ... صاعدا فى رأس نبقه
سيفه سيف حديد ... شقَّهُ من ضلع سلْقَه
جاءنا يطرق بالليـ ... ـل فدق الباب دقّه
دخل البيت جهارا ... لم يدع بالبيت فلْقه
وتترَّسْ برغيف ... وصفقْ نازُوَيه صفقه
صفقة أبصرتُ منها ... فى سواد العين زُرْقه
زرقة مثل ابن عرس ... أغبش تعلوه بُلْقَهْ

وهى حكاية يسبق الشاعر فيها أفلام الكرتون الخاصة بالأطفال ، حيث نجد

الفأر يستأسد على القط ويهاجمه ويفزعه ويعتدى عليه . ولا ينبغى أن يفوتنا فى الأبيات الثلاثة الأخيرة حرص الشاعر على ختم كل بيت بآخر كلمة فى البيت السابق ، كى يزيد النكهة الشعبية والحيوية والفكاهة فى قصته .

أما فى الأبيات الآتية فقد التف الفئران به فجردوه من ثيابه ، وطافوا حوله يزفونه راقصين مغنين مطبلين . وبعد قليل تحولوا إلى دبره يلعقونه متلذذين برائحته قائلين إنها تشبه رائحة الخمر بالمسك . ثم انهالوا على سنّوره فى النهاية صفعًا حتى أدموه :

أخـــذ الفـــأر برجلـــى ... جفلـــوا منهـــا خفافـى
وسراويـــــلات ســـــوءٍ ... وتبابيـــــنَ ضعـــــاف
درجـــوا حولـــى بزَفْـــن ... وبضـــرب بالدّقـــاف
قلـــت : مـــا هـــذا ؟ فقالـــوا : ... أنـــت مـــن أهـــل الزفـــاف
ساعـــةً مـــا ثـــم جـــازوا ... عـــن هـــواى فـــى خـــلاف
نقـــروا إستـــى وباتـــوا ... دون أهلـــى فـــى لحـــاف
لعقـــوا إستـــى وقالـــوا : ... ريـــح مســـك فـــى سُـــلاف
صفعـــوا نازُويَـــه حتـــى ... إستهلـــت بالرُعـــاف

ويقول جرونباوم تعليقا على هذا الشعر الشمقمقى : « لعل أبا الشمقمق هو أول من أدخل إلى الأدب العربى صورة السنور الذى هجر بيت صاحبه الفقير ، والفأر الذى يعبث فى البيت المقفر » (١٩) .

وفى إحدى أماديحه يهيب بممدوحه أن يدركه بشىء من جوده ، إذ :

إن العيـــــال تَرَكْتُهُـــــمْ ... بالمصـــر خُبْزُهـــم العُصـــارَهْ
وشرابهـــم بـــول الحمـــا ... ر مزاجـــه بـــول الحمـــاره

وفى أبيات أخرى يتحدث عن دخول العيد عليه وعلى أولاده وليس فى

البيت شيء يؤكل :

وقد دنا الفطر وصبياننا ... ليسوا بذى تمر ولا أرز

...

فلو رأوا خبزا على شاهق ... لأسرعوا للخبز بالجَمْزِ

ولو أطاقوا القفز ما فاتهم ... وكيف للجائع بالقفز ؟

وثمة بيتان يصوّران رثاثة فراشه :

لو قد رأيتَ سريرى كنت ترحمنى ... الله يعلم ما لى فيه تلبيسُ

والله يعلم ما لى فيه شائبة ... إلا الحصيرة والأطمار والريشُ

وهو يصوِّر ما تفعله البراغيث به . ولكن ما وصلنا من شعره فى هذا المجال جدّ قليل :

يا طول يومى وطول ليلته ... فلْيَهْنَ برغوثه بجَذْلته

قد عقدتْ بندها على جسدى ... واجتهدت فى اقتسام جملته

* * *

يا طول يومى وطول ليلتيه ... إن البراغيث قد عبثن بيه

فيهن برغوثة مجوّعةٌ ... قد عقدت كفُّها بفَقْحتيه

وفى البيت الآتى يصوّر معركة بينه وبين برغوث انجلت عن اللعين مجندلا مقتولا :

ألا رُبَّ برغوث تركتُ مجدّلا ... بأبيض ماضى الشفرتين صقيل (٢٠)

فهى كما ترى عيشة نكدة . ومثل هذه العيشة تدفع صاحبها دفعًا إلى أن يكون وقح الوجه ملحفا فى السؤال لا يبالى ، وإلا ضاع . فالمسألة مسألة بقاء أو هلاك :

صلابة الوجه سلاح الفتى ... ورقّة الوجه من الحرفة

من كان صُلْبا وجهه محكما ... فأنت منه الدهر فى طُرْفَة

وقد كان أبو الشمقمق يتخذ الهجاء البذىء سلاحًا لاستخلاص شىء مما كان يكسبه بعض زملاء المهنة من صنعة المديح . قال يهدد سَلْما الخاسر ليعطيه ما كان يسميه « الجزية » :

يـــا أم سلـم ، هـــداك اللـــه زورينـــا كيما ن... ك (٢١) فردا أو تيـ... نا (٢٢)
مـــا إذن ذكرتُـك إلا هـاج لى شبـق ومثـل ذكراك ، أمّ السَّلْم ، يشجينا

وهو هجاء خبيث ، إذ إن مقدماته لا تنبىء أبدًا بما هو آتٍ ، فليس يُعْقَل أن من يبدأ كلامه بهذه الدعوة : « هداك الله ! زورينا » ينتهى هذه النهاية المفحشة . ولكنه أبو الشمقمق !

وقال فى سلم مرة أخرى لنفس الغرض ، جاعلا هدف فحشه هذه المرة سلمًا نفسا لا أمه :

حدثونـــــى أن سلمـــــــــا يشتكـــى جـــارة ... رة (٢٣)
فهـــو لا يحســـــد شيئـــــا غيـــر ... ر فـــى است غيـره
واذا ســـــرك يومـــــــــا يا خليلـــى نيـــــل خيـــره
قـــم فمُـــرْ راهبـــك الأصـــــــلع يقـــرع بـــاب ديـــره

وواضح ماذا يقصد بـ « الراهب الأصلع » و « الدير » . قبحه الله !

وقال يهجو بشارا ليبتزَّ منه مالا :

هلّلينـــــــه هلّلينـــــــه طعـــن فتّـــاةٍ لتينـــهْ
إن بشـــار بـــن بـــــرد تيسٌ اعمـــى فـــى سفينـــه

وفى الشطرة الثانية من البيت الأول إيحاء جنسى بذىء . وتمضى القصة فتقول إن بشارا ، بعد أن أمر المهدىُّ بضربه سبعين سوطا فى سفينته ، قال وقد أشرف على الموت : ليت عين أبى الشمقمق ترانى حيث يقول :

إن بشـــار بـــن بـــــرد تيـــس اعمـــى فـــى سفينـــه (٢٤)

ويبدو أن بشارا قد ضاق به ففكَّر ألا يعطيه شيئًا وظن أنه يستطيع أن

يرده بالهجاء ، فصعقه أبو الشمقمق بهذين البيتين :

إنـى إذا مـا شاعـر هجانيّـة ... ولـجَّ فـى القـول لـه لسانيّـة

أدخلتـه فى ... (٢٥) امّـه علانيـه ... بشـار يا بشـار ، يا ابن الزانيه

فخضع بشار ودفع المطلوب .

على أن وقاحة الوجه وبذاءة اللسان لم تكونا مقصورتين على إخوان الحرفة ، بل شملتا كل من ردّ الشاعر دون أن ينيله ما كان يؤمله منه . قال فى هجاء واحد من هؤلاء :

ما كنـت أحسب أن الخبـز فاكهـة ... حتـى نزلتُ على أوفى بن مَنْصورِ

يَبْس اليديـن فمـا يسطيـع بسطهمـا ... كـأن كفيـه شُـدّا بالمسامير

الحابـس الـروث فـى أعفـاج بغلته ... خوفا على الحَبّ من لقط العصافير

فإذا كان قد بلغ من بخل هذا المهجو أن يفعل ذلك بالروث الذى فى أمعاء دابته ، فهل يمكن أن يرجو نواله راجٍ ؟

وقال فى منصور بن زياد ، وكان قد قصده فأعطاه عشرة دراهم ، ولكن ابنه لما علم بالأمر خاف العاقبة فأرسل إلى الشاعر مائة درهم . لكن لم تمسح حسنة الابن سيئة الأب ، فتلك عند أبى الشمقمق نقرة ، وهذه نقرة أخرى :

لـولا ابـن منصـور وإفضالُـهُ ... سلحتُ فـى لحيـة منصـورِ (٢٦)

وقال فى هجاء معبد :

يا مـن يؤمّـل معبـدا ... مـن بيـن أهـل زمانـه

لـو أن فـى استـك درهمـا ... لاستلّـه بلسانـه

ويا له من هجاء ! إنه إذا كانت دناءة معبد وقذارة ذوقه قد بلغتا هذا الدرك الأسفل فكيف يطمع إنسان فى كرمه ونواله ؟

على أن له هجاءً يخلو من هذه البذاءات ، مثل قوله يهجو سعيد بن سلم :

هيهات ! تضرب فى حديدٍ بارد ... إن كنت تطمع فى نوال سعيد
والله لو ملك البحارَ بأسرها ... وأتاه سلمٌ فى زمان مُدُودِ
يبغيه منها شربة لطهوره ... لأبَى وقال : تيمَّمنْ بصعيد

وقوله عن ناس مجهولين :

الصدق فى أفواههم علقمٌ ... والإفْك مثل العَسَل المَاذِى
وكلهم فى بخله صادق ... وفى النَّدَى ليس بأستاذ

وقوله فى هجاء معاصريه جميعا :

ذهب المال فلا مالوا ... ل وقد فُجِعْنَا بالعربْ
إلا بقايا أصبحوا ... بالمصر من قشر القصب
بالقول بذّوا حاتما ... والعقل ريح فى القِرَبْ

ويظهر لى أن تشبيه من لا فائدة منهم تُرْجَى بقشر القصب هو تشبيه شمقمقى أصيل..

أما الأبيات الأربعة التالية فتجمع بين خلوها من البذاءة ورقىّ تهكمها الذى فى البيتين الأخيرين ، وهى فى عمر بن مساور الكاتب :

أنا بالأهواز جارٌ لعُمَرْ ... لعظيم زعموا ضخم الخَطَرْ
لا يُرى منه علينا أثر ... لا يكون الجود إلاّ بأثر
إن تكن وُرْقُك عنا عجزت ... يا أبا حفص فجُدْ لى بحجر
يكسر الجَوْزَ به صبيانُنا ... وإذا ما حضر اللوز كُسرْ

ووجه التهكم أنه يسأل ابن مساور حجرا ، مما يوحى بأنه حتى الحجارة يحتجنها ابن مساور هذا ، وأن من يريد منه حجرا فعليه أن يسأله إياه ويلح فى السؤال . وفضلاً عن هذا فإن السبب الذى ساقه لسؤاله إياه حجرا

هو سبب مضحك ، إذ من أين للفقير الذى كأبى الشمقمق بالجوز واللوز ، وهو الذى يقول إن أولاده إذا رأوا الخبز جمزوا له وقفزوا ؟

كما أن له هجاءً ليس بينه ، فيما يبدو ، وبين فشله فى الحصول على ما كان يرجّى من نوالٍ ارتباط . وذلك مثل قوله يهجو الشاعر مروان بن أبى حفصة :

لحيـــة مـــروان تقـــى عنبـــرا ... خالـط مسكـا خالصـا أذْفـرا
فمـــا يقيمـــان بهـــا ساعـــة ... إلا يعـــودان جميعـــا خَـــرَا

وقوله فى هجاء داود بن بكر :

ولـــه لحيـــة تيـــس ... ولـــه منقـــار نَسْـــرِ
ولـــه نكهـــة ليـــث ... خالطـــت نكهـــة صَقْـــرِ

ولقد تأصل الهجاء ، فيما يظهر ، فى طبع أبى الشمقمق حتى إنه إذا مدح إنسانا هجا بإزائه فى نفس أبيات المديح شخصا آخر . قال يمدح يزيد بن مزيد الشيبانى ويهجو فى نفس الوقت يزيد بن حاتم المهلّبى :

لشتّان ما بيـــن اليزيديـن فـى النـدى ... إذا عُدّ فى النـاس المكارمُ والمجدُ
يزيـــد بنـى شيبـان أكـرم منهمـــا ... وإن غضبت قيـس بن عيلان والأَزْدُ
فتـــى لم تلـده مـن رعـين قبيلـــة ... ولا لَخْـمُ ينميه ولم ينمـــه نهـــد
ولكـــن نمتـــه الغُـــرُّ مـــن آل وائـــل ... وبرَّةُ تنميـــه ومـــن بعدهـــا هنْـــدُ

وقال فى مالك الخزاعى وسعيد بن سلم :

قـــال النـــاس : زُرْ سعيـد بن سَلْـم ... قلـت للنـاس : لا أزور سعيـــدا
وأميـــرى فتـــى خزاعـــــة بالبصـــ ... ـرة قـــد عمَّهـــا سماحـا وجـــودا
ولنعـــم الفتـــى سعيـــدٌ ، ولكـــنْ ... مالـــكٌ أكرم البريـــة عـــودا (٢٧)

وقال فى الاثنين أنفسهما مرة أخرى :

قـــد مـــررنا بمالـــك فوجدنـــا ... ه كريمـــا إلى المكـــارم ينمـــى

مـــا يبالى أتـــاه ضيـــف مُخـــفٌّ ... أم أتتـــه يأجـــوج من خلف ردْم
فانتهينـــا إلى سعيـــد بـــن سلـــم ... فإذا ضيفـــه مـــن الجـــوع يرْمـــى
وإذا خبـــزه عليـــه « سيكفيـــ ... ـكهم الله ما بـــدا ضـــوء نجـــم »
وإذا خاتـــم النبـــى سليمـــا ... ن بـــن داود قـــد عـــلاه بختـــم
فارتحلنـــا مـــن عنـــد هـــذا بحمـــدٍ ... وارتحلنـــا مـــن عنـــد هـــذا بـــذمّ

وإن الصورة التى صوَّر بها كثرة الضيوف فى الشطرة الثانية من البيت الثانى هى صورة طازجة منعشة لا أتذكر أنى قابلت مثلها فى شعر المديح . كما أن صورة الخبز الذى كتبت عليه العبارة القرآنية هى صورة تهكمية مؤلمة . ويزيدها إيلامًا أن أبا الشمقمق لا يكتفى بالعبارة القرآنية ، بل يضيف إليه ظرفا تأبيديا ليبلغ ببخل ابن سلم الغاية القصوى التى لا تسمح ولا ببصيص خافت من الأمل فى خبزه ، ودع عنك عطاءه .

مرة واحدة فيما وصلنا من شعر أبى الشمقمق وجدنا له مديحًا خالصًا . وهى الأبيات التى مدح بها يزيد بن مزيد أثناء ولايته على اليمن ، والتى استفتحها بوصف رحلته إليه ممتطيا نعله التى سبقت كل المطايا ، وأنهاها بهذا البيت :

ولقـــد أتيتـــك واثقًـــا بـــك عالمًا ... أن لســـت تسمـــع مدحـــة بنسيَـــةْ

فما كان من ابن مزيد إلاَّ أن امَّن على كلامه وأعطاه ألف دينار كما سبق القول .

وله فى المجون البذىء هذه الأبيات :

هتفـــــتْ أم حُصَيْـــــن ... ثـــم قالـــت : مـــن ... ـــيكْ ؟
فتحـــــت ... رحيبـــــا ... مثـــل صحـــــراء عتيـــك
فيـــــه وز ، فيـــــه بـــــطٌّ ... فيـــــه دُرَاجٌ وديـــــكْ

وهى أبيات ، رغم مجونها وفحشها ، تشى بلهفة الشاعر إلى الطعام ، وبالذات الألوان الدسمة منه . فهو حتى فى هذا الموضع يذكر الوز والبط والدراج والديك . يا لأبى الشمقمق !

ومن مجونه أنه سمع أبا العتاهية ينشد فى حبيبته عتبة :

مـــددتُ كفـــىّ نحوكـم سائـــلاً ... مـــاذا تـــرون علـى السائـل ؟

فأخذ الكلام لنفسه وردّ بهذا البيت المقذع :

تـــردّ فـــى كفـــك ذا فَيْشَـــةٍ ... تشفى جَوَى فى ... تك من داخلِ (٢٨)

والآن ما السمات الفنية التى يتسم بها شعر أبى الشمقمق ؟

لقد لاحظنا من قبل أن نَفَسه الشعرى قصير ، فإن معظم شعره كما قلنا هو مقطوعات أو دون ذلك .

وشعره سهل جدا ، إذ الألفاظ الغريبة فيه قليلة ، والروح الشعبية من الوضوح فيه بمكانٍ . وقد بلغت الشعبية فى شعره أن رأيناه يسكّن بعض الكلمات فى وسط الجملة ، فِعْل اللهجة العامية لغة الشعب :

دخـــل البيـــت جهـــارا ... لم يـــدع بالبيـــت فلْقَـــةْ

وتَـــرَسْ برغيـــف ... وصَفَـــقْ نازورَيـــه صَفْقَـــةْ

وتكرر وقوعه فى الضرورات الشعرية تكررا يأخذ الانتباه فى مثل هذا الشعر القليل نسبيا ، فهو يجعل همزة القطع وصلا :

إذا رُزق العبـــاد فـــإن عيـــسى ... لـــه رزق مـــن استـــاه العبـــادِ

* * *

إن بشـــار بـــن بـــردٍ ... تيـــسٌ اعمـــى فـــى سفينـــةْ

كما يقلب همزة الوصل قطعا :

نقـــروا إستـــى وباتـــوا ... دون أهلـــى فـــى لحـــاف

لعقـــوا إستـــى وقالـــوا : ... ريـــح مســـك بســـلاف

صفعـــوا نازْويـــــه حتـــى إستلهـــــت بالرُعـــاف

* * *

ألفـــتْ إستُـــه الفياشـــل حتـــى ما تشكـــىَّ للطعـــن بالعُكَّـــازِ

وقد سهَّل تشديد باء « دوابّ » مرتين :

ولا انشـــق الثـــرى عـــن عـــود تخت أوّمّـــل أن أشـــار بـــه يبابـــى

ولا خفـــتُ الإبـــاق علـــى عبيـــدى ولا خفـــتُ الهـــلاك علـــى دوابـــى

* * *

ليـــــت الأُيُـــــور دوابٌ فكنـــــتُ أركـــــب أيْـــــرى

كما حذفت همزة « قراءة » فى قوله :

أو جـــرَّة تهـــدر ملآنـــةً تحكـــى قـــراة القـــسّ فـــى الدَّيْر

وفى البيت التالى نجده قد حذف ياء « الموالى » فى غير موضع الحذف :

ذهـــب المـــوال فلا مـــوا لِ ، وقـــد فُجعنـــا بالعَـــرَبْ

وأحسب أن استخدامه للفعل « أفلس » مرتين فى البيتين التاليين متعديا بمعنى « أذهب ماله » هو استخدام غير صحيح :

الجـــود أفلسهـــم وأذهـــب مالهـــم فاليوم إن رامـــوا السماحـــة يبخلوا

الجـــود أفلسهـــم وغيَّـــر حالهـــم واليوم إن سُئلـــوا النـــوال تمحّلوا

إن صيغـــة « أفعـــل » هنـــا هـــى للصيرورة (أى صار بلا فلوس) لا للتعدى .

ولعلَّ مرد استخدامه للفظة « الصَّبَارة » فى البيت التالى :

ضَجُّـــوا فقلـــت : تصبّـــروا فالنجـــح يُقْـــرَنُ بالصَّبَـــارهْ

هو ذلك التساهل فى استخدام اللغة . وأغلب الظن أن هذا هو ما أشار إليه المبرد بقوله إنه ربما لحن (٢٩) ، إذ إن « الصَّبَارة » هى أن يكفل

شخص شخصا آخر ، أو هى الحجارة الملساء ، وليست « الصبر » كما فى بيت أبى الشمقمق .

وتكثر فى شعر أبى الشمقمق ألفاظ الطعام والشراب ، وبخاصة الخبز ، كثرة ملحوظة :

ذهب المـوال فـلا مـوا ... ل ، وقـد فُجِعْنَـا بالعـربْ
إلا بقايـا أصبحـوا ... بالمصـر مـن قشـر القَصَبْ

* * *

شرابـك فـى السراب إذا عطشنـا ... وخبـزك عنـد منقطـع التراب
رأيـت الخبـز عـزّ لديـك حتـى ... حسبتُ الخبـز فـى جوّ السحاب

* * *

إن تكـن وُرّقْـك عنـا عجـزت ... يا أبـا حفص فَجُدْ لـى بحجـرْ
يكسـر الجـوزَ بـه صبيانُنـا ... وإذا ما حضـر اللـوز كُسِـرْ

* * *

ما كنتُ أحسب أن الخبـز فاكهـة ... حتى نزلت على أوفـى بـن منصـور

* * *

خبـز المعلّـم والبقـال متفـق ... واللـون مختلـف والطعـم والصُّوَرُ

* * *

ولقـد قلـت حيـن أقفـر بيتـى ... مـن جـراب الدقيـق والفخّـاره

* * *

إن العيـال تركتهـم ... بالمصـر خُبْزُهُـم العُصَـارهْ
وشرابهـم بـول الحمـا ... ر مزاجـه بـول الحمـاره

* * *

مـا جمـع النـاس لدنياهمـو ... أنفـع فـى البيـت من الخُبْزِ
والخبـز باللحـم إذا نلتَـه ... فأنـت فى أمـن مـن التَّـرْزِ

...

كانـــت لهـــم عنـــز فـــأودى بهـــا وأجدبـــوا مـــن لبـــن العنـــز
فلـــو رأوا خبـــزا علـــى شاهـــق لأسرعـــوا للخبـــز بالجَمْـــز

* * *

ولقـــــد أفسلـــــتُ حتـــــى حـــــلَّ أكلـــــى لعيالـــــى

* * *

منـــاى مـــن دنيـــاى هاتى التـــى تسلـــح بالـــرزق على غيـــرى
الجـــردق الحاضـــر مـــع بُضْعـــة مـن ماعـــز رَخْـــصٍ ومـــن طَيْـــر
وجـــرَّة تهـــدر ملآنـــة تحكـــى قـــراءَ القسّ فـــى الدَيْـــر

* * *

أسمـــج النـــاس جميعـــا كلهـــم كذبـــاب ساقـــط فـــى مَرَقَهْ

* * *

وإذا خبـــزه عليـــه « سيكفيـــ ـكهم اللـــه ما بـدا ضـوء نجم »

* * *

هلليـــــــه هلليـــــــه طعـــن قتـــــاة لتينـــــهْ

ولا غرو فى هذا ، فقد كان شاعرنا فقيرا ، وقد شكا الجوع كثيرا فى شعره . وقديمًا قيل : « الجوعان يحلم بسوق العيش » ، ولا فرق بين أحلام النوم وأحلام اليقظة .

كما تكثر أسماء الحيوانات والطيور والحشرات كثرة غير عادية فى شعر أبى الشمقمق ، وكلها فى سياق الهزل والهجاء والبذاءة :

ومـــا روّعْتنـــا لتـــذبَّ عنـــا ولكـــن خِفْـــتَ مرزئـــة الذُّبَـــاب

* * *

يـــا طـــول يومـى وطـــول ليلتـــه فَلْيَهْـــنَ برغوثـــه بجَذْلَتـــه

* * *

فإلى اللـــه أشتكـــى وإلى الفضـــ ـل ، فقد أصبحتْ بُزاتـى دَجاجا

* * *

بأصلع مثـــل الجـــرو جَهْم غضنفـــرٍ معـــاودِ طعـــن جائـفٍ وسِنـــادِ

* * *

ولـــــه لحيـــــة تيـــــسٍ ولـــــه منقـــــار نَسْـــــرِ
ولـــــه نكهـــــة ليـــــث خالطـــــت نكهـــــة صَقْـــــرِ

* * *

صـــــرتُ كالخفـــــاش لا أُبـــــ ـــــصر إلا فـــــى النهـــــار

* * *

قـــــد كنـــــتُ آمـــــل طرقًـــــا فصـــــرت أرضـــــى بغَيْـــــرِ

* * *

الحابـــس الـــروث فـــى أعفاج بغلتـــه خوفا على الحَبّ من لقط العصافير

* * *

الطريـــقَ الطريـــقَ . جاءكـم الأحـ ـمق رأس الإتـــان والقـــذرَهْ
وابـــن عـــم الحمار في صورة الفيـ ـل ، وخـــال الجامـوس والبقـرهْ

* * *

فـأرى الفـأر قـــد تجنَّبْـن بيتـــى عائذاتٍ منـــه بـدار الإمـــارهْ
ودعـا بالرحيـــل ذِبّـان بيتـــى بيـن مقصوصـــةٍ إلـــى طيـــاره
وأقـــام السنـــور فـى البيـت حـولا مـا يـرى فى جوانب البيت فـاره

* * *

قـال : لا صبـر لى . وكيـف مقامـى وسط بيت قفـر كجوف الحمارهْ ؟
وإذا العنكبـــوت تغـــزل فـــى دَ نّـــى وحُبّـــى والكـــوز والقَرْقـــاره
وأصـاب الجحـــام كلبـــى فأمســى بيـــن كلـــب وكلبـــةٍ عيّـــاره

* * *

وشرابهـــم بـــــول الحمـــــا ر مزاجـــــه بـــــول الحمـــــاره

* * *

ذاك أن الدهـــــر عاداهمـــــو عـــــداوة الشاهيـــــن للـــــوزّ
كانـــــت لهـــــم عنـــز فـأودى بهـا وأجدبوا مـــن لبـــن العَنْـــز

* * *

ألا قُـــولا لشـــرّان المخـــازى ووجـه الكلب والتيس الضَـروط :
لـه بطـــن يضـــل الفيـــل فيـــه ودبر مثـــل راقـــود النَشوط (٣٠)

* * *

أخـــذ الفـــأر برجلـــى جفلـــوا منهـــا خفافـــى

* * *

نـــزل الفـــأر بيتـــى رُفْقَـــةً مـــن بعـــد رفقـــة

...

ابـــن عـــرس رأســـى بيتـــى صاعـــدا فـــى رأس نيقـــه

* * *

فيـــه وزّ ، فيـــه بـــطٌّ فيـــه دُرّاجٌ وديـــكْ

* * *

ألا رُبّ برغـــوث تركـــتُ مجـــدّلا بأبيض ماضى الشفرتيـــن صقيـــل

* * *

يا قـــوم ، إنـــى رأيت الفيل بعدكمو فبـــارك اللـــه لى فى رؤيـــة الفيل
لما بصـــرت بـ ... (٣١) الفيل أذهلنى عـــن الحميـــر وعن تلك الأباطيـــل

* * *

يـــروح ويغـــدو كـ ... (٣٢) الحمـــار ويرجـــع صفـــرًا إلـى أهلـــه

* * *

يوســـف الشاعـــر فَـــرْخٌ وجـــدوه بالأبْلَـــة

* * *

ولقـــد قلـــت حيـــن أحجرنـــى البـــر د كمـــا تُحْجِـــرُ الكـــلابُ ثُعالَـــةْ

...

عطّلتـــه الجـــرذان من قلـــة الخيـــر ، وطـــار الذبـــان نحـــو زُبالَـــةْ

...

وأقـــام السَّنَّـــوْر فيـــه بشـــرٍّ يســـأل اللـــه ذا العـــلا والجلاله

أن يـرى فـارة فلـم يـــر شينـــ ناكسًـا رأســه لطـــول الملالـــه

* * *

إن بشـــــــار بـــن بـــــرد تيـــنٌ اعمـــى فـــى سفينـــه

* * *

رحـــل المطـــىَّ إليـك طلاّبُ النـدى ورحلت نحـوك ناقـــةً نعليَّـــهْ

* * *

لا كمثـــل الأصـــم حـادثـة اللـــوْ م شبيـــــه الكُلَيْبَـــةِ القَلَطِيَّـــهْ

...

وتولـى كأنـــــه ... (٣٣) بغـــــل غاب فى ... (٣٤) بغلـة مصريَّـهْ

* * *

يـا طـــول يومـــى وطـول ليلتيَـه ! إن البراغيث قـد عبثـــن بِيَـــهْ

* * *

يا رازق الكلـــب والخنزيـر فى سعـةٍ والطيـر والوحش فى يهمـاء دويَّـهْ

* * *

إن ريـــاح اللـــــؤم مـــن شُحّـــه لا يطمـــع الخنزيـــر فى سَلْحـه

* * *

وبغلـــة شهبـــاء طيـــــارةٌ تطـــوى لى البلـــدان فـــى السَّيْـر

...

كـــم مـــن فتـــى تبصـــر ذاهيـنـةٍ أبلـد فى المجلـس مـن عيْـر

* * *

ذاك خيـــر مـــن التـــردد فـــى بغـــــداد تنزو بـــى البغـــال النـــوازى

....

كـــل شيـــخ تخالـه حيـن يبـدو فـــوق برذونـه كشخـص حجـازى

...

ليـــث غـــاب بدبـره حيـــن يلْقـى وجبـــان فى الحرب يوم البـــراز

* * *

أسمـــج النـــاس جميعـــا كلّهـــم كذبـــاب ساقـــط فـــى مرقـــة

كما يتسم شعر أبى الشمقمق بكمية كبيرة من البذاءة والفحش . وتأتى « الأيور » و « الأستاه » على رأس الألفاظ البذيئة . وقد تقدمت أمثلة كثيرة على هذا .

على أنَّ ما يلفت الانتباه ويثير الاستغراب أن أبا الشمقمق قد كرر الإشارة إلى تناول الطعام أو ما هو قريب من تناول الطعام من الأستاه ، سواء كان المتناول من البشر أو من العجماوات :

إذا رُزق العبـــــاد فـــإن عيـــسى لـــــه رزق مـــن استـــاه العبـاد

* * *

الحابس الروث فى أعفاج (٣٥) بغلته خوفـا على الحَبّ من لقط العصافيرِ

* * *

لعقـــوا (٣٦) إسْتـــى وقالـــــوا : ريـــــح مســـــك بسْـــــلاف

* * *

لـــــو أن فـــــى استـــك درهمـــــا لاستلّـــــــــه بلسانـــــــــه

* * *

منـــــاى مـــن دنيـــاى هاتـــى التـــى تسلـــح بالـــرزق مـــلـــى غيـــرى

بقيت فى شعر أبى الشمقمق قضية أثارها بعض من كتبوا عنه ، وهى أن هناك مشابهاتٍ بين شعره وشعر معاصره أبى فرعون الساسى ، الذى صوَّر هو أيضا فقرة ورثاثة بيته ومعاناة أولاده ، كما فى الشواهد التالية :

أنـا أبـو فرعـون فاعـرف كنيتـى حلّ أبو عمرة (٣٧) وسط حجرتى

وحـــلّ نســـج العنكبـوت بُرْمَتـــى أعْشَبَ تنّـورى ، وقلّـتْ حنطتـى

* * *

وحالـــف القمـــلُ زمانـــا لحيتـــى وضعفـت من الهـــزال صحتـــى

* * *

رأيـــت فـــى النـــوم بَخْتـــى ... فـــــى زى شيـــــخ أرتّ
أعمـــى أصـــمُّ ضئيـــلا ... أبـــا بنيـــن وبنـــتِ
فقلـــت : حُيِّيـــتَ رزقـــى ... فقـــال : رزقـــك باستـــى
فكيـــف لـــى بـــدواء ... يليـــن لـى بطـــن بَخْـــت ؟

* * *

يا قاضـــى البصـــرة ذا الوجه الأغـرّ ... إليـك أشكـــو ما مضى وما غَبَـرْ
عفـا زمـانٌ ، وشتـاءٌ قـد حضـــر ... إن أبا عمـــرة فـــى بيتـى انجحر
يضـــرب الدفّ ، وإن شـــاء زَمَـــرْ ... فاطـــرده عنـــى بدقيـــقٍ يُنْتَظَـــرْ

* * *

وصبيـــةٍ مثـــل فـــراخ الـــذَّرّ ... سود الوجـود كســـواد القِـــدْرِ
جـــاء الشتـــاء وهمـــو بشـــرّ ... بغيـــر قُمْـــصٍ وبغيـــر أُزْرِ
وبعضهـــم ملتصـــق بصـــدرى ... وبعضهـــم منجحـــر بحجـــرى
أسبقهـــم إلى أصـــول الجُـــدْرِ ... هـــذا جميـــع قصتـى وأمـرى
فارحـــم عيالـــى وتـــولَّ أمـــرى ... كنَّيْـتُ نفسـى كنيـــة فـى شعرى

أنـا أبـو الفقـــر وأم الفقـــر (٣٨)

والسؤال المطروح هو : أى الشاعرين هو الذى أثر فى الآخر ؟

إن المرحوم الأستاذ طاهر أبو فاشا يرى أن أبا فرعون الساسى هو الذى كان يحتذى خُطا أبى الشمقمق (٣٩) ، على حين أن د. محمد سعد الشويعر يقول بعكس ذلك . وهو يبنى حكمه على أساس أن الساسى متقدم فى السن على أبى الشمقمق ، والمتأخر يأخذ عن المتقدم ، وأن أبا الشمقمق قد توسَّع فـى وصف الفقر وما إليه فى شعره أكثر مما فعل أبو فرعون الساسى . وإنما يكون التوسع للأَحق (٤٠) .

والحق أن الشاعرين كانا متعاصرين ، وإن كنا لا نستطيع أن نعرف من منهما أكبر من الآخر . وأغلب الظن أن كلا منهما كان يسمع بالثانى

وشعره ، بل ربما كان يعرف أحدهما الآخر عن قرب ، فقد كان أبو الشمقمق بصريًّا ، وورد الساسى البصرة ليسأل الناس بها (٤١) ، وإن لم ترد روايات عن تصاحبهما أو تعارفهما . وفى هذه الظروف يصعب أن نعرف من الذى تأثر بالآخر . وكل ما نستطيع قوله هو أنهما اتفقا فى السجايا الشخصية والظروف المعيشية . والأرجح أن كلا منهما كان يسمع بما ينظمه الآخر من شعر فيتأثر هذا بذاك وذاك بهذا .

أمَّا قول د. الشويعر إن أبا الشمقمق قد توسَّع فى وصف الفقر وما يتصل به أكثر مما صنع الساسى فإن النصوص التى وقعت فى أيدينا للشاعرين لا تعضّده .

وقد درس د. حسين عطوان فى كتابه « الشعراء الصعاليك فى العصر العباسى الأول » هذين الشاعرين وغيرهما على أنهم يمثلون حركة عامة فى ذلك العصر ، ولم يهتم بإثبات السبق لأحد هذين الشاعرين على الآخر . وحسنا فعل ، فإنَّ غياب المعطيات الخاصة بحياتهما وثقافتهما وطبيعة الصلة بينهما ، إذا صحَّ ما افترضتُه من ذلك ، لا يساعد على الحكم فى هذه المسألة .

الهوامش

١- تجد ترجمة للشاعر فى « معجم الشعراء » للمرزبانى / تحقيق عبد الستار فراج / عيسى البابى الحلبى / ١٩٦٠ / ٣١٩ ، و « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى / مطبعة السعادة / القاهرة / ١٩٣١ / ١٣ / ١٤٦ ، و « وفيات الأعيان » لابن خلكان / تحقيق د . إحسان عباس / دار صادر / بيروت / ٣ / ٣٣٥ ، و « العصر العباسى الأول » للدكتور شوقى ضيف / دار المعارف بمصر / ط ٦ / ٤٣٦ وما بعدها ، و « تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية » لعمر فروخ / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م / ١٨٠ - ١٨١ ، و « الشعراء الصعاليك فى العصر العباسى الأول » للدكتور حسين عطوان / دار الطليعة / بيروت / ط ٢ / ١٩٨١ م / ١١٧ ومابعدها .

٢- الخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / ١٣ / ١٤٦ .

٣- نفس المرجع والمجلد والصفحة .

٤- أىّ شعر أورده لأبى الشمقمق فهو ممّا جمعه غوستاف فون غرونباوم فى كتابه « شعراء عباسيون » ، فى الفصل الأخير منه .

٥- ابن خلكان / وفيات الأعيان / ٦ / ٣٣٥ .

٦- شعراء عباسيون / ترجمة محمد يوسف نجم / دار مكتبة الحياة / بيروت / ١٢١ .

٧- انظر مثلا « القاموس المحيط » و « المعجم الوسيط » / مادة « شمقمق » .

٨- انظر كتابه « الأعلام » / مادة « مروان بن محمد » .

٩- انظر كتابه « أبو الشقمق شاعر الفقر والسخرية - دراسة وتحليل لحياته وشعره » / ط ٢ / دار العلوم / الرياض / ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م / ٧ .

١٠- ابن عبد ربه / العقد الفريد / المطبعة العامرة الشرفية / القاهرة / ١٣٠٥هـ / ٣ / ٢٦٥ .

١١- انظر مثلا الجاحظ / الحيوان / تحقيق عبد السلام هارون / القاهرة / ١٩٣٨ م / ١ / ١٠٦ ، والخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / ١٣ / ١٤٦ .

١٢- وفيات الأعيان / ٦ / ٣٣٥ .

١٣- العصر العباسى الأول / ٤٣٦ .

١٤- تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية / ١٨٠ .

١٥- انظر كتابه « الشعراء الصعاليك فى العصر العباسى الأول » / ١١٨ .

١٦- أبو الشمقمق شاعر الفقر والسخرية / ١٦ .

١٧- جمع كلمة عارية على وزن « فُعُول » .

١٨- مفرد الجمع السابق مضافًا إلى ياء المتكلم .

١٩- شعراء عباسيون / ١٢٦ . وانظر أيضا مادة « أبو الشمقمق » فى « The Encyclopaedia of Islam » .

٢٠- يرى د . محمد سعد الشويعر أن البرغوث فى هذا البيت قد يكون رمزا لشىء لا يريد الشاعر الإفصاح عنه . وهو يربط هذا بما عُرف ، فيما يقول ، عن أبى الشمقمق من الوفاء لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية (انظر كتابه « أبو الشمقمق شاعر الفقر والسخرية » / ١٣١) . وهو تفسير ليس فى البيت ما يسوّغه ، إذ ما العلاقة بين البرغوث ومروان بن محمد أو غيره ؟ وما معنى أنه جندل ذلك البرغوث ؟ لم يوضح د . الشويعر شيئا من هذا .

٢١- فعل مضارع ثلاثى أجوف على وزن « تفعل » بذىء المعنى .

٢٢- صيغة « تَفْعَلى » من الفعل السابق .

٢٣- كلمة عارية مضافة إلى هاء الغائب .

٢٤- وفيات الأعيان / ١ / ٤٢٥ - ٤٢٦ .

٢٥- اسم من الأسماء العشرة التى تبدأ بهمزة وصل .

٢٦- انظر الجهشيارى / الوزراء والكتاب / تحقيق مصطفى السقا وآخرين / مطبعة مصطفى البابى الحلبى / القاهرة / ١٩٣٨ م / ٢٢٤ .

٢٧- رأينا قبل ذلك كيف هجا ابن سلم هذا .

٢٨- اسم ثلاثى يبدأ بهمزة وصل مثل « اسم » .

٢٩- انظر كتابه « الكامل » / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة / مكتبة نهضة مصر / القاهرة / ١٩٥٦ م / ٣ / ٦ .

٣٠- النَّشوط : نوع من السمك .

٣١- عضو الفيل .

٣٢- عضو الحمار .

٣٣- عضو البغل .

٣٤- مخرج الروث .

٣٥- الأعفاج : الأمعاء بما فيها الدُّبر .

٣٦- الذين لعقوا هم الفئران .

٣٧- الجوع .

٣٨- « طبقات الشعراء » لابن المعتز / ٣٧٦ ، و « الإمتاع والمؤانسة » للتوحيدى / تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ٢ / ٥٣ ، و ٣ / ٣٤ .

٣٩- ولعل المستشرق جرونباوم هو أيضا على هذا الرأى ، ولو إلى حد ما ، إذ له عبارة قد يفهم منها هذا ، فقد قال فى الهامش رقم ٤٠ على الدراسة التى مهَّد بها لما استطاع جمعه لأبى الشمقمق من شعر ما نصّه : « ويورد التوحيدى فى « الإمتاع والمؤانسة » ٢ : ٣٥ / (القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٤) أربعة أبيات لأبى فرعون الساسى يتحدث فيها هذا الشاعر عن فقره على طريقة أبى الشمقمق » (شعراء عباسيون / ١٢٩) . فهذه العبارة توحى بأن أبا فرعون الساسى هو الذى اتَّبع طريقة أبى الشمقمق ، على الأقل فى الأبيات الملمح إليها .

٤٠- انظر « أبو الشمقمق شاعر الفقر والسخرية » / ١٣٥ - ١٣٦ ، ١٣٨ .

٤١- انظر « الورقة » لابن الجراح / تحقيق د . عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج / ط ٢ / دار المعارف بمصر / ٥٦ .

مطيع بن إياس

هو مطيع بن إياس مِنْ بكر ، على اختلاف فى صلته ببكر : أهم بنو الدئل بن بكر أم بنو ليث بن بكر ؟ واسمه كاملاً ، على ما أورده أبو الفرج ، هو مطيع بن إياس بن سلمى بن نوفل بن معاوية بن عروة ابن صخر بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدى بن الدئل (١) . ويلقبه أبو الفرج الأصفهانى والنويرى بـ « الكنانى » (٢) . وكنيته « أبو سلمى » (٣) ، ويبدو أنها صُحِّفت فى « معجم الشعراء » للمرزبانى إلى « أبى سلم » (٤) ، إذ لا يُعرف أنه كان له نسل من الذكور .

مطيع بن إياس عربى إذن رغم هذا الإختلاف الذى لا يؤبه له فى نسبه ، وإن كانت هناك رواية تُعْزَى إلى الفضل الهاشمى أن أبا مطيع كان مولًى لآل الفضل هذا ، وكان اسمه « محمد بن سالم » (٥) . ويبدو أن هذه الرواية وذلك الاختلاف الذى ألمحنا إليه هما اللذان جعلا د. شوقى ضيف ينفى عنه العروبة قائلاً إن « كل شىء فيه يؤكد أنه لم يكن عربيا ، إنما كان من الموالى ، فقد كان متحللا الأخلاق مجاهرا بالفسق والعصيان والزندقة والإلحاد » (٦) . كذلك عدّه د. حسين عطوان من الموالى (٧) .

والملاحظ أنه ما من أحد ممن كتبوا عن مطيع بن إياس من القدماء قال إنه مولًى ، اللهم عدا هذه الرواية المعزوّة إلى الفضل الهاشمى والتى أوردها أبو الفرج فى « الأغانى » دون أن يعلّق عليها بما يفهم منه ولو من بعيد أنه يوليها تصديقًا . إنما أوردها ، فيما يبدو ، تفسيرًا لمجىء

كلمة « محمد » فى أبيات منسوبة لشاعرنا ، ونصها :

أيا ويحه ، لا الصبر يملك قلبه ... فيصبر لمّا قيل : سار محمدُ
فلا الحزن يفنيه ففى الموت راحة ... فحتى متى فى جهده يتجلد ؟
قد اضحى صريعا باديات عظامه ... سوى أن روحًا بينها تتردَّد
كئيبا يُمَنّى نفسه بلقائه ... على نأيه ، والله بالحزن يشهد
يقول لها : صبرا عسى اليوم آتب ... بإلفك أو جاء بطلعته الغدُ
وكنت يدًا كانت بها الدهر قوتى ... فأصبحت مُضْنًى منذ فارقنى يدى

ويفهم مما ذكره صاحب « الأغانى » أن مطيعا كان فى ذلك الوقت صبيا صغيرا حين أرسل الفضل الهاشمى ذاك أبا مطيع فى ضيعةٍ له بعيدة عن البلد ، فأخذ مطيعًا معه فمات الوالد هناك وعاد الصبى وحده فرثى أباه بهذه الأبيات (٨) . لكن الأبيات لا تدل على أنها من نظم صبىّ ، مهما تكن موهبة هذا الصبى الشعرية كبيرة ، ففيها إحكام صياغة وسيطرة على المشاعر .

ثم إنّ لمطيع أبياتًا فى السخرية من أبيه يُفْهَم من الرواية المصاحبة لها وكذلك منها هى نفسها أن ذلك كان بعد أن كبر مطيع واشتهر بما اشتهر به من المجون ومنادمة عصابته المعروفة فى تاريخ الأدب العربى (٩) . أى أن أبا مطيع لم يمت ومطيع صبى صغير ، وهو ما يناقض رواية الفضل الهاشمى . وهذه الأبيات الساخرة تذكر اسم والد الشاعر صراحة على أنه « إياس » :

هذا إياس مقبلا ... جاءت به إحدى الهنات

ولعلَّ مما يؤكد هذا أنَّ مطيعًا فى أبيات يتغزل فيها بإحدى الجوارى اللائى كان له بهن علاقة يفدّى هذه الجارية بأبيه ، لا مرة واحدة ولكن

مرتين فى بيتين متتاليين :

يـا بأبـى وجهـكِ مـن بينهـم فإنـه أحسـن مـا أبصـر

يـا بأبـى وجهـكِ مـن رائـع يشبهـه البـدر إذا يَزْهَـر (١٠)

ومفهوم أن ذلك كان بعد أن كبر مطيع وصار ماجنًا . وإخال أنه لو كان أبوه قد مات قبل ذلك كما يفهم من رواية الفضل الهاشمى ، وكانت تفديته الجاريةَ بأبيه على سبيل الهزل لأثار التعليقات الساخرة منها ومن ندمائه المجَّان .

وفى أبيات لحماد عجرد ، صديق الشاعر ، يتردد اسم هذا الأخير هكذا : « مطيع بن إياس » ، لا مرة واحدة بل مرتين :

كـل شـىء لـى فـداء لمطيـع بـن إيـاس

...

لسـت دهـرى لمطيـع بـ ـن إيـاس ذا تناس (١١)

والشاعر نفسه يذكر اسمه أيضا فى شعر له على أنه « مطيع بن إياس » :

ومطيـع بـن إيـاس فهـو بالقصـف وليـد

* * *

فدعيـه وواصلـى ابـن إيـاس جُعلَتْ نفسـى الفـداة فـداك

ولا نعلم أحدا اعترض عليه فى هذا .

وأخيرًا ، كيف نتجاهل أن الشاعر ظل يُعْرَف طوال هذه القرون بـ « مطيع بن إياس » لا بـ « مطيع بن محمد » ؟

يبدو لى أن الأبيات التى تذكر اسم « محمد » إنما قالها الشاعر فى صديقٍ له فارقه أو هجره . ولا أظنها فى الرثاء ، فإنه يقول فيها مخاطبا

نفسه ومشيرًا إلى « محمد » هذا :

يقول لها : صبرا ، عسى اليوم آئبٌ ... بإلفك أو جاءٍ بطلعته الغد

ثم إنه حين يتحدث عن رحيل محمد هذا فإنه يستعمل كلمة « سار » ولا يقول : « مات » وربما كانت الأبيات قد نسبت إليه خطأ .

أما بالنسبة للجنس الذى ينتمى إليه فمما يمكن الاستعانة به فى التدليل على عروبته أنه ، وهو الماجن ، لم يؤثر عنه أى شعر فى السخرية من العرب .

كذلك لم يحدث أن رماه أحد بأنه مولى ينتسب فى العرب زورًا وكذبًا ، كما فعل أبو العتاهية مثلا حين سخر من والبة ، الذى كان يزعم أنه عربى ، إذ قال فيه :

أوالبُ ، أنت فى العرب ... كمثل الشيص فى الرُطَب

هلمَّ إلى الموالى الصّيـ ... ـد فى سعةٍ وفى رحب

فأنت بنا لعمر الله ... أشبه منك بالعرب

وكما فعل بشار برجل ادَّعى النسب العربى زورا :

ارفق بعمرو إذا حرّكْتَ نسبته ... فإنه عربى من قوارير

وكما قال مخلد الموصلى فى واحد من هؤلاء :

أنت عندى عربىّ ... ليس فى ذاك كلامُ

عربىّ ، عربىّ ... عربىٌّ والسلام

شعر أجفانك قيصـ ... ـم وشيح وثمام

وكما قال على بن الخليل فى صديق فارسى له زعم أنه من تميم :

يفرح بنسبة المولى ... ويصبح يدّعى العربا

فلا هذا ولا هذا ... ك يدركه إذا طلبا (١٢)

وقد رجعتُ إلى تراجم أصدقائه فى « الأغانى » كوالبة وحماد وعجرد

وأبان اللاحقى فلم أجد أحدًا منهم أشار إلى أنه مولى . بل إنّ هجاء حماد وعجرد له ، على تعدُّده ، يخلو من مثل هذه الإشارة (١٣) .

أما تأكيد د. شوقى ضيف أن كل شىء فى الشاعر يدل على أنه مولًى فإنه يحتاج إلى إعادة نظر ، فإن « تحلل الأخلاق والفسق والعصيان والزندقة والإلحاد » ليست صفاتٍ مقصورة على الموالى ، ولا كل الموالى طبعا كذلك . ولست ، فيما يخيل إلىَّ ، بحاجةٍ إلى إثبات صحة ما أقول ، فهو من الوضوح بمكان (١٤) .

كذلك فليس الاختلاف بالنسبة للاختلاف فى إحدى حلقات نسب الشاعر بمسوّغ أن نردَّ ذلك النسب . وليس مطيع بن إياس بدعًا فى ذلك : فأبو الشيص الشاعر العباسى المشهور قد ذُكر أنه ابن عم الشاعر دعبل ، وقيل : بل كان عمه . والشاعر أبو بكر الصنوبرى ، أحد شعراء سيف الدولة ، رووا أن اسمه « محمد بن أحمد » وقيل : « أحمد بن محمد » . وأبو الفرج الببغاء ، وهو من شعراء سيف الدولة أيضا ، قالوا إنه عبد الواحد بن نصر ، وقيل : « عبد الملك بن نصر » . وأبو جعفر محمد بن أبى سارة الحسن الرؤاسى ، الذى قيل إنه مؤسس مدرسة النحو بالكوفة واستفاد الخليل من بعض مصنفاته ، قد اختلفوا فى اسم أبيه ما بين « حسن » و « على » ... وهكذا (١٥) ، بل إن الاختلاف فى نسب مطيع أهون من الاختلاف فى أنساب هؤلاء ، إذ الاختلاف فى حالتهم هو فى الآباء ، أما فى حالته فهو فى جدّ من جدوده الأبعدين .

وقد وُلد مطيع بن إياس فى الكوفة أيام بنى أمية . ومدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك ، وكان من ندماء أخيه الوليد بن يزيد الخليفة الأموى

المعروف . ولمَّا خرج على الدولة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبى الخطاب ، والى الرى ثم فارس ، كان مطيع فى جانبه . وكان من ندمائه . وفى زمن العباسيين نراه منقطعا إلى جعفر بن أبى جعفر المنصور ، ولكن لمَّا حوَّل أبو جعفر ولاية العهد عن جعفر هذا إلى المهدى ابنه الآخر كان دور الشاعر بارزًا فى الدعوة لهذه الولاية ومباركتها ، إذ اخترع حديثًا نسبه إلى الرسول عليه السلام مفاده أن المهدى هو الخليفة المنتظر . وقد توفى مطيع فى خلافة الرشيد (١٦) .

وكان مطيع بن إياس صديقا لحماد عجرد ويحيى بن يزيد الحارثى ووالبة بن الحباب . وكانوا جميعًا مجّانًا لا يوقرون شيئًا ولا يستحون ، فكانوا يشربون الخمر وينظمون فى الغلمان والقيان شعرًا مملوءًا بذاءةً وفحشا فى كثير من الأحيان . وقد اتُّهِموا كلهم بالزندقة .

ويهمنى أن أقف عند هذه التهمة بالنسبة لمطيع وحده ، فهو الشاعر الذى يدور عليه هذا الفصل :

أما ابن المعتز فلم يتعرض لهذه التهمة فى ترجمته له فى « طبقات الشعراء » . وكل ما هنالك قوله عنه إنه « أحد الخلعاء المجّان » (١٧) .

وأما أبو الفرج الأصفهانى فقد قال فيه إنه كان « ماجنا متَّهَما فى دينه بالزندقة » ، وقال فيه وفى أصحابه إنهم « كانوا جميعًا يُرْمَوْن بالزندقة » . كما روى كلام أحد أمراء بنى العباس فيه حين أحرجه وجعله يشهد بصحة الحديث الذى وضعه على النبى عليه السلام لمصلحة المهدى عند إعلان أبيه له وليا للعهد ، إذ قال « أرأيتم هذا الزنديق إذ كذب على

الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم حتى استشهدنى على كذبه فشهدت له خوفًا ، وشهد كل من حضر علىَّ بأنى كاذب ؟ » ، وكذلك قول أبى جعفر المنصور لمطيع أيضا ، وكان منقطعا إلى ابنه جعفر : « عزمت على أن تفسد ابنى وتعلمه زندقتك » (١٨) . وثمة قصة فى « الأغانى » أيضا أنه هو وأصحابه قد حاولوا أن يُغْروا تاجرا صديقا لهم بأن يشتم الملائكة والأنبياء وأن يترك الصلاة فرفض ، ولكنهم لما سقوه خمرا وسكر جعلوه يفعل ما كان قد امتنع منه أوَّلا (١٩) . بل إن أبا الفرج ليذكر أن ابنته قد حُبِست بنفس التهمة ، فاعترفت أن أباها كان قد علمها دين الزندقة ولكنها تابت ، فأُطْلِق سراحها (٢٠) . ومع ذلك فقد دافع عنه المهدى عند أبيه ، الذى رفع صاحب الخبر إليه أن مطيعًا زنديق ، فقال المهدى لأبيه : « أنا به عارف . أما الزندقة فليس من أهلها ، لكنه خبيث الدين فاسق مستحل للمحارم » (٢١) .

وذكر الخطيب البغدادى أنه كان ماجنًا وأنه نُسِب إلى الزندقة (٢٢) .

وجاء فى « مروج الذهب » للمسعودى أنه كان يصنف الكتب هو وحماد عجرد ويحيى بن زياد تأييدا لمذهب المانوية والديصانية والمرقيونية (٢٣) .

وأشار جرجى زيدان إلى مجونه واتهامه بالزندقة قائلاً : « وكان ماجنا خليعا ظريفا مليح النادرة متهما بالزندقة » ، فهو لم يتهمه بها كما ترى ، ولكن اكتفى بالقول بأنه كان متهما بها (٢٤) .

ومِثْل جرجى زيدان يكتفى نيكلسون بالإشارة إلى اتهام مطيع فى دينه ومصاحبته للزنادقة ، محيلاً فى ذلك على كتاب « الأغانى » (٢٥) .

أمَّا د. طه حسين فقد ذكر أنه « كان ظريفا ماجنا، مُلحًّا فى الفسق ، متهما فى دينه ، يوصف بالزندقة » (٢٦) ، وأورد فى آخر حديثه عنه ما جاء فى « الأغانى » عن ظرفه وخلاعته ومجونه واتهامه بالزندقة (٢٧) . وهو وإن قال أثناء مناقشته لهذه التهمة إنه لا دخان بغير نار فقد سارع إلى القول بوجوب الاحتياط وعدم الانسياق وراء كلام الناس (٢٨) .

ويقول بروكلمان إنه اتُّهِم عند أبى جعفر المنصور بذلك (٢٩) .

أما جرونباوم فبعد أن أشار إلى هذه التهمة أضاف أننا « لا يمكننا أن نحدد نوع زندقته ، تلك التهمة التى كان يُرْمَى بها فى أيامه الملحدون ، وكلُّ من يكون على مذهب مخالف لمذهب أهل السنة ، وأصحابُ الأهواء ، والمؤمنون بالمانوية على السواء » . ويمضى قائلاً : « وليس من شك أن مطيعا لم يكن يهتم بالشعائر الإسلامية . ولكننا لا نستطيع أن نتبين أى انحراف فى معتقده . أما اتهامه بأنه كان يصنف الكتب تأييدا لمذهب المانوية والديصانية والمرقيونية فليس له فى الغالب مستند من الصحة » (٣٠) . وبعد قليل يشير إلى ما كان يتصف به من ظرف ، ثم يعلق على ذلك بأن « الظرف صفة ملازمة للزنديق » ، مستشهدا على ذلك ببيت لأبى نواس وعبارة لبشار (٣١) . ومعنى هذا بوضوح أن جرونباوم لا يرى أن مطيعًا كان زنديقًا ، وإن قال إنه كان ماجنا ظريفا مستهينا بتأدية الشعائر الدينية .

وعلى عكس جرونباوم فإن الدكتور شوقى ضيف يؤكد زندقة الشاعر وإلحاده قائلاً إنه « كان متحلل الأخلاق مجاهرا بالفسق والعصيان والزندقة

والإلحاد » (٣٢) .

وينسب د. محمد مصطفى هدارة مطيعًا إلى الزندقة الفكرية لا الدينية . ويقصد بـ « الزندقة الفكرية » الميل إلى التحرر وأن يفعل الإنسان ما يرغب فيه ويهواه دون خضوع لأى وازع (٣٣) ، فهى إذن زندقة سلوك ومجون لا زندقة عقيدة ودين .

ويقول د. حسين عطوان إن القدماء مجمعون على رمى مطيع بن إياس بالزندقة ، ويأخذ ما جاء فى « مروج الذهب » عن تأليفه مع رفاقه كتبا فى تأييد المانوية والديصانية والمرقونية مأخذ التسليم (٣٤) . ومع أنه يعترف بأن شعره خال مما يدل على الملل الفارسية التى كان يعتنقها (كما يقول) ، فإنه يسارع إلى القول بأن الرواة كانوا يزورّون عن مثل هذه الأشعار فلا يروونها (٣٥) . كما يؤكد أنه لولا ظرفه وبراعته فى إخفاء زندقته وخداعه للمنصور باختراع حديث يعضّد به إسناد ولاية العهد للمهدى لقتله ذلك الخليفة على الزندقة (٣٦) .

والحق أنه لا إجماع بين القدماء ، على عكس ما يدّعى د. عطوان ، على زندقة مطيع ، فقد بيَّنا أن ابن المعتز لم يذكر شيئًا عن هذه التهمة بالمرة . أما أبو الفرج والخطيب البغدادى فلم يتهماه بذلك بل حكيا مجرد حكاية أنه كان يُرْمى بالزندقة . وفرق كبير بين هذا وذاك كفرق السماء عن الأرض . ليس إلا المسعودى وحده ، من بين من اطلعنا على آرائهم من القدماء فى عقيدة الشاعر ، هو الذى اتهمه بالكفر وتأليف الكتب فى الدعوة إلى أديان فارس .

وهذه تهمة يصعب تصور انطباقها على مطيع ، إذ كيف يعكف هذا

الماجن المستهتر على مثل هذا العمل الجادّ الذى يتطلب التحمس لدينٍ ما والعكوف على الأسفار والمجلدات لتأليف تلك الكتب التى قُرف بها ؟ وإن أخباره كلها لتتظاهر على رسمه شخصًا لاهيًا متهتكا ، ولم يرد فى أى منها ما يوحى بأنه من أولئك الذين يمكن أن ينقطعوا إلى الكتب فضلاً عن أن يضعوها .

وينبغى ألا يفوتنا الفارق الزَّمنى بين وفاة مطيع بن إياس (سنة ١٧٠ هـ على أكثر تقدير ، كما بينا) وبين الوقت الذى كتب فيه المسعودى فى « مروجه » ما كتب . فإذا عرفنا أن المسعودى قد توفى سنة ٣٤٦ هـ كان ذلك الفارق نحو مائة وخمسين عامًا . فأين كانت هذه الدعوى طوال هذا القرن والنص ؟

أما تفسير د. عطوان لاختفاء الأشعار التى يخمّن أن مطيعًا بثّها زندقته بأن الدولة كانت تجدُّ فى طلب الزنادقة وأن الرواة قد أهلموا حفظ هذا اللون من الشعر فهو تفسير متعسف ، إذ إن الرواة قد حفظوا لنا من الأدب الفاحش والإلحادىّ الكثير والكثير ، فكيف انفرد شعر مطيع بهذا الإهمال ؟ وإذا كانت بنته قد قُبِض عليها بتهمة الزندقة وقيل إنها ادعت على والدها تأليف كتب فيها وأنها قرأت هذه الكتب ، فلماذا لم تورد لنا الرواية بعض نصوص تلك الكتب المزعومة ؟ وماذا كانت سنّ هذه البنت آنذاك ؟ ثم أليس غريبًا أن نسمع بأن الشرطة فى بغداد فى تلك العصور قد قبضت على فتاةٍ لجريمة عقديّة ؟

لا يوجد إذن دليل على زندقة الشاعر ، ومن ثم فلا معنى لاتهامه بالكفر والإلحاد . ورأيى أن الأمر لا يزيد عن أن الشاعر كان ماجنا فاسقا

مستهترا ، ولا أظنه أبدًا كان يطوى قلبه على كفر بالإسلام ، وهو نفس ما يذهب إليه جرونباوم ود. هدارة .

ثم إن فى شعر مطيع ما يدلّ على الإيمان بالله سبحانه وإسلام النفس إليه والاطمئنان لقضائه وقدره . يقول :

ودعـــى أن تقطعـــى الآن قلبـــى ... وتُرينـــى فـــى رحلتـــى تعذيبـا
فعســى اللــه أن يدافـــع عنـــى ... ريـب ما تحذرين حتـى أؤوبـا
ليـس شـــىء يشـاؤه ذو المعالـــى ... بعزيـز عليـه ، فادْعـى المجيبـا
أنـــا فـــى قبضـة الإلـــه إذا كنـ ... ـتُ بعيدا أو كنـتُ منـك قريبـا

ويقول حاثًّا أحد مقصوديه أن يخلع عليه جبّته :

ولـــك اللّـــه والأمانـــة أن أجـــ ... ـعلها عُمْرَهَـا أميـرَ ثيابـــى

ويقول فى الدعاء على بغداد وقد ضاقت به الحال فيها :

وإذا مـا أعـــاذ ربـــى بـــلادا ... مـن خـراب كبعض ما قد أعـاذا
خربـت عاجـلا كمـا خـرَّب اللـــ ... ـه بأعمـــال أهلهـا كلـــواذا

ويقول متوددا إلى أحد أصدقائه ، وهو يحيى بن زياد :

يا سَمِـيَّ النبـــى الـــذى خـــــص به اللـــه عبـــده زكريـا
فدعـــاه الإلـــه يحيـــى ولم يجـــ ... ـعل لـــه اللـــه قبـل ذاك سميّـا
كـن بصـبٍّ أمـسى بحبـــك بـــرًّا ... إن يحيـى قـــد كـــان برّا تقيـا

وحتى فى مجونه واستهتاره ، حيث ينطلق اللسان على سجيته بلا تحرج أو مراعاة لشىء ، نرى شاعرنا لا يفتأ يذكر اللّه ويحلف باسمه الكريم حتى فى سياق الفحش ، بما يوحى بلصوق الإيمان بنفسه رغم تهتكه وانفلات سلوكه . يقول فى غلام اسمه « فرج » :

إنـى ومـا أعمـل الحجيـــج لـه ... أحتـى مطيـع الهـوى على فَرَج

ويقول فى مغاواة جارية :

أمـــا باللـــــه تستحيـــــــ ـن مـــن خلـــة حمـــــاد ؟

....

فتوبـــــى واتقـــــى اللـــــه ، وتُبّـــــى حبـــــل جَـــــرّاد

ويقول فى محاسن جوهر ، إحدى الجوارى اللائى كان يهواهن :

وقـــد أكملـــــك اللـــــه بحســـــن الـــدلّ والمنظـــرْ

وكونه يعزم على الحج ، رغم ضعفه فى الطريق إلى مكة أمام نزعة المجون والتهتك فى طبعه وانصرافه عن الحج الى مواضع اللهو والفساد ، هو فى ذاته دليل على إسلامه . وفى ديوانه مقطوعة وقصيدة صغيرة تتحدثان عن هذا . بل إن فى المقطوعة ما يشى بإحساسه بالندم . وها هى ذى أبياتها :

ألم ترنـــى ويحيـــى قـــد حججنـــا وكـان الحـج من خير التجـارهْ ؟
خرجنـــا طالبَـــىْ خيـــر وبـــر فمـــال بنـــا الطريـــق إلى زراره
فعـــاد النـــاس قـــد غنمـــوا وحجـــوا وأُبْنَـــا مُوقَريْـــن مـــن الخســـاره

الرجل إذن مسلم ، ولكنه مسلم عاصٍ . فإذا كان الأمر كذلك فإلى أى مذهب كان ينتمى مطيع بن إياس ؟

ثمـة أبيـات ثلاثة فى الشعر الذى جمعه له جرونباوم ناطقة بالتشيع وهى :

أمسيـــت جـــم بـــلابـــل الصَّـــدْر دهـــرا أزجّيـــــه إلـــى دَهْـــرِ
إن فُهـــتُ طُـــلَّ دمـــى ، وإن كُتمـــتْ وقَـــدَتْ علـــىَّ توقـــد الجمـــر
ممـــا جنـــاه علـــى أبـــى حســـن عُمَـــرٌ وصاحبـــه أبو بكـــر

ولعله من أجل ذلك قد عدَّه جرجى زيدان من شعراء الشيعة (٣٧) . بل إن د. محمد مصطفى هدارة قد جعله من غلاة الشيعة (٣٨) .

والحقُّ أنى لست مقتنعا بشيعية مطيع ، فليس فيما وصلنا من شعره

إلا هذه الأبيات . ولو كان شيعيا حقا لما اقتصر عليها ولوصلنا حينئذ نصوص أخرى . كذلك فإن اتجاه مطيع الشعرى وغرقه فى المجون والتهتك ، لدرجة أنه حين كان على فراش الموت نظم أبياتًا فى التحسُّر على عجزه عن انتهاز فرصة للخروج إلى الرياض لسماع الغناء وشرب الراح ، كل هذا يجعلنى أستبعد أن يكون لمطيع اهتمام مذهبى ، فضلاً على أن يصل هذا الاهتمام إلى المدى الذى تصوره الأبيات . ثم لا ننس أنه كان لصيقًا بأبى جعفر المنصور وابنيه جعفر والمهدى . ولقد نُسِبَتْ هذه الأبيات أيضا لديك الجنّ ، وهى شبيهة بأشعار أخرى له فى نفس الموضوع (٣٩) .

وديوان مطيع الذى استطاع المستشرق غوستاف فون غرونباوم جمعه من كتب الأدب والتاريخ يقع فى سبع وأربعين صفحة (٤٠) مع هوامش الشروح والتعليقات ، وهى ليست بالكثيرة . والمقطوعات هى الغالبة عليه .

وثمة أبيات فى شعر مطيع تُنْسبُ أيضا لغيره من الشعراء . من ذلك أن المقطوعة التى يسأل فيها من أحد معارفه جُبَّة ، وعددها ستة أبيات ، قد نسبها صاحب الأغانى لحماد الرواية ، وذكر أن القصة تروى لمطيع بن إياس أيضا (٤١) . ثم يعود فى ترجمة حماد عجرد فينسب الأبيات الثلاثة الأخيرة منها إليه دون أن يشير إلى أنه رواها من قبل لحماد الرواية ولا إلى قوله إنها تروى لمطيع كذلك (٤٢) . وقد نبه جرونباوم إلى أن المقطوعة كلها تروى لحماد الرواية أيضا ، ولكنه لم يذكر أن الثلاثة الأخيرة منها تروى كذلك لحماد عجرد . وهذه هى المقطوعة :

إن لى حاجة ، فرأيك فيها ... لك نفسى فدًى من الأوصاب

وهى ليست مما يبلّغها غير ... ى ، ولا يستطيبها فى كتاب

غيـــر أنـــى أقولهـــا حيـــن ألقـــا ك رويـــدًا أُسِرّهـــا فـــى حجـــاب
إننـــــى عاشـــق لجبتـــك الدكـــ ـــناء عشقـــا قـد حـال دون الشراب
فاكْسُنيهـــا ، فدتـــك نفسـى وأهلـى أَتَبَاهَـــى بهـــا علـــى الأصحـــاب
ولـك اللـــه والأمانـــة أن أجـــ ـــعلهـــا أميـــــر ثيابـــى

كذلك فالأبيات التالية تروى لمطيع ولحماد عجرد معًا . وقد رواها أبو الفرج للثانى ، على حين أوردها جرونباوم لمطيع بناء على نسبتها فى « الحماسة » إليه . وهى :

قلـــت لحنانـــــة دلـــــوح تســـح مـــن وابـــل سمـــوح
أُمّـــى الضريـــح الـــذى أسمّـــى ثـم استهلـى علـى الضريـــح
ليـس مـــن العـــدل أن تشحّـــى علـى فتى ليـس بالشحيـح (٤٣)

وبالمثل تروى الأبيات الثلاثة التالية لمطيع وحماد عجرد كليهما ، مع اختلاف فى كلمة واحدة . وهى فى غلام :

خليلـــــى مخلـــف أبـــــدا يمنّينـــــى غـــــدًا فغـــدا
وبعـــد غـــد وبعـــد غـــد كـــذا لا ينقضـــى أبـــدا
لـــه جمـــر علـــى كبـــدى إذا حرّكتّـــــه وقـــدا (٤٤)

ولم يشر إلى هذا الاختلاط أبو الفرج ، الذى روى الأبيات لكلا الشاعرين ، ولا جرونباوم ، الذى نسبها لمطيع فقط . ولكن تنبه إلى ذلك د. حسين عطوان (٤٥) .

كما أن الأبيات الثلاثة التالية قد رواها صاحب الأغانى مرة لسعد بن القعقاع (جـ ٣ فى « أخبار بشار بن برد ونسبه ») ، ومرة لمطيع بن إياس (جـ ١٢) ، دون أن يحاول فكّ هذا الاختلاط :

ألـم ترنـى وشـارا حججنـــا (٤٦)

وكـان الحج مـن خيـــر التجـاره ؟

ألم ترنى ويحيى قد حججنا (٤٧)

خرجنا طالبىْ سفر بعيد ... فمال بنا الطريق إلى زراره

فآب الناس قد حجوا وبروا ... وأبنا مُوفَرَيْن من الخساره

ولم يتنبه إلى ذلك أيضا جرونباوم ولا مترجم كتابه د. محمد يوسف نجم .

وثمة ثلاثة أبيات رائية فى التشيع نسبت إليه وإلى ديك الجن لم ينبّه إليها جرونباوم . وسوف أناقشها بعد قليل .

وفى مقطوعة أخرى لمطيع يردّ بها على عمر بن سعيد للومه إياه فى الجارية « مكنونة » نجد أن الأبيات الثلاثة الأولى قد رويت مع بعض الاختلاف الطفيف لبشار أيضا فى رائيته التى يصوّر فيها مراودته لفتاة صغيرة تخشى من أمها إن هى أنالته نفسها . وهذه الأبيات هى :

قد لامنى فى حبيبتى عُمَرُ ... واللوم فى غير كنهه ضَجَرُ

قال : أفق . قلت : لا ، فقال : بلى ... قد شاع فى الناس عنكما الخبر

فقلت: قد شاع، فما اعتذارى مما لي ... س فيه عندهم عذر ؟

ولم أجد جرونباوم ولا الدكتور محمد يوسف نجم مترجم كتابه قد نبَّها إلى هذا التداخل .

أما موضوعات شعر مطيع فهى الغزل فى الجوارى والغلمان ، والرثاء ، والإخوانيات ، والبكاء على الشباب ، والهجاء ، والخمر . والموضوعات الأخيران هما أقل الموضوعان نصيبًا من النظم فيهما . ثم هناك بعض أبيات فى الصداقة ، ومثلها فى الحكمة ، إلى جانب مقطوعتين فى الرحلة ومواقف الوداع ، وأخرى فى سؤال جُبّة .

وبالنسبة إلى غزله فى الجوارى تقابلنا أسماء « جوهر » و « رئم » و « مكنونة » و « روق » و « سعاد » . وهو يصرح فى شعره بتدلهه

فى هوى القيان :

يـــا طـــول حـــرّ صبابتـــى بيـــن الغوانـــى والقيـــان

* * *

وصـــل القبيـــح مجاهـــرا فالعيـــش فـــى وصـــل القيـــان

وتحظى بالنصيب الأوفر من اهتمامه وغزله وشعره القينة « جوهر » المغنية ، التى قال فيها البيت الذى سار فى الآفاق ، وهو البيت الثانى فى الثلاثة الآتية :

وجوهـــرُ عندنـــا تحكـــى بـــدارة وجههـــا القمـــرا

يزيـــدك وجههـــا حسنـــا إذا مازدتـــه نظـــرا

وجوهـــر قـــد رأيناهـــا فلـــم نر مثلهـــا بشـــرا

وهو يلحّ على حيازتها للكمال وأنها فريدة بين النساء ، ولذلك يلقبها بـ « الجوهر(ة) » ، أى أنها اسم على مسمًّى :

ألا يـا جوهـــر القلـــب لقـــد زدْت علـــى الجوهـــرْ

وقـــد أكملـــك اللـــه بحســـن الـــدلّ والمنظـــر

إذا غنيـــت يـــا أحســـن خلـــق اللـــه بالمزهـــر

فهـــذا حزنًـــا يبكـــى وهـــذا طربًـــا يسكـــر

وهـــذا يشـــرب الكـــأس وذا مـــن فـــرح ينعـــرْ

* * *

أنـــت يـــا جوهـــر عنـــدى جوهـــرةْ فـــى قيـــاس الـــدرر المشتهـــرةْ

...

وكأنـــى حيـــن أخلـــو معهـــا فائـــز بالجنـــة المختضـــرةْ

* * *

أفـــدى التـــى لـــم ألـــق بعدهـــا أنسًـــا ، وكانـــت قـــرة العيـــن

وإذا كان ربيعة الرقى قد رشح إحدى محبوباته لإمارة المؤمنين لما كانت

تتمتع به من روادف ضخام ، فإن مطيعًا يؤكد أن جوهر أحقّ بالخلافة من المهدى لروعة جمال وجهها وسحر صوتها الفتان :

ولا واللـــه مـــا المهـــد ... ئُ أولـى منـــك بالمنبـــرْ
فمـــا عشـــت ففـــى كفيـــ ... ـك خلـع ابـن أبـي جعفـر

ومع ذلك فإن له مقطوعة فى هجوها أفحش فيها غاية الإفحاش ، وأنزل هذه التى كان قد رشحها للخلافة من على عرشها ومرَّغها فى الوحل ، غير محتشم فى لفظه أو معانيه . وسرّ ذلك أنه جاءها يوما فاحتجبت عنه ، فسأل عن خبرها فعرف أن فتى من أهل الكوفة يقال له « ابن الصحّاف » مختل بها ، فقال يهجوها :

... (٤٨) واللـه جَوْهـرَ الصحّـافُ ... وعليهـا قميصهـا الأفـوافُ
شـام فيهـا ... (٤٩) لـه ذا ضلوع ... لم يَشِنْـه ضعـف ولا إخطاف
جـدّ دفعًـا فيهـا فقـالت : ترفـق ... ما كذا يا فتى ... (٥٠) الظراف (٥١)

وغزله فى الغالب خفيف مسلٌّ ، رغم تظاهره أحيانا بأنه يتألم ألمًا شديدا . ولا عجب فى ذلك ، فقد كانت معشوقاته من القيان السهلات ، وكن مبذولاتٍ له ولغيره . وقد صوَّر فى بعض أشعاره كيف كانت تجرى المعابثة أحيانا بينه وبينهن :

أحْضَـرُ النـاس بمـا أكـ ... ـرهـه منـه جوابـا
فـإذا قلـت : أنلنـى ... قبلـة قـال : ترابـا (٥٢)

* * *

يا رئـم ، يـا قاتلتـى ... إن لـم تجـودى فعـدى
بَيَّضْـتِ بالمطـل واخـ ... ـلافـك وعـدى كبـدى
مالـف عينـى سُهْـدى ... ومـا بهـا مـن رمـد
يـا ليتنـى فـى الأحـد ... أبليـت منـى جسـدى

لمـــن بـــــه شقوتـــــى أخـــذتُ حتفـــى بيـــدى

ويشذ عن ذلك قصيدته فى ابنة الدهقان (٥٣) ، ففيها نغم أسيان غريب على طبع مطيع وغزله . وقد يكون مرجع ذلك إلى أنه قالها متألما لفراق ابنة أحد الدهاقين ، لا فى قينة من القيان :

أسعدانـى يـا نخلتـى حلـوان (٥٤) وابكيا لى مـن ريـب هـذا الزمـان
واعلمـــا أن ريـــه لـــم يـــزل يفـ ـــرُق بيـــن الألاف والجيـــران
ولعمـــرى لـــو ذقتمـــا ألـــم الفـــر قـــة أبكاكمـــا الـــذى أبكانـــى
أسعدانـــى وأيقنـــــا أن نحسّـــا ســـوف يلقاكمـــا فتفترقـــــان
كـم رمتنـــى صـروف هـذى الليالـــى بفـــراق الأحبـــاب والخُـــلاَّن
غيـــر أنـــى لم تلق نفسـى كمـــا لا قيـــت مـــن فرقـة ابنـــة الدهقـان
جـــارة لـــى بالـــرىّ تُذْهِـــب همـــى ويسلّـــى دنوُهـــــا أحزانـــــى
فجعتنـــى الأيـــام أغبـط مـــا كنـ ـت بصـــدع للبيـــن غيـــر مـدان
وبرغمـــى أن أصْبَحَـــتْ لا تراهـا الـ ـعين منـــى وأصبحـت لا ترانـى
إن تكـــن ودَّعَـــتْ فقـد تركـت بـى لهبـــا فـى الضميـر ليـس بـوان
كحريـــق الضـــرام فـى قصـب الغـا ب رمتـه ريحـــان تختلفـــان
فعليـــك الســـلام منـــى مـــا صـا غ سلامًـــا عقلـى وفـاض لسانـى

وكعادة كثير من شعراء العرب يتحدث مطيع عن العذّال وأنه لا يصيخ إليهم ولا يبالى بلومهم :

أيهـــا المبتغـــى بلومـــى رشـــادى ألْهُ عنّـــى ، فمـا عليـك فسـادى
أنت خِلْوٌ مـن الـذى بـى ، وما يعـ ـلم ما بـى إلا القريـــح الفـــؤاد

وثمة بيتان له فى جارية كان حماد عجرد قد اصطحبه إليها ليصلح ما بينه وبينها ، فبدأ بكلام يوهم أنه فعلاً يقوم بما طلبه منه حماد ، ممَّا أبهج هذا وجعله يثنى عليه كثيرًا ، ليفاجأ عقيب ذلك أنه إنما مهَّد الجوَّ لنفسه هو لا لصديقه ، فانقلب عليه شاتما ساخطا . لقد قال شاعرنا فى

بداية الحديث :

أنـــت معتلـــة عليـــه ، ومـــازا ل مهينـــا لنفســـه فـــى رضـــاك

فقام حماد وقبل رأسه ودعا له والمرأة تضحك ، فأكمل مطيع :

فذريـــه وواصلـــى ابـــن إيـــاس جُعِلَـــتْ نفسُـــه الفـــداةَ فـــداكِ

وله قصيدة من تسعة أبيات يخذّل فيها ظبية الوادى عن حب حماد ، راميًا إياه بالفقر ، ومحاولا استمالتها لنفسه :

ألا يـــا ظبيـــة الـــوادى وذات الجســـد الـــرادى

وزيـــن المصـــر والـــدار وزيـــن الحـــىّ والنـــادى

وذات المبســـم العـــذب وذات الميســـم البـــادى

أمـــا باللـــه تستحيـــ ـــن مـــن خلـــة حمـــاد ؟

فحمـــاد فتًـــى ليـــس بـــذى عـــزٍّ فتنقـــادى

ولا مـــال ولا عـــزّ ولا حـــظّ لمرتـــاد

فتـــوبى واتقـــى اللـــه وبُثّـــى حبـــل جـــرّاد

فقـــد مُيّـــزْت بالحســـ ـــن عـــن الخلـــق بإفـــراد

وهـــذا البيـــن قـــد حُـــمّ فجـــودى منـــه بالـــزاد

ومن الواضح أن المقصود بها المزاح والمعابثة .

وقد تكرر فى أشعاره الغزلية الإشارة إلى القُبْلة : نَيْلاً أو طلبا :

فـــإذا قلـــت : أنلنـــى قبلـــة قـــال : ترابـــا

* * *

سَجَـــدْتُ إليـــه وقَبّلتُـــهُ (٥٥) كمـــا يفعـــل الساجـــد المجتهـــد

* * *

يُشْفَـــى بريقتهـــا السّقَـــا مُ ، كـــأن ريقتهـــا العُقـــارْ

* * *

كأنمـــا ريقتهـــا قهـــوة صُـــبّ عليهـــا بـــاردٌ أسْمَـــرُ

* * *

وكأننـــى ذائـــق مـــن فمهـــا كلمـــا قبلـــت فاهـــا سُكَّـــرْ

* * *

... بهـا ضيفُهـا وقبّـل فاهـا يالقومى ! لقد طغـى الأضيـافُ

* * *

ونولينـــــى قبلـــــة واحـــــدة ، ثـــم كَفَـــى

* * *

قبلينـــى ، سعـاد ، باللـه قُبلـــةْ واسألينى لهـا ، فديتـك ، نحْلَـةْ

وتخلو غلامياته من البذاءة والعُرْى . وهى على كل حال قليلة فى شعره الذى جمعه جرونباوم :

نعـــم لنـــا نبيـــذٌ وعنـــدنا حمَّـــادُ

...

ولَهْوُنـــا لذيـــذ لـــم يَلْهُـــه العبـــاد

إن تشتهـــى فســـادا فعندنـــا فســـاد

أو تشتهـــى غلامـــا فعندنـــا زيـــاد

مـــا إنْ بـــه التـــواءْ عنـــا ولا بعـــادُ

وفى أبيات أخرى ستة على روىّ العين نراه ينبّه أبا الأصبغ لما فعله حماد عجرد بالأصبغ ابنه ويصف ما حدث ، لكن دون أن يلجأ إلى لفظ صريح ناب . ومع ذلك فرائحة النتن الذى يقلب المعدة تفوح من القطعة كلّها (٥٦) .

أمّا رثاؤه فكله مقطوعات . وهو فى الغالب رثاء فاتر ليس فيه حرارة ولا تألق ، ومعظمه فى صديقه يحيى بن يزيد الحارثى :

وينادونـــه وقـــد صـــمَّ عنهـــم ثـــم قالـــوا وللنســـاء نحيـــب :

ما الـــذى غـــال أن تحيـــر جوابـــا أيهـا المصقـع الخطيـب الأديـب ؟

فلئن كنت لا تحير جوابا ... ربما قد تُرَى وأنت خطيب
في مقال وما وعظت بشيء ... مثل وعظ بالصمت إذ لا تجيب

والبيتان الأخيران يشبهان قول أبى العتاهية :

وكانت في حياتك لي عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وبطبيعة الحال فإن مطيعا هو السَّابق ، فهو متقدم فى الزمن على العتاهى . بيد أن بيت هذا أوجز وأحكم صياغة وأعبق بالنفس الشعرى .

وقد استشهد د. شوقى ضيف بأبيات أخرى للشاعر فى صديقه ذاك ، معلقا عليها بأنه قد بكاه فيها بكاءً حارًا ، على حين أنها مثل السابقة بل ربما أشد منها فتورًا وأكثر حظا من النثرية . وهذه هى الأبيات :

يا أهْلِيَ ابكوا لقلبي القَرح ... وللدموع السواكب السُّفُح
راحوا بيحيى ، ولو تطاوعني الـ ... أقدار لم يبتكر ولم يَبرُح
يا خير من يحسن البكاء له الـ ... يوم ومن كان أمس للمدح
قد ظفر الحزن بالسرور وقد ... أُديل مكروهنا من الفرح (٥٧)

والشاعر فى البيت الأول ليس مشغولاً بأحزانه على صديقه ، وإنما هو مشغول بلفت الأنظار إلى أحزانه . أما سائر الأبيات فهى مُصَاصة شعر ، إذ لا تصوير ولا تأثير ولا حسن تعبير .

ولكن المقطوعة التالية ، وهى فى يحيى بن زياد أيضا ، أفضل قليلا من سابقتيها :

قد مضى يحيى وغودرت فردا ... نصب ما سرّ عيون الأعادى
وأرى عينيَّ مذ غاب يحيى ... بُدِّلتْ من نومها بالسهاد
وسَدَّته الكفّ منى ترابا ... ولقد أرثى له من وساد
بين جيران أقاموا صموتا ... لا يجيبون جواب المنادى
أيها المزن الذى جاد حتى ... أعشبت منه متون البوادى

اسـق قبـــرا فيـــه يحيـــى ، فإنى لـــك بالشكـــر مـــوافٍ مُغَـــاد

ومن الغريب أن تتكرر مرثيات الشاعر فى يحيى بن زياد مما يدل على شدة إحساسه بفقده وتألمه له ، ومع ذلك تكون بهذا الفتور والجفاف . ومن الغريب أيضا غير المفهوم أن يحيى بن زياد هذا الذى رثاه شاعرنا بذلك الشعر الجافّ الفاتر هو نفسه الذى صوَّر فى الأبيات التالية ما وقع بينه وبينه من قطيعة تصويرا متوهجًا بالأسى وغنيًّا بالصُّور والمعانى الموحية بما كان بينهما من حبّ مستحكم انصهرت فيه نفساهما فصارتا نفسا واحدة . فمثل هذا الصديق كان جديرا بأن يأتى رثاؤه ممن كان يحبه فى حياته ذلك الحبّ ويفى له كل هذا الوفاء رثاءً عنيفا متوترا ملتاعا :

كنـتُ ويحيـى كَيَـدَىْ واحـد نرمـى جميعـا ونُرامَـى معـا
إن عضَّنـى الدهـر فقـد عضَّـه يوجعنـا مـا بَعْضَنـا أوجعـا
أو نـام نامـت أعيـن أربـعٍ منـا ، وإن أسهـر فلـن يهجعـا
يسرّنـى الدهـر إذا سـرّه وإن رمـاه فلنـا فجّعـا
حتـى إذا ما الشيـب فى مفرقـى لاح وفـى عارضيـه أسرعـا
سعـى وشـاة فمشـوا بيننـا وكـاد حبـل الـودّ أن يُقْطَعـا
فلـم أَلُمْ يحيـى علـى فعلـه ولـم أقـل : مـلَّ ولا ضيَّعـا
لكـن أعـداءٌ لنـا لم يكـن شيطانهـم يـرى بنـا مطمعـا
بينـا كـذا غـاش على غـرةٍ فأوقـد النيـران مستجمعـا
فلـم يـزل يوقدهـا دائبًـا حتـى إذا ما اضطرمـت أقلعـا

ومن الغريب ثالثة أن يصدر هذا الشعر النبيل العميق عن ماجن فاسق كمطيع بن إياس . لكن لا عجب ، فالنفس الإنسانية أوقيانوس هائل الأرجاء بعيد القرار تستكن فيه العجائب ، التى تطفو على السطح حيث ومتى لا يتوقعها الإنسان .

وفى عتابه ليحيى هذا ، ويبدو أن ذلك كان غبَّ القطيعة التى صورتها الأبيات السالفة ، يقول مطيع :

إن تصلنـــى فمثلـــك اليـــوم يُرْجَـــى ... عَفْوُه الذنْـبَ عـــن أخيـــه ووصلُـــهْ
ولئـــن كنـــتَ قـــد هممتَ بهجـــرى ... للذى قـــد فعلـــتُ إنّـــى لأهلُـــــه
وأحـــقّ الرجـــال أن يغفـــر الذنـــ ... ـــب لإخوانـــــه الموقَّـــــر عقلُـــه
الكريـــم الـــذى له الحسـب الثـــا ... قـب فـــى قومـــه ومن طاب أصلُه
ولئـــن كنـــت لا تصاحـــب إلا ... صاحبـا لا تـزلّ ، ما عاش ، نَعْلُهْ
لا تجـــده وإن جهـــدت ، وأنّـــى ... بالـــذى لا يكـاد يوجـد مثْلُـــهْ ؟

... إلخ

وهذه الأبيات هى وقول بشار الآتى متقاربان فى المعنى :

إذا كنـتَ فـى كـل الأمـور معاتبـا ... صديقـــك لم تلـق الـذى لا تعاتبهْ
فعـش واحـداً أو صـل أخـاك ، فإنه ... مقـــارفُ ذنـــبٍ مـرة ومجانبـــه
إذا أنـت لم تشرب مرارا مـن القـذى ... ظمئت . وأى الناس تصفو مشاربه ؟

وقد كان مطيع وبشار متعاصرين . وهما من مخضرمى الدولتين .

ومن إخوانياته أيضا هذه المقطوعة :

أزور أخـى فـى رحلـــه ويزورنـى ... ملاطفـــةً منـــا وحســـن وصـال
ونطـــرح فيمـــا بيننـا حشمة الألـى ... تعاطـــوا ودادا لا ينـــم بحـــال
فيأكـل مـن أكلى ويشـرب مشربـــى ... ويسعـــى بسَعْـــيٍ ناصـــرا ويوالـى
فروحـــى لـــه روح ، ومهجـــة نفسه ... كمهجـة نفسى فـى جميع خـلال

وهى ، مِثْلَ القصيدة السابقة ، تصف ذلك الانصهار النفسى الذى يجعل كلاً من الصديقين يرى بعين أخيه ويسمع بأذنه ويشعر بقلبه ويفكر بعقله ، ولا يجد معه للقلق ولا للخوف فى نفسه حسًّا ، بل اطمئنانا وسلامًا وسكينة وانسجاما !

وقد ترك مطيع مقطوعة وقصيدة فى التحسر على الشباب . فأما المقطوعة فهاهى ذى :

يا لهف نفسى على الشبابِ ... إنى عليه لذو اكتئابِ
أصبحت أبكى على شبابى ... بكاء صبٍّ على التصابى
وأصبح الشَّيْبُ قد علانى ... يدعو حثيثا إلى الخضابِ

وأما القصيدة فمملوءة إبداعًا فنيًّا وشجنًا موجعا ، وتعمقا فزعًا فى طبيعة الحياة ، التى لا تترفق ببنى الإنسان بل تدعّهم فى أقفائهم وظهورهم بكل فظاظة نحو الحافة حتى تسقطهم من فوق الجبل فيتحطموا وتذهب أشلاؤهم فى وادى الهلاك بددا :

إنى لباكٍ على الشباب وما ... أعرف من شرَّتى ومن طربى
ومن تصابِىَّ إن صبوتُ ، ومن ... نارى إذا ما استعرت فى لهبى
أبكى خليلا ولَّى ببهجته ... بان بأثواب جِدَّةٍ قُشُبِ
على الأحمّ الأثيث منسدلاً ... على جبينى تهدل العنب
كان صفيّى دون الصفىّ وذا الـ ... ألفة منى فى الودّ والحدَب
كان خليلى على الزمان ، فإن ... راب بريب أبَى فلم يَرب
كان إذا نمتُ قال : قم . فإذا ... قمتُ سما بى لأعظم الرتب
وكان أنسى إذا فزعت له ... وكان حصنى فى شدة الكُرَبِ
وا بأبى أنت من أخى ثقة ... لو كان تُغْنِى مقالتى بأبى
إنى لباكٍ عليه أعْوِلُه ... بواكف إن أجِلْه ينسكب
كل خليل مضى ففارقنى ... كان شوى لو ثوى فلم يغب
قارعه عنى الزمان فقد ... صرتُ له فى الأذى وفى التعب
ويحك يا دهر ! كيف جئت بما ... أكره جهرا علىَّ من كَثَب ؟
شوَّهْتَنى بعد منظر حسن ... كان فيه سبائك الذهب
قلبتَ لونى إلى السواد ، وقد ... بيضت رأسى فصار كالعُطُب

مازلـت ترمـى مخّـى فترهقـه وتنتحـى بالفتـور فـى عصبـى
حتـى كأنـى ، ولـم أقـم ، لَغِـبٌ وكنـتُ أعلـو الـذُّرَا بلا لَغَـبِ

سبحان المبدع ! أى شعر هذا يا ربى ؟ انظر كيف يجعل الشاعرُ الشباب خليله . وأى خليل ؟ إنه خليله ضد الزمان . وانظر كيف يصوِّر حيوية الشباب وتدفقه بالعرام والنشاط وحبّ الحركة والطموح إلى المعالى . إنه يسوِّى منه شخصا مستقلا عنه ، ينام هو ولكن هذا الشخص لا يطيق أن يراه نائمًا فيهيب به أن : « استيقظ » ، ثم لا يتركه بعد أن يستيقظ بل يظل يحفزه لأسمى المطامح والمعالى . وانظر ثالثا إلى هذه الحسرة اللذاعة التى تتصبّب من صراخه الباكى فى وجه الزمن :

ويحك يا دهـر ! كيـف جئت بما أكـره جهـرا علـىَّ مـن كَثَـبِ ؟
شوهتنـى بعـد منظـر حسـن كـأن فيـه سبائـك الذهـب

وانظر رابعًا إلى تصويره فى أول القصيدة لشعره فى شبابه ، أيام أن كان أثيثًا ثريا منسدلا على جبينه ، فى صورة عناقيد العنب المتهدلة من عروشها . وفى هذه الصورة الفذّة إيحاءٌ بالظلال الرطبة الفينانة تحت عروش الكَرْم ، وبحلاوة مذاق العنب ، وبالنشوة التى يحدثها عصيره فى من يهيمون بالخمور ، والشاعر أحدهم . فتأمل باللّه عليك كيف أصاب الشاعر هذا كلَّه بكلمتين اثنتين لا غير : « تهدل العنب » ! هذا هو الشِّعْر ! بل هذا هو السحر ! وسحقًا لمن يتنكب هذه الفتنة السالبة للألباب ويجرى إلى الممدوحين يركع تحت أقدامهم فى ذلةٍ ليسمعنا بل ليلقمنا فى غالب الأمر حصًى وحجارة !

وبرغم ذلك نأتى إلى مديح مطيع . وأنا من الذين يبغضون شعر

المديح ، إلاَّ إذا كان فى بطولةٍ أو إنجاز عام تفيد منه الأمة ويقوى به الدين . أما المدح من أجل الاستجداء فهو أثقل على قلبى من الجبال . ولا ينقضى عجبى من فشوّه المسرف فى تاريخنا السياسى والأدبى .

وقد مدح شاعرنا معنَ بن زائدة ، والغمْرَ بن يزيد (أخا الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك) ، وجريرَ بن يزيد القسرى ، وموسى بن الهادى . ويبدو أنه كان قد مدح مَعْنًا فخيّره معن بين أن يكافئه على مديحه بمال أو يمدحه فى مقابله بشعر ، فكان جوابه :

ثناءٌ من أميرٍ خَيْرُ كَسْبٍ ... لصاحب مغنمٍ وأخى ثراءِ
ولكن الزمان برى عظامى ... وما لى كالدراهم من دواءِ

على أن فى الديوان قصيدة من عشرين بيتا فى معن وابنيه ليس فيها شىء جديد ، منها الأبيات التالية ، وهى من بدايتها . وفيها تلاحظ كيف دخل الشاعر فى غرضه مباشرة دون أية مقدمات :

أهلاً وسهلا بسيّد العرب ... ذى الغُرر الواضحات والنُّجُبِ
فتى نزار وكهلها وأخى الـ ... ـجود حوى غايتيه من كَثَبِ
قيل : أتاكم أبو الوليد ، فقا ... ل الناس طرّا فى السهل والرَّحَب :
أبو العفاة الذى يلوذ به ... من كان ذا رغبة وذا رهب
جاء الذى تُفْرَج الهموم به ... حين يُلَزُّ الوضين بالحَقَبِ
جاء وجاء المضاء يقدمه ... رأىٌ إذا همَّ غير مؤتشب

وفى الديوان أحد عشر بيتا فى مدح الغمر بن يزيد . وهو يبدؤها بنصح نفسه أن يدع الصبابة والبكاء فى الحب ، فكم أحبَّ واستمتع :

واذكر فتى بيمينه ... حتفُ الزمان لدى التوائهْ
واذا أميةُ حُصّلتْ ... كان المهذّبَ فى انتمائه
واذا الأمور تفاقمت ... عظما فَصَدّرْها برائه

إلى آخر هذا الكلام الذى لا يقدم فى الفنّ ولا يؤخر .

كذلك فقد مهَّد لمديحه فى جرير بن يزيد القسرى بمقدمة غزلية ينتقل منها فجأة إلى تصوير موقف الوداع بينه وبين ابنته حين همَّ بالرحيل إلى ممدوحه للاعتفاء :

أمـــن آل ليلـى عزمـــت البكـــورا ... ولـم تلـق ليلى فتشفى الضميرا ؟
وقـد كنـتَ دهـرك فيمـا خـــلا ... لليلـــى وجـــارات ليلـــى زمورا
ليالـــى أنـــت بهـــــا معجـب ... تهيـــم إليهـــا وتعصـــى الأميـرا
وإذ هـــى حـــوراء شبـــه الغـزال ... تُبْصـــر فـــى الطـرف منهـا فتورا
تقـــول ابنتـــى إذ رأت حالتـــى ... وقرَّبـــتُ للبيـــن عَنْسًـــا وكُورا :
إلـى مـــن أراك ، وقتـك الحتـــوفَ ... نفســـى ، تجشَّمْتَ هذا المسيرا ؟
فقلـــت : إلـــى البَجَلـــىّ الـــذى ... يفـــك العنـــاة ويغنـــى الأسيـرا

وقرب نهاية القصيدة يذكر الناقة « العيسجور » التى حملته إلى ممدوحه ، ويفتخر بالشّعر الذى « حبَّره » فى الثناء عليه ، هذا الشعر الذى يستلذه الرواة لما فيه من إحكام وقوة سبك .

أما بالنسبة لمديحه فى موسى الهادى فليس منه فى الديوان إلا هذه الأبيات الثلاثة :

أحمـــــد اللـــــه إلـــه الـــ ... ـخلـــــق رب العالمينـــــا
الـــــذى جـــاء بموســـــى ... سالمًـــا فـــى السالمينـــا
الأميـــر ابـــن الأميـــر ابـــ ... ـن أميـــر المؤمنيـــــا

فإذا جئنا إلى هجاء مطيع وجدنا أن مهجوّيه هم أبوه ، وحماد عجرد ، وحماد الرواية ، وجوهر (القينة التى كان مغرمًا بها أشد الغرام ثم انقلب فهجاها هجاءً مفحشا) ، وأبو دهمان ، ومن اسمه عباس ، وبعض أشخاص لم يُسَمَّوْا ، وأن هجائياته فى الغالب قصيرة ، وأن حظها

من الفنّ والإيلام قليل ، اللهم إلا حين يفحش ، فقد يأتى حينئذ بالعجب العجاب ، كما رأينا فى هجائه لجوهر . وهذه أمثلة من هجائه . قال يسخر من أبيه :

هـــذا إيـــاس مقبـــلا ... جـاءت بـــه إحـــدى الهنـات
هَـــوَّزُ فـــوه ، وأنفـــه ... كَلَمُـنَّ فـى إحـــدى الصفـات
وكـــأن سَعْفَـــص بطنُـــه ... والثغـــر شيـــنُ قُرَيْشـات
لمـــا رأيتُـــك آتيـــا ... أيقنـــت أنـــك شـــرُّ آت

ويبدو أنه قالها فى أبيه حين رآه ذات مرة مقبلاً وهو عاكف مع أمثاله من الفسقة على المجون والنساء ، فعرف أنه لائمه وموبِّخه . وربَّما كان أبوه آنئذ قد تقدمت به السن ، فإن فى تركيز الأبيات على التهكم بمنظره ما يوحى بأن الكبر كان قد عبث بشكل قوامه وملامح وجهه .

وقال فى شخص لم يسمَّ فى الديوان :

إن ممـــا يزيدنـــى فيـــك زهـــدا ... أننـــى لا أراك تصـــدق حَرْفـــا
لا ولا تكتـم الحديـــث ولا تنـــ ... ـــطق جـدا ولا تمـازح ظرفـــا
وإذا منصـــف أرادك للنَّصْـــ ... ـــف أبيـت الوفاء وازددتَ خُلْفَـــا
وإذا قـــال عارفًـــا قلـتَ سـوءا ... وإذا قـــال منكـرا قُلْـــتَ عرْفـــا

وهجا أبا دهمان من قصيدة تبلغ واحدًا وعشرين بيتًا شغلت المقدمة الغزلية وذكريات الخمر والمجون منها خمسة عشر بيتا ، وخلصت الأبيات الستة الأخير لهجاء أبى دهمان :

مَـنْ عـــاذرى مـــن خليـــل ... موافـــــق مِلْـــــدان
مداهـــــن متـــــوان ... يُكْنَـــى أبـــا دهمـــان ؟
متـــى يَعـــدْك لقـــاءً ... فالنجـــم والفرقـــدان
وليـــس يغنـــم إلاّ ... سكـــرانَ مـــع سكـــران

يسقيـــــه كـــــلُّ غـــــلام كأنـــــه غصـــــن بـــــان
مـــــن خندريـــس عُقـــــارٍ كحمـــــرة الأرجـــــوان

وهو كما ترى هجاء يفتقد الحرارة واللذع . ولكن اسمع قوله فى هجاء حماد عجرد :

إن حمـــــــادا لئيـــــــمٌ سفلـــــة الأصـــــل عديـــــمُ
لا تـــــراه الدهـــــرَ إلا بهَـــــن العَيْـــــر يهيـــــم

وقد تكرر عنده الهجو بثقل الروح :

قـــل لعبـــاس أخينـــا : يا ثقيـــــل الثُقـــــلاء
أنـــت فـــى الصيـــف سَمُـــومٌ وجليـــــدٌ فـــى الشتـــاء
أنـــت فـــى الأرض ثقيـــلٌ وثقيـــل فـــى السمـــاء

* * *

أيهـــا الداخـــل الثقيل علينا حيـن طاب الحديـث لى ولصحبى
خـــفّ عنـــا ، فأنـــت أثقـل واللـ ـه علينا من فرسخـى دير كعب
ومـن النـاس مـن يخـف ، ومنهـم كرحـى البَـزْر رُكّبـت فـوق قلبـى

* * *

وكتب إليه حماد الرواية :

هـــل لذى حاجـــة إليـك سبيـــلُ لا يطيـــل الجلوس فيمن يُطيـلُ ؟

فأجابه بهذا البيت :

أنـــت يا صاحـــب الكتـاب ثقيـل وكثيـــر مـــن الثقيـــل القليـــلُ

وبالنسبة لخمرياته فإنه لا يطيل فيها . وأحيانا ما نجدها أبياتا مستقلة ، وأحيانا ما نعثر عليها بين أبيات فى موضوعات أُخر . وبعضها هزل وعبث ، وبعضها الآخر وصف لمجلس الشراب . وقد تعدَّد عنده اقتران الخمر والغناء ، وهذا طبيعى ، فقد كان شُرّاب الخمر فى تلك العصور

كثيراً ما يحتسونها على أنغام الموسيقى وغناء القيان :

ويـــوم ببغـداد نعمنـــا صباحـــه ... على وجـه حـوراء المدامـع تُطْـرِبُ
ببيـت تـــرى فيـــه الزجـاج كأنه ... نجـوم الدجى بيـن الندامَى تقلَّـب
يصـــرّف ساقينـــا ويقطـب تـارة ... فيـا طيبهـا مقطوبة حين يقطب !
علينـا سحيـق الزعفـران وفوقنـا ... أكاليـل فيهـا الياسميـن المذهـب
فمازلـت أُستَقَى بيـــن صَنْـجٍ ومزهـر ... من الراح حتى كادت الشمس تغـربُ

* * *

قـد شربنـــا ليلـــة الأضـــ ... ـحى وساقينـــا يزيـــدُ
عندنـــا الفهمـــيّ مســـرو ... رٌ وزمّـــار مُجيـــد
وسليمـــان فتانـــا ... فهـــو يبـــدى ويعيـــد
ومعـــاذ وعيـــاذ ... وعميـــر وسعيـــد
وندامـــى كلهـــم يقلـــ ... ـز ، والقَلْـــز شديـــدُ
بعضهـــم ريحـــان بعـــ ... ـض فهمـــو ومســـك وعـــود
غابـــت الأنحـــس عنهـــم ... وتلقتهـــم سْعـــود
فتـــرى القـــوم جلوســـا ... والخنـــا عنهـــم بعيـــدُ
ومطيـــع بـــن إيـــاس ... فهـــو بالقصـــف وليـــد
وعلـــى كـــرّ الجديديـــ ... ـن وما حـــلّ جليـــدُ

* * *

خرجنـــا نمتطـــى الزَّهْـــرا ... ونجعـــل سقفنـــا الشجـــرا
ونشربهـــا معتقـــة ... تخـــال بكأسهـــا شـــررا
وجوهـــر عندنـــا تحكـــى ... بـــدارة وجههـــا القمـــرا
يزيـــدك وجههـــا حسنـــا ... إذا مـــا زدتـــه نظـــرا
وجوهـــر قـــد رأيناهـــا ... فلـــم نـــر مثلهـــا بشـــرا

وتخلو خمريات مطيع من وصف الحانات وخوف أصحابها ممن يطرقون أبوابهم فى هدوّ الليل ، ظنا أنهم من الشُّرَط . كما تخلو من

فإذا أضفنا إلى ذلك خفة روحه تبين لنا السبب فى أن القارىء لا يحسّ ، على الأقل فى بداية الأمر ، بشناعة بذاءاته حين يبذؤ (٦٣) . إن هذه الملامح ، بحسنها وجاذبيتها ، تخدّر القارىء وتلطّف من عُرْى ألفاظ الشاعر وعباراته وصوره . لنستمع إلى هذه الأبيات ، فهل تجد أسلس منها عبارة وأرشق وزنا وأقدر على الاستيلاء على النفس وتنميل عقل القارىء وإنامة حاسته الأخلاقية الناقدة ؟ :

نَعَم لنا نبيذٌ ... وعندنا حمادُ
وخيرنا كثير ... والخير مستزاد
وكُلُّنا من طرب ... يطير أو يكاد
وعندنا واديُنا ... وهو لنا عماد
ولهونا لذيذ ... لم يَلْهُه العباد
إن تشتهى فسادا ... فعندنا فساد
أو تشتهى غلاما ... فعندنا زياد
ما إن به التواء ... عنّا ولا بُعاد

إننى على كثرة ما قرأت ودرست من شعر لم أجد مثل هذا البيت الذى يساوى فى موضعه من القصيدة ديوانًا كاملا ، والذى لا أعرف أى شيطان من شياطين الفن فى وادى عبقر قد وسوس به للشاعر :

إن تشتهى فسادا ... فعندنا فساد

إننى أتخيل مطيعًا وقد وقف على قارعة الطريق ينادى صائحًا مغنيا يغرى المارة بالتعريج عليه والشراء من بضاعته :

إن تشتهى فسادا ... فعندنا فساد
أو تشتهى غلامًا ... فعندنا زياد

ويا لها من بضاعة ! ويا له من فاجر يزين الفسق ويبيعه ! ولكن خفة وزن

أبياته وخفة روحه وخفة لفظه وعبارته قد أذهلتنا عن هذا الفسق والفجور . أرأيت الفساد قبل ذلك يتحول من صفة للشخص أو للسلوك إلى شيء يوفره شخص لآخر ويقدمه ؟ يا له من شيطان !

وهذه الأبيات لا تُعَدُّ مع ذلك شيئا بجانب أشعار أخرى له بلغ الغاية فيها من الصراحة المفحشة . وقد أوردنا بعضها من قبل ، بعد أن حذفنا منها فحشها .

ومن ملامح الشعر المطيعى أيضا أنه أحيانا ما يذكر المقدّسات فى سياق ينبو عنها . إنه مثلاً يحلف باللّه ويستعمل صيغة من الحلف مغلَّظة ، إذ يقسم بـ « ما أعْمل الحجيجُ له » ، ولكن على ماذا يحلف ؟ لنقرأ :

إنى وما أعمل الحجيج له ... أخشى مطيع الهوى على فَرَج (٦٤)
أخشى عليه مغامساً مَرسا ... ليس بذى رقبة ولا حرج

ومن ذلك أنه « يسجد » لـ ... المرأة :

ولما بدا لى جائما ... كرأس حليق ولم يعتمد
سجدتُ له وقبّلته ... كما يفعل الساجد المجتهد

ومع ذلك فلابدَّ من المبادرة بالقول بأن ذلك قليل جدا فى شعر مطيع .

وقد تكرر عند الشاعر ذكر اسمه واسم أصدقائه :

وتذكرت إخوانى وندامى ... ى فهاج البكاءَ تذكارُ صحبى
...
طلحة الخير منهم ، وأبو المنـ ... ـذر خلّى ، ومالكٌ ذاك تربى

* * *

نعم لنا نبيذٌ ... وعندنا حمّادُ
...

أو تشتهـــى غلامـــا فعندنـــا زيـــادُ

* * *

قـد شربنـا ليلـة الأضحـ ـى ، وساقينـا يزيـدُ
عندنـا الفهمـى مسـرو رٌ وزمّـار مُجيـد
وسليمـان فتانـا فهـو يبـدى ويعيـد
ومعـاذ وعيـاذ وعميـر وسعيـد

...

ومطيـع بـن إيـاس فهـو بالقصـف وليـدُ

* * *

وقـد قلـتُ معلنـا لسعيـد وجفعـرِ
إن أتتنـى منيتـى قدمـى عنـد بربـر
قتلتنـى بمنعهـا لـىَ مـن وصـل جوهـر

وهذه السمة مما يساعد على قرب أشعار مطيع من القلوب ، إذ تُزيل الكلفة وتدنينا منه ومن أصحابه .

وهو أحيانا ما يكرر الكلمة أو العبارة ، مثل :

ما الـذى غـال أن تحيـر جوابـا أيهـا المصقع الخطيـب الأديـب ؟
فلئـن كنـت لا تُحيـر جوابـا ربما قـد تُرَى وأنـت خطيـب

* * *

حبـذا عيشنـا الـذى زال عنـا حبـذا ذاك حيـن لا حبـذا ذا
أيـن هـذا من ذاك ؟ سقيا لهـذا ك ، ولسنـا نقـول : سقيًـا لهـذا

* * *

ألا إن أهـل الـدار قد ودّعـوا الدارا وقد كان أهل الدار فى الدار أجوارا

* * *

ويلـى ! لقـد بَعُـدتْ ديـا رك . سُلّمَـتْ تلـك الدّيـارُ

...

يُغْشَى بريقتها السَّقَا ... مُ كأن ريقتها العقارُ

* * *

أمن آل ليلى عزمت البكورا ... ولم تلق ليلى فتشفى الضميرا ؟
وقد كان دهرك فيما خلا ... لليلى وجارات ليلى زءورا

...

عشير الندى ليس يَرْضَى الندى ... يد الدهر بعد جرير عشيرا

* * *

لهف نفسى على الزمان ، رفيقى ... أى زمان دهتنى الأزمان ؟

وقد لاحظت استعمال مطيع ثلاث مرات لتركيب يبدو أنه غير شا فى الأسلوب العربى ، وهو « فعْلَةً ما فعلْت » ، وذلك فى الأبيا التالية :

طربةً ما طربتُ فى دير كعب ... كدتُ أقضى من طربتى فيه نحبى

* * *

نظرة ما نظرتُها ... يوم أبصرت مالكا

•

نظرة ما نظرتُها ... أوردتنى المهالكا

ثم مات مطيع . وقد قال فيه د. طه حسين كلمة من أورع وأبد ما قيل فى وصف موت إنسان . قال : « وإذا صح ما تحدث به الروا فقد كان موت مطيع شعرا لا يعدله شعر . قالوا : سأله الطبيب فى علته التى مات فيها : ماذا تشتهى اليوم ؟ فأجاب : أشتهى ألا أموت » . ث علق د. طه على هذا الجواب البديع ، فقال : « أترى جوابا أكثر شعرا وأغزر معنى ، وأشد تمثلا لضعف الإنسان وقوة رغبته فى الحياة من هذا الجواب ؟ » (٦٥) .

ولقد كنت أحب لو أن د. طه لم يتحرز بجملة الشرط فى أول كلامه ، فإن لمطيع بيتين قالهما وهو على سرير الموت . وهما بيتان من أعذب الشعر وألذعه للفؤاد وأكشفه عن الرغبة المتأصلة فى نفوسنا كلنا نحن البشر ، بل نحن الكائنات الحية جميعا ، إلى الخلود واللذة والسعادة . قال

لهف نفسى على الزّمان ! وفى ... أىّ زمان دهتنى الأزمانُ ؟
حين جاء الربيع ، واستقبل الصّيـ ... ـف ، وطاب الظّلاءُ والريحانُ

وهذان البيتان يدلاّن على أن موت مطيع كان بدون تحرز شعرًا لا يعدله شعر .

الهوامش

١- انظر « الأغانى » / مؤسسة عز الدين / بيروت / ١٢ / ٧٥ - ٧٦ ، وانظر فى نسبته كذلك المرزبانى / معجم الشعراء / القاهرة / ١٣٥٤ هـ / ٤٨٠ ، ود . عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م / ١٠١ . .

٢- الأغانى / ١٢ / ٧٥ ، ونهاية الأرب / القاهرة / ١٩٢٢ م / ٤ / ٥٨ .

٣- الأغانى / ١٢ / ٧٦ ، والخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / الخانجى / القاهرة / ١٩٣١ / ١٣ / ٢٢٥ .

٤- ص / ٤٨٠ .

٥- انظر « الأغانى » / ١٢ / ٩٢ . وقد أورد غوستاف فون غروبناوم هذه الرواية فى كتابه « شعراء عباسيون » / دار مكتبة الحياة / بيروت / ١٩٥٩ م / ١٥ ، ولكنه وضع مكان الفضل هذا ابنه محمدًا ، مع أن دور محمد لا يتعدى رواية القصة عن أبيه .

٦- العصر العباسى الأول / دار المعارف بمصر / ط ٦ / ٣٩٠ .

٧- انظر كتابه « الشعراء من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية » / مكتبة المحتسب بعمان ، ودار الجيل ببيروت / ط ١ / ١٩٧٤ م / ٢٢٢ .

٨- الأغانى / ١٢ / ٩٢ .

٩- انظر هذه الأبيات فى « الأغانى » / ١٢ / ٩٩ ، وفى « شعراء عباسيون » لغوستاف فون غرونباوم / ٣٨ .

١٠- إذا سكتُّ عن ذكر المرجع الذى أنقل منه ما أستشهد به من شعر للشاعر فيمكن الرجوع لكتاب « شعراء عباسيون » لجرونباوم ، الذى جمع فيه شعر مطيع ، إلى جانب شعر سلم الخاسر وأبى الشمقمق .

١١- الأغانى / ١٣ / ٨٦ .

١٢- انظر فى هذه الأبيات وأسبابها د . أحمد أمين / ضحى الإسلام / ط ٧ / مكتبة النهضة المصرية / ١ / ٣٧ - ٣٨ .

١٣- انظر فى هجاء حماد عجرد له « الأغانى » / ١٣ / ٨٦ ، ٩١ .

سوف أناقش « زندقة والحاد » مطيع فيما بعد .

١٥- انظر « تاريخ الأدب العربى » لبروكلمان / ترجمة د . عبد الحليم النجار / دار المعارف بمصر / ط ٤ / ٢ / ٦٩ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٩٧ ، وكتابى « المتنبى - دراسة جديدة لحياته وشخصيته » / القاهرة »/ ١٩٨٧ م / ٦٥ - ٦٦ .

١٦- انظر « الأغانى » / ١٢ / ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٦ ، وبروكلمان / تاريخ الأدب العربى / ٢ / ١٢ .

١٧- طبقات الشعراء / تحقيق عبد الستار أحمد فراج / دار المعارف بمصر / ٩٥ .

١٨- الأغانى / ١٢ / ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١ .

١٩- الأغانى / ١٢ / ٩٥ - ٩٦ .

٢٠- الأغانى / ١٢ / ٨٥ . وانظر أيضا « أمالى المرتضى » / مطبعة السعادة / القاهرة / ١٩٠٧ م / ١ / ٩٨ .

٢١- الأغانى / ١٢ / ٩٦ .

٢٢- تاريخ بغداد / مطبعة السعادة / القاهرة / ١٩٣١ م / ١٣ / ٢٢٥ .

٢٣- مروج الذهب / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد / مطبعة السعادة / القاهرة / ١٩٥٨ م / ٤ / ٣١٥ .

٢٤- جرجى زيدان / تاريخ آداب اللغة العربية / مراجعة وتعليق د . شوقى ضيف / دار الهلال / ٢ / ٨٦ .

25- A Literary History of the Arabs , Cambridge University Press , 1979 , p. 291 .

٢٦- حديث الأربعاء / دار المعارف / ط ١٣ / ٢ / ١٥٣ .

٢٧- نفسه / ٢ / ١٥٩ .

٢٨- نفسه / ٢ / ١٥٥ - ١٥٦ .

٢٩- تاريخ الأدب العربى / ٢ / ١٢ .

٣٠- شعراء عباسيون / ١٨ .

٣١- نفسه / ١٩ - ٢٠ .

٣٢- العصر العباسى الأول / ٣٩٠ .

٣٣- انظر كتابه « اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى » / المكتب الإسلامى / ط ١ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ٢٥٩ - ٢٦١ .

٣٤- الشعراء من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية / ٢٢٥ .

٣٥- نفس المرجع والصفحة .

٣٦- نفسه / ٢٢٧ - ٢٢٨ .

٣٧- انظر فهرست الجزء الثانى من كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » / ٣٥٠ .

٣٨- انظر كتابه « اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى » / ٢٦١ .

٣٩- انظر « ديوان ديك الجن » / تحقيق د . أحمد مطلوب وعبد الله الجبورى / دار الثقافة / بيروت / ٤٩ .

٤٠- انظر كتابه « شعراء عباسيون » / ٣١ - ٧٦ .

٤١- الأغانى / ٥ / ١٦١ (فى ترجمة حماد الراوية) .

٤٢- انظر « الأغانى » / ٣ / ٨٣ .

٤٣- الأغانى / ١٣ / ٧٩ - ٨٠ ، وشعراء عباسيون / ٤١ .

٤٤- الأغانى / ١٢ / ٩٠ ، و ١٤ / ٨٩ .

٤٥- انظر « الشعراء من مخضرمى الدولتين » / ٢٩١ .

٤٦- هذه على أنها من شعر ابن القعقاع .

٤٧- وهذه على أنّها لمطيع .

٤٨- فعل ماض أجوف ذو معنى بذيء .

٤٩- كلمة عارية .

٥٠- صيغة المضارع المبنى للمجهول من الفعل المشار إليه فى الهامش قبل السابق .

٥١- انظر « الأغانى » / ١٢ / ٩٤ ، وشعراء عباسيون / ٥٩ - ٦٠ .

٥٢- أى كُلْ ترابا بدل القبلة .

٥٣- هناك رواية تقول إنها فى جارية له . ولكن أبا الفرج يردّها (الأغانى / ١٢ / ١٠٢). وأنا أرى رأى أبى الفرج ، فقد ذكر الشاعر ابنة الدهقان نصّا فى القصيدة . علاوة على أن الأسى الذى يُجلّلها يدل على أن محبوبته ليست من الجوارى السهلات ، بل امرأة ذات شأن ومكانة .

٥٤- بلدة فارسية .

٥٥- يقصد متاع المرأة .

٥٦- انظر « الأغانى » / ١٢ / ١٠١ . والأبيات موجودة فى « شعراء عباسيون » دون القصة / ص ٧٦ . وهى مما أضافه د . محمد يوسف نجم (مترجم الكتاب) من أشعار إلى ما كان قد جمعه جرونباوم .

٥٧- انظر « العصر العباسى الأول » / ٣٩٣ .

٥٨- شعراء عباسيون / ٤١ .

٥٩- السابق / ٥٣ .

٦٠- نفسه / ٤٧ .

٦١- نفسه / ٦٠ .

٦٢- د . شوقى ضيف / الفن ومذاهبه فى الشعر العربى / دار المعارف بمصر / الطبعة التاسعة / ١٧٢ .

٦٣- شذَّ عن ذلك قصيدته التى قالها فى الأصبغ وما فعله حماد عجرد به . والعجيب أن هذه القصيدة تخلو من اللفظ الصريح النابى ، ومع ذلك فهى منتنة .

٦٤- اسم غلام .

٦٥- حديث الأربعاء / ٢ / ١٥٩ .

أبو الشِّيص الخُزَاعى

أبو الشيص هو لقب محمد بن عبد الله بن رزين الخزاعى ، ابن عمّ (وعند البعض : عم) دعبل الشاعر المشهور . وكان ابنه عبد الله بن أبى الشيص شاعرًا كذلك . وهو من ذرية الصحابى الجليل بديل بن ورقاء ، رضى الله عنه . وقد وُلد بالكوفة فى أواخر الثلث الأول أو أوائل الثلث الثانى من القرن الثانى الهجرى ، ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد ، ومدح هارون الرشيد ورثاه ، ومدح ابنه الأمين حين تولى الخلافة . وانتهى أمره إلى عقبة بن جعفر بن الأشعث الخزاعى ، أمير الرقة ، الذى انقطع له وقضى بقيه حياته يمدحه وينعم بعطاياه (١) .

وثمة ارتباط بين اسم أبى الشيص والقصيدة « الدعدية » المشهورة التى تعكف ، فى ثلاثين بيتًا ويزيد ، على وصف جسد امرأة اسمها « دعد » وصفا مفصلاً يبدأ من شعرها ، ويهبط إلى قدميها ، مارًا بأثدائها وسرتها و... وأفخاذها مرورًا غير عجل . وسوف نتناول فيما بعد هذه القضية لنرى أتلك القصيدة من نظم أبى الشيص أمْ لا .

ويدور الشعر الذى وصل إلينا من أبى الشيص على الغزل والنسيب ، ووصف الخمر ومجالس الشراب ، والحديث عن هجوم المشيب والحسرة على الشباب وأيامه الزاهرة ، والوقوف على الأطلال ، والمدح والرحلة إلى الممدوح ، والصداقة والصديق ، فضلاً عن إشارة سريعة إلى قرب انطفاء بصر الشاعر ، وبعض أبيات فى ذم بغداد لكثرة براغيثها وكلابها العاوية . ويبلغ عدد الأبيات المقطوع بنسبتها إليه نحو ثلاثمائة وثلاثين بيتا . أما المتنازع

عليه فهو اثنان وعشرون ، عدا الدعدية ، وأبياتها ستة وستون . وأغلب شعره الذى وصل إلينا عبارة عن نتف من بيت أو بيتين أو ثلاثة ، أو مقطوعات . والقليل منه قصائد طويلة .

وهو فى الغزل يستخدم أحيانا ضمير المذكر ، وأحيانا أخرى ضمير المؤنث . ومن هنا فإن من الصعب فى بعض الحالات التى يستعمل فيها ضمير المذكر معرفة جنس الحبيب الذى يتغزل فيه . لنأخذ مثلا هذه الأبيات الثلاثة :

يا حبذا الزَّوْر الذى زارا ... كأنه مقتبس نارا
نفسى فداء لك من زائر ... ما حلَّ حتى قيل قد سارا
مرَّ بباب الدار فاجتازها ... يا ليته لو دخل الدارا (٢)

أو هذين البيتين

تخشع شمس النهار طالعة ... حين تراه ، ويخشع القَمَرُ
تعرفه أنه يَفُوقهما ... بالحسن فى عين من له بَصَرُ (٣)

ولا يجوز القول إنه وإن استعمل هنا ضمير المذكر فإنه يصف فتاة كعادة كثير من الشعراء العرب القدامى ، إذ إننا فى أبيات أخرى له نراه يتغزل فعلاً فى بعض الفتيان ، وذلك كقوله فى خادم لأبى دلف العجلى (أحد ممدوحيه) ، الذى أخبره أن ذلك الخادم لا يحب أن يكشف صدره أمام أحد لخوفه من العين :

وشادن كالبدر يجلو الدجى ... فى الفرق منه المسك مذرورُ
يحاذر العين على صدره ... فالجيب منه الدهرَ مزرور (٤)

وقد يكون غزله فى ساقية الخمر ، كقوله :

قد سقتنى والليل قد فتق الصبـ ... ـح بكأسين ظبيةُ حوراءُ

عـــن بنـــان كأنهـا قضب الفضـــــــــة حنّـــى أطرافهـــا الحنّـــاءُ (٥)

(ويبدو لى أن فى تشبيه أصابع المرأة بقضيب الفضة طرافةً ، إذ لا يرنُّ فى ذاكرتى مثل هذا الوصف) . ومن غزله فى ساقية الخمر أيضا هذا البيت الذى يشير فيه إلى دين الساقية والصليب الذى يتدلى من عنقها :

ليالـــى تسعـــى بالمدامـــة بيننـــا بنات النصارى فى قلائدها الصُّلُبُ (٦)

وقوله :

وظبـــــى يعطـــــف الأُزْرا ويثنيهـــا علـــى الخَصْـــر
علـــى ألطـــف ما شُـــدّت عليـــــه عُقَـــــد الأُزْر
مهـــاة ترتمـــــى الألبـــا ب عـــن قـــوس من السحـــر
لهـــا طـــرف يشـــوب الخمـــ ـــــر للنُّدمـــــان بالخمـــــر
عفيـــــف اللحـــظ والأعضـــا ء فـــى الصَّحْـــو وفى السُكْـــر

وقد تكرر عنده تغزُّله فى فتيات الحىّ اللائى تركن الديار وترحلن مع قبيلتهن ، واللائى نَعِمَ معهن من قبْلُ دهرًا من الزمان ، كما فى قوله :

وفـى عرصـات الحـىّ أظْـب كأنها موائد أغصـان تـأوّدُ فـى كُثْـبْ
عواتـق قـد صـان النعيـم وجوهها وخفّرها خَفْرُ الحواضـن والحُجُـبْ
عفائـف لم يكشفـن سترا لغَـدْرةٍ ولم تتتـح الأطـراف منهـن بالرِّيَـبْ
فأدرجهـم طىُّ الجديديـن ، فانطـووا كذاك انصداع الشعب ينأى ويقتربْ (٧)

وقوله :

ربـعٌ ترتَّـع فـى جوانبـه البِلَـى وعفـت معالمـه فهـن طُمُـوسُ
يدعـو الصـدى فى جوفه فيجيبـه رُبْـد النعـام كأنهـن قُسُـوسُ
ولربمـا جـرّ الصّبا لـى ذيلـه فيـه ، وفيـه مآلـف وأنيـس
مـن كل ضامـرة الحشـا مضهومـة لحبالهـا بحبالنـا تلبيـس
متستـرات بالحيـاء لوابـسٌ حُلَل العَفَاف عن الفواحش شُوسُ (٨)

وممن تغزل فيهن جارية له سوداء كان يعشقها ، فقال فيها :

لم تصفى يا سَمِيَّة الذهبِ ... تَتْلَفُ نفسى وأنت فى تعبِ

يا ابنه عم المسك الذكىّ ومن ... لولاكِ لم يُتَّخَذْ ولم يَطِبِ

ناسَبَكِ المسكُ فى السواد وفى الـ ... ـريح ، فأكرِمْ بذاك من نسبِ (٩)

وهو يشير فى غزله إلى العفاف ، وإلى طيب رائحة الحبيبة (وقد مرَّ هذا وذلك) ، ويصف العين وما تفعله بسهام كحلها وأهدابها :

يرمين ألباب الرجال بأسْهُمٍ ... قد راشهنَّ الكُحْلُ والتهذيبُ (١٠)

أو يقول إن المحبوب أجمل من الشمس والقمر :

تخشع شمس النهار طالعة ... حين تراه ، ويخشع القمرُ

تعرفه أنه يفوقهما ... بالحسن فى عين من له بَصَرُ (١١)

وهى كما ترى معانٍ مكررة ليس فيها جديد ولا حرارة ولا رونق . ومثلها مدح المرأة بطول الجيد ورهافة الخصر وحمرة الخدّ :

قل للطويلة موضع العقد ... ولطيفة الأحشاء والكبْد

...

جاءت إلى عينيك وجنتُها ... فى خلعة الخيرىّ والوَرْد (١٢)

كما أنه فى إعجابه بالتقصف فى المشى وارتجاج الأرداف إنما يجرى على سنة الذوق التقليدى :

عكفتْ بها عُفْر الظباء كأنها (١٣) ... بأكفّهن كواكبٌ وشموسُ

من كل مرتج الرداف أحورٍ ... كسرى أبوه ، وأمه بلقيسُ (١٤)

* * *

جارية تسحر عيناها ... أسفلها يجاذب أعلاها (١٥)

* * *

لولا التمنطق والسّوار معا ... والحجْل والدملوج فى العضد

لترايلت من كل ناحية ... لكن جُعِلْنَ لها على عَمْد (١٦)

ويبرز فى شعره وصف آلام الحبّ ، ويذكر أنه كان يسخر من المحبين ومعاناتهم إلى أن أصابه ما أصابهم :

وكم من ميتة قد متُّ فيها ... ولكن كان ذاك وما شعرتُ
وكنتُ إذا رأيتُ فتى يبكّى ... على شجن هززاتُ إذا خلوتُ
وأحسبنى أدال اللـه منى ... فصرتُ إذا بصُرتُ به بكيتُ (١٧)

* * *

جلا الصبح أوْبَىَ الكرى عن جفونه ... وفى صدره مثلُ السهام القواصدِ
تمكَّنَ من غرّاته الحبُّ فانتحى ... عليه بأيْدِ أيّداتِ حواشدِ
إذا خطرات الشوق قلّبْن قلبه ... شددن بأنفاسٍ شداد المصاعد (١٨)

* * *

يصبّرنى قومٌ براءٌ من الهوى ... وللصَّبْرُ تاراتٍ أمر من الصَّبْر (١٩)

* * *

دعتنى جفونك حتى عشقتُ ... وما كنتُ من قبلها أعشقُ
فدمعى يسيلُ ، وصبرى يزولُ ... وجسمى فى عبرتى يغرقُ (٢٠)

* * *

كم من سريرة حُبٍّ قد خلوتُ بها ... ودمعة تملأ القرطاس والقلَما (٢١)

ورغم هذه الآلام فإن حبيبته ظن أنه يصطنع ذلك اصطناعًا :

وقائلة وقد بصُرَتْ بدمع ... على الخدّين منحدر سكوب :
أتكذب فى البكاء وأنت خلو ؟ ... قديما ما جسرتَ على الذُّنوب
قميصك والدموع تجول فيه ... وقلبك ليس بالقلب الكئيب
نظير قميص يوسف حين جاؤوا ... على ألبابه بدم كذوب
فقلت لها : فداك أبى وأمى ... رجمت بسوء ظنك فى الغيوب
أما واللـه لو فتشت قلبى ... لسرك بالعويل وبالنحيب
دموع العاشقين إذا تلاقوا ... بظهر الغيب ألسنة القلوب (٢٢)

أما هو فإنه يستزيد من هذه الآلام ، ويستعذب إهانة حبيبته له :

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى ... متأخَّـرٌ عنـه ولا متقـدَّمُ
وأهنتنـى ، فأهنـتُ نفسى جاهـدًا ... ما مـن يهـون عليـك ممَّـن يُكْرَمُ
أشبهـتِ أعدائـى ، فصرتُ أحبهـم ... إذ كـان حظى منـكِ حظىَ منهمُ
أجـد الملامـة فـى هـواك لذيـذة ... حُبًا لذكرك ، فليلمنى اللُّوَّمُ (٢٣)

ومع ذلك نراه تارةً أخرى وقد أخذته حمية الكرامة إلى الجانب المقابل فهتف قائلاً :

إذا لم تكن طـرق الهـوى لى ذليلـة ... تنكبتُهـا وانجزتُ للجانب السَّهْـل
وما لِىَ أرضى منه بالجور فى الهـوى ... ولى مثله ألف ، وليس لـه مثلى (٢٤)

ولعل أطرف ما وقع لى من غزلياته هذا القَسَم الذى يؤكد به أنه قد وقع فى الحب :

أمـــا وحرمـــة كـــأس ... مـــن المـــدام العتيـــق
وعقـــد نحـــر بنحـــر ... ومـــزج ريـــق بريـــق
فقـد جـرى الحـب منـى ... مجـرى دمـى فى عروقـى (٢٥)

وقد اتهم ابن معصوم (فى القرن الثانى عشر الهجرى) شاعرنا بأنه أخذ هذا من قول عمر بن أبى ربيعة :

أمـا والراقصـات بـذات عـرق ... ودرب البيـت والركـن العتيـق
وزمـزم والمطـاف ومشعريهـا ... ومشتـاق يحـن إلـى مشـوق
لقـد دب الهـوى لـك فى فـؤادى ... دبيـب دم الحيـاة إلى عروق (٢٦)

إلا أن ابن معصوم قد حصر نفسه فى الإطار العام (فقد أقسم كلا الشاعرين بعدد من الأقسام على أن الحب قد جرى منه فى العروق) ، وغفل عن التنويعة التى أدخلها أبو الشيص فى قسمه ، إذ جعل المقسم به (وهو كأس الخمر والاحتضان والقبلات) من جنس المقسم عليه (وهو الوقوع فى الحب) . وكذلك ينبغى ألا يفوتنا أن أبا الشيص قد جعل

لكأس الخمر حرمة (كأس الخمر ، التى هى رمز الإثم والرجس والدنس) ، وهى لفتة ذهن غريبة تتمشى مع القسم بهذه الكأس وبالتفاف الجيد بالجيد ورشف سلافة ريق الحبيب .

ويقول شاعرنا إن النساء لا يتلفتن ، من الرجال ، إلى ذى الشيبة ولا إلى المعدم الفقير :

حَسَرَ المشيبُ قناعَه عن رأسه ... فرمينه بالصدّ والإعراض
اثنان لا تصبو النساء إليهما : ... ذو شيبة ومحالف الإنفاض
فوعودهن إذا وعدنك باطل ... وبروقهن كواذب الإيماض (٢٧)

* * *

لها عن صلة البيض ... نذير لذوى العَقْل
مصابيح مشيب وسمته ... سنى سمة الكهل
وعهدى بربيات ... ملاح الدلّ والشَّكْل
إذا جئتُ يرقّعن ... كُوَى بالأعين النُّجْل (٢٨)

* * *

فأقصرتُ لما نهانى المشيبُ ... وأقصر عن عذلى العاذلان
وعافت عيُوفٌ وأترابها ... رنوّى إليها ، وملّت مكانى
وراجعتُ لما أطار الشباب ... غرابان عن مفرقى طائران
رأت رجلاً وسمته السنون ... بريب المشيب وريْب الزمان
فصدّت وقالت : أخو شيبة ... عديم . ألا بئست الحالتان !
فقلت : كذلك مَنْ عضّه ... من الدهر نابان والمخلبان (٢٩)

ومع ذلك فإنه فى أبيات أخرى يعلن ثقته المطلقة بمن يحبُّ . ولعل ذلك كان وهو لا يزال شابا واجدا ، لم يشتعل رأسه شيبًا بعد ولا شكا العُدْم :

لو كنتُ أملك أن أفارق مهجتى ... لجعلت ناظرتى عليك رقيبا

حـــذراً عليـــكِ ، وإننـــى بكِ واثق ألا ينـــال سواى منك نصيبـــا (٣٠)

وفى شعره الذى يدور على الخمر نراه يكرِّر الحديث عن تخمرّها بتأثير شدّة الحرّ وتعتّقها وطول عمرها الذى سلخته فى الدنان :

وكميـــتٍ أرقّهـــا وهـــج الشمـــ ـــس وصيـف يغلى بهـــا وشتـــاءُ
طبختهـــا الشعـرى العَبـــور ، وحثت نارهـــا بالكواكـــب الجـــوزاءُ
مَحَضَتْهـــا كواكـــب القيـــظ حتـى أقلعـت عن سمائها الأقذاءُ (٣١)

* * *

كميت أجادت جمـرة الصيف طبخها فآبـت بلا نـارٍ تُحَـشُّ ولا حَطَـبْ
لطيمـة مسْـك فُـضَّ عنهـا ختامهـا معتقـــة صهبـــاء حِيريـــة النسـب
ربيبة أحقـاب جـــلا الدهـــرُ وجههـا فليس بها إلا تلؤلؤها نـدب (٣٢)

* * *

كتب اليهـود علـى خواتـم دنّهـا : يا دنُّ ، أنت على الزمان حبيسُ (٣٣)

* * *

وعـــذراء لـــم تفترعهـا السقـاة ولا استامهـا الشرب فى بيت حان

...

عناقيـــد أخلافهـــا حُفَّـــلٌ تـــدر بمثـــل الدمـــاء القوانى
فلـــم تـــزل الشمـــس مشغولـــة بصبغتهـا فـى بطـون الدنـان (٣٤)

ويشير إلى طيب رائحتها ، التى تنفح بالمسك والعنبر والزعفران :

تمـــج مـــن أقداحنـــا قهـــوةً تضـــوع بالمســـك وبالعَنْبَـــرْ (٣٥)

* * *

فضضنـــا الخواتيـــم عـــن جَوَّنَـــةٍ صدوفٍ عـن الفحـــل بكـــر عَـوَانِ
عجـوز غـــذا المســـك أصداغهـا مضمخـة الجلـــد بالزعفـران (٣٦)

وينعت لونها ووهجها وزجاجتها وكأسها :

هـى كالسُّـرْج فـى الزجـاج إذا مـا صبّهـــا فـــى الزجاجـة الوصفـاءُ
ودم الشـــادن الذبيـــح ومـــا يحـ ـتلب الساقيـان منهـا سـواءُ (٣٧)

* * *

كـــــأن الذهـــب الأحمـــــــ ـــر فـــى حافاتهـا يجـرى (٣٨)

* * *

تجلو الكؤوس ، إذا جلت عن وجهها ، شمسًا غذاها الشمس فهى عروسُ

عكفـــت بهـــا عفـــر الظبـــاء كأنهـــا بأكفهـــن كواكـــب وشمـــــوسُ

...

يسعـــى بإبريـــق كـــأن قدامـــــه من لونها فى عصفـر مغموسُ (٣٩)

* * *

أصبـــت المـــدام بريـــق الغمـــام وقـــد زُرَّ جيـب قميـص الظـــلام

فشابـــت نواحـــى الدجـى وانفـرى عـن الصبـح سربـــال ليـــل التمـام

حبـــوت بهـــا صحـــن قـــارورة فأضحكتها عن لسان الضـرام (٤٠)

* * *

عناقيـــد أخلافهـــا حُفَّـــلٌ تـدر بمثـل الدمـاء القوانـى (٤١)

وليس فى شىء من ذلك طرافة ولا له رونق . إنما هو كلامٌ عاديّ أين هو من تفنن أبى نواسٍ أو مسلم بن الوليد فى شعرهما الخمرى : الأول بقصصه وخيالاته الرشيقة الهائمة وخفة روحه ومعانيه وصوره وعبثه وتهتكه ومجاهرته بالمجون والآثام ، والثانى فى تصوير أحزانه أمام عينى الساقية وعند دبيب خطا بنت الكرم فى الجسد والعروق ؟ فضلاً عن أن أبا الشيص ليس طويل النفس فى وصف الخمر ومجالس الشراب ، إنما هى أبيات معدودة فى أثناء القصيدة .

على أن أبا الشيص قد أتى فى وصف سوْرة الخمر بشاربها بشىء ربما ليس له فى الشعر العربى كبير شيوع :

وصريـــع كـــأس بـــتُّ أرقبـــه وقـــد نهشتـــه مـن أفعـى المـدام كؤوسُ

عقـل الزجـاج لسانـه وتخاذلـت رجـلاه ، فهـو كأنـه مطسـوسُ
سطـت العُقـار بـه فـراح كأنما مج الردى فى كأسه الفاعـوسُ(٤٢)

إذ الشائع فى الشعر الخمرى العربى وصف الخمر بأنها تقتل شاربها ووصفه من ثم بأنه صريع ، إلاّ أن الشاعر فى هذه الأبيات لم يكتف بهذا القول العام بل حدَّد نوع القتل وكيفيته : إنه قَتْل بالسم من نهشة أنياب أفعى أو بخّتها سمومها فى الكأس ، أو هو قتل بالرمح طُعِن به الشارب طعنة نجلاء أقعدته مكانه فهو لا يريم ولا يُحير كلامًا . وتقابلنا صورة السم فى الكأس فى بيت آخر لنفس الشاعر ، وذلك فى قوله :

أعلل آمالـى بكانـت ولـم تكـن وذلك طعم السمّ والشهد فى الكأس (٤٣)

مما يدل على أنها من المعانى التى تلح على ذهنه . وهاتـان الصورتـان همـا ، فيما لاحظت ، الشىء المونق الوحيد فى شعر أبى الشيص الخمرى .

وكسائر شعره الخمرى يأتى وصف الساقى والساقية عنده تقليديا لا تميّز فيه ، فهو يقف عند الأرداف وفتور اللحظ وما يوقعه فى نفس من يتطلع إليه من سُكْر ... إلى آخر هذه المعانى والأخيلة التى أكل عليها الزمن وشرب :

وظبـــى يعطـــف الأُزْرَا ويثنيهـــا علـــى الخَصْـر
علـــى ألطـــف مـا شُـــدَّت عليـــه عُقَـــد الأُزْر
مهـــاة ترتمـــى الألبـــا ب عـن قـوس مـن السحـر
لهـــا طـــرف يشـــوب الخمـ ـر للندمـــان بالخمـــر
عفيـــف اللحـــظ والأعضـــا ء فى الصحـو وفـى السُّكْر (٤٤)

وفى هذا المثال الغَنَاء .

ومن الأنغام البارزة فى شعر أبى الشيص نغمة الحسرة على الشباب

الذى راح وولّى ، والفزع من المشيب الهاجم . وهى من الأنغام الشجية عنده ، رغم أنه لا يأتى فيها بجديد تقريبا . ذلك أنه يعزف آنئذ على وتر عميق فى الطبيعة البشرية ، ألا وهو وتر الطموح إلى الخلود والفزع من الموت ، وكراهية العجز عن الاستمرار فى ارتشاف الملذّات التى كان الشباب يكرعها كرعًا ، هذا العجز الناتج عن الإحساس بنضوب الحياة فى النّفس وانطفاء شعلتها رويدا رويدا . والشاعر من جهته إنما ينعت شيئًا لذَّعه ، فجاء كلامه فيه لاعجًا يتلهب :

خلع الصبا عن منكبيه مشيبُ ... فطوى الذوائب رأسه المخضوبُ
نشر البلى فى عارضيه عقاربا ... بيضا لهن على القرون دبيب
ما كان أنضر عيشه وأغضه ... أيام فضلُ ردائه مسحوبُ ! (٤٥)

* * *

أميل إذا ما قائد الجهل قادنى ... إليه ، وتلقانى الغوانى فتصطحبْ
فورّعنى بعد الجهالة والصبا ... عن الجهل عهد بالشبيبة قد ذهب
وأحداثُ شيب يفترعن عن البلى ... ودهر تهر الناسَ أيامُه كَلِبْ
فأصبحت قد نكّبت عن طرق الصبا ... وجانبت أحداث الزجاجة والطرب...

* * *

أبقى الزمان به ندوب عِضاض ... ورمى سواد قرونه ببياض
نفرت به كأسُ النديم ، وأغمضت ... عنه الكواعبُ أيما إغماض
ولربما جعلت محاسنَ وجهه ... لجفونها غرضا من الأغراض
حسر المشيب قناعه عن رأسه ... فرمينه بالصد والإعراض

...

عُوِّضْتُ عن بُرْد الشباب ملاءةً ... خَلَقًا ، وبئس معُوضة المعتاض
أيامَ أفراسُ الشباب جوامحٌ ... تأبى أعنّتُها على الرُّوّاض (٤٧)

* * *

فهل لك يا عيش من رجعة ... بأيامك المونقات الحسان ؟
فيا عيشنا والهوى مورق ... له غصن أخضر العود دان
لعل الشباب وريعانه ... يسوّد ما بيّض القادمان
وهيهات يا عيش من رجعة ... بأغصانك المائلات الدوانى
لقد صدع الشيب ما بيننا ... وبينك صدع الرداء اليمانى
عليك السلام ، فكم ليلة ... جموح وليل خليع العِنَان
قصرتُ بك اللهو فى جانبيه ... بقرع الدفوف وعزف القيان (٤٨)

ولعله لم يفتك فى الأبيات الأخيرة هذا الإلحاح اليائس العاجز فى الدق على أبواب الشباب الذى ألوى به الزمن العنيف . ويا له من دقّ رهيب يذكرنا بطارق مجهول يفاجئنا فى ظلام الليل بدقاته المتتابعة التى تنبىء بفجائيتها ولهفتها وتمزيقها صمت الليل وسجوّه أن وراءها شيئًا مشؤوما ، فتنخلع لها منا القلوب ، ويجتاحنا رعب مُشلّ !

وما أروع تصوير الشاعر لسخطه على المشيب فى الأبيات التالية ، إذ يبدى إعراضه عنه ويأمره بالانصراف ، وكأن الزمان يمكن أن يعود من حيث جاء ! إنها تعلات البشر يحاولون أن يفروا بها من حقائق الحياة المرة :

ولقد أقول لشيبة أبصرتُها ... فى مفرقى فمنحتها إعراضى :
عنى إليك ، فلست منتهيا ولو ... عَمّمْن منك مفارقى ببياض
هل لى سوى عشرين عاما قد مضت ... مع ستة فى إثرهن مواضى ؟
ولقد نزلت برأس صابى القلب فى ... ميدان كل غوايةٍ ركّاض
ولقلما أرتاع منك ، وإننى ... فيما هَويتُ وإن وُزِعتُ لَمَاض

وكأن الشاعر قد تنبه إلى استحالة ذلك فهو يرتد إلى الممكن ، متصوّرًا أن المسألة مجرد مسألة شكلية ، وأنه يكفى مع المشيب كلما ظهر فى رأسه أن

يبادر بالمقص فيزيل شعراته... وعلى هذا فإنه يختتم أبياته هذه بقوله :

فعليك ما اسطعت الظهور بلمّتي ... وعليَّ أن ألقاك بالمقراض (٤٩)

وأبو الشيص فى بكائه على الديار يتذكر ماضيه السعيد فيها ، فيذهب مسترجعا أيامه التى كانت له مع الأوانس العفيفات ويبدى ألمه لما يعاينه فيها بعد ترحل أهلها من غربان وظباء فلاة :

مَرَتْ عَيْنَهُ للشوق، فالدمع منسكبْ ... طلولُ ديار الحيّ والحيُّ مغتربْ
كسا الدهر برديها البِلى ، ولربما ... لبسنا جديديها وأعلامُنا قُشُبْ
فغيّر مغناها ومحّت رسومَها ... سماءٌ وأرواحٌ ودهرٌ لها عَقَبْ
ترتّع فى أطلالها بعد أهلها ... زمان يُشيبُ الشمل، فى صرفه عَجَبْ
تَبَدَّلْتِ الظُّلمانَ بعد أنيسها ... وسُودًا من الغربان تبكى وتنتحب
وعهدى بها غنّاء مخضرّة الرُّبا ... يطيب الهوى فيها ، ويُستَحْسَنُ اللعب
وفى عرصات الحيّ أظْبٍ كأنها ... مواثد أغصان تأوَّدُ فى كُثُبْ
عواتق قد صان النعيمُ وجوهها ... وخفَّرها خفر الحواضن والحجبْ
عفائف لم يكشفن سترا لغدْرة ... ولم تتتح الأطراف منهن بالرِّيب
فأدرجهم طىُّ الجديدين فاطووا ... كذاك اصطناع الشَّعْب يأى ويقتربْ (٥٠)

وهذه الأبيات ، رغم تقليديتها ، تمسُّ القلب وتثير فيه رواكد أحزانه الوجودية . أما البيتان التاليان فربَّما كان تصوير الدهر فيهما فى صورة طائر يخفق فوق الديار بجناحين مريشين بالبلى والشتات هو تصويرًا جديدًا :

ربْعُ دار مُدَرَّس العَرَصات ... وطلول ممحوة الآيات
خفق الدهر فوقها بجناحيـ ... ـن مريشين بالبِلَى والشَّتَات (٥١)

وفى الأبيات التالية نشاهد الغراب بلونه الأسود المشؤوم ، ويرن فى أسماعنا صوته المؤذن بالفرقة والبعاد :

أشاقك ، والليل مُلْقَى الجران ، ... غراب ينوح على غُصْنِ بانِ

أحمُّ الجناح ، شديد الصياح يكّى بعينين لا تَهْمُلانِ
وفى نعبات الغراب اغترابٌ وفى البان بَيْنٌ بعيد التدانِ (٥٢)

وبرغم هذا نرى شاعرنا يستدير فيستنكر اتهام الغراب بأنه نذير الشؤم ، مؤكدا أنَّ السبب فى تفرق الأحباب والخلان إنما هو الإبل . أليست هى التى تحمل المترحلين وتنقلهم إلى مواطن أخرى ، مفرّقة بذلك بينهم وبين أحبابهم وخلانهم ؟ وقد لاحظ صاحب « العقد الفريد » أن هذه النظرة من أبى الشيص لم يسبقه أحدٌ إليها (٥٣) . والحقُّ أنى لا أستطيع أن أتذكر شاعرًا آخر قد نحا هذا النحو . على أية حال هذه أبيات أبى الشيص فى الانتصاف للغراب . وما أجمل الاحتراز فى اتهام أبى الشيص للإبل بقوله « بَعْدَ الله » ! :

ما فرّق الأحبابَ بعـ ـد اللـه إلا الابلُ
والناس يَلْحُون غرا ب البين لمّا جهلوا
وما إذا صاح غرا ب فى الديار احتملوا
وما على ظهر غرا ب البين تطوى الرّحَلْ
وما غراب البين إ لاّ ناقة أو جَمَلْ (٥٤)

أما فى البيت التالى فإنه يجعل طيران الغراب إيذانا بانصرام الشباب وتوليه إلى غير رجعة :

وراجعت لما أطار الشبابَ غرابان عن مفرقى طائرا (٥٥)

وقد تكرر عنده تصوير ما فعله به الزمن بصورة وحش يعضه ، كما فى قوله :

أبقى الزمان به ندوب عضاض ورمى سواد قرونه ببياض (٥٦)

وكما فى الأبيات التالية التى زاد فيها الصورة تفصيلا ، إذ ذكر للزمان

مخلبين ونابا :

رأت رجـــلا وسمتـــه السنـــون ... بريـــب المشيـــب وريـــب الزمـــان
فصـــدّت وقالـــت : أخـــو شيبـــة ... عديـــم . ألا بئست الحالتـــان !
فقلـــت : كذلـــك مَـــنْ عَضّـــهُ ... مـــن الدهـــر ناباه والمخلبـــان (٥٧)

على أن الدهر لم يكتف بتبييض شعر رأسه ولا بندوب العضّ التى تركها فيه ناباه ومخلباه ، بل رزأه أيضا بكلال بصره ، الذى بكاه فى ثلاثة أبيات بكاء من يخشى أن تذهب البقية الباقية من نور عينيه ويمسى يتخبط فى الظلام :

يا نفـــس ، بكّـــى بأدمعٍ هُتُّـــن ... وواكـــف كالجمـــان فـــى سَنَـــن
علـــى دليلـــى وقائـــــدى ويـــدى ... ونـــــور وجهـــى وسائـــس البـــدن
أبكى عليهـــا بهـــا مخافـــــة أن ... يقرننـــى والظـــلام فـــى قَـــرَن (٥٨)

وإن لهفته وفزعه ليوحى بهما هذه الأوصاف المتعددة التى خلعها على عينه : فهى دليله ، وقائده ، ويده ، ونور وجهه ، وسائسه معا . ويجعل الدكتور شوقى ضيف هذه الأبيات بكاءً من أبى الشيص على عماه (٥٩) ، مع أن البيت الأخير واضح الدلالة على أنه كان لا يزال يتمتع ببصيص من ضياء بصره . كل ما فى الأمر أنه كان يخشى العمى ، الذى لم يكن قد حلَّ به بعد .

أما فى مدائحه التى بلغتنا فإنه لا يقدم جديدًا ، إذ يصف الممدوح بالبشاشة والجود لأوليائه ، وبأنه خشن الملمس بل وتتدفق يداه بالسم المهلك على أعدائه ، وأنه لا نظير له من قبل ولا من بعد ، وأنه أمان من ريب الزمان ... إلخ . كل ذلك فى صورٍ لا طريف فيها ولا إبداع :

إن الأمـــان مـــن الزمـــان وريبـــه ... يا عُقْـبُ شطَّا بحـرك الفيـاض

بحـرٌ يلـوذ المعتفـون بنَيْلـه ... فعـم الجـداول مُتْـرَع الأحـواض
ثبـت المقـام ، إذا التـوى بعـدوّه ... لم يخش مـن زلـل ولا إدحاض
غيـث توشحـت الريـاض عهَاده ... ليـث يطـوف بغابـة وغيـاض
ومشمّـر للمـوت ذيـل قميصه ... قانـى القنـاة إلـى الـردى خـوّاض
لأبـى محمـد المرجّـى راحتـا ... ملـك إلـى أعلـى العلـى نهّـاض
فيَـدٌ تدفـق بالنـدى لوليّـه ... ويـدٌ علـى الأعـداء سمٌّ قـاض

وقد يكون في البيتين اللذين يليان ذلك بعض الطرافة ، إذ يصوِّر الزمان في صورة إنسان بيده مقراض يقص به ريش جناح من يبغى الإخناء عليه :

وجنـاح مقصـوص تحيَّـف ريشَـه ... ريـبُ الزمـان تحيُّـف المقـراض
أنهضتَـه ووصلـتَ ريـش جناحـه ... وجبرتَـه يا جابـر المُنْهـاض (٦٠)

وهو ، كعادة كثير من شعراء المديح في تراثنا ، يصف رحلته إلى الممدوح . وهـذه الرحلة قد تكون برّية عبر الفيافي والقفار ، وقد تكون بحرية . وفي إحدى رحلاته البرية يصف الناقة التي حملته إلى ممدوحه وصفًا مفصلاً ، مبرزاً ما حاق بها وبه من أيْن السفر بغية إثارة عطفه وتهييج عاطفة الكرم عنده ، مغرقا في وصفه بالأريحية الغامرة :

وركائـب صرفـت إليـك وجوهَهـا ... نكبـاتُ دهـر للفتـى عضـاض
شـدّوا بأعـواد الريـاح مطيهـم ... مـن كـل أهـوج للحصـى رضّـاض
يرميـن بالمـرء الطريـق ، وتـارة ... يحذفـن وجه الأرض بالرضـراض
قطعـوا إليـك ريـاض كـل تنوفـة ... ومهامـه مُلْـس المتـون عـراض
أكـل الوجيـفُ لحومَهـا ولحومهـم ... فأتـوك أنقاضـا علـى أنقـاض
ولقـد أتتـك علـى الزمـان سواخطـا ... فرجعـن عنـك وهـن عنـه رواض
إن الأمـان مـن الزمـان وريبـه ... يا عقـبُ شطّـا بحـرك الفيـاض
بحـر يلـوذ المعتفـون بنَيْلـه ... فعـم الجـداول مترع الأحـواض

غيث توشحت الرياض عهاده ليث يطوف بغابة وغياض

... إلى آخر هذه الأوصاف والعبارات والصور التى يضيق بها الصَّدْر ويستغرب الإنسان كيف كان القدماء يتحملون ما يحشوها من كذب وسخف ، وكيف لم يكن الشعراء يستحون من ترديدها لكل من هب ودب ما دام يحل كيسه ويفرغ منه فى أيديهم السفلى (٦١) .

ولأبى الشيص وصف لرحلة بحرية تأنَّى فى أثنائه فى وصف السفينة ، وإن لم يذكر أن تلك الرحلة كانت لأحد الممدوحين :

وبحر يحسار الطرف فيه قطعته بمهنوءة من غير عُرٍّ ولا جَرَبْ
ملاحَكة الأضلاع ، محبوكة القَرَى مداخلة الرايات بالقار والخشب
موثَّقة الألواح ، لم يُدْمِ متنَها ولا صفحتيها عَقْدُ رحْل ولا قتبْ
عريضة زَوْر الصدر ، دهماء ، رسلةٌ سنادٌ ، خليع الرأس ، مزمومة الذَّنَبْ
جموح الصَّلا ، موارة الصدر ، جَسْرة تكاد من الإغراق فى السير تلتهبْ

... إلخ .

وهذا الوصف مهما يبد لنا الآن ثقيلا جافًّا فأغلب الظن أنه كان يعجب القدماء . وكثير من الكتاب والشعراء اليوم يصفون تجاربهم مثلا فى رحلات الطيران ، ويقفون خلال ذلك أمام أشياء وحوادث من يدرى ؟ ربما أملَّت قراء المستقبل وأثارت حنقهم . إن الأذواق يعتريها فى بعض جوانبها التغيير من عصر إلى عصر ، ومن بيئة لأخرى . ومع ذلك فإن الشاعر الذكى الموهوب هو الذى ينأى ما أمكنه عن الوقتى العارض ، ويهب نفسه ويحشد فنه للباقى الخالد على وجه الزَّمن . ومن هنا فإننا فى الوقت الذى تعجبنا فيه شكواه من المشيب لا يروقنا تصويره للناقة والسفينة . ذلك أن

فى تلك الشكوى إنما يغنّى أشجان القلب الإنسانى فى كل زمان ومكان . أما وصف الناقة والسفينة فإنه إن لم يُكْسَ بالصّور والتعبيرات الطريفة ويُوَشَّ بالخيال الندىّ فإنه لا يلامس قلوبنا ولا يثير عندنا صدًى . إنَّ ابن المعتز مثلا فى وصفه للهلال والبدر ، والنارنج والليمون ... إلخ ، رغم أنه وصف غير ممزوج بأحاسيس الشاعر ، يتملك منا الألباب بصوره البيانية الطازجة التى تنم على أنه كان يتطلع إلى الأشياء بعين مدهوشة على الدوام ، ترى الكون جديدا فى كل حال :

هذا ، ولأبى الشيص أربعة أبيات يرثى فيها الرشيد ، ويهنّىء ويمدح فى ذات الوقت الأمين ، الخليفة الجديد ، فى لباقة لاشك أنها أعجبت ممدوحه ومعاصريه :

جرت جوارٍ بالسعد والنحس ... فنحن فى وحشة وفى أنس
العين تبكى ، والسن ضاحكة ... فنحن فى مأتم وفى عرس
يُضحكنا القائم الأمين وتُبـ ... ـكينا وفاة الإمام بالأمس
بدران : بدر أضحى ببغداد فى الـ ... ـخُلْد ، وبدرٌ بطوس فى الرَّمْس (٦٢)

وفى الأبيات ، كما ترى صنعة بديعة مفرطة اتخذها الشاعر عدةً للقفز فوق المتناقضات وإرضاء كل المشاعر .

وقد واجه أبو دلامة من قبله هذا الموقف ، وذلك حين تُوُفِّى المنصور وتولى الخلافة مكانه ابنه المهدىّ ، فأنشأ الشاعر قصيدة يرثى فيها ذلك ويمدح هذا معلنا فرحته بتوليه الحكم . وإذا كان أبو الشيص قد جعل العين تبكى والسنَّ تضحك ، فقد غالى أبو دلامة فى الإغراب والاستحالة ، إذ جعل إحدى العينين تضحك والأخرى تذرف الدموع :

عينان : واحدة تُرى مسرورةً ... بإمامها جَذْلَى ، وأخرى تذرف

تبكـى وتضحـك مـرة ، ويسوؤهـا ما أبصـرت ويسرّهـا مـا تعـرفُ

كما أنه قد فاق الجيوكندا ، التى يقول بعض الناس فى تفسير شهرة صورتها فى عالم الفن إنك إذا ما غطيت إحدى العينين وجدت الأخرى تبتسم ، فإذا عكست الوضع لاحت لك العين الأولى وقد غلبها الحزن والانكسار . ذلك أن عينى الجيوكندا تكتفيان بالابتسام والحزن ، أما عينا الشاعر فإحداهما تضحك والأخرى تذرف الدموع ذرفًا .

أما فى المقطوعة التالية فإن أبا الشيص يحلق إلى علوٍّ غير قريب ، إذ يصف ما كان بينه وبين صديق له من حبّ وخلطة نفس بنفس بلغت حدّ التوحُّد ، وكيف تجهم ذلك الصديق بغتة لكل هذه المعانى النبيلة حين اضطرت الشاعر الظروف إلى أن يمدّ إليه مسترفدا رفده . لقد اكتشف الشاعر أنه يمدّ يده إلى أسد كاسر لا صديق . وتأمل أثناء ذلك الصُّوَرَ التى نجح الشاعر فى أن يرينا من خلالها الودّ والإخاء الذى كان بينهما ، وقبح التنكر للصداقة والصديق بعد ذلك :

وصاحـب كـان لى وكنـتُ لـه أشْفَـقَ مـن والـدٍ على ولـدِ
كنـا كسـاقٍ يمشـى بهـا قـدمٌ أو كـذراع نيطـت إلـى عضُـد
حتـى إذا دانـت الحـوادث مـن خطـوى ، وحلّ الزمان من عُقَدى
احـولّ عنـى ، وكـان ينظـر مـن عينـى ويرمـى بساعـدى ويـدى
وكـان لـى مؤنسًـا وكنـتُ لـه ليـس بنـا حاجـة إلـى أحـد
حتـى إذا استرفَـدَتْ يـدى يـدَه كنـت كمسترفـدٍ يـد الأسد (٦٣)

أرأيت إلى قوة جمال الصورة التى تصف امتزاج الصديقين وصيرورتهما شيئًا واحدًا ؟ فأحدهما الساق ، والآخر القدم . وأحدهما الذراع ، والثانى العضد . والشاعر هو صاحب العين والساعد واليد ، وهو يبيح لصديقه أن

خمس . وأقصرها تبلغ ثمانية عشر بيتا ، وأطولها أربعة وأربعين . وثلاث من هذه القصائد فى المديح . ومطلع الأولى :

مَرَت عَيْنَه للشوق فالدمع منسكبْ طلولُ ديار الحىّ والحى مغترب (٦٧)

وهى فى مدح عقبة بن جعفر الأشعث الخزاعى أكثر ممدوحيه نصيبًا من شعره . أما الثانية فمطلعها :

أبقى الزمان به ندوب عِضاضِ ورمى سوادَ قرونه ببياضِ

وهى فى مدح عقبة بن جعفر أيضا (٦٨) . ومطلع الثالثة :

أشاقك والليل ملقى الجران غرابٌ ينوح على غُصْن بان ؟ (٦٩)

وهى فى مدح أحد خلفاء بنى العباس .

أما القصيدتان الأخريان فإحداهما فى المشيب وما نهى الشاعر عنه من الخمر ، وفى تذكر الماضى البهيج أيام أن كان شابًّا يلهو بالحسان وينطلق فى فضاء الفيافى وقد حمل معه زق الخمر وحسناء ترمى من عينيها بقوس من السحر . ومطلعها :

نهى عن خُلَّة الخمر بياضٌ لاح فى الشَّعْر (٧٠)

وثانيتهما فى البكاء على الديار البالية وعلى الشباب الذاهب معًا ، واستحضار ما كان له من ذكريات جميلة أيام أن كان الشمل جميعًا ولذاذات الدهر مواتية . وهذا مطلعها :

يا دار ، مالك ليس فيك أنيسُ إلا معالم آيُهُنَّ دروسُ ؟ (٧١)

وهو لا يجرى فى هذا القصائد على وتيرة واحدة ، فالقصيدة الأولى مثلاً ، ومطلعها :

مرت عَيْنَه للشوق ، فالدمع منسكبْ ، طلولُ ديار الحى والحىُّ مغتربْ (٧٢)

تستهل ببكاء الديار ، ووصف حالها الذى انتهت إليه ، وتذكر ما كان فيها

من أوانس عفيفات ترحَّلْن مع قومهن وتركن الدار تسفيها الرياح ويعفى على رسومها المطر السحّاح . ثم ينتقل الشاعر إلى تصوير مجلس من مجالس الخمر وصف فيه الكأس والخمر وعتاقتها والساقى ، وكيف أن المشيب وطول التجارب قد نهياه عن المضىّ مع شهواته . وبعد هذا أخذ يصف لنا رحلة بحرية رسم فيها السفينة موهمًا أنه يصوّر لنا ناقة لكنها ليست كبقية النوق . ثم ختم القصيدة بوصف جماعة من الإبل فى بيتين انتهيا قبل أن يتمَّ الكلامُ ، إذ بقى المبتدأ الذى فى أولهما معلقا يطلب الخبر . ويبدو أن القسم الضائع من القصيدة قسم غير صغير ، إذ إن القصيدة كما جاء فى الديوان هى فى مدح عقبة بن الأشعث الخزاعى ، على حين تخلو القصيدة من أى مدح . والمعروف أن كل الموضوعات التى تأتى فى قصيدة المديح هى تمهيد للمدح . والمعتاد أن يطيل الشاعر فى الأبيات الخاصة بهذا الغرض ، لأنه هو الغرض الأساسى ، إذ به يحصل الشاعر على ما يريد من عطايا الممدوح . وهذا مثال ، أما المثال الآخر فهو إحدى القصيدتين اللتين ليس لهما علاقة فيما يبدو بالمديح ، وهى القصيدة التى مطلعها :

يا دارُ ، مالك ليس فيك أنيسُ إلا معالم آيهنّ دروسُ ؟

وتدور حول ذكرياته البهيجة مع أوانس الديار التى عفا رسمها ، وفى مجالس الخمر التى كانت له بتلك الديار .

وإذا كان نص القصيدة ، كما وردت فى الديوان ، كاملا لم يسقط منه شىء فإنها تكون قد تحققت لها الوحدة : وحدة الموضوع ، ووحدة الشعور ، إذ هى كلها فى استرجاع ذكريات الماضى الجميل التى انصرمت

وليس إلى عودها من سبيل ، والشعور الذى يلفها من أولها إلى آخرها هو شعور الحسرة والشجن على تلك اللذات التى هلكت ودُفنت فى أطواء الماضى . وهى القصيدة الوحيدة عنده التى تحققت لها الوحدة على هذا النحو .

ونأتى الآن إلى قضية هامة تتصل بشعر أبى الشيص ، بل أهم القضايا فى هذا المضمار ، وهى صحة نسبة القصيدة « الدعدية » إليه أو عدمها .

و « الدعدية » (وقد تسمى بـ « اليتيمة » أو « الدرة اليتيمة ») هى قصيدة دالية تقع فى ستة وستين بيتا . وقد سميت بذلك لأن نصف أبياتها فى وصف امرأة اسمها دعد وصفًا مفصَّلاً تناولها من فرعها إلى قدمها ، لم يترك شيئا من أعضاء جسدها إلا وقف عنده وتأنق فى تصويره ، حتى سرّتها وفخذيها و... . أما نصفها الآخر فموزع بين وصف الديار الدارسة (فى مستهل القصيدة) وفخر الشاعر بنفسه وقومه (فى خواتيمها) . وهى تبدأ على النحو التالى :

هل بالطلول لسائل ردُّ ؟ أو هل لها بتكلم عهد ؟

وقد قيل إن هذه القصيدة قد ادعاها أكثر من أربعين شاعرا (٧٣) . على أن هناك شاعرين صُفِّيا من بين هذا العدد الكبير ، وأصبح الخلاف فى الغالب محصورًا بينهما ، وهما أبو الشيص شاعرنا ، وعلىّ بن جبلة الملقب بـ « العَكوَّك » .

ومن الذين قالوا إنها لعكوَّك الدكتور مصطفى الشكعة ، إذ ذكر أن « العكوك هو صاحب القصيدة الدالية الطويلة التى جمعت بين الغزل وبين

وصف المرأة وصفا أتى على كل جزء من أجزاء جسمها بحيث لم يتحرج عن ذكر مواطن العفة فيها . وقد عرَّف بعض الأدباء بهذه القصيدة باسم « اليتيمة » ، وعرّفها آخرون باسم « الدعدية » على اعتبار أنها قيلت فيمن اسمها دعد » (٧٤) ، ثم مضى الأستاذ الدكتور فحلَّل القصيدة ، مستشهدا بكثير من أبياتها ، وذلك كله دون أن يشير إلى أن هناك خلافًا حول صاحبها . وهو ما يعنى بوضوح أنه يقطع بأنها للعكوَّك . ولا أريد أن أناقش هذا الرأى ، إذ إنى لا أكتب هنا عن هذا الشاعر .

أمَّا جامع ديوان أبى الشيص ، الأستاذ عبد الله الجبورى ، فلا يقبل نسبتها إلى العكوَّك ، ويرى أن هناك دليلاً على أنها لأبى الشيص ، إذ هى فى نظره تتفق مع سائر شعره فى قوة البيان والروح الشعرى ، ولأن جمهورًا كبيرا (على حد قوله) من أجلّة علماء اللغة والأدب والتاريخ يجعلونها لأبى الشيص . وعلى هذا فإنه ضمَّنها ديوانه (٧٥) .

فهل هذه القصيدة هى فعلاً لأبى الشيص ؟ وهل الدليل الأسلوبى الذى أشار إليه الأستاذ الجبورى يعضد ذلك ؟

إن الملاحظ أن الأستاذ الباحث قد أوجز فى الإشارة إلى هذا الدليل إيجازًا لا يشبع ولا يروى . والحق أنه لا يكفى أن يقول باحث إن هذه القصيدة أو تلك تشبه شعر الشاعر فلان ، لأن السؤال حينئذ هو : وكيف ذلك ؟

وقد حاولت أن أقوم أنا بهذه المهمة ، فقست « الدعدية » إلى الباقى لنا من شعر أبى الشيص فتبين لى الآتى :

١- أن الشاعر فى وقوفه على الأطلال فى « الدعدية » يشير إلى

« سؤال » الديار وأنه لا يعرف أستجيبه عن سؤاله وتتكلم بما يستفسر عنه أم لا :

هـــل بالطلـــول لسائـــل ردّ ؟ أم هـل لهـــا بتكلـــم عهـــد ؟

...

فوقفـــت أسألهـــا وليـــس بهـــا إلا المهـــا ونقانـــقٌ رُبُـــدُ (٧٦)

وهو ما لم يحدث فى قصائد أبى الشيص التى وصف فيها الأطلال .

٢- أنه يقول إن الأمطار التى سحَّت على الديار بعد رحيل أهلها عنها قد أنبتت فيها نورًا رائعا معجبا :

فكســـت بواطنُهـــا ظواهرَهـــا نـــوْرًا كـــأن زُهـــاءه بُـــرْدُ (٧٧)

على حين أن أبا الشيص فى وقوفه على الديار الدوارس كان يؤكد امّحاء معالمها وسيادة القحولة فيها بعد أن كانت أيام أنسها بأهلها « غنَّاء مخضرة الرُّبا » :

فغيَّـــر مغناهـــا ومحَّـــت رسومَهـــا سمـــاءٌ وأرواحٌ ودهـــر لهـــا عَقَـــبْ

...

وعهـــدى بهـــا غنَّـــاء مخضـــرَّة الربـــا يطيب الهوى فيها ويستحسن اللَّعبْ (٧٨)

* * *

يا دارُ ، مالـــكِ ليس فيك أنيـــس إلا معالـــم آيُهـــــنّ دروسُ ؟

الدهـــرُ غَالَـــكِ أم عـــراك من البِلَـــى بعـــد النعيـــم خشونـــة ويـــوس ؟

دارٌ جـــلا عنهـــا النعيـــم فربعهـــا خَلَـــقٌ تمـــرّ به الرياح يبيسُ (٧٩)

٣- الملاحظ أن أبا الشيص إذا وقف على الديار واسترجع ذكرياته مع النســاء فإنه يذكر أوانس الحىّ كلهن ولا يختص واحدة منهـن . أمـا فـى « الدعدية » فإن ناظمها قد أدار كلامه كله على امـرأة واحدة . بل وسمّاها ، وهو ما لم يحدث فى أى من شعر أبى الشيص .

٤- فى « الدعدية » وصف مفصل ومرتَّب لجسد المرأة ، وذلك غير معروف فى أشعار أبى الشيص .

٥- هذا العُرْى فى وصف أعضاء الجسد النسائى هو أمر لا عهد لشعر أبى الشيص به . بل إن شاعرنا قد تكررت عنده الإشارة إلى حياءِ وعفةِ واحتجابِ من يتحدث عنهن من فتيات الحىّ :

عواتـق قـد صـان النعيـم وجوههـا ... وخفَّرهـا خَفْـر الحواضن والحُجْبْ
عفائـف ، لـم يكشفن سترا لغـدرة ... ولم تتح الأطراف منهن بالرِّيَبْ (٨٠)

* * *

متستـــرات بالحيـــــاء لوابـــسٌ ... حللَ العفاف عن الفواحش شوسُ (٨١)

* * *

تنافَـــسُ فـــىَّ عيـــونُ الرجـــال ... وتعثر بى فى الحجول الغوانى (٨٢)

فأين هذا من « دعد » ، التى وصف حتى جماعه لها وأفاض فى وصف سوأتها (٨٣) .

٦- يبدو أبو الشيص فى أشعاره الغزلية رقيقًا ، على عكس الحال فى « الدعدية » ، إذ يصوّر صاحبُها نفسه فحلاً عنيفًا يتوقد بالشهوة .

٧- على عادة كثير من الشعراء القدامى نجد أن ناظم « الدعدية » قد وصف نفسه بالهُزال لهجران « دعد » له (٨٤) ، وهو ما لم أجده عند أبى الشيص .

٨- لم يحدث أن افتخر أبو الشيص ، فيما وصلنا من شعره ، بنفسه أو بقومه ، فضلاً عن أن يكون على هذا النحو العنيف الذى نراه فى « الدعدية » (٨٥) .

٩- الأبيات من الثانى إلى السادس مثلا من « الدعدية » يكثر

ويتتابع فيها الطباقُ : « دَرَس / جديد . يبكى الغمام / يقهقه الرعد . سارية / غادية . نَحْس / سَعْد . شآمية / يمانية . بواطنها / ظواهرها » ، ولا يُلْحَظُ هذا فى شعر أبى الشيص .

١٠- كلمات مثل « الحر والعبد » و « يا ليت شعرى » ، مما ورد فى « الدعدية » ، ليس لها وجود فى شعر أبى الشيص .

لكل هذه الأسباب فإننى أرى أن « الدعدية » ليست لأبى الشيص . ولا أدرى على أى أساس قال الأستاذ الجبورى إنها تشاكل شعره بيانًا وروحًا ، فقد اتضح أنها من غَزْل ونسيج يختلفان اختلافا بينا عن قماشة شعر شاعرنا . فإذا عرفنا كذلك أن أحدًا من مترجمى أبى الشيص الأوائل لم يذكر له هذه القصيدة تأكد لدينا أنها ليست منه ولا هو منها بسبيل .

وبعد ، فإن أبا الشيص كما رأينا شاعر متوسط ، وقلما يعثر له الناقد على شىء متفرد . ومع ذلك فلأشعاره فى البكاء على الأطلال وتحسره على ذهاب الشباب لذع فى النفس . وعلى هذا فإننا لا نوافق ما نُسِب لابن المعتز من القول بأن « من أخبرك أنه كان فى الدنيا أشعر من أبى الشيص فكذّبه » (٨٦) ، أو ما قاله صاحب « العمدة » من أنه « من طبقة أبى نواس ، والعباس بن الأحنف ، ومسلم بن الوليد صريع الغوانى ... » (٨٧) ، أو ما ذُكِر فى « الأغانى » عن بعضهم من أنه « كان أستاذ الشعراء » (٨٨) ، أو ما حكم به الخطيب البغدادى من أنه « كان يفضل على شعراء زمانه » (٨٩) أو ما جاء فى « قطب السرور » من أنه « لاحق للفحول » (٩٠) . ذلك أننا قد حللنا أشعاره من قرب وعن أناةٍ فوجدناها لا ترشّحه لهذه المكانة العالية التى رفعه إليها أولئك

النقاد والعلماء .

أما قول ابن أبى الشيص ، عبد الله ، وكان شاعرًا أيضا : « أنا أشعر الناس . وكان أشعر منى أبى ومن جميع من مضى ومن بقى » (٩١) فهو كلامٌ شديد الغلوّ لابن فى أبيه لا يُلْتَفَتُ إليه .

كذلك فإننا لا نوافق أبا عبيد البكرى على تعليله لخمول ذكر أبى الشيص ، إذ قال : « إنما أخمل ذِكْرَه وقوعُه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبى نواس » (٩٢) ، فقد تبين لنا أن الذى أخمل ذكره هو أنه صاحب موهبة متوسطة ، وليس له من النفس الشعرى ما يختط به سبيلاً خاصة به ويفترع من التعبيرات والصور ما يوشى به شعره ويجعله مذكورًا .

الهوامش

١- ممن ترجموا لأبى الشيص الأصفهانى فى « الأغانى » / الساسى / ١٥ / ١٠٤ وما بعدها ، وابن المعتز فى « طبقات الشعراء » / تحقيق عبد الستار أحمد فراج / ط ٢ / دار المعارف بمصر / ٧٢ وما بعدها ، والبغدادى فى « تاريخ بغداد » / القاهرة / ١٩٣١ م / ٥ / ٤٠١ ، وابن شاكر الكتبى فى « فوات الوفيات » / بولاق / ط ٢ / ١٢٩٩ هـ / ٢ / ٢٢٥ . وانظر ما كتبه صانع ديوانه ، عبد الله الجبورى ، عن حياته وأخباره فى « ديوان أبى الشيص الخزاعى وأخباره » / المكتب الإسلامى / بيروت ودمشق / ط ١ / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / ٨ - ٣١ ، ود . شوقى ضيف / العصر العباسى الأول / دار المعارف / ط ٣ / ٣٤٦ .

٢- الديوان / ٥٧ .

٣- الديوان / ٥٨ .

٤- الديوان / ٦٣ ، ١٦٣ ، والأغانى / ١٥ / ١٠٤ .

٥- الديوان / ٢٨ .

٦- الديوان / ٣٦ .

٧- الديوان / ٣٤ . وأظْب : ظباء . وموائد : مائلات .

٨- الديوان / ٧٢ . وشُوس : أبيّات .

٩- الديوان / ٤٢ .

١٠- الديوان / ٣١ .

١١- الديوان / ٥٨ .

١٢- الديوان / ٥٣ - ٥٤ .

١٣- أى الخمر .

١٤- الديوان / ٧٢ .

١٥- الديوان / ١١٥ .

١٦- الديوان / ٥٣ .

١٧- الديوان / ٤٦ .

١٨- الديوان / ٥٠ .

١٩- الديوان / ٥٩ .

٢٠- الديوان / ٩٠ .

٢١- الديوان / ١٠٤ .

٢٢- الديوان / ٤٣ - ٤٤ .

٢٣- الديوان / ١٠٢ .

٢٤- الديوان / ٩٧ .

٢٥- الديوان / ٩١ .

٢٦- انظر كتابه « أنوار الربيع فى أنواع البديع » / الهند / ١٣٠٥ هـ / ٧٠٧ .

٢٧- الديوان / ٧٦ .

٢٨- الديوان / ٩٩ .

٢٩- الديوان / ١٠٩ .

٣٠- الديوان / ٤١ .

٣١- الديوان / ٢٧ .

٣٢- الديوان / ٣٥ .

٣٣- الديوان / ٧٢ .

٣٤- الديوان / ١٠٧ .

٣٥- الديوان / ٦٥ .

٣٦- الديوان / ١٠٨ .

٣٧- الديوان / ٢٧ .

٣٨- الديوان / ٦٢ .

٣٩- الديوان / ٧٢ - ٧٣ . والفداء : السّداد .

٤٠- الديوان / ١٠٣ .

٤١- الديوان / ١٠٧ .

٤٢- الديوان / ٧٣ - ٧٤ . ومطسوس : مطعون طعنة نجلاء . والفاعوس : الحيّة .

٤٣- الديوان / ٧٤ .

٤٤- الديوان / ٦١ .

٤٥- الديوان / ٣٠ .

٤٦- الديوان / ٣٦ .

٤٧- الديوان / ٧٥ - ٧٦ .

٤٨- الديوان / ١٠٦ .

٤٩- الديوان / ٨٠ - ٨١ .

٥٠- الديوان / ٣٣ - ٣٤ .

٥١- الديوان / ٤٥ .

٥٢- الديوان / ١٠٥ .

٥٣- انظر ابن عبد ربه / العقد الفريد / تحقيق أحمد أمين وغيره / القاهرة / ١٩٤٠ م / ٥ / ٣٤٧ .

٥٤- الديوان / ٩٥ - ٩٦ .

٥٥- الديوان / ١٠٥ .

٥٦- الديوان / ٧٥ .

٥٧- الديوان / ١٠٩ .

٥٨- الديوان / ١١١ . والقَرَن : الحبل .

٥٩- انظر د . شوقي ضيف / العصر العباسي الأول / دار المعارف بمصر / ط ٣ / ٣٤٨ .

٦٠- الديوان / ٧٨ - ٧٩ .

٦١- الديوان / ٧٧ - ٧٨ .

٦٢- الديوان / ٦٨ - ٦٩ .

٦٣- الديوان / ٥٢ .

٦٤- الديوان / ٦٤ .

٦٥- الديوان / ٤٠ .

٦٦- الديوان / ٥٦ . والديازجة : جمع « ديزج » ، وهو الكحليّ اللون .

٦٧- الديوان / ٣٣ وما بعدها .

٦٨- الديوان / ٧٥ وما بعدها .

٦٩- الديوان / ١٠٥ .

٧٠- الديوان / ٦٠ وما بعدها .

٧١- الديوان / ٧٠ وما بعدها .

٧٢- الديوان / ٣٢ وما بعدها .

٧٣- انظر مثلا ابن خير الإشبيلى / الفهرست / ٤٠١ ، وعبد القادر المغربى / البينات / ١ / ٢٠٤ - ٢٠٧ . وقد خصص الجبورى مبحثا خاصا بنسبة هذه القصيدة فى الديوان الذى جمعه لأبى الشيص / ١١٧ - ١٢٥ .

٧٤- الشعر والشعراء فى العصر العباسى / دار العلم للملايين / بيروت / ٢ / ١٩٧٥ م / ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .

٧٥- الديوان / ١٢٢ . ومن الذين قالوا أيضا بنسبتها إلى أبى الشيص كارل بروكلمان ، وإن كان قد ذكر أيضا أن بعض الرواة ينسبونها كذلك إلى العكوّك . انظر كتابه « تاريخ الأدب العربى » / ترجمة د . عبد الحليم النجار / دار المعارف بمصر / ط ٤ / ٦٩ .

٧٦- الديوان / ١٣٦ - ١٣٧ .

٧٧- ص / ١٣٦ .

٧٨- ص / ٣٤ .

٧٩- ص / ٧٠ .

٨٠- ص / ٣٤ .

٨١- ص / ٧٢ .

٨٢- ص / ١٠٨ .

٨٣- ص / ١٤٠ .

٨٤- ص / ١٤٢ .

٨٥- ص / ١٤٢ وما بعدها .

٨٦- الأغانى / ١٦ / ٤٠٠ . وقد جاء هذا الحكم فى « معاهد التنصيص » / (المطبعة البهية / ١٣١٦ هـ / ٢ / ٨٧) معزوّا لأبى خالد العامرى ، وليس لابن المعتز .

٨٧- ابن رشيق / العمدة فى صناعة الشعر ونقده / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد / القاهرة / ١٩٣٤ م / ١ / ١٠١ .

٨٨- الأغانى / ١٦ / ٤٠٠ .

٨٩- تاريخ بغداد / ٥ / ٤٠٢ .

٩٠- قطب السرور / تحقيق أحمد الجندى / مجمع اللغة العربية بدمشق / ١٠٧ .

٩١- ابن المعتز / طبقات الشعراء / ٣٦٤ .

٩٢- أبو عبيد البكرى / سمط اللآلى / تحقيق عبد العزيز الميمنى / القاهرة / ١٩٣٦ م / ١ / ٥٠٧ .

ربيعة الرَّقِّىّ

هو ، كما جاء فى « الأغانى » ، ربيعة بن ثابت الأنصارى (١) ، ويكنى بـ « أبى شبابة » ، وقيل : بـ « أبى ثابت » . وكان مولده ومنشؤه بالرقة (٢) ، وعاصر المهدى والرشيد ونادمهما . وقد بلغت الأولَ شهرتُه فأحضره بناءً على طلب جواريه ، اللائى أردن أن ينعمن بخفة ظله . وصوَّر الشاعر طريقة استدعائه من الرقة للمهدى تصويرا هزليًّا فى الأبيات التالية :

يـــا أميـــــر المؤمنيـــــــ ـــن ، اللـــه سمَّـــاك الأمينـــا
سرقونـــى مـــن بـــــلادى يـــا أميـــــر المؤمنينـــــا
سرقونـــى ، فاقـــــض فيهـــم بجـــــــزاء السارقينـــــــا

أما الثانى فللشاعر مع عمه العباس محمد قصة أصبح بعدها نديما له ، مما سنتكلم عنه فيما بعد .

وكانت فى ربيعة دعابة وهزل ، لدجة أن صاحب « الأغانى » نسب إليه أنه كشف عن سوأتيه فى حضرة الرشيد ولطخهما بالمسك وأرسل إلى جاريته أن تفعل بنفسها مثلما فعل استعدادًا لأن يأتيها (٣) ، وهو ما لا نصدقه . وسوف نبين أسباب ذلك فى حينه . ومن فكاهاته أنه قال متغزلاً فى إحدى النساء :

جُعْفِـــىُّ جيرانُهـــا فقـــد عطـرت جفعـــىُّ مـــن نشرهـــا وريّاهـــا

فقال له أحد الجعفيين إنه جار ملاصق لها ومع ذلك لم يشم من ناحية بيتها ريحا طيبة . فرد عليه ربيعة قائلاً : « ما ذنبى وأنت أخشم ؟ والله إنى لأجد ريحها وريح طيبها منك وأنت لا تجده من نفسك » (٤) .

وقد ذكر صاحب « الأغانى » أيضا أن ربيعة الرقى كان ضريرا . ذكر هذا ذكرًا عارضا سريعًا ، ولم يعد إليه بعد ذلك (٥) . كما ذكره محمد بن داود الظاهرى (٦) . لكن ابن المعتز لم يذكر هذا بل لم يشر إليه مجرد إشارة ، وهو نفس ما فعله ياقوت فى ترجمته للشاعر فى « معجم الأدباء » . أمَّا فى العصر الحديث فقد أشار إلى عَمَاه جرجى زيدان ، قائلاً إنه كان ضريرًا مثل بشار (٧) ، (وهو ما قد يفهم منه أنه ولد مثل بشار أعمى) ، و د. شوقى ضيف (٨) ، ود. عمر فروخ (٩) ، ود. مصطفى الشكعة (١٠) .

وقد ناقش هذه النقطة جامع شعر ربيعة ، الدكتور يوسف حسين بكار ، ورأى أن الشاعر لم يولد أعمى ، لأن فى شعره ما يدل على أنه كان يرى ، اللهم إن كان هذا منه مكابرة (١١) .

ويبدو لى أنه إن كان حقا قد عمى فقد عمى بأخرة ، وإلاَّ لكانت الكتب التى كتبت عنه قديما قد أوردت لنا أخبار عماه ونوادره ، فمثل ربيعة فى غزله وهزله وتهكمه ومنادمته للمهدى والرشيد ما كان يمكن أن يمرَّ أمر عماه بهذه البساطة .

ويؤيد ذلك أن ابن المعتز لم يشر إلى عماه ، مع أنه أقرب إليه زمنًا من صاحب « الأغانى » وابن داود الظاهرى ، فضلاً عن أنه كان شاعرًا مثله ، وخليفة عباسيا كالمهدى والرشيد ، اللذين كان يجالسهما شاعرنا ، فحرىّ أن يعرف أخبار الشعراء المتصلين بهما أفضل من غيره .

وفوق ذلك فشعر ربيعة الذى وصل إلينا ، وهو ليس قليلاً على أية حال ، ليس فيه أية إشارة إلى عماه ، فلا شكوى أو تضرُّر من هذه الآفة

التى لم يُرْزأ بها أحد من الشعراء (ممن نعرف على الأقل) ثم سكت فلم يذكرها ويَشْكُ منها فى أدبه . كذلك لا حديث عن قائد يقوده أو عصا يهتدى بها ، أو إلماح إلى عماه فى غزلياته كما فعل مثلا بشار ، الذى كان يشرح فى قصائده ، لمن ينكر عليه أن يحب ، كيف يقع فى الحب رغم هذه الآفة .

هذا ، ولا إخال أن مثل هذا البيت يمكن أن يصدر عن شاعر أعمى يدَّعى ما لا يرى :

إذا صليتِ ثم سجدتِ قلنا : ألا يا ليتها سجدت سنينا

كذلك فليس من السَّهل أن نتجاهل مثلا قوله عن نفسه فى ذات القصيدة :

رآكِ وأنت مقبلة ، فلما رأتك العين هجت لنا فتونا

وقوله من قصيدة أخرى :

فزرتها واقعا طرفى على قدمى وقد تَلَبَّسْتُ جلبابين من ظُلَمِ

بل إن أبياته فى شكوى الزمان ، ويبدو أنه قالها بعد أن نضجت تجربته مع الحياة وبَلاَ رزاياها (أى بعد أن تقدم به العمر) ، تخلو تمامًا من أى ذكر أو إلماح إلى العمى . ليس ذلك فقط ، بل فيها أيضا هذا البيت الذى يخاطب فيه نفسه (والإشارة فيه إلى الدهر) :

وعندكَ علم به ثاقب وعينٌ تدل على وصفه

ولا أظنه لو كان أعمى كان يذكر عينه فى هذ السياق بالذات .

ويبلغ شعر ربيعة الرقى الذى استطاع د. يوسف حسين بكار أن يجمعه مائتين وخمسة وسبعين بيتا ، ما بين نتف ومقطوعات وقصائد ،

مع العلم بأن عدد الأخيرة ليس ضئيلا . ومعظم شعره فى الغزل ، وبعضه فى المديح والهجاء . وله قصيدة فى وصف حال الدهر وتقلُّبه وما يرزأ به البشر من مصائب وآلام . كما أن له أبياتًا فى وصف مدينة « الرقة » . ويأتى شعره الغزلى فى المقام الأول من حيث الجودة والقوة والتفنن . وتليه قصيدته فى شكوى الدهر . أما مديحه وهجاؤه فليسا بشىء ذى بال .

وكل غزله قصائد . وقد أورد ابن المعتز فى كتابه « طبقات الشعراء » فى الفصل الذى عقده لشاعرنا معظم شعره الغزلى ، وأثنى عليه ثناءً شديدًا . والحقُّ أنَّه يستأهل تلك التعليقات التى كان ابن المعتزّ يذيل بها كل قصيدة يوردها له وأكثر . كما أن لهذا الشعر شخصية واضحة وجذابة ، رغم اشتراكه فى عدد من السمات مع شعر غيره من الغزلين .

ونبدأ بما يشترك فيه مع غيره . لقد لاحظ بصدقٍ د. يوسف حسين بكار ما فى غزل ربيعة الرقىّ من عنصر قصصى وحوارى ، ومن وصف ملاحقته لحبائبه وهن يؤدين مناسك الطواف حول الكعبة ، ومن إبراز تعلُّق النساء به ، مما يشبه طريقة عمر بن أبى ربيعة (١٢) . ونزيد على ذلك أنه أيضا ، كعمر بن أبى ربيعة ، يتحدث عن فتيات أخريات كن يمهدن له لقاءه بحبيبته ويحضرن هذا اللقاء ، ولعلَّ فى الأبيات التالية ما يشهد على هذا وذاك :

ألا يا حبذا ليلى وأترابها الأُلى ... وعدنك من ليلى ومنهن موعدا
فأقبلن من شتى ثلاثا وأربعا ... وثنتين يمشين الهوينا تأودا
يطأن مروط الخز يلحفها الجنى ... ويسحبن بالأعطاف ريطًا معمدا
فلما التقينا قلن : أهلاً ومرحبا ... تَبَوَّأ لنا بالأبطح السهل مقعدا

* * *

والغوانـــــــى مغويـــــــات مولعـــــــات باقتناصـــــــى
قـــد تواصيـــن بحبّـــــى حبـــــذا ذاك التواصـــى !

* * *

لاقيت عنـد استـلام الركـن غانيـة غـرّاء واضحـة الخديـن كالصنـمِ
تقـول قيناتهـا والـردف يقعدهـا من خلفها: قد أتيت الركن فاستلمى

ومع ذلك ففى المرة التى دافع فيها عن وقوعه فى الحب واستشهد على أن العاطفة لا تصيب إلا الرجل الكريم نجده لا يذكر إلاَّ الشعراء العذريين ، ولا يتطرق إلى عمر بن أبى ربيعة من بعيد أو قريب :

كـرام النـاس قبلـى قـد أحبـوا كرائمهـم وأحببـن الكرامـا
جميـلٌ والكثيّـر قـد أحبَّـا وعـروةُ مـن هـوًى لاقى حِماما

ويضاف إلى ما قلناه أنه ، مثلَ عمر بن أبى ربيعة أيضا ، يردِّد اسمه فى شعره ازدهاءً بنفسه وتفاخرًا بفتوته ورجولته تجاه النساء :

وأمنح طـرف العيـن غيـرك رقبـةً حـذار العدا والطرف نحـوك أمْيَلُ
لكيما يقـول النـاس : إن امرأ رمـى ربيعـةَ فـى ليلـى بسـوءٍ لَمُبْطِـلُ

* * *

ولـولا فتنتـى بـك ، فاعلميهـا ، إذن صلّـى ربيعـة ثـم صامـا

* * *

قالت : تعـال إذا ماشئـت مستتـرا والحكم حكمك يا رقّـى فاحتكـمِ
أقـدم ربيعـة فى رحب وفى سعـةٍ فى غير قمراء ، والظلماءَ فاغتنـمِ

* * *

قالت : ومن أنت ؟ قلن التابعات لها: هـذا ربيعة . هـذا فتنـة الأمـم

* * *

أعثمـة ، أطلقى العَلَـق الرهينـا بعيشك ، وارحمى الصَّبَّ الحزينـا
ربيعـة مغـرم بـك مستهـام يحـن إليـك مـن شـوقٍ حنينـا

ويلاحظ دارس غزل ربيعة الرقى أنه يبدو وكأنه يعمل بكل وسيلة على الافتضاح . إنه لا يحاول كتمان أحاسيسه أو التخفيف منها أو التعبير عنها بصوت هادىء ، بل يجأر بكل قواه الصوتية يريد أن يُسمع الناس جميعا ما يعانيه . إنه ليمضى فيكرر فى القصيدة الواحدة اسم حبيبته مرات وكأنه درويش من الدراويش يصيح ، متراقصًا من الوجد ، باسم من يهوى :

صـــاح ، إنـــى غيـــر صـــاحِ ... أبـــدا مـــن حـــب داحِ
صـــار قَدْحَـــا حـــبّ داحِ ... فـــى فـــؤادى المستبـــاحِ

...

وعصـــى فـــى حـــب داحِ ... كـــلَّ لَـــوّام ولاحـــى

...

داحِ داحِ حِـــبّ نصـــر ... آحِ مـــن حبّـــك آحِ

...

إن ربـــع ابـــن نُصَيْـــر ... معـــدن البيـــض المـــلاح
فيـــه داحٌ ، ولَمَـــا فـــى ... حـــب داحٍ مـــن جُنـــاح

...

وفتـــاة غيـــر داح ... ذات دل ومـــزاح
قـــد تجشمـــت إليهـــا ... هـــول ليـــل ونبـــاح

* * *

خليلىّ ، هـذا ربـع ليلى ، فقيدا ... بعيريكمـا ثـم ابكيـا وتجلدا

...

يلـــوم على ليلى خليلى سفاهـــةً ... وما كنت أهلا فـى الهوى أن أُفَنَّدا
لعمرىَ ، أى لَيْلَى ، لئن شطت النوى ... بليلى لقـد صـادت فـؤادى معمّدا

...

ألا حبذا ليلى وأترابها الأُلى وعدنك من ليلى ومنهن موعدا !

* * *

أنا للرحمن عاصى لجنونى برخاص

...

ورخاص الكرخ ظبى لم أنل منه افتراصى

...

يا رخاص ، يا رخاص الـ ـكرخ ، يا ذات العقاص

* * *

دسَّتْ سعادُ رسولا غير مُتَّهَمٍ وصيفةً فأتت إتيان منكتم

...

زارتك سعدى ، وسعدى منك نازحة فأرقتك وما زارتك من أمم

أهلاً بطيفك ، يا سعدى ، الملمّ بنا طيف يسير بلا نجم ولا عَلَم

...

هام الفؤاد بسعدى من ضلالته يا ليت قلبى بكم يا سُعْدُ لم يَهم

وهو لا يكتفى بهذا عادة ، بل يحدّد بلد حبيبته أو الحى أو البيت الذى تنتمى إليه من هذا البلد :

إن ربع ابن نُصَيْرٍ معدن البيض الملاحِ

فيه داحٌ ، ولَمَا فى حبّ داحٍ من جُناحِ

* * *

فى دار مرَّارٍ غزال كنيسة عَطِرٌ عليه خزوزه وبروده

...

ما ضرّ عثمةَ أن تلم بعاشق دنف الفؤاد متيم فتعوده ؟

* * *

ورخاص الكرخ ظبى لم أنل منه افتراصى

ولقد طال بأبـ ـوا ب الخريمى اقتصاصى

...

يا رخـــاص ، يا رخـــاص الـ ـكـــرخ ، يـــا ذات العقـــاص

* * *

جعفـيُّ جيرانُهـــا ، فقـد عطـرت جعفـيُّ مـن نشرهـــا وريَّاهـــا

وهو يصرّح بأنه يريد أن يعرف الناس جميعًا بحبه :

أنـت الهـوى ومُنَـى نفسـى ومتعتهـا أقـول ذاك ولا أخفيـه عـن أحـد

* * *

أنـــا زيـــر للغوانـــى وأخـــو لهـــو وراح

* * *

وفتـــاة غيـــر داح ذات لهـــو ومـــزاح

قـــد تجشمـــت إليهـــا هـــول ليـــل ونبـــاح

فخلونـــا بفتـــاة غـــادة غرثـــى الوشـــاح

فلبسـت العكـــن البيـــ ـض مـــن الخَـوْد الـــرَّداح

ثـــم لمـــا صـــاح ديـــك قبـــل إبَّـــان الصبـــاح

قلـــت : صـــح يا ديـــك ألفـا ليـــس ذا وقـــت البـــراح

أو أرى الصبـــح وإن كـــا ن لفـــى الصبـح افتضاحـــى

كما أنه لا يصغى للوم اللائمين بل يرفضه بعنف :

وعصـــى فـــى حـــب داح كـــلَّ لَـــوّام ولاحـــى

ليـــت لـى رســلا مـن الجـــ ـنّ إليهـــا والريـــاح

...

أيهـــا النـــاس ، ذرونـــى لســـتُ مـــن أهـــل الفـــلاح

* * *

يلـــوم علـى لَيْلَـى خليلـى سفاهـة وما كنتُ أهلاً فى الهـوى أن أُفَنَّـدا

* * *

أنـــا فـــى تفضيلـــك الدهـــ ـــر ألاحـــى وأناصـــى

مـــا أبالـــى مـــن لحانـــى ... فيـــــك أو رام انتقاصـــــى

* * *

وإن جميـــــع أهلـــك عنفونـــى ... ولامونـــى ، ولم أطـــق الملامـــا
كـــرام النـــاس قبلـى قـــد أحبـــوا ... كرائمهـــم ، وأحببـــن الكرامـــا

ليـس هـذا فحسب ، بل إنه ليجترىء على المقدسات ويعلن عصيانه للّه :

أنـــا للرحمـــن عاصـــى ... لجنونـــــــى برخـــــاص
ثـــم للنـــاس جميعـــا ... مـــــن أدانٍ وأقاصـــــى

...

ذاك مـــن معصيـــة اللـــ ... ـه ، وهمّـــى فـــى المعاصـــى

* * *

لاقيتُ عنـد استـلام الركـن غانيـة ... غـراء واضحـة الخديـن كالصنـمِ
مرتجـة الـردف ، مهضـوم شواكلهـا ... تمشى الهوينى كمشى الشارب الثَّلِم
تقـول قيناتهـا والـــردف يقعدهـــا ... من خلفها : قد أتيتِ الركن فاستلمى
فاستلمت ، ثم قامت ساعـة فدعت ... فقمـت أدعـو ، ولولا تلك لم أقُم
حتـى إذا انصـرفت سَلَّمْتُ فالتفتت ... فقلت : إنك من همّى ومن سَدَمى
قالت : ومن أنت ؟ قلن التابعات لها : ... هـذا ربيعـة . هـذا فتنـة الأمـم

...

شيطـان أمتـه لاقـاك مُحْرِمـةً ... فبلالـه مـن الشيطـان فاعتصمـى

* * *

بـدت منـكِ الـروادف مشرفـاتٍ ... روداف لم تـدع للنـاس دينـا

...

فلـو أن الملـوك رأوك يومـا ... لخـروا مـن جمالـك ساجدينـا

...

إذا صليـتِ ثـم سجـدت قلنـا : ... ألا يا ليتهـا سجـدت سنينـا

وهو يكثر من ذكر قتله على يدى حبيبته :

أنـــا واللـــه قتيـــل لـــك مـــن غيـــر جـــراحِ
لا بسيـــف قَتَلَتْنـــى لا ولا سمـــر الرمـــاح
أنـــت للنـــاس قتـــول بالهـــوى لا بالســـلاح

* * *

قتـــول بعينيهـــا ، صيـــود بدلّهـا وما تقتـل الفتيـانَ إلا تعمـدا

* * *

تَيَّمْتِنـــى بـــدلال منـــك يقتلنـــى وقد رَمَيْت فما أخطأت عن كبدى
إن تقتلينـى كـذا ظلمـا بـلا تـرة فلسـت فائتـة قومـى بنـى أسـد

...

يا ليتنى قبـل موتـى قـد خلوتُ بها على الحشيـة بيـن السجف والنَّضَد

* * *

أتبكيـن مـن قتلـى وأنـت قتلتنـى بحبك قتـلا بَيِّنًـا ليس يُشْكِلُ ؟
فأنـت كذَبَّـاح العصافير دائـبًا وعينـاه مـن وجد عليهـن تهمـل
فلـو كـان مـن رأفٍ بهن ورحمـة لكـفَّ يدا ليسـت مـن الذبح تعطل

ومن بين ملامح حبيبته وأعضاء جسدها تبرز فى غزله أردافها :

يـا رخـاص ، يـا رخـاص الـ ـكـرخ ، يـا ذات العقـاص
والثنايـا الغُـرّ كالبـر ق تـلالا فـى النشـاص
ثـم ردف كنقـا الرمـ ـل وأحشـاء خمـاص

* * *

ينـوط وشاحهـا بقضيـب بـانٍ ويكسـو مرطُهـا دعصا ركامـا

* * *

مرتجـة الـردف ، مهضـوم شواكلهـا تمشى الهوينى كمشى الشارب الثَّمِل
تقـول قيناتهـا والـردف يقعدهـا من خلفها : قد أتيت الركن فاستلمى

وربما لم يكن فى هذا ما يميز غزله عن كثير من غزل شعراء العرب

القدامـى . إلا أن وصفـه للأرداف فى البيتين الأول والأخير من النص التالى :

بـدت منـك الـروادف مشرفـاتٍ ... روداف لـم تـدع للنـاس دينـا
لقـد أُعْطِيـت أردافـا ثقـالا ... وقـد حُمّلـت مـا لا تحملينـا
إذا رمـت القيـام نخال دعصـا ... يمانعـك القيـام فتقعدينـا
إذا صليـتِ ثـم سجـدت قلنـا : ... ألا يا ليتهـا سجـدت سنينـا !

يبدو لى مميَّزاً إلى حد كبير . وفوق ذلك فيه جرأة ولامبالاة بقدسية الدين والصلاة ، والتفاتة ذهن غريبة ، إذ من ذا الذى تواتيه نفسه بالإشراف على امرأة وهى ساجدة ، أو حتى تخيُّلها فى هذا الوضع واشتهائها فى ذلك المكان ؟

وقد يكون لطبع شاعرنا الفكه دخل فى ذلك ، فقد تكرر فى شعره مزج الغزل بالدعابة والسخرية . انظر مثلاً إلى قوله فى افتتاحية إحدى قصائده الغزلية ، وهى افتتاحية تقليدية إلى حد كبير ، اللهم إلاَّ فى سخريته من نفسه وصديقيه ، وذلك إذ يطلب منهما أن يسعفاه بالبكاء على أطلال ربع حبيبته ، ثم يقول لهما (وهذا هو وجه السخرية والجديد فى الأمر) إنهما إذا لم يشاءا أن يعيناه على ما هو فيه فليقعدا :

خليلىَّ ، هذا ربع ليلى ، فقيّـدا ... بعيريكمـا ثـم ابكيـا وتجلـدا
قفـا أسعدانـى بارك اللـه فيكمـا ... وإن أنتمـا لم تفعـلا ذاك فاقعـدا

لقـد قـال أبو نـواس ذات مـرة :

قل لمـن يبكـى على طلـل دَرَسْ ... واقفـا : ماضـرَّ لـو كـان جلس ؟

بيد أن هذه غير تلك ، فأبو نواس يسخر من ذلك التقليد الشعرى القديم ومن العاشق الذى يبكى عند الأطلال ، أما ربيعة الرقى فهو يسخر من

حاله هو خالطًا الجدَّ بالهزل .

وأى سخرية وتهكم أشد فى هذا المجال من تنصيبه حبيبته « أميرًا للمؤمنين » ، لا لشىء إلاَّ لما تتمتع به من أرداف هائلة ؟ ويزيد الأمر سخرية وإضحاكًا أنه كان قد أكد من قبل أن هذه الروادف نفسها قد جرَّدت الناس من دينهم . فأى « أمير للمؤمنين » هذا الذَّى يُخْرِج الناس من إيمانهم ؟ :

بدت منك الروادف مشرفات ... روادف لم تدع للناس دينا

ولو أن النساء ملكن أمرا ... لكنتِ إذن أمير المؤمنينا

لقد أُعْطيتِ أردافا ثقالا ... وقد حُمِّلْتِ ما لا تحملينا

وقد يكون باعثه فى البيت التالى على استخدام كلمة « آحِ » بدلاً من « آه » هو الهَزْل :

داح داح حبٌّ نصر ... آح من حبّك آح !

وهو يتخذ أو يتمنى أن يتخذ بينه وبين حبيبته رسلاً من الحمام والجنّ والرياح :

ليت لى رسلا من الجن إليها والرياح

تُبْلغ الحاجات عنى ... ثم تأتى بالنجاح

* * *

ليتنى كنت حمامًا ... لك مقصوص الجناح

* * *

حمامةُ ، بلّغى عنى سلامى ... حبيبًا لا أطيق له كلاما

* * *

ويا ليت الحمام مسخرات ... لنرسل فى رسائلنا الحماما

لعلَّ حمامة تهدى إلينا كتابًا منك نجعله إماما
وتبلغك المحبَّة عن محب أحبَّك قلبه يفعا غلاما

وتتردد فى غزلياته صيغة المبالغة « فَعُول » وصفًا فى معظم الأحوال لحبيبته :

أنت للناس قتول بالهوى لا بالسلاحِ
وبشكل وبدلّ وبغنج ومزاح
وبعينين صَيُود ودّين وثغر كالأقاحى

* * *

قتول بعينها صيودٌ بدلّها وما تَقتل الفتيان إلا تعمدا

* * *

وأنت طيبةٌ : فى القيظ باردة وفى الشتاء سخونٌ ليلة الصّرد

* * *

فيه فتون ظلت تغيّبه على الجهول ، وما يخفى على الفهِم

* * *

أنتَ الملول الذى استبدلت بى بدلا قصَّرْتَ بى وشريت اللُّومَ بالكرمِ

كما يكثر عنده التمنى بـ « ليت » ، مسبوقة فى الغالب بـ « يا » :

ليت لى رسلا من الجن إليها والرياحِ

* * *

يا ليتنى قبل موتى قد خلوت بها على الحشيّة بين السجف والنَّضَد

* * *

أحب حديثها وتحب قربى وما إن نلتقى إلاّ لماما
فيا ليت النهار يكون ليلاً وليت الصبح لا يجلو الظلاما
ويا ليت الحمام مسخرات لنرسل فى رسائلنا الحماما

* * *

يا ليت من لامنا فى الحبّ جرّبه فلو يـذوق الـذى ذُقـناه لم يَلُـم

* * *

هـام الفـؤاد بسُعْـدى من ضلالتـه يا ليت قلبـى بكم يا سُعْـدُ لم يهم

وقد وصف حبيبته مرتين بأنها « صنم » ، يريـد أنهـا بلغـت فـى الجمـال والفتنـة المثـل الأعلى ، وإن كنتُ لا أستحب استخدام كلمـة « الصنـم » ، التى أرى أنها أليق بالثلب والهجاء لا بمدح الحسن والإشادة به :

ريـمٌ أغـرّ كأنـه مـن حسنـه صنـم يحـج ببيعـة معبـوده

* * *

لاقيتُ عنـد استلام الركن غانيـة غـراء واضحـة الخديـن كالصَّنَم

صحيح أنه فى الشاهد الأول قد قدَّم القول فى البيت السابق عليه بأنها « غزال كنيسة » :

فـى دار مـرّار غـزال كنيسـة عَطِـر عليـه خـزوزه وبـروده

والعلاقة بين « الكنيسة » و « الصنم » واضحة ، لكن الحسّ الإسلامى السليم لا يربط بين الجمال والصنم ، بل بينه وبين الدمية أو التمثال مثلا.

أمَّا فى الشاهد الثانى فقد كانت مسافة الخُلْف واسعة لا سبيل إلى رأبها بين « الصنم » والبيت الحرام ، الذى تم فيه اللقاء بين الشاعر وبين تلك المحبوبة التى شبهها بالصنم .

أمَّا قول عنترة مثـلا فى وصف سميَّة : « كأنها صنم يُعْتادُ معكوف » فغير ذاك ، فعنترة جاهلى ، وكان العرب فى الجاهلية تعبد الأصنام . فالصنم فى الحسّ الجاهلى إذن تحفُّ به القداسة ، وعلى هذا فتشبيهم المرأة به مفهوم وله ما يسوّغه .

ومما يميز غزل ربيعة الرقى تعدُّد أسماء النساء اللائى يتغزل بهن ، فهل كان يعشق امرأة واحدة كنَّى عنها بأسماء مختلفة ؟ أم هل عشق أكثر من امرأة ؟ الواقع أنه ليس من هؤلاء الشعراء الذين يرتبطون بامرأة واحدة لا يرون غيرها ولا يفكرون أو يتعلقون بسواها . ويؤكد هذا أنه لُقّب قديما بـ « الغاوى » (١٣) .

كذلك لا نظنُّ أنه قد بلا حرقات الحبِّ وآهاته الحقيقية . فإن من الصعب جدّ الصعب علىَّ أن أتصوَّر ربيعة ، الذى لا يتحرج من وصف أرداف حبيبته وهى ساجدةٌ تصلّى والذى يمزج غزله بالسخرية والتهكم كما شاهدنا ، من الصعب جدا أن أتصوره وهو يقاسى حرقات الحبّ التى تشغل الإنسان عن كل شىء آخر . إنَّ المعاناة التى يصرخ بها فى شعره إنما هى حرقات الشهوة ولظاها فى الجسد لا نيران الحب التى تأكل الروح أكلا ، وتحيل يوم المحبّ ظلامًا وكمدا ويأسًا ، وتُدْنيه من شفا الجنون .

من هنا فإننا لا نرى رأى د. يوسف حسين بكار من أن فى شعره من سمات غزل العذريين « بث الشكوى والحرقة والصبابة » (١٤) ، فليست العبرة بالحرقة أى حرقة ، بل نوعها . وحرقة الرقىّ هى كما قلت حرقة الظمإ الجسدى لا الاعتلاج الروحى الذى كان يعذِّب الشعراء العذريين . إن ربيعة الرقى هو شاعر الأرداف الغليظة وليس شاعر العاطفة الرهيفة ، لكن خفة روحه وتهكمه وصوره وأفكاره الطريفة أحيانًا وادعاءه الهيام والصراخ من الآلام ، كل ذلك هو الذى يخدع المتعجِّل ويخيِّل إليه أنَّ الشاعر يقاسى حقا حرقات الحب الروحية بينما هو بمنجًى منها ومأمن .

أمَّا بالنسبة لمديحه وهجائه فهناك مثلاً قوله فى العباس بن محمد

عم الرشيد يستميحه ، وكان يطمع فى أن يحصل منه على ألف دينار :

لو قيل للعباس : « يا ابن محمد ... قل : لا ، وأنت مُخَلَّدٌ » ما قالها
ما إن أعُدّ من المكارم خصلة ... إلا وجدتك عمَّها أو خالها
وإذا الملوك تساوروا فى بلدة ... كانوا كواكبها وكنت هلالها
إن المكارم لم تزل معقولة ... حتى حللت براحتيك عقالها

ثم قوله فيه بعد ذلك حين خيَّب أمله ولم يجازه إلاَّ بدينارين :

هززتك هزة السيف المحلَّى ... فلما أن ضربتُ بك انثنيت
مدحتك مدحة الطِّرْف المجلّى ... لتجرى فى الكرام كما جريت
فهبها مدحة ذهبت ضياعا ... كذبت عليك فيها وافتريت
فأنت المرء ليس له وفاء ... كأنى إذ مدحتك قد زنيت

وهو كلام فى عمومه أشبه بالنظم منه بالشعر ، وليس فيه إلا الشطرة الأخيرة من البيت الأخير من الأهجية ، إذ إنَّ ما فيها من طول لسان ووقاحةٍ قد أكسباها شيئًا من الحرارة . أمَّا إعجاب الرشيد بأبيات المديح فليس بشىء ، فإنه لم ينظر إلى قيمتها الفنية بل إلى ما فيها من مغالاةٍ كان الشعراء والنقاد فى تلك العصور يرونها هى الأساس السليم فى شعر المديح . لقد كان تعليقه عليها عقب أن سمعها وعرف أن عمه الممدوح بها لم يجز الشاعر عليها إلا بدينارين هو : « والله ما قال أحد من الشعراء فى أحد من الخلفاء مثلها » (١٥) . والمقصود هو أن أحدًا من الخلفاء لم يُمْدَحْ بمثل هذه الصفات العالية لا أن نصيب الأبيات من الفن الشعرى نصيب ضخم .

وتمضى القصة فتقول إن هذا التصرف من جانب العباس قد صرف الرشيد عما كان اعتزمه من الإصهار إليه ، وإن الشاعر ظل يعبث به كلما

سنحت الفرصة . وقد يكون هذا صحيحًا ، وإن كان فى النفس منه شىء ، إذ قد حذَّره الرشيد أن يهجوه بعد ذلك ، رغم أنه طيّب نفسه وكافأه بدل الدينارين بثلاثين ألف درهم (١٦) ، ولكنى لا أصدّق أبدًا أن الشاعر أخذ برنيّة مسك كان العباس أحضرها للرشيد هدية والشاعر حاضر ، ومدَّ يده فملأها مما فيها وكشف عن سوأتيه ولطخهما به ، وأرسل البرنية إلى جاريته طالبًا منها أن تفعل كما فعل ، وأن تستعدّ له حتى يأتيها ... إلى آخر ما ذكره صاحب « الأغانى » من كلام بذىء مكشوف ، إذ لم يكن الرشيد ، رغم كل ما يمكن قوله عنه ، بالماجن الذى يقبل هذا من أحدٍ فضلاً عن أن يكون المقصود به إهانة عمه . وقد رأينا كيف أنه أمر ربيعة أن يكف عنه فلا يتعرض له بعد ذلك أبدًا .

ومن مدائح ربيعة قوله يمدح يزيد بن حاتم والى أرمينية ، ويهجو يزيد بن أُسيد السُلَمى الأسدى ، إذ سارع الأول إلى إقالة عثرته وأعطاه ما أراد من الأموال ، على حين أهمله الثانى رغم أنه يمت إليه بقربى :

يزيـــد الأزد ، إن يزيـــد قومـــى ... سميَـك لا يجـــود كمـــا تجـــودْ
يقـــود جماعـــة وتقـــود أخـــرى ... فتـرْزُق مـن تقـــود ومـــن يقـــود
فمـــا تِسْعُـــون يحقرهـــا ثـــلاث ... يقيـم حسابهـــا رجـــل شديـــد
وكـــفّ شتنـــة جمعـــت لـــوجٍّ ... بأنكـــد مـــن عطائـــك يا يزيـــد

وهو كلام بارد ليس عليه طلاوة ولا فيه حرارة ولا تصوير بارع أو تهكم فنى مؤلم . إنه رصف كلام ، والسلام .

وقد عاد الشاعر إلى نفس الموضوع فى قصيدة أخرى مطلعها :

بكى أهـل مصـرٍ بالدمـوع السواجم ... غـداة غـدا منهـا الأغر بن حاتـم

وهى أقوى من الأبيات السابقة ، وفيها حرارة فى المدح ووخز فى الهجاء ،

وإن كانت المعانى والصور تقليدية .

ولربيعة الرقى قصيدة يشكو فيها الدهر ويستجيش عزمات نفسه ، داعيًا إياها إلى الصَّبر وعدم الاستسلام أو اللجوء إلى لئيم تسأله المعونة . وهى قصيدة جيدة حزينة يترواح أسلوبها بين الخبر والإنشاء ، وتشى بحيرة الشاعر وجزعه ، الذى يحاول أن يخفيه تحت ستار التجلُّد :

أليس الزمـان كمـا قـد علمتَ ؟ فمـا لـك تجزع مـن صرفـه ؟
وعنـدك علـم بـه ثاقـب وعيـن تـدل على وصفـه
وأيامـه دول ، والنفـوس رُهُـون الحـوادث مـن حتفـه
فأيـن المعافَـى مـن النائبـات ؟ ومـن صَاحَبَ الدهـر لـم يعفـه
ومـن صاحـب الدهـر لاقى الـذى يخـاف على الرغـم مـن أنفـه
فكن حـازم الـرأى واصبـر لـه فللحـرّ صبـر علـى ضعفـه
ولا تسأل النـاس مـا يملكـون ولكـن سـل اللـه واستكفـه
ولا تخضعـنَ إلـى سفلـة وإن كانـت الأرض فـى كفـه
فـإن اللئيـم ، وإن خلتـه كريمـا ، يـذودك عـن عُرْفـه
ويرجـع محصـول أخلاقـه إلـى أصلـه والـى صنفـه
وكـلّ صُقَـلٌ وذى ثـروة فـإن المنيـة مـن خلفـه

وهناك أبيات له يشكو فيها من قيلت على لسانه من ثقل إزاره الذى ألبستـه إياه أمُّه . وربَّما كانت الأبيات بقية قصيدة كاملة ضاع سائرها . ويـرى د. بكَّار أن ربيعة فى هذه الأبيات يذكر أمه ذكرا غير حميد ، وأنه يشكو منها بشدة وحسرة لأنها كانت تثقل عليه وتحمله ما لا طاقة له به (١٧) . والحقيقة أنه ليس فى الأبيات ذكر للأم غير حميد . كذلك فليست الشكوى لأنها تثقل عليه أو على من قال القصيدة على لسانه وتحمله ما لا طاقة له به ، بل لأنها كما يقول « أثقلتنى بإزارى » . وهذه

هى الأبيات :

وبلائـــــى أن أمـــــى	أثقلتنـــــى بـــــإزارى
فـــإذا مـــا قمـــت أمشـــى	هـــمَّ خصـــرى بانبتـــار
كـــلَّ ذا أحمـــل وحـــدى	أيـــن مـــن أمـــى فـــرارى ؟
أُمَّتـــا ، لســـت ببـــرذو	ن ولا بغـــل مكـــارى

وأقرب من هذا عندى أن يكون الشاعر قد نظم الأبيات على لسان فتاة : فالتكسر والغنج واضحان فيها ، وترديد اسم الأمّ على ذلك النحو هو بكلام الفتيات أشبه . فإذا صحَّ هذا تكن الإشارة إلى البراذين هى من طريقة الشاعر فى مزج الغزل بالهزل .

وثمة أبيات خمسة له فى وصف الرقة بلده :

حبـــذا الرقـــة دارا وبلـــد	بلـــد ساكنـــه ممـــن تـــودّ
مـــا رأينـــا بلـــدة تعدلهـــا	لا ولا أخبرنـــا عنهـــا أحـــد
إنهـــا بريـــة بحريـــة	سورهـــا بحـــر ، وسـور فـى الجَـدّ
تَسْمَعُ الصُّلْصُلَ فـــى أشجارهـــا	هُدْهُـــدَ البـــرّ ومكّـــاءً غـــردْ
لـم تُضَمَّـــن بلـــدةٌ ما ضُمِّنَـــتْ	مـــن جمـــال فـــى قريـش وأســدْ

وهى أبيـات مكتوبـة بلغة أقرب إلى الوصف العلمى منها إلى الوصف الأدبى ، فهى خالية من الماء والرواء ، على عكس ما قال د. بكار فى حقها ، إذ وصفها بأنها « مقطوعة جميلة » (١٨) .

وإلى جانب ما ذكرنا قبلا من سمات فى شعر ربيعة الغزلى ثمة سمات أخرى فى شعره بعامة . منها الإشارة إلى أمثال معروفة (١٩) ، كقوله :

ظلمت كذنب السوء إذ قال مـرة	لسخل رأى ، والذئب غرثان مُرمِلُ :
أأنت الذى فى غير جرم شتمتنى ؟	فقال : متى ذا ؟ قال : ذا عام أولُ

فقال : وُلِدْتُ العام ، بل رُمْتَ غدرة فدونك كُلْنِى ، لا هَنا لك مأكلُ

فهو يستعين بقصة الذئب والحمل المعروفة ، ولكن يلاحظ أنه اختصرها . وفى نفس الوقت فإن الحمل يدعو على الذئب ألا يهنأ له طعام ، مما لا يناسب السياق الذى وردت فيه هذه الأبيات من شعر ربيعة ، فإنه أراد تشبيه حبيبته وما تنزله به من إيلام وتعذيب بالذئب وعدوانه على السخل الضعيف العاجز ، فالدعاء من ثمة يصيب الحبيبة أيضا ، وهو ما لا يمكن أن يقصده الشاعر ، إذ القصيدة كلها استعطاف لها وتودُّد إليها وتنصُّل من أى ذنب يمكن أن تكون قد أخذته عليه . وفى بيتها الأخير دلالة أى دلالة :

عفا الله عما قد مضى . لستُ عائدا وهأنذا من سخطكم أتنصلُ

ومن إشاراته إلى الأمثال أيضا قوله :

فأنت كذبَّاح العصافير دائبا وعيناه من وجد عليهن تهملُ

فلا تنظرى ما تهمل العين وانظرى إلى الكف ماذا بالعصافير تفعلُ

وقوله :

أرانى ، ولا كفران للّه ، راجعًا بخفّى حنين من نوال ابن حاتم

وقوله :

قيل : معن لنا ، فلما اختبرنا كان مرعى ولا كالسعدان

وقوله :

وما ذنبى وحبُّك هاج هذا ؟ ولو تُرك القطا لغفا ونامـا (٢٠)

كذلك فقد اقتبس الشاعر بعضا من عبارات القرآن الكريم فى بضعة مواضع :

فقلت : لقد آنست نارا كأنها صفا كوكب لاحت فحنَّ لها قلبى

* * *

مشهـــــداً يؤخـــــذ بالأقـــــدا م فيـــــــه والنواصـــــى (٢١)

* * *

خُلِقْتِ من مسكة ، والناس خَلْقُهمو من لازب الطين، من صلصالة القتم(٢٢)

* * *

عفا الله عما قد مضى . لست عائدا وهاأنذا من سخطكم أتنصلُ (٢٣)

* * *

فلـو أن الملـــــوك رأوك يومًـــــا لخروا من جمالك ساجدينا (٢٤)

ومن الملاحظ فى شعر ربيعة غرامه أحيانا بتكرير بعض الكلمات تكريرا متتابعًا فى الغالب ، إما بنصّها أو بأحد اشتقاقاتها ، مثل :

ثـــم لمـــا صـــاح ديـــك قبـــل إبـــــان الصبـــاح

قلـــت : صـــح يا ديـــك ألفـا ليـــــس ذا وقـــــت البـــراح

أو أرى الصبـــــــح ، وإن كـــا ن لفـــــى الصبـــح افتضاحـــى

* * *

اعتـاد قلبَـك مـن حبيبـــك عيـدُه شـوقٌ عـراك فأنـت عنه تـــذودُه

والشـوق قـد غلـب الفـؤاد فقاده والشوق يغلـب ذا الهـوى فيقـودهُ

* * *

يقـــود جماعـــة وتقـــود أخـــرى فتَـــرْزُق مـــن تقـود ومـــن يقـــود

* * *

حبـــــذا الرقـــــة دارا وبلـــد بلـــــد ساكنـــــه ممـــن تـــودّ

ما رأينـــــا بلـــــدة تعدلهـــــا لا ولا أخبرنـــا عنهـــا أحـــد

...

لم تضمَّـــــن بلـــدة ما ضُمِّنَـــتْ مـن جمـــال فـى قريـــش وأسـدْ

* * *

وبلائـــــــى أن أمـــــــى أثقلتنـــــــى بـــــــإزارى

كـــلّ ذا أحمـــل وحـــدى أيـــن مـــن أمـــى فـــرارى ؟
أُمّتـــا هـــذا ، وربـــى ، حمـــل بـــردون بخـــارى
أُمّتـــا ، لســـت ببـــردو ن ولا بغـــل مكـــارى

* * *

ومن أين ، لا أيـن ، يحرم قتلكم وقتلـى لكـم يا أم ليلى محلّـلُ ؟
أتبكيـن مـن قتلـى وأنـت قتلتنـى بحبـك قتـلا بينـا ليس يُشْكلُ ؟

* * *

قلبى سقيم ، وداء الحـب أسقمـه ولـو أردت شَفَيْتِ القلب من سَقَمِ

* * *

فيا أيها الساعـى الـذى ليس مدركا بمسعاتـه سعـى البحـور الخضـارم
سعيـت ولم تـدرك نـوال ابـن حاتـم لفـك أسيـر واحتمـال العظـائم

* * *

هـى حـوراء كالمهـاة هجـان لهجـان ، وأنـت غيـر هجـان

بعد هذا الاستعراض والتحليل لشعر ربيعة الرقى نرى أن أجمله هو شعره الغزلى ، زائد القصيدة التى نظمها فى الشكوى من الدهر والتجلد أمام حدثانه ونائباته .

وقد مدح ابن المعتّز ما فى شعره ، وبالذات غزلياته ، من طبع وبعد عن التكلف (٢٥) . ورأيى أن هذا إنّما ينطبق على شعره الغزلى وقصيدته فى شكوى الدهر . أما ما وصل إلينا من مدائحه وأهاجيه ، وهو قليل ، فلا هو هنا ولا هو هناك ، بله أن نعنى أنفسنا بتصنيفه ما بين طبع أو صنعة .

الهوامش

١- جاء اسمه فى « العمدة » لابن رشيق (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد / المكتبة التجارية / القاهرة / ط ٢ / ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م / ٢ / ١٧٣) هكذا : « ربيعة بن عبد الرحمن الرقى » .

٢- الأغانى / مؤسسة عز الدين / ١٥ / ٣٧ .

٣- انظر « الأغانى » / ١٥ / ٣٩ .

٤- الأغانى / ١٥ / ٤٢ .

٥- الأغانى / ١٥ / ٣٧ .

٦- انظر « نكت الهميان فى نكت العميان » للصفدى / المطبعة الجمالية / القاهرة / ١٩١١ م / ١٥١ .

٧- تاريخ آداب اللغة العربية / تعليق د . شوقى ضيف / دار الهلال / ٢ / ٩٢ .

٨- العصر العباسى الأول / دار المعارف / ط ٦ / ٣٧٩ .

٩- تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م / ٢ / ١٥٧ .

١٠- الشعر والشعراء / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٢ / ١٩٧٥ م / ٥٥٢ .

١١- انظر « شعر ربيعة الرقى » / جمع وتحقيق د . يوسف حسين بكار / بغداد / ط ١ / ١٦ - ١٧ .

١٢- انظر « شعر ربيعة الرقى » / ٣٦ ، ٣٩ - ٤٠ .

١٣- الأغانى / ١٥ / ٤١ ، ونكت الهميان / ١٥١ .

١٤- انظر « شعر ربيعة الرقى » / ٤٠ .

١٥- الأغانى / ١٥ / ٣٩ .

١٦- الأغانى / ١٥ / ٣٩ ، وطبقات الشعراء / تحقيق عبد الستار أحمد فراج / دار المعارف بمصر / ط ٢ / ١٥٩ ، ومعجم الأدباء / دار الفكر / ٢٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م / ١١ / ١٣٦ .

١٧- شعر ربيعة الرقى / ١٥ .

١٨- شعر ربيعة الرقى / ١٣ - ١٤ .

١٩- تنبه لهذا د . بكار . انظر « شعر ربيعة الرقى » / ٦٠ وما بعدها .

٢٠- نص المثل : لو تُرك القَطا ليلا لنام .

٢١- فى القرآن : فيؤخَذُ بالنواصى والأقدام (الرحمن / ٤١) .

٢٢- فى القرآن (الآية / ١١ من سورة « الصافات ») : « إنا خلقناهم من طين لازب » ، فغيّر الشاعر تركيب العبارة وحوّل الصفة والموصوف المنكرين إلى مضاف ومضاف إليه معرفين .

٢٣- فى الآية / ٩٦ من « المائدة » : « عفا الله عما سلف . ومن عاد فينتقم الله منه » . ومن السهل على القارىء أن يلاحظ التحويرات التى أدخلها الشاعر على العبارة القرآنية .

٢٤- فى الآية / ٤٧ من سورة « مريم » : « إذا تُتْلَى عليهم آيات الرحمن خروا سجّدا وبُكيّا » ، فحول الشاعر صيغة جمع التكسير « سجّدا » إلى صيغة الجمع السالم ، وحذف « بُكيّا » لأنها لا تتفق مع سياق كلامه ، وأضاف قوله « من جمالك » ليفرّق بين السجودين : فهذا من الخشوع ، وذاك من الانبهار بالجمال .

٢٥- طبقات الشعراء / ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .

الخُرَيْمِيّ

هـو إسحـاق بن حسَّان بن قوهى ، وكان صغدى الأصـل ، وكنيته أبو يعقوب ، ولقبه الخُرَيْمِى . وهذا اللقب نسبة إلى خُرَيْم الناعم ، الذى كان الشاعر مولى لاثنين من سلالته هما خريم بن عامر وابنه عثمان بن خريم . وقد عاش فيما يبدو فى العراق والشام ، واتصل بالبرامكة . وكان أعور ، ولذلك كان يطلق عليه أحيانا « أبا يعقوب الأعور » ، ثم عمِى فى آخر حياته (١) .

وفى الفتنة التى اشتعلت بين الأمين والمأمون وأصاب بغداد منها بلاء فظيع نراه ينظم قصيدة طويلة يصوّر فيها ما حلَّ بهذه المدينة ، مُرْجعًا إياه إلى خروجها عن أمر اللَّه وشيوع الفساد والانحلال والمظالم فيها ، متجها فى آخرها بالنصيحة إلى الأخ المنتصر أن يعمل على نشر العدل بين الرعية وبسط جناح الرحمة عليها والأخذ بشدة على أيدى المفسدين (٢) .

وقد نُسب الخريمى إلى الشعوبية : نسبه إليها بعض من كتبوا عنه من المحدثين عربًا ومستشرقين (٣) . ولم يتهمه بذلك من كتبوا عنه من القدماء ، كابن المعتز أو ابن قتيبة أو الجاحظ أو ابن الجراح أو الطبرى أو الخطيب البغدادى مثلا .

ومن الذين اتهموه بالشعوبية فى عصرنا المستشرق الألمانى كارل بروكلمان ، الذى يقول إنه « كان ... يذهب مذهب الشعوبية فى تفضيل الفرس على العرب » ، وإنْ أثبت له سلامة عقيدته وحسن إسلامه (٤) .

كذلك عدَّه د. عبد الله سلوم السامرائى منهم ، رغم تنبهه إلى أنه لم

يوصف بذلك من قِبَل أحد من القدماء . وهذا نص كلامه : « تواجهنا ونحن نتابع الحركة الشعوبية طائفة من الأشخاص ومجموعة من الآراء والمواقف التى تدل على معاداة العرب والإشادة بغيرهم دون أن يطلق عليهم أو على مواقفهم الحكم بالشعوبية .

ومن الشعراء الذين أنشدوا فى ذم العرب والتفاخر بالفرس الخُرَيمِيُّ ... وقد وضع القصائد فى مدح البرامكة . ومن خلال ذلك تفاخر بالفرس على حساب العرب . ومن أشعاره فى هذا المجال قوله :

إنى امرؤ من سراة الصغد ألبسنى ... عرق الأعاجم جلدا طيب الخبر

ومنها :

وناديتُ من مرو وبَلْخ فوارسا ... لهم حسب فى الأكرمين حبيب
فيا حسرتا ! لا دار قومى قريبة ... فيكثر منهم ناصرى ويطيب
وإن أبى ساسان كسرى بن هرمز ... وخاقان لى ، لو تعلمين ، نسيب
ملكنا رقاب الناس فى الشرق كلهم ... لنا تابع طوع القياد جنيب
نسومكمو خسفا ونقضى عليكمو ... بما شاء منا مخطىء ومصيب

ومن قصائد الخريمى فى ذم العرب قوله :

أبالصغد بأس إذ تعيّرنى جُمْلُ ... سفاها ؟ ومن أخلاق جارتىَ الجهلُ
همو ، فاعلموا ، أصلى الذى فيه منبتى ... على كل فرع فى التراب له أصلُ
إذا أنت لم تحم القديم بحادث ... من المجد لم ينفعك ما كان من قبلُ

ومن أشعار الخريمى هذه يتبين لنا بأنه كان يفخر بالفرس ويذم العرب . وهذان ركنان أساسيان فى إدخال الشخص فى نطاق العنصرية » (٥) .

ومن المُحْدثين الذين يتهمون الخريمى بالشعوبية أيضا د. أحمد

أمين ، الذى قال إنه « يُكثِر فى شعره من الاعتزاز بالنسب الفارسى والتحقير من شأن العرب » ، ثم أورد له ثلاثة نصوص هى :

إنى امرؤ من سراة الصغد ألبسنى ... عرقُ الأعاجم جلدًا طيب الخَبَر

* * *

أبالصغد بأس إذ تعيّرنى جُمْلُ ... سفاها ؟ ومن أخلاق جارتىَ الجهلْ

* * *

وناديت من مرو وبَلْخَ فوارسًا ... لهم حسب فى الأكرمين حسيب (٦)

وهى نصوص سأوردها بعد قليل كاملة وأناقشها .

وممن اتهم الخريمى فى عصرنا بالشعوبية أيضا د. مصطفى هدارة ، الذى يؤكد أن قول الشاعر :

إنى امرؤ من سراة الصُّغْد ألبسنى ... عرقُ الأعاجم جلدًا طيب الخَبَر

هو تعريض بالعرب ، وأن من السذاجة موافقة شارل بلا (٧) على أن هذا الشعر هو فخر عادى ، إذ إن « هذا الفخر كان جزءًا أساسيا فى مبادى الشعوبية » (٨) .

ومن المعاصرين أيضا الذين جعلوا الخريمى شعوبيا عباس الجرارى ، الذى سلكه فى هذا السبيل مع بشار والمتوكلى وأبى نواس ، مستشهدًا بأبياته التى يقول فى أولها : « وناديت من مروٍ وبَلْخ فوارسًا » ، وبقصيدته : « أبالصغد بأس إذ تُعَيّرنى جُمْلُ ... ؟ » (٩) .

أما د. شوقى ضيف فقد نفى عنه هذه التهمة ، مؤكدا أنه « لم يكن جادا فى تعصبه على العرب وخصومتهم » وأنه إنما كان يطلب التسوية بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، ولذلك ينبغى أن يُنحَّى عن جماعة الشعوبيين (١٠) . وكرّر هذا الرأى فى تعليقه على قصيدته :

« أبالصغد بأس إذ تُعَيِّرنى جُمْلُ ... ؟ » ، إذ ذكر أن بعض الباحثين من العرب والمستشرقين قد سلكوه فى الشعوبيين بسبب هذه القصيدة وما فيها من فخر بأصله الأعجمى ، مؤكدا أنه لا يستمد هذا الفخر من الشعوبية ، بل من مبادى الإسلام ، التى تسوى بين الناس عربا وموالى ، فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى (١١) .

وينفى شارل بلا أن يكون للخريمى دور بين الشعوبيين . وهذه عبارته كما وردت فى النص الإنجليزى : «He does not seem to have played a role among the Shu'ubis » (١٢) .

ويترجح رأى د. مصطفى الشكعة بين حُسْبَان الخريمى من شعراء الشعوبية بل من أخطرهم وبين ما يمكن أن يُفْهم منه أنه يبرئه من هذه التهمة . قال : « وكان أخطر شعراء الشعوبية فى فترة العباسية على بن الخليل وأبا نواس وإسحاق بن حسان الخريمى ... إن أبا يعقوب الخريمى يفخر ملء برديه بأعجميته الفارسية فيقول :

إنى امرؤ من سراة الصغد البسنـــى عـرقُ الأعاجم جلدا طيب الخَبَـــر

ولكنه لا يلبث فى شعوبياته الأُخر أن يجعل من فخره دفاعًا عن عدوانٍ تصوره وقع عليه . ويخلع على قصيدته ثوب العدالة والمنطق والمساواة فى نطاق العقل والدين ومبدإ ألا فضل لإنسان على آخر لأن هذا منتماه عربى وذاك منتماه أعجمى . على أنَّ أبيات الخريمى على لؤم هدفها تبدو جيدة السبك واقعية المعنى ، وذلك حين يقول :

أبالصغـد بـأس إذ تُعَيّرنـى جُمْـلُ سفاها ؟ ومن أخـلاق جارتىَ الجهلُ
فـإن تفخرى يا جُمْـلُ أو تتجملى فـلا فخر إلا فوقـه الدين والعقل
أرى الناس شرعًا فى الحياة، ولا يُرَى لقبـرٍ علَـى قبـرٍ عـلاءٌ ولا فضـل

ففى هذا النص نرى الأستاذ الدكتور يتهم الخريمى بالشعوبية ويصنّفه مع أخطر شعرائها . أما فى النص التالى فإنه يضع المسألة وضعًا يبدو وكأنه يريد به استرجاع رأيه السابق أو التلطيف منه وإيجاد العذر للشاعر . يقول : « لقد اتُّهِم الخُرَيْمى بالشعوبية . وقد ذكرنا له أبياتا فى الباب الأول (١٤) من هذا الكتاب يفخر فيها بفارسيته ربما كان الدافع إلى قولها دفاع (كذا) عما تصوره استعلاء عليه من جانب العرب ، لأنه نادى فى قصيدته تلك بالمساواة بين الناس . وآية ذلك قوله فيها :

فلا فخر إلا فوقه الدين والعقلُ فإن تفخرى يا جُمْل أو تتجملى
لقبر على قبر علاءً ولا فضلُ أرى الناس شرْعًا فى الحياة، ولا يُرَى

ولم يُعْرَف عن الخريمى انحراف عن الجادة ولا انقلاب عن القيم الخلقية ، بل كان فيما يذكر الخطيب البغدادى متألها متدينا . والوقع أن صاحب « تاريخ بغداد » لم يبتعد عن كبد الحقيقة فى قوله هذا » (١٥) .

فإذا رجعنا بأنفسنا إلى شعر الخريمى المتهم بالشعوبية بسببه والظروف التى قيل فيها رأينا أنه كان قد « صحب عثمان بن خريم القائد ، وكان يلى أرمينية ، فسار خاقان الخزر إلى حربه ، وعسكر ابن خريم إزاءه وعقد لأبى يعقوب على الصحابة وأشراف من معه ، فكرهوا ذلك ، فقال الخرمى (١٦) :

أبالصُّغْدِ بأس أن تُغَيّرنى جُمْلُ سفاها ؟ ومن أخلاقى جارتنا الجهلُ

... إلخ » (١٧) .

إذن فقد كان الخريمى قائدا عسكريا يبذل روحه فى سبيل الله

ونصرة الإسلام والوقوف على رأس الجيش المسلم فى وجه الخزر ، وهم أقرب إليه عِرْقيا من العرب ، الذين كان يحارب فى صفوفهم ودفاعًا عن دولتهم وعن الدين الذى نزل على نبى منهم وبلغتهم . ولكن الرجل راعه أن يرى الأهواء والعنجهية تستولى على النفوس فى مثل هذا الموقف العصيب ، جاعلة الصدارة لا للمواهب وخلوص النيات بل للاعتبارات العرقية والطبقية ، مفرقة بين عربى وغير عربى ، مع أن الجميع فى قارب واحد ويواجهون عدوا مشتركا لا يفرق بين عرب وعجم ، بل همه استئصال شأفة الدين والدولة جميعًا . فإذا ثارت كرامة الرجل وجاشت حميته العرقية وهبَّ يدافع عن نفسه ويسخّف ضيق الأفق الذى يسوّل لبعض الناس ألا يروا إلا أنفسهم ولا يؤمنوا لأمَّة بفضلٍ غير أمتهم ، وكأنهم قد اصطفاهم اللَّه طبيعةً على العالمين ، أيحقُّ لنا أن نسمه بالشعوبية ؟ إن الله سبحانه قد وزَّع مواهبه على الأمم جميعا ، فليست هناك أمة حازت جميع الفضائل وأمة عريت عنها كلها . إنما لكل أمة محاسنها وعيوبها ، وليس العرب استثناء فى ذلك . إن لومنا للخريمى على شعره هذا مجانبة للإنصاف ، فإن الشخص الذى يُصْفَع على وجهه فيمد يديه لحماية نفسه من المزيد من الصفعات إنما يمارس أدنى حقوقه . وما من عاقل تسوّل له نفسه أن يتهمه بالعدوان على من يصفعه ، بل المعتدى هو الآخر ، وهو الحقيق بالاتهام واللوم والعقاب .

إن الخريمى فى شعره هذا لم يتعدَّ الدفاع إلى الهجوم ، إذ لم يحاول أن يمسَّ العرب بسوء . أما القول بأن مجرد افتخاره بفارسيته (كما افتخر بعروبتهم من رفضوا قيادته وأنفوا منها) هو إساءة للعرب فهو منطق

ظالم ، فضلاً عن أنه يصوّر فضل العرب وماضيهم ومجدهم وكأنه من قوارير : ما إن يُصْدَم أقل صدمة حتى يتهشم . بل إن الرجل قد تلطف غاية التلطف فلم يذكر العرب على الإطلاق فى كلامه ، بل كنّى عن بعضهم بـ « جارَته جُمْل » . فما الذى نريده منه أكثر من ذلك ؟ وماذا من بأس فى قول الشاعر :

فلن تفخرى يا جُمْلُ أو تتجملى ... فلا فخر إلا فوقه الدين والعقلُ
أرى الناس شرعا فى الحياة ، ولا يُرَى ... لقبرٍ على قبرٍ علاءٌ ولا فضل
وما ضرنى أن لم تلدنى « يُحابِرٌ » ... ولم تشتمل « جَرْمٌ » علىّ و « عُكْلُ » :
إذا أنت لم تحتم القديم بحادث ... من المجد لم ينفعك ماكان من قبلُ

الواقع أنه ما من بأس فى ذلك البتة . وصحيح تماما أنه لا يضير إنسانًا أن لم تلده « يُحَابِر » أو « جَرْم » أو « عُكْل » ، فليست هذه القبائل أو غيرها من القبائل العربية بأفضل من سواها من غير العرب فى أى شىء ، اللهم إلا بالتقوى والعقل والعمل الطيب الصالح ، وهو ما قاله الشاعر . وهل نسى العرب أنهم قد عادوا دين الله ورسوله ونصبوا لحربهما فى مبدإ الأمر ، ولم يدخلوا فى الإسلام أفواجًا إلاَّ بعد ملاحم دامية وبعد أن يئسوا من الظفر به ، ثم سرعان ما ارتد كثير منهم غبَّ وفاته صلى الله عليه وسلم ولم يفيئوا إلى العقل والدين إلاَّ بعد سلسلة أخرى من الملاحم المبيرة ؟ فعلام إذن النقمة على الأعاجم الذين دخلوا الإسلام وأصبحوا بحكم هذا الدين إخوة مساوين لهم كأسنان المشط ؟

إنه إذا كانت المسألة مسألة الدين والإسلام فلا معنى لهذه النفخة الكذابة . أمَّا إذا كانت المسألة مسألة ما قبل الإسلام فها هو ذا الشاعر يصرخ بملء حنجرته :

وإن أبى ساسان كسرى بن هرمز وخاقان لى ، لو تعلمين ، نسيبُ
ملكنا رقاب الناس فى الشرق كلهم لنا تابع طوع القياد جنيبُ
نسومكو خسفا ونقضى عليكمو بما شاء منّا مخطىء ومصيبُ

غير أن الشاعر سرعان ما يفىء إلى الحاضر فيغلبه إيمانه على عصبيته ، ويلقى السَّلَم قائلاً :

فلما أتى الإسلام وانشرحت له صدور به نحو الأنام تُنيبُ
تبعنا رسول الله حتى كأنما سماء علينا بالرجال تصوبُ

وقد كان الحافز للشاعر على نظم هذه القصيدة أنه قد :

تداعت « مَعَدٌّ » شِيبُها وشبابُها و « قحطانُ » منها حالبٌ وحليبُ
لينتهبوا مالى ودون انتهابه حسام رقيق الشفرتين خشيب

إننا بذلك لا نبغى نصر الأعاجم على العرب ، فنحن عرب لا عجم ، ولكننا نقف مع مبادىء الإسلام والعدل والحقِّ . أمَّا العروبة فتأتى فى المقام الثانى .

ولو كان الخريمى شعوبيا حاقدًا يريد هدم العرب ودينهم لعكست ذلك مطوَّلته فى وصف بغداد والرثاء لما حلَّ بها أثناء الحرب الأهلية بين الخليفتين الأخوين : الأمين والمأمون ، ولانطلق يشمت بهزيمة الحزب العربى ويجلجل بانتصار الحزب الفارسى المتمثل فى أعوان المأمون (١٨) . ولكنه اختطَّ خطة أخرى تمامًا ، إذ بكى مدينة السلام وتألم لما أصابها من تهديم وتحريق وما أُزْهِق على أرضها من الأرواح ، مُرْجِعًا ذلك كلَّه إلى الفسوق عن دين اللَّه وشيوع المظالم والمفاسد والتحلل الأخلاقى وانقلاب القيم رأسًا على عقب ، ومتوجها إلى الخليفة المنتصر أن يأخذ على أيدى الظالمين ، ويرسى قواعد العدل ، ويلتفت إلى الرعية ويعاملها بالرحمة :

يا هل رأيت الأملاك ما صنعت ... إذ لم يَرْعَها بالنصح زاجرُها ؟
أورد أملاكنا نفوسهمو ... هوة غىٍّ أعيت مصادرُها
ما ضرها لو وفت بموثقها ... واستحكمت فى التقى بصائرها ؟

...

كم قد رأينا من المعاصى يبغدا ... د ، فهل ذو الجلال غافرُها ؟

...

رقَّ بها الدين واستُخفَّ بذى الـ ... ـفضل ، وعزَّ النَّسَّاكَ فاجرُها
وخطَّم العبدُ أنفَ سيده ... بالرغم ، واستُعْبِدَتْ حرائرها
وصار ربَّ الجيران فاسقُهم ... وابتزَّ أمر الدروب ذاعرُها

...

يا هل رأيت الثكلى مولولة ... فى الطرق تسعى والجهد باهرُها
فى إثر نعش عليه واحدها ... فى صدره طعنة يساورها

...

تنظر فى وجهه وتهتف بالثكـ ... ـل وجارى الدموع حادرُها
غرغر بالنفس ، ثم أسلمـ ... ـها مطلولةً لا يخاف ثائرها ؟

...

خليفة الله فى بريته الـ ... ـمأمون منتاشها وجابرُها
سمت إليه آمال أمته ... منقادة بَرُّها وفاجرُها

...

أدّبَ رجالا رأيت سيرتهم ... خالف حكمَ الكتاب سائرُها
وامدد إلى الناس كف مرحمة ... تُسَدُّ منهم بها مفاقرها
أمكنك العدل إذ هممت به ... ووافقت مُدَّه مقادرها

...

كم عندنا من نصيحة لك فى اللـ ... ـه وقُرْبَى عزَّت زوافرها

...

لا طمعا قُلْتُها ولا بطرا ... لكل نفس هوًى يؤامرها

وحتى عندما يعلن فى إحدى مقطوعاته أنه لا يروعه الوقوف على الأطلال لا يصنع مثلا صنيع أبى نواسٍ حين هبَّ كالإعصار يحقِّر الأعراب ويتهكم تهكما عنيفا مؤلما بأسلوب عيشهم ، صارخًا بتفضيل استهلال القصائد بالتغنى بالخمر . بل كلُّ ما يشغل الخريمى هو وصف حالة الفقر التى أصابه بلعنتها انخراطه فى زمرة الأدباء :

لم تَرُعْنـــى دارٌ عفـــت بالجنـــابِ ... دارسٌ آيُهـــا لخـــطّ الكتـــابِ
أوحشـــت بعـــد آهـــل وأنيـــس ... مـــن جـــوارٍ خرائـــدٍ أتـــراب
واضحـــات الخـــدود كالبقـــر الخُنّـــ ... ـس عين الحمـــى فـــروض الروابى
إنمـــا راعنـــى لذكـــرى حالـــى ... بسجستـــان خـــادم الكتّـــابِ
قـــلَّ عنـــى عنـــاء عقلـى ودينـى ... ودخولـى فـى العلـم مـن كل بـاب
أدركَتْنِـــى ، وذاك أول دابـــى ، ... بسجستـــان حرفـــةُ الآداب

وقد جُمِع فى العصر الحديث شعر الخريمى المقطوع به فى ديوان يغطِّى اثنتين وخمسين صفحة من القطع المتوسط بشروحه وتخريجاته والتعليقات التى كتبت عليه (مع ملاحظة أن بعض القصائد كل بيت من أبياتها يشغل سطرين) ، بخلاف ثلاث عشرة صفحة أخرى للشعر الذى ينسب إليه وإلى غيره ، وأغلبه هو به أولى . ونعرف من « فهرست » ابن النديم أن ديوانه كان أكبر من ذلك كثيرًا ، إذ ذكر أنه كان يبلغ مائتى ورقة . وفى ديوانه المجموع حديثا ما يدل على أن هناك شعرًا كثيرًا له قد ضاع ، إذ يفاجأ الإنسان مثلا ببيت واحد من مطلع قصيدة ، أو بأبيات متفرقة من قصيدة أخرى ، ولكن أين باقيها ؟ كذلك فإن ابن المعتز يقول إنه كان « له فى الغزل ملح كثيرة » (١٩) ، على حين أن ديوانه المجموع حديثا يخلو تماما من هذا الموضوع تقريبا ، إذ ليس فيه إلا هذه الأبيات :

باحـــت ببلـــواه جفونُـــهْ ... وجـــرت بأدمعـــه شؤونُـــهْ
لمَّـــا رأى شيبـــا عـــلا ... ه ولم يحـــن فـــى الغـدّ حينـــه
فعَـــلا علـى فقـــد الشبـــا ... ب وفقـــد مـــن يهـــوى أنينـــه
مـــا كـــان أنجـــح سعيـــه ... وشبابُـــه فيـــه معينُـــه !
واللهـــو يحْسُـــنُ بالفتـــى ... مـــا لم يكـــن شيـــب يشينـــه

وهذه الأبيات أيضا :

أرْض لـــى ســـوء ظنونـــى ... وحـــرارات أنينـــى
أنـــت مـــا تصنـــع بالهجـــ ... ـر ؟ كفـــى ســـوء ظنونـــى
أو مـــا يكفيـــك أنـــى ... بـــك مقطـــوع القريـــن ؟
فإلـــى طرفـــك أشكـــو ... كـــل ذى طـــرف فتُـــون
وإلـــى الخـــد الـــذى يجـــ ... ـرحه لحـــظ العيـــون
وتقربـــت إليكـــم ... بخضـــوع المستكيـــن
فارحمـــوا ضـــرى وإلاّ ... فأريحـــو واقتلونـــى

وقد جاء فى « الورقة » لابن الجراح أيضا أن الخريمى سئل عن السرّ فى أن مديحه لأبى الهيذام وعثمان بن عمارة والحسن بن التختاخ ومحمد بن منصور بن زياد فى حياتهم أجود من رثائه لهم (٢٠) ، ومعنى ذلك أن له مراثى فى هؤلاء الناس ، وهو ما لا وجود له فى الديوان الذى بين أيدينا .

والشعر الخريمى الذى بين أيدينا يدور حول الفخر والمديح والهجاء والرثاء والإخوانيات وفقْد الشاعر نور عينيه ، إلى جانب مطوّلته فى التفجع على بغداد والأبيات التى أوردتها له آنفًا فى الغزل .

فأمَّا فخره فبعضه قومىّ ، وبعضه فخر شخصى . وقد سبق أن وقفنا أمام أهم قصائد اللون الأوّل عند الكلام عما اتُّهم به من شعوبية . أما فى

قصائد الفخر الذاتى فإنه يتمدح بحرصه على إخوانه ومودتهم والوفاء لهم فى محضرهم ومغيبهم ، وبإكرامه ضيوفه لا بالطعام فقط بل بحسن لقائه لهم أوّلا وبشّه فى وجوههم ، وبأنه صبور على إساءات الأصدقاء ، فإن أراد تنبيههم إلى إساءتهم عاتبهم مازحا ومعرّضا فى رفق بخطئهم فى حقّه ، بل إنه ليذّل لهم كى يبقى على حبل المودة بينه وبينهم وكأنه هو المذنب إليهم ، فإن عادوا إليه تجاهل ما مضى وكأنه لم يكن خشية أن يجدّد الأحزان ، أمّا إذا تمادوا فى الهجر والخصام فإنه لا يقابلهم بهجر مثله بل يصفح عنهم ليعطيهم فرصة للتفكير الهادىء ومراجعة أنفسهم ، غير مفشٍ سرًّا لهم عنده . كذلك يتمدح بأنه جبان عن فعل ما لا يليق ، وجرىء مقدام على المكرمات ، وبأنه يستشير أهل الرأى ، وإن كان عقله راجحًا صائبًا ، وبأنه لا يدعى علم ما يجهل ، وبأنه يقدس حرمة الجيرة فلا يتعرض لنساء جيرانه ولا ينظر إليهن بل لا يسأل عنهن إذا غبْن مجرد سؤال :

أسْرُّ خليلى شاهدا وأبَرّه ... وأحفظه بالغيب حين يغيبُ
وإنى لسهل الوجه للمبتغى الندى ... وإن فنائى للقرَى لرحيب
أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ... ويُخْصِب عندى والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرَى ... ولكنما وجه الكريم خصيبُ
وإنى لتصفو للخليل سريرتى ... وإن جَعَلَتْ أشياء منه تريب
أعاتبه مزحًا وأعْرض بالتى ... لها بين أثناء الضلوع دبيب
أخاف لجاجات العتاب بصاحبى ... وللجهل من قلب الحليم نصيبُ
أذلّ له حتى كأنى بذنبه ... إلىَّ مذنب إليه أتوب
ليحيى دفين من مودة بيننا ... فيُخلَف ظنٌّ أو يثوب غريب
فإن فاء لم أعدد عليه ذنوبه ... وهل بعد فيئات الرجال ذنوب ؟
وإن لج فى هجرى صفحت تكرما ... لعلَّ الحجا بعد الغُرُوب يثوبُ

وصنت أديم الوجه منه ، ولم يزل وفائى له حتى يزول عسيب

ولم أفش سرًا كان بينى وبينه وللسّرّ راع حافظ ورقيبُ

... إلخ .

وأحب أن ألفت النظر إلى الصورة البديعة الجميلة فى قوله : « ولكنما وجه الرجال خصيب » ، حيث يُشَبَّه الوجه بالأرض الخصبة . وهى أرض عجيبة تنبت البشر والابتسام والترحيب . وأيضًا ما أروع قوله : « وهل بعد فيئات الرجال ذنوب ؟ » ، الذى يصور مدى تسامحه العظيم وعمق فهمه للحياة ! فإن الإغضاء عما فات من شأنه عادةً أن يعبّد الطريق لبدء صفحة جديدة بين الصديقين خالية من التوتر ، ويساعدهما على الاستمتاع التام بلذة التصافى والعودة بعد الهجر والقطيعة . والقصيدة بعد لا تحتوى إلا على موضوع واحد ، مما يجعل بناءها متماسكًا كقطعة واحدةٍ من الحجر .

أما القصيدة التالية ، وهى فى الفخر ، فليس لها تماسك هذه ، إذ إن الشاعر لم يدخل إلى غرضه مباشرة ، بل قدم له بمقدمة غزلية من بيتين (٢١) . ويدور الفخر فيها على شدة إحساس الشاعر بكرامته وعلى مرارة عداوته وأنه لا يدخر أى سلاح فى حرب خصومه ، سواء كان سلاح الشعر أو الرماح والسيوف . وهو يمزج الفخر باحتقار شديد للخصوم ، وبخاصة أولئك الذين يظنون أنهم يستطيعون مزاحمته فى ميدان الشعر ، مسميًا إياهم بـ « الوطاويط » :

ولستُ بنظّار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

ولكننى مرّ العداوة واترٌ كثير ذنوب الشّعْر والأسل السُّمر

...

ألا إنما أبكى على الشّعر أننى أرى كل وطواط يزاحم فى الشعر

...

دعوا الحية النضناض، لا تعرضوا لها فإن المنايا بين أنيابها الخُضْر

ووصف الشعاريرِ بـ « الوطاويط » ليس من الصور الشائعة فى الهجاء العربى . كذلك فإن قوله : « كثير ذنوب الشعر » هو من الأقوال التى تبدو لى طازجة غضة .

أما بالنسبة لمدائحه فقد مدح محمد بن منصور بن زياد الملقب بـ « فتى العسكر » ، ويحيى بن خالد البرمكى بعد أن أصلح بين النزارية واليمنية ، إلى جانب أشعار له أخرى فى ناس لم يُسمَّوْا . ولعلّ هذه الأبيات التى يمدح فيها يحيى بن خالد هى أفضل شعره المدحى رغم أنها فى ذاتها ليست بشىء يُذْكر :

من مبلغ يحيى ودون لقائه زفرات كل خنابس همهام :

يا راعى السلطان غير مفرط فى لين مختبط وطيب شمام

تعذى (٢٢) مسارحه ويصفى شربه ويبيت بالربوات والأعلام

حتى تنخنخ ضاربا بجرانه ورست مراسيه بدار سلام

فى كل ثغر حارس من قبله وشعاع طرف لا يفتّر سام ؟

فهى ، كما ترى ، أبيات ليس لها حظ كبير من نفحة الشعر . وذلك على خلاف ما قاله فى الرثاء ، سواء كان رثاءً لمواليه أو لأهل بيته ، وإن كان رثاؤه لهؤلاء ، وعلى وجه خاص رثاؤه لابنه ، أحرَّ وألوع . وهو ما يتناقض مع حكم من رأوا أن مديحه لبعض ممدوحيه أجود من رثائه لهم ، ومع حكمه هو أيضا فى هذه المسألة ، إذ قال : « يا مجانين ، أنى يقع شعر الوفاء والتذمم من شعرى إذا صار للرجاء والرغبة ؟ » (٢٣) .

وقراءة سريعة للأبيات التالية ، وهى من قصيدة فى رثاء خريم بن عمارة ، تريك الفرق الهائل بين مستواها الفنى العالى ومستوى الأبيات السابقة فى المديح :

قضى وطرا منك الحبيب المودّع ... وحلّ الذى لا يستطاع فيُدفَعُ
وأصبحت لا أدرى إذا بان صاحبى ... وغودرت فردا بعده كيف أصنع :
أأفنى الحياة عفة وتجلدا ... بعافية أم أستكين فأهلع ؟
بلى قد حلبت الدهر أشْطُرَ دَرّه ... فأبصرت منه ما يضر وينفعُ
فأيقنت أن الحى لابد ميت ... وأن الفتى فى أهله لا يمتّع
وقالوا : ألا تبكى خريم بن عامر ؟ ... فقلت : وهل تبكى الذلول الموقَّعُ ؟

...

صبرتُ وكان الصبر خيرًا مغبةً ... وهل جزع مُجْدٍ علىّ فأجزعُ ؟
ملكت دموع العين حتى رددتها ... إلى ناظرى ، إذ أعين القلب تدمع

...

أرد حواشى برده فوق سنّة ... إخال بها ضوءًا من البدر يسطع

...

تخال بقايا الروح فيه لقربه ... بعهد الحياة وهو ميّتٌ مقنّعُ

...

تذكرنى شمس الضحى نور وجهه ... فلى لحظات نحوها حين تطلع
وأعددته ذخرا لكل ملمة ... وسهم المنايا بالذخائر مولعُ

... إلخ .

أين ذلك الكلام المرصوص رصًّا من هذا الأسى النابع من أعماق القلب ، أسى الذهول أمام فاجعة الموت والتضعضع تحت ضربة مطرقته ؟ وتأمّل هذه اللمسات الواقعية البسيطة التى يصوّر بها وجه المرثى غب وفاته ، إذ مدّ يده فغطى وجهه وفمه بحواشى برده خشوعًا أمام الموت والأموات ، وإن كان

من الصعب عليه فى البداية أن يتخيل أنه مات ، فقد كان ذلك الوجه لا يزال حديث عهد بالحياة .

أما فى رثائه لابنه فإن إحساسه بالفاجعة أعنف وأطغى ، وإن صبره على رزئه فى فلذة كبده ليخونه تمامًا ، رغم معرفته أنه بالصبر يحرز أجرا عظيما . وهو يصرح بذلك لا يوارى ، ويتعجب من الخليّين الذين لم يلتاعوا لوعته فهم يلومونه على شدة تفجعه وعدم صبره ، مذكرًا إياهم بما حدث ليعقوب عليه السلام حزنا على يوسف ، الذى ظن أنه قد مات فابيضت عيناه من الحزن ، ولم يعيّره الله بذلك ، إذ هو الرحيم العالم بأن قلوب الآباء والأمهات تتفطر ألما إذا فجعوا فى أبنائهم :

أعاذل ، كم من منفس قد رُزِئْتُه ... وفارقنى شخص علىَّ كريمُ
وقاسيت من بلوى زمان وكربة ... وودّعنى من أقربىَّ حميم
فعزّيْتُ نفسى ، غير أنى بأحمد ... بُنَىَّ لمسلوب العزاء سقيم
أرى الصبر عنه جمرة مستكنة ... لها لهب فى القلب ليس يَرِيم
وحظّ خيال منه يعتاد مضجعى ... له كُرَبٌ ما تنجلى وغموم
وآثاره فى البيت حيث توجهت ... بى العين حزن فى الفؤاد مقيمُ
إذا رُمْتُ عنه الصبر أرجو ثوابه ... أبى الصبرَ قلبٌ بالحميم يهيم
لعمرك إنى يوم أدفن مهجتى ... وأرجع عنه صابرا لكظيم
وإن فؤادى بعده لمفجَّعٌ ... وإن دموعى بعده لَنُجُومُ
خططت له فى الترب بيت إقامة ... إلى الحشر فيه والنشور مقيم
وكان سرورًا لم يدم لى وغبطة ... وأى سرور فى الحياة يدومُ ؟
ورَوْحًا وريحانا أتى دون شمه ... من الدهر يوم بالفراق عظيم
على حين أمضيت الشباب وقاربت ... خطاى قيودُ الشيب حين أقوم
وفارقت حلو العيش إلا صبابة ... عليها خطوب الحادثات تحومُ
فُجِعْتُ بشق النفس والهم والهوى ... عذابٌ لعمرى فى الحياة أليم

ألا كل عيش بعد فرقة أحمد ... وكل سرور ما بقيتُ ذميمُ
يعيب عليَّ الأخلياء صبابتي ... وحزني ، وكلٌّ يا بُنَيَّ يلوم
فهل كان يعقوب النبي بحزنه ... مُليما ؟ وما يُزْرِي عليَّ حكيمُ
كوى قلبَه حزنٌ كأن لهيبه ... توقّدُ نيران لهن ضريم
فما عيّر اللهَ النبي بحزنه ... أبى ذاك رب العالمين رحيمُ
فلولا رجاء الأجر فيك ، وإنه ... ثواب ، وإن عز المصابُ ، عظيم
وأنك قربان لدى الله نافع ... وحظّ لنا يوم الحساب جسيم
لأُضْعِف حزني يا بنيَّ وأوشكت ... عليَّ البواكي بالرنين تقومُ

وبالمناسبة ففى قصيدة ابن الرومى فى رثاء ابنه الأوسط لمحات تشبه بعض ملامح هذه القصيدة شبها خافتا . ولا أدرى أجاء ذلك عفوا أم إن ابن الرومى قد قرأ مرثية الخريمى هذه واستكنّ فى أعماق ذاكرته بعض أصدائها . فابن الرومى هو أيضا قد أعلن أنه لا يستطيع التعزّى عن فقد ابنه ، وإن جاءت عبارته أعنف مما عند الخريمى ، إذ قال إنه لم يكن ليرضى أن يبيع ولده ولو كان المقابل هو جنة الخلد نفسها :

وما سرّنى أن بعتُه بثوابه ... ولو أنه التخليد فى جنة الخلد

كما أن تركيب الكلام عنده فى الشطرة الأولى من البيت الأخير من البيتين التاليين :

توخّى حِمامُ الموت أوسطَ صبيتى ... فلله كيف اختار واسطة العقد ؟
على حين شِمْتُ الخير من لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد

يشبه قول الخريمى فى الجملة الأولى من البيت التالى :

على حين أمضيت الشباب وقاربت ... خطاى قيودُ الشيب حين أقومُ

وفى تركيب الكلام وموسيقاه فى الشطرة الأولى أيضا من البيت التالى لابن الرومى :

أريحانـة العينيـن والأنـف والحشـا ، ألا ليت شعرى هل تغيرت بعن عهدى؟

بما فيه من مضاف ومضاف إليه ، ومعطوفين على المضاف إليه : الأول على وزن « فَعْل » والثانى على وزن « فَعَل » مقصورًا ، وكلاهما معرف بالألف واللام : فى تركيب الكلام وموسيقاه على هذا النحو مُشَابَهَة إلى حد كبير لتركيب الكلام وموسيقاه فى الشطرة الأولى من بيت الخريمى التالى :

فُجعت بشـق النـفس والهـم والهوى عـذاب لعمـــرى فى الحيـاة أليـمُ

وفى كلتا القصيدتين نَلْقَى لوم اللّوام للأب المفجوع . يقول ابن الرومى :

ألام لما أبـــدى عليـك مـن الأسى وإنى لأخفى منك أضعاف ما أُبدى

ويقول الخريمى :

يعيـب علـىّ الأخليـاءُ صبابتـــى وحزنـى . وكـلٌّ يـا بُنَـى يلـومُ

كما أكدَّ كل من الأبوين المرزوءين أنهما قد شكلا السرور فى حياتيهما بعد موت ابنيهما . يقول الخريمى :

ألا كـل عيـش بعد فرقـة أحمـد وكـل سـرور مـا بقيـت ذميـم

ويقول ابن الرومى :

ثكلت سـرورى كلـــه إذ ثكلتـه وأصبحت فى لذات عيشى أخا زهد

كما أن كلا منهما قد جعل ابنه ريحانًا . فالخريمى يقول :

وَرْوحًـا وريحانًـــا أتـى دون شمـه مـن الدهـر يـوم بالفـراق عظيـم

وبالمثل يقول ابن الرومى :

أريحانـةَ العينيـن والأنـف والحشـا ، ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى؟

هذا ، ويضم ديوان الخريمى من شعر الهجاء أبياتا قليلة : ثلاثة منها فى هجاء أبى دلف العجلى ، وسبعة فى على بن الهيثم . والفن فى هذه وتلك شاحب . وإليك ما قاله فى أبى دُلَف ، وهو أقل رداءة مما قاله

فى ابن الهيثم :

اخلع ثيابك من أبى دلف ... واهرب من الفَجْفاجة الصَّلف
لا يعجبنّك من أبى دلف ... وجه يضيء كدرة الصَّدَف
إنى وجدت أخى أبا دلف ... عند الفعال مولَّد الشرف

وله فى الإخوانيات قصيدة من ثلاثة عشر بيتا يتشوَّق فيها إلى الحسن بن التختاخ وهو بمصر . ومنها :

ألا مبلغ عنى خليلى ودونه ... مَطَا سفر لا يَطْعَم النَّوْمَ طالبُهْ
رسالة ثاوٍ بالعراق وروحه ... بفسطاط مصر حيث جمت عجائبه
له كل يوم حنة بعد رنة ... يجيش بها فى الصدر شوق يغالبهْ ؟

...

أرى بعدك الإخوان أبناء علّة ... لهم نسب فى ودّهم لا أناسبه
فهل يرجعَنْ عيشى وعيشك مرة ... ببغداد دهرٌ منصف لا نعاتبه
ليالى أرعى فى جنابك روضة ... وآوى إلى حصن منيع مراتبهْ ؟

... إلخ .

وتلوح من القصيدة عاطفة أخوية نبيلة ، وصراحة وبساطة فى التعبير عن الشوق اللهيف الذى يلهب قلب الشاعر على صاحبه الذى طوحت به يد الزمن بعيدا عنه ، وتحسرٌ على الماضى الجميل الذى ولَّى والذى يتمنى الخريمى أن ينعم عليه الدهر فيعيد عهده الزاهى ثانية .

وفى القصيدة الموجَّهة للوليد بن أبان يلقانا عتاب عجيب يزلزل القلوب ، وإصرار من الشاعر على الوفاء لمن أولاه الجميل وخَفْض جناح الذل له :

أتعجب منّى أن صبرتُ على الأذى ... وكنتُ امرءًا ذا إربة متجملا ؟
فإنى بحمد الله لا رأىَ عاجز ... رأيتُ ولا أخطأت للحق مفصلا

ولكن تدبـــرت الأمور فلـم أجـد ... سوى الحلم والإغضاء خيرا وأفضلا
وأقسم لـولا سالـف الـود بيننـا ... وعهـدٌ أبَـتْ أركانـــه أن تزلـزلا
وأيامـك الغـرّ اللواتـــى تقدمـت ... وأوليتنيهـــا منعمـــا متطـــولا
رحلـتُ قلـوص الهجـر ثم اقتعدتهـا ... إلى البُعْد ما ألفيت فى الأرض معملا
وأكرمت نفسـى ، والكرامـة حظّهـا ... ولم ترنـى ، لـولا الهوى ، متذللا

ونصل إلى أشعاره فى التفجع على فقد بصره . ولعلَّ البيتين التاليين هما أول (أو على الأقل : من أول) ما نظم فى هذا الموضوع ، إذ فيهما إشارة إلى تطمين الطبيب له أن بصره سيُرَدّ له :

إذا مـا مـات بعضـك فابـك بعضـا ... فـإن البعض من بعض قريـب (٢٤)
يمنينـى الطبيـــب شفـــاء عينـــى ... وهـــل غيـــر الإلـــه لها طبيـــب ؟

ويشبهه قول ابن سُكّرة يرثى شبابه :

لقـد بـان الشبـاب وكـان غضّـا ... لـــه ثمـــــر وأوراق تظلُّـــكْ
وكان البعض منـك فمات ، فاعلم ... متى مـا مات بعضك مـات كلُّـك

وفى هذا اللون من الشعر نرى الخريمى يتألم لأنه لا يستطيع أن يزور أحبته بالسهولة التى كان يزورهم بها قبلا ، أو أن يشارك بالكلام فى المجلس الذى يكون فيه ويردّ التحية كما ينبغى :

كفـــى حَزَنـــا ألاّ أزور أحبتـــى ... مـن القـرب إلا بالتكلـف والجهـد
وأنـى إذا حُيّيـتُ ناجيـت قائـدى ... ليعدلنى قبـل الإجابـة فـى الردّ
إذا ما أفاضوا فى الحديث تقاصرت ... بى النفس حتى ما أُجير وما أُبْدى
كأنى غريـب بينهـم لسـت منهمـو ... وإن لـم يحولـوا عن وفاء ولا عهد
أقاسـى خطوبـا لا يقـوم بثقلهـا ... مـن النـاس إلا كـل ذى مرّةٍ جَلْـد

* * *

أُصْغِـى إلـى قائـــدى ليخبرنـــى ... إذا التقينـــا عمَّـــن يحيّينـــى
أريـــد أن أعـــدل الســـلام وأن ... أفصـل بيـــن الشريـــف والـــدون

أسمـــع مـا لا أرى فأكـــره أن أخطـىء ، والسمـع غيـر مأمـون

وهو تارة يغلبه حزنه على نفسه فيولول على عينيه :

للـــه عينـى التـــى فُجِعْتُ بهـا لـو أن دهـــرا بهـــا يواتينـى
لـو كنـتُ خُيِّـرت مـا أخـذت بهـا تعمـير نـوح فـى ملـك قـارون
حـقّ أخلائـــى أن يعودونـــى وأن يُعَـــزُّوْا عنـــى ويكونـــى

وتارة يحاول الصبر والتعزّى بأنه إذا كان قد فقد نور عينه فهو لا يزال يتمتع بنعمة الحياة :

عـــزاءكِ يا عيـن ، لا تجزعـــى وضَنَّـــا بمائـــك ، لا تدمعـى
عـــزاء وصبـــرا ، فـإن الأسـى كثيـــر ، وإن حياتـــى معـــى

أو أنـه إن كـان قد حُرم البصر فَلَمْ يُحْرَم البصيرة ، وأنه ليس أول من عمى :

فـإن تـك عينـى خبـا نورهـــا فكـــم قبلهـــا نـــور عيـن خبـا
فلـم يَعْـمَ قلبـــى ، ولكنمـــا أرى نـــور عينـــى إليـــه سـرى
فأســـرج فيـــه إلـــى نـــوره سراجـــا مـن العلـم يشفـى العمى

ومن يُعِدْ قراءة هذا الشعر ، وهو كل ما له فى هذا الموضوع فى الديوان ، يلاحظ أنه لا يذكر عينيه الاثنتين بل عينا واحدة دائمًا ، مما قد يكون دليلاً على أنه فعلاً كان أعور قبل أن يُكَفّ بصره تمامًا .

أمَّا قصيدته فى التفجع على بغداد ووصف ما تعرضت له من بلاء شنيع خلال فتنة الأمين والمأمون فتحتاج إلى وقفة خاصة .

وهذه القصيدة تبلغ مائة وخمسة وثلاثين بيتا . وهى من الشعر الوصفى ، على خلاف ما يقوله المرحوم د. أحمد أمين من أن فيها نفسًا قصصيـا طويلاً (٢٥) ، إذ تخلو من الحكاية خلوًا تامًّا وكذلك من

الحوار (٢٦) .

ويرى د. مصطفى الشكعة أن هذه القصيدة « تدخل فى باب الشعر التعليمى أكثر مما تدخل إليه من بابه الفنى » ، بل إنه ليجعلها « نواة للشعر التعليمى الذى نما وترعرع بعد ذلك على يد عبد الله بن المعتز فى أراجيزه » . ويختتم كلامه قائلاً إن الخريمى بذلك هو « صاحب فضل وسبق فى خلق هذا اللون من الشعر التعليمى » (٢٧) .

ونحن ، وإن كنا نوافق الأستاذ الدكتور على أن نصيبها من الفن الشعرى غير كبير ، لا نعدّها من الشعر التعليمى . إن هذا اللون من الشعر ينظم ابتداءً بغرض التعليم ، وكل همّه هو سوق الحقائق والمعارف على نحو منظوم ليسهل حفظها . أما قصيدة الخريمى فى بغداد فلم تُنْشأ لذلك الغرض أصلاً ، بل صوّر الشاعر بها الدمار الذى حاق ببغداد وعبَّر عن آلام نفسه أمام ما رآه من مشاهد الحريق والهدم والتقتيل . وليس فيها ما تحرص القصائد التعليمية التاريخية على إيراده من أسماء الأشخاص والوقائع ، وترتيب الحوادث على السنين ، وما إلى ذلك ، إذ لا تشتمل إلا على اسم « المأمون » ولقب « ذى الرياستين » ، ولا توجد فيها إشارة إلى التفصيلات التاريخية للصراع بين الأمين والمأمون ، بل كل هم الشاعر هو تقديم صورة حية بقدر المستطاع لبغداد أثناء تلك الفتنة . وفوق ذلك فالقصيدة ، برغم عدم ارتقائها بوجه عام فى مدارج الفن الشعرى ، تتمتع بقدر من حرارة العاطفة وبراعة التصوير ، وليس فيها برودة الشعر التعليمى وحياديته .

وقد تكرر فى هذه القصيدة الاستفهام بـ « أين » للتفجع على

مشاهد المجد والنعيم التى محقتها الحرب محقا :

فأيـــن حراسهـــا وحارسهـــا ؟ وأيـــن مجبورهـــا وجابرهـــا ؟
وأيـــن خصيانهـــا وحشوتهـــا ؟ وأيـــن سكانهـــا وعامرهـــا ؟
أيـــن الجراديـــة الصقالـــب والـــ أحبش تعـــدو هـــدلا مشافرها ؟

* * *

أيـن الظباء الأبكـار فـى روضـة الـ ـملك تهـادى بهـا غرائرهـا ؟
أيـــن غضاراتهـــا ولذتهـــا ؟ وأيـــن محبورهـــا وحابرهـا ؟

* * *

فأيـــن رقاصهـــا وزامرهـــا يجبـن حيـث انتهـت خناجرهـا ؟

كذلك يتردد فيها كثيرا تعبير « (يا) هل رأيت ... ؟ / أما رأيت ... ؟ » تارة للتذكير بالماضى السعيد ، وتارة للتنبيه إلى مشاهد الحاضر المريع :

يا هـل رأيـت الأمـلاك ما صنعت إذ لـم يَرْعَهـا بالنصـح زاجرهـا ؟

* * *

يا هـــل رأيـــت الجنـــان زاهـــرة يـــروق عيـــنَ البصيـر زاهرُهـا ؟
وهـل رأيـــت القصـــور شارعـــة تكـنّ مثـل الدُّمَـى مقاصِرُهـا ؟
وهـل رأيـت القـرى التـى غرس الـ أملاك مخضـــرّة دساكرُهـــا ؟

* * *

بـل هـــل رأيـت السيـوف مصلتـة أشهرها فى الأسـواق شاهرهـا ؟

* * *

يا هـــل رأيـــت الثكلـى مولولـــة فى الطرق تسعى والجهد باهرها ؟

* * *

أمـا رأيـت الخيـــول جائلـــةً بالقـــوم منكوبـــة دوائرهـــا ؟

* * *

أمـا رأيـت النسـاء تحـت المجـا نيـق تعـادى شعثـا ضفائرها ؟

وأخيرا هناك عدد من السمات لاحظتُها فى شعر الخُريمى ، وهذه هى :

أولى هذه أن قصائده ومقطوعاته التى فى ديوانه المجموع حديثا تخلو من المقدمات ، فهو يدخل فى موضوعه مباشرة دون تمهيد ، أيا كان نوع ذلك التمهيد ، سواء كان مقدمة غزلية أو طللية أو خمرية ... إلخ ، اللهم إلا فى القصيدة التالية ، وهى من الشعر الراجح النسبة إليه :

ثقى بجميل الصبر منى على الدهر ولا تثقى بالصبر منى على الهجر
اصابت فؤادى بعد خمسين حجة عيونُ الظباء العُفر بالبلد القفر

إذ بعد هذ المقدمة الغزلية القصيرة ينتقل إلى الافتخار برفضه كل ما يمسّ كرامته وتفضيله الفقر مع المعالى من ثم على الغنى إذا لم يصْفُ من الهوان ، وكذلك الافتخار بأنه مرّ العداوة ... إلخ :

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء فى جانب الفقر
ولكننى مر العداوة واتر كثير ذنوب الشّعْر والأسل السمر

وإلا قوله فى مطع قصيدة له إخوانية :

ألا بكرت لُبْنَى عليه تعاتبه تحدثه طورًا وطورًا تلاعبهْ

وأيضا هذا البيت المفرد الذى من الواضح أنه كان يشكّل فى الأصل مطلع قصيدة :

ألا يا دار ، دام لك الحبورْ وساعدك الغضارة والسرورْ

ولعله ربّما كان افتتاحية مقدمة لقصيدةٍ ما .

وقد أوردنا له من قبل أبياتًا يعلن فيها أنه لا تشغله الأطلال بل يشغله ويحزن نفسه دخولُه ضمن زمرة الكتاب والأدباء . يقصد أن حرْفته حرْفة الفقر والمعاناة :

لم تَرُعْنـــى دارٌ عَفَـــتْ بالجنـــاب دارس آيُهـــا كخـــط الكتـــابِ

...

إنمـــا راعنـــى لذكـــرای حالـــى بسجستـــان خـــادم الكتّـــابِ

...

أدركَتْنـــى ، وذاك أول دابـــى ، بسجستـــان حرفـــةُ الآداب

وقد يقال إن الكلام هنا خاصٌّ بالمناسبة التى نظمت فيها تلك الأبيات ، وليس موقفا عاما للشاعر تجاه المقدمات الشعرية . غير أننا لا يمكننا أن نغفل النظر إلى هذه الأبيات فى ضوء خلو قصائد الديوان جميعها ، كما أشرنا ، من المقدمات بكل أنواعها ، ماعدا المثالين اللذين ذكرناهما قبل قليل .

وثانية هذه السمات أن صياغة العبارة فى شعره هى غالبًا صياغة متينة ، فلا ركاكة ولا تقلقل فى تركيب الكلام .

إلاَّ أن الصور فى قصائده قليلة . والقليل الموجود منها تقليدى كلُّه . وهذا القدر القليل لا ينتمى عمومًا إلى بيئة معينة ، بل هو محايد .

وقد لاحظت عنده تكرر تشبيه الصديق وصداقته بـ « الشهد » :

هو الشهد سلمًا ، والزعاف عـداوةً وبحر علـى الـورّاد تجـرى غواربـه

* * *

وإذ أنـت لى كالشهـد بالراح صُفِّقـا بمـاء رُصـافٍ صفَّقتـه جنائبـه

* * *

أخ كـذَوْب الشهـد طعـم إخائـه إذا اختلفـت بيـض الليالـى وسودها

ومـع قلـة الصُّوَر فى شعره ، فإن لمعظم أشعاره تأثيرا فى النفس قويّا . ومرجع ذلك إلى حرارة عاطفة الشاعر حين ينظم شعره ، إذ لم يكن فيما يبدو يتناول القلم ليكتب قصيدةً إلا إذا كان منفعلاً بالموضوع ، فجاء

ما ينظمه فى العادة من قبس الفؤاد .

ويبرز الطباق والمقابلة بالذات من بين « المحسنات البديعية » فى شعر الخريمى ، وهو طباق مباشر بسيط . وإليك بعض الشواهد :

أُسُـرّ خليلـى شاهـدا وأبَـرّه ... وأحفظـه بالغيـب حيـن يغيـبُ

* * *

أخـاف لجاجـات العتـاب بصاحبى ... وللجهل مـن قلب الحليـم نصيـبُ

* * *

أرى الحِلْم فـى بعـض المواطـن ذلـة ... وفى بعضهـا عـزّا يسـوّد صاحبـه

* * *

هـو الشهد سلما ، والزعاف عداوة ... وبحـر علـى الـوِرّاد تجـرى غوارِبُـهْ

* * *

تمـر بـه الأيـام تسحـب ذيلهـا ... فتَبْلَـى بـه الأيـام وهـو جديـدُ

* * *

أخ كـذَوْب الشهـد طعـم إخائـه ... إذا اختلفت بيـض الليالـى وسودهـا

* * *

كـأن عليـه الشكر فـى كل نعمة ... يقلدنيهـا باديـا ويعيدهـا

* * *

الناس أخلاقهـم شتـى ، وإن جُبلـوا ... علـى تشابـه أرواح وأجسـاد

* * *

وأصبـح البـؤس مـا يفارقهـا ... إلفـا لهـا والسـرور هاجرهـا

* * *

وهـل حـازمٌ إلا كآخـر عاجـز ... إذا حـلّ بالإنسـان ما يتوقـع ؟

* * *

همو، فاعلموا ، أصلى الذى منـه منبتى ... على كـل فـرع فـى التراب لـه أصلُ

* * *

ويبذل دنياه ، ويمنع دينه فلا مِثْلُ ذا بَذْلٌ ولا مِثْلُ ذا بُخْلُ

* * *

مضى سلفا قبلى ، وخُلِّفْتُ بعده أسيرا لأهوال الرجال مكبَّلا

* * *

فكم بارق فى السهل شمنا مخايلَه فخيَّم بالجبال

* * *

أريد أن أعدل السلام وأن أفصل بين الشريف والدُون

وينعدم تقريبا فى شعره الاقتباس من القرآن ، إذ لم أجد له من ذلك إلا الآتى :

أقاسى خطوبًا لا يقوم بثقلها من الناس إلا كل ذى مرة جَلْدِ

* * *

طيرًا أبابيل أُرْسِلَتْ عبثا يَقْدُمُ سودانَها أحامرُها

* * *

وَرْوحا وريحانا أتى دون شمّه من الدهر يومٌ بالفراق عظيمُ

ولعلَّك تنبهت إلى أن الاقتباس فى هذه الشواهد ، على قلتها ، لا يتعدى فى كل مرة لفظتين .

وقد لاحظت تكرر « ألا » الاستفتاحية عنده ، وبخاصة فى مستهل القصائد :

ألا هل أتى قومى مكرّى ومشهدى بقاليقلا والمقربات تثوب ؟

* * *

ألا بكرت لُبْنَى عليه تعاتبه تحدّثه طورا ، وطورا تلاعبه

* * *

ألا يا دار ، دام لك الحبورُ وساعدك النضارة والسرورُ (٢٨)

* * *

ألا هل لما ولّى من العيش مرجع ؟ وهل فى خلود النفس للنفس مطمع ؟

* * *

ألا ليس من داء المشيب طبيب وليس شباب زال عنك يؤوبُ

* * *

ألا كل عيش بعد فرقة أحمد وكل سرور ما بقيت ذميمُ

* * *

ألا إنما أبكى على الشّعر أننى أرى كل وطواط يزاحم فى الشعر(١٩)

وتتكرر عنده « رأى » العلْمية :

أرى الحلم فى بعض المواطن ذلة وفى بعضها عزا يسوّد صاحبُهْ

* * *

أرى بعدك الإخوان أبناء علّة وآوى إلى حصن منيع مراتبُهْ

* * *

ترى المرء يسعى للذى فيه خيره وتكره شيئا نَفْسُه وهو ينفع
تراه عزيزا حين يصبح قانعا وتلقاه عبدا ضارعا حين يطمع

* * *

أرى الناس شرعا فى الحياة ولا يُرَى لقبر على قبر علاءٌ ولا فضلْ

* * *

رأيتُك يا زيد زيد الندى وزيد الفخار وزيد الكرم

* * *

أرى الصبر عنه جمرة مستكنة لها لهب فى القلب ليس يَرِيمُ

* * *

أرى فاجرا يُدْعَى جليدا لظلمهم ولو كُلّف التقوى لكلّت مضاربُهْ (٢٠)

* * *

أرى المال والإنسان للدهر نهبة فلا البخل مبقيه ولا الجود خاربه

* * *

تراه غدوًّا ما أمنت وتتقى بجبهته يوم الوغى من يحاربه

وقد استعمل القسم بـ « لَعَمْر ... » عدة مرات :

لعمرى لقد بان الشباب ، وإننى عليه لمحزون الفؤاد كئيبُ

* * *

لعمرك ما أخلقتُ وجهاً بذلتُه إليك ولا عرَّضْتُه للمعايرِ

* * *

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ولكنها دار انتقال لمن عَقَلْ

* * *

لعمرك إنى يوم أدفن مهجتى وأرجع عنه صابرا لكظيمُ

كذلك تكررت فى شعره عبارة « ألا من مبلغ (عنّى فلانا ... ؟ » ثلاث مرات :

ألا مبلغ عنى خليلى ودونه مطا سفر لا يطعم النوم طالبُهْ

رسالة ثاو بالعراق ، وروحه بفسطاط مصر حيث جمَّتْ عجائبه ؟

* * *

من مبلغ ذا الرياستين رسالا لات تأتّى للنصح شاعرها ؟

* * *

من مبلغ يحيى بن خالد زيراتُ كل خنابس همهام ؟

الهوامش

١- أشار أبو الفرج الأصفهانى فى أكثر من موضع من « الأغانى » (مؤسسة عز الدين / بيروت / ٥ / ١٦١ ، ١٣ / ٧٩) إلى اعوراره ، ولكن فى سياق فاحش لا أظنه إلا اختلاقا من الاختلاقات البذيئة الكثيرة التى يعج بها كتاب « الأغانى » ، إذ زعم أن حماد عجرد أراد أن يأتى غلامًا فى الظلام فى نفس الحجرة التى كان يبيت فيها هو والخريمى وذلك الغلام ، فأخطأه وأتى بدلاً منه الخريمى ، الذى حاول فى صمت أن يعرّفه أنه الشاعر لا الغلام بأن أخذ يده ووضعها على عينه العوراء ، بيد أن حمادًا لم يتركه حتى أشبع منه شهوته غير مبالٍ بالخطإ الذى وقع فيه . وهو كما ترى سخف وقلة حياء ، فقد كان الخريمى فيما بلغنا عنه من أخبار وفيما جُمع له من شعر رجلاً محترما فلا يصح أن يقال فيه ذلك ولو على سبيل الهزل .

٢- انظر ترجمته فى « الشعر والشعراء » لابن قتيبة / تحقيق أحمد شاكر / دار المعارف بمصر / ٢ / ٨٥٣ وما بعدها ، و « الورقة » لابن الجراح / تحقيق د . عبد الوهاب عزّام وعبد الستار أحمد فراج / ١٠٩ وما بعدها ، و « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى / دار الكتاب العربى / بيروت / ٦ / ٣٢٦ ، وكارل بروكلمان / تاريخ الأدب العربى / ترجمة د . عبد الحليم النجار / ط ٤ / دار المعارف / ٢ / ١٩ - ٢٠ ، و « The Encyclopaedia of Islam » / مادة « أبو يعقوب الخريمى » ، ود . شوقى ضيف / العصر العباسى الأول / ط ٦ / دار المعارف / ٣٥٤ وما بعدها ، ومقدمة ديوان الخريمى / جمع وتحقيق على جواد الطاهر ومحمد جبار المعيبد / ط ١ / دار الكتاب الجديد / بيروت / ١٩٧١ م / ٥ وما بعدها ، ود . مصطفى الشكعة / الشعر والشعراء فى العصر العباسى / ط ٢ / دار العلم للملايين / بيروت / ١٩٧٥ م / ٥٢٣ وما بعدها .

٣- انظر فى هذا د . شوقى ضيف / العصر العباسى الأول / ٣٥٧ .

٤- كارل بروكلمان / تاريخ الأدب العربى / ٢ / ١٩ .

٥- د . عبد الله سلوم السامرائى / الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية / المؤسسة العراقية للدعاية والطباعة / بغداد / ١٩٨٤ م / ٩٩ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

٦- ضحى الإسلام / مكتبة النهضة المصرية / ط ٧ / ١ / ٦٤ - ٦٥ .

٧- سيأتى رأى شارل بلا بعد قليل .

٨- د . محمد مصطفى هدارة / اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى / ط ١ / المكتب الإسلامى / بيروت / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ٤٣٣ .

٩- انظر كتابه « فى الشعر السياسى » / ط ٢ / دار الثقافة / الدار البيضاء / ١٩٨٢ م / ٢٢٢ ، ٢٢٤ - ٢٢٥ .

١٠- العصر العباسى الأول / ٧٨ .

١١- المرجع السابق / ٣٥٧ .

12- The Encyclopaedia of Islam , 2nd ed. , art. « Abu Ya'kub al-Khuraymi».

وقد تُرْجمت العبارة فى الطبعة العربية لـ « دائرة المعارف الإسلامية » (نفس المادة) هكذا : « ومع ذلك فالظاهر أنه لم يكن له شأن بين الشعوبية » ، مما قد يوحى بأنه كان له دور ولكنه دور تافه لا شأن له .

١٣- د . مصطفى الشكعة / الشعر والشعراء فى العصر العباسى / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٢ / ١٩٧٥ م / ص ١٧٤ - ١٧٥ .

١٤- الصواب : الباب الثانى .

١٥- نفس المرجع السابق / ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

١٦- الصواب : الخريمى .

١٧- ياقوت الحموى / معجم البلدان / دار صادر / بيروت / ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م / مادة « صفد » . وانظر أيضا د . شوقى ضيف / العصر العباسى الأول / ٣٥٧ .

١٨- يذكر المسعودى (مروج الذهب / ٦ / ٤٦٠ - ٤٦٣) أن الخريمى كان منحازًا فى هذه الحرب إلى جانب الأمين . لكن ليس فى شعره ما يدلّ على هذا ، بل بالعكس يُفْهَم من قصيدته التى نحن بإزائها الآن أنه لم يكن راضيًا عن الأوضاع فى عهد ذلك الخليفة ، إذ أكد أن الأحوال فى بغداد قبل هذه الحرب كانت قد بلغت الغاية من الفساد والفسوق عن أمر الله ، وأن ما حدث لتلك المدينة فى الفتنة التى انفجرت بين الأخوين إنما كان عقابا إلهيا لها على ذلك .

١٩- طبقات الشعراء / ٢٩٣ .

٢٠- الورقة / ١١٠ .

٢١- سنورد هذين البيتين فيما بعد عند الكلام عن السمات الفنية لشعره .

٢٢- تعذى : تصير عذبة .

٢٣- « الورقة » لابن الجراح / ١١٠ . وقد ورد هذا المعنى فى مراجع أخرى بعبارات مختلفة . انظر هامش / ١ فى نفس المرجع والصفحة .

٢٤ . يُرْوَى هذا البيت أيضا لصالح بن عبد القدوس ، وكان قد عمى فى أواخر حياته ، انظر « العصر العباسى الأول » للدكتور شوقى ضيف / ٣٩٥ .

٢٥- انظر « ضحى الإسلام » / ١ / ١٥ ،

٢٦- فى « تاريخ الأدب العربى » لبروكلمان (ترجمة د . عبد الحليم النجار / ٢ / ٢٠) ما يلى عن الخريمى : « له قصيدة يقص فيها ما حدث ببغداد سنة ١٩٧ / ٨١٢ » . ولا أظن إلا أن « يقصّ » هنا معناها « يَذْكُر » لا أن القصيدة من الشعر القصصى .

٢٧- الشعر والشعراء فى العصر العباسى / ٥٣٧ .

٢٨- هذا بيت مفرد ، ولكن من الواضح أنه مفتتح قصيدة .

٢٩- هذا البيت من الشعر المرجح عند جامعى الديوان نسبته إلى الخريمى .

٣٠- هذا البيت والبيتان اللذان يليانه من الشعر المرجَّح عند جامعى الديوان نسبته إلى الشاعر .

ابن العلاف

هو الحسن بن على بن أحمد بن بشار بن زياد النهروانى . حدَّث عن بعض الأئمة ، وسمع منه بعض ، كما كان نحويا ومقرئا . وقد ولد فى آخر خلافة المأمون (الذى توفى فى عام ٣١٨ هـ) ، ومات سنة ٣١٨ أو ٣١٩ هـ فى خلافة المعتز عن مائة سنة .

ومما يلفت الانتباه أن ابن المعتز ، وقد توفى قبل ابن العلاف بأكثر من عشرين عاما (إذ مات عام ٢٩٦ هـ) ، يتحدث عن ابن العلاف بصيغة الزمن الماضى ، فيقول على لسان راوى الخبر : « كان ابن العلاف من قرى النهروان ، وكان مصابًا بعين » (١) . ولا أدرى السرّ فى استعمال الفعل الماضى هنا ، الذى يفهم منه أن الكلام عن شخص كان قد تُوُفِّى قبل ذلك . وبالمناسبة فقد ذُكر أن شاعرنا كان صديقا مقربا لابن المعتز ، ومع ذلك فإن ما كتبه عنه فى « طبقات الشعراء » إنما هو رواية آخرين . علاوة على انه لم يرو شيئًا من طريقه فى هذا الكتاب ، ولا ذكر أنه كانت بينهما معرفة ولا ما يُشتَمّ منه ذلك بحال . أتراه كتب كتابه هذا قبل أن يعرفه ؟

ويذكر ابن المعتز ، بناء على ما حدّثه خالد بن يزيد الكاتب ، أن أبا شاعرنا كان يبيع القتَّ (أى البرسيم) . ويعزو صبيح رديف ، جامع شعر الشاعر ، تسميته بـ « ابن العلاف » إلى أن أباه كان قتَّاتا . وكان شاعرنا يلقب بـ « النهروانى » نسبة إلى « النهروان » ، وهو الإقليم الذى وُلد ونشأ فيه . هذا وقد عُرف بـ « أبى بكر ابن العلاف » أكثرُ من

شاعر . وكان ابن العلاف مصابا فى إحدى عينيه ، ثم فقد الثانية فأصبح ضريرا (٢) .

ويذكر ابن المعتز أن لابن العلاف أشعارا كثيرة . لكنّ الذى استطاع صبيح رديف جمعه من شعره جدّ قليل ، فهو لا يزيد عن مائة وخمسة وعشرين بيتا ، موزعة على ١٥ مقطعة ، ما بين المقطوعة والقصيدة والبيتين (٣) .

والرثاء هو أكبر موضوع من موضوعات الشعر التى وصلتنا لابن العلاف . وهناك مقطوعتان غزليتان ، وقصيدة ونتفتان فى المديح ، وقصيدة فى عيادة المريض وآدابها ، وأخرى فى التذكير بالموت ، وبيتان فى عتاب صديق ، وبيتان قالهما عندما وقع فى حفرة ، وكان قد فقد عينيه الاثنتين فلم يعد يبصر طريقه .

ونبدأ بهذين البيتين الأخيرين . وقد قالهما ، فيما يبدو ، ردّا على امرأة أشارت إلى كف بصره :

قالت : « كأنك فى الموتى »، فقلت لها : « قد مات من ذهبت والله عيناه
عيناى كفاى لا طرف الذّ به وكيف يفرح من عيناه كفاه ؟ »

والمعنى طريف ، إذ يجعل الشاعر كفيه هما عينيه اللتين يبصر بهما . ولكن أى عينين ؟ إنهما عينان كعدمهما ، عينان لا تبصران ، ومن ثم أنكر أن يستطيع الفرحَ من كانت كفاه هما عينيه . على أنه مما يلفت نظر المدقق فى البيتين أن الشاعر قد وضع القَسَم فى الشطرة الثانية من البيت الأول فى غير موضعه ، إذ هو يقسم على « الموت » لا « على ذهاب العينين » ، فكان حق « والله » أن تأتى بعد « قد مات » لا بعد

« ذهبت » . ومع ذلك ، فإن هذه الملاحظة لا تظهر بسهولة ، ولا يحسُّ القارىء بشىء غير طبيعى فى تركيب البيت . وهى ، على أية حال ، ليست بالقبيحة .

وقال يعاتب صديقًا (٤) :

لـــــك ود قـــد جبرنـــــا ... فأعيانـــــا صدوعـــــه
فـــــإذا ودك ممـــــــــا ... كنـــت بالأمـــس تبيعـــه

والصورة فى البيت الأول ترينا أنه قد أعيته محاولة الإبقاء على الصداقة التى كانت بينهما ، فهو يرسم هذه الصداقة فى صورة الإناء الذى لا يكف عن التحطم ، فكلما جبر فيه صدْعًا عاد فانصدع مرة أخرى ... وهكذا دواليك حتى غلبه اليأس من أن يصلح حاله . وفى البيت الثانى يصوِّر ودّ هذا الصديق على أنه تجارة ، فهو يبيعه لمن يدفع . إن المسألة عنده ليست مسألة عواطف بل مصالح .

أمَّا التذكير بالموت والتنبيه إلى ما بعده من حساب فله فيه قصيدة قصيرة من تسعة أبيات تقوم على الطباق والمقابلة بين حياة الشخص على وجه الأرض ودفنه بعد فى باطنها بعد مماته . وليس فيها شىء رائع أو يلفت النظر ويستحق الوقوف ، فكل ما تقوله هو أن الإنسان ميتٌ لامحالة وأنه محاسب عما قدمت يداه . وهذا أمر لا يحتاج البداهة بمكان . وقد كنا نود لو أن الشاعر وقف مثلاً عند بعض القيم التى لاحظ اختفاءها من المجتمع وذكَّر الناس بها وبيَّن لهم أهميتها وحذَّرهم من أخطار التهاون بها ، أو تريّث عند بعض العيوب المتفشية بين الناس والأضرار المترتبة عليها . أما الاكتفاء بالتذكير بالموت فأمر سلبى لا يكاد يقدم شيئا أو يؤخر . وعلى

أية حال ، فهذا نصها :

كأنـــك بالمصـــرع الكائـــن ... وجسمـك فـى صـورة البائـن
وقـــد صـرتَ فـى أمـل خادع ... كَـذُوبٍ إلـى أجـل حائـن
وقـام الـذى صنتـه برهـة ... يحـث علـى نقلـة الصائـن
فمـن ناقليـن إلـى غاسل ... إلـى حامليـن إلـى دافـن
فلمـا ارتُهِنْـتَ بـدار البلـى ... حصلـت علـى العمـل الراهـن
وقـد كنـت تسكن فـى ظاهـر ... فأصبحـت تسكـن فـى باطـن
ستتـرك بيتـا وثيـق البنـاء ... إلى بيتـك المظلـم الواهـن
ودارًا يعيـش بهـا الساكنـون ... إلـى منـزل ميـت الساكـن
فـلا يغبـنَنّ امـرؤ نفسَـه ... فويـل مـن الغبـن للغابـن

وفـى عيـادة المريض وما ينبغى على زائره أن يراعيه نقرأ هذه الأبيات :

قـل لمن يُبْرِم المريضَ : فلـو عـد ... تَ صحيحـا لعـاد ذاك مريضـا
لا تطـل عنـده الجلـوس فيـزدا ... د طويـلا مـن السقـام عريضـا
قل له : « كيف أنت ؟ » وادع له اللـ ... ـه ، وعجـل عـن العليـل النهوضـا
فـإذا كـان مـن يعـود مطيـلا ... لم يكـن عائـدا وكـان بغيضـا

وهى ، كما ترى ، نظم أكثر منها شعرًا . ومع ذلك أحب أن أتريث قليلا عند بعض الملاحظات فيها :

وأولاها هذه « الفاء » التى فى أول جملة القول فى البيت الأول : ما توجيهها ؟ وأحسب أن المقصود بها الإيحاء بأن الكلام الذى بعدها مترتب على شىء قبلها محذوف ، تقديره مثلا : « إنك تبرم المريض بتطويل مقامك عنده . وبهذه الطريقة فلو عدت شخصًا صحيحًا لأمرضته بطول بقائك راسخًا على قلبه » .

وثانيتها التلاعب ، فى البيت الأول أيضا ، بالفعل « عاد » ، الذى يستخدمه الشاعر أولاً بمعنى « زار » ثم بمعنى « أصبح » . ومع ذلك ، فإن الفعل « عاد » ، الذى إذا استُخدِم فى معنى الزيارة لم يستخدم إلا فى « زيارة المريض » ، قد استخدمه الشاعر فى « زيارة الصحيح » . لكن الشاعر فيما أرجح قد استخدمه هكذا تمهيدًا للقول بأن هذا الصحيح سوف يمرض مما يسببه له الزائر الثقيل من سأم وملال ، علاوةً على رغبة الشاعر فى المجانسة بين « عاد » الأولى و « عاد » الثانية .

وثالثتها تحويل عبارة « طويل عريض » من تابع (فى الكلام العادى) إلى متبوع (فى البيت الثانى) ، إذ عادة ما يقال : « يزداد سقامًا طويلاً عريضا » بجعل « طويلا عريضا » نعتًا ، أما هنا فقد حدث فى التركيب تقديم وتأخير فصارت « طويلا عريضا » هى المنعوت ، ونعتها قوله : « من السقام » ، فضلاً عن مجىء شبه الجملة هذا بين « طويلاً » و « عريضا » لا بعدهما . وهذا التركيب الجديد للكلام قد خلع عليه شيئًا من الإنعاش .

ورابعها أن الشاعر ، فى سبيل الزراية على الزوار الثقلاء الذى يبرمون المريض ويساعدون على استفحال مرضه أو على الأقل إبطاء شفائه ، قد بالغ فطلب منهم ألا يزيدوا على السؤال السريع عن صحته والدعاء له ثم الانصراف فورًا . ولا ريب أن المريض سيكون أول من يضيق بهذا ، لأنه سيحس حينئذ أنها ليست زيارة حب ومودة بل مجرد أداء شكلى للواجب . فحق هذا فالمريض بحاجة [illegible] تئناس بالناس وشعوره بوجودهم حوله ،

اللهم إلا إذا كان مرضه يستلزم الإخلاد إلى الراحة التامة أو كان هو بحاجة ماسة إلى النوم مثلاً .

فإذا جئنا إلى المديح وجدنا هذين البيتين فى مدح على بن محمد :

يتلقـــى النـــدى بوجـــه حيـــىّ وصـــدورَ القنـــا بوجـــه وقـــاح

هكـــذا هكـــذا تكـــون المعالـــى طـــرقُ الجـــد غَيْـــرُ طـــرق المزاح

وقد نُسب هذا البيتان أيضا إلى بكر بن النطاح . وعلقَّ صبيح رديف ، جامـع شعـر الشاعـر ، بأنهمـا « لابن العلاف استنادا إلى رواية ابن المعتز (٥) ، ولأنهما أقرب إلى شاعرية ابن العلاف » (٦) . وقد يكون إنزال صبيح رديف لرواية ابن المعتز هذه المنزلة سببه أن ابن المعتز كان معاصرًا له وأنه أول من وصلتنا كتاباتهم عنه ، لكننا لا نفهم سببه الثانى الذى بنى عليه نسبة البيتين إلى ابن العلاف ، إذ إنه اكتفى بإصدار الحكم ولم يسق حيثياته . وقد كان عليه أن يوضح لنا كيفية قربهما من شاعرية ابن العلاَّف . وأحسب أن ذلك صعب ، فبيتان من الشعر ليس فيهما أية خصوصية لا يساعدان الناقد على حسم نسبتهما ، وبخاصة إذا لم يكن للشاعر المراد نسبتهما إليه شعرٌ بين أيدينا كافٍ لتمثل صورة فنه وملامحها .

على كلٍّ ، فقائل هذين البيتين لم يوفَّق ، فيما أرى ، فى قوله عن الممدوح : « يتلقى الندى » ، لأنه ليس هو الذى « يتلقى » الندى ، بل قاصده . أما هو فـ « يلقّيه » ، اللهم إلا إذا تأولنا وقلنا إن فى الكلام حذفا تقديره : « يتلقى طلب الندى » . لكن مثل هذا التأويل متكلف ، إذ يراد به تغطية عوارِ حذفٍ يقلب المعنى من النقيض إلى النقيض .

كذلك لم يوفق الشاعر فى التعبير عن « أسنة » الرماح بـ « الصدور » ، إذ إن المحارب هو الذى يتلقى الرمح بصدره لا صدر الرمح هو الذى يصيبه . إن فكرتنا عن صدر أى شىء أنه عريض لا يؤلم ، فضلاً عن أن يقتل ، أما « السنان » فحاد مدبب ينغرز فى الصدر ، وقد يقتل .

وقد خان الشاعرَ أيضا التوفيقُ فى وصفه وجه ممدوحه بـ « الوقاحة » . صحيحٌ أنه أراد من ذلك مدحه بالجرأة والإقدام . ولكن كان يمكنه استعمال لفظة أخرى ، لولا رغبته (قاتلها الله !) فى المطابقة بين « حيىّ » و « وقاح » .

وأخيرًا ، فإن قول الشاعر : « هكذا هكذا تكون المعالى » يشبهه قول المتنبى بعد ذلك « هكذا هكذا ، وإلاَّ فلا لا » .

وثمة بيتان آخران يمدح بهما ابنُ العلاف عبد المطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعى ، وهما

تزينك خَلاّتٌ من الله أربع : فثنتان للدنيا وثنتان للدين
سماح أخى طىٍّ ، وبأس ابن ظالم وصدق أبى ذرٍّ ، ونُسْك ابن سيرين

وليس فيهما شىء يمكن الوقوف أمامه .

ويبقى من المديح القصيدة القصيرة التى مدح بها على بن يحيى ، ونصها :

أبا حسن ، لمّا سبقتَ إلى العُلا تأخرتَ فيها بالفضيلة فى السبق
فصيرتَ لى حقّا بفضلك واجبا وأعطيتنى شيئا سوى ذلك الحقّ
فقدت بها قلبى إليك ، وإن تسل خبيرا به يخبرك صدقك عن صدقى
ملكت قيادى يا ابن يحيى بنعمة فإن زدتنى أخرى ملكت بها رقّى

فمن أين لى فى الخلق مثلك سيد ... إذا كان لم يُسْمَحْ بمثلك فى الخلق ؟
وقد سار شعرى فيك غربا ومشرقا ... كجودك لمّا سار فى الغرب والشرق
فإن قابلوا شعرى بجودك سائرا ... فما بين أشعارى وجودك من فرق
فليتك ، إذ خلدت حمدك باقيا ... على غابر الأيام ، تَبْقَى كما تُبْقى

والشطرة الثانية من البيت الأول لا تكاد تضيف إلى الأولى جديدًا ، رغم أن تركيب العبارة يوحى بخلاف ذلك ، إذ المعنى : « إنك بسبقك قد أصبحت السابق الوحيد » ، ومعلوم أن « السبق » يقتضى « التفرد » ، وإلا لم يكن سبقا .

أما فى البيت الثانى فإن المعنى غائم لا يفهمه الإنسان إلا من السياق تخمينا . وأحسب أن مقصوده أنك لم تكتف بإعطائى ما جعلته ، بفضلك وكرمك ، حقاً لى عندك ، بل زدت عليه شيئًا آخر . أى أن كلمة « سوى » تدل على « الزيادة » لا « البدلية » ، وإلاَّ لم يكن ثمة معنى مفهوم . على أن كلمة « شىء » هى كلمة محايدة لا لون لها ولا ظلال ، فضلاً عن أنها تدل على أن الزيادة شىء لا يؤبه له . ولا أظن الشاعر يريد ذلك . هذا إن كنتُ قد فهمتُ البيت .

وقوله فى البيت الثالث : « وإن تسل خبيرًا به ... » هو صدى واضح لقوله تعالى : « فاسأل به خبيرًا » (٧) .

على أن قوله : « يخبرك صدقك عن صدقى » يحتاج إلى سن من إمعان الفكر كى يعرف الإنسان المراد منه . ولعلَّه يريد أن الصادق من أمثالك لا يصاحبه إلاّ الصادقون . فكونك صادقًا يشهد لى ، على نحو تلقائى ، بالصدق فيما أقوله فيك . أو لعلَّ المقصود أن كرمك الصادق هو

الضمان لصدقى فى وصفه ، إذ ما دمت كريمًا حقا فكيف أكون كاذبا حين أصفك بالكرم ؟

أما قوله فى البيت الرابع :

ملكت قيادى يا ابن يحيى بنعمة فإن زدتنى أخرى ملكت بها رقّى

فينبىء بوضوح أن الشاعر يقيم علاقته بممدوحه على أساس المنفعة التى يحصّلها منه ، فكلّما حَصَل منه على منفعه جديدة ازداد تعلقا به وطاعةً له ووفاء . إن الحب عنده على قدر العطاء . هكذا يقول بلا مواربة .

وهو يقيم البيت الخامس إقامته لقضية منطقية ، إذ ينفى الكلّ ليتوصل به إلى نفى الجزء : إن ممدوحه لا نظير له فى الناس ، ومن ثم فلا نظير له فى السادة . إنه متى لم يوجد نظير له بإطلاق ترتب على ذلك آليًا عدم وجود نظير له بين طائفة السادة ، إذ هى طائفة محدودة داخل دائرة الناس الواسعة .

ونراه فى البيت السادس يقدم « الغرب » على الشرق . والمتبادر إلى الذهن أن السبب فى ذلك هو الرغبة فى الموازاة بين ترتيب هاتين الجهتين فى الشطرة الأولى وترتيبهما فى الشطرة الثانية ، الذى كان محكومًا فيه بقيد القافية ، لأن حرف الروى هو « القاف » لا « الباء »

وفى البيت السابع نراه ، رغم تراميه على عتبات الممدوح ، لا يجد حرجا فى أن يشمخ بأنفه كشاعر . وكأنه بعد هذا كله يريد أن يُفْهمه أنه لا فضل له عليه ، فإنه إذا كان قد أعطاه مالاً فهو بدوره قد أعطاه شعرًا . فواحدة بواحدة إذن .

وتتبقى ملاحظة على استخدام جامع شعر الشاعر لعلامة الترقيم فى

البيت الأخير ، فقد كتبه هكذا :

فليتك - إذ خلَّدت حمدك - باقيًا على غابر الأيام تَبْقى كما تُبْقى

والشرطتان اللتان تحصران بينهما قول الشاعر : « خلدت حمدك » تعنيان أن هاتين الكلمتين هما وحدهما الكلام المعترض بين « ليت واسمها » من جهة و « خبرها » من جهة أخرى . لكن كلمة « باقيا » ليست ، كما هو بيّن ظاهر ، هى « الخبر » : لا من الناحية النحوية (لأنها منصوبة) ولا من ناحية المعنى ، بل « الخبر » هو جملة « تبْقى كما تُبْقِى » ، ومن ثم فإننى ، عند ترقيمى للأبيات ، قد جعلت قول الشاعر : « خلدت حمدك باقيا على غابر الأيام » كله جملة اعتراضية .

قد يُردُّ بأن معنى البيت ، على ترقيم الأستاذ رديف ، هو : « ليتك ... تبقى باقيًا على غابر الأيام ... » . لكن صياغة اسم فاعل حالاً من نفس الفعل العامل فيه يبدو ركيكًا . وفوق ذلك لا يقدم جديدًا ، إذ ما معنى أن يقال : « جلست جالسًا » ، و « تثاءبت متثائبا » ، و « استذكرت مستذكرا » ، و « قاتلت مقاتلاً » ... إلخ ؟

فإذا انتقلنا إلى الغزل وجدنا له الأبيات التالية :

أدارى بضحكى عن هواك ، وربما سهرتُ فتبدى ما أُجنُّ المدامعْ
وأمنع طرفى ، وهو ظمآن ، وِرْدَه وأُخْفى الذى تحنو عليه الأضالعْ
أذوب وأبْلَى من رسيس هواكمو وتسهر عينى والعيون هواجعْ
بكيت وما أبكى لما قد خبرتُه ولكننى أبكى لما هو واقعُ

ويعجبنى تعبيره عن شوقه لرؤية حبيبته بـ « ظمإ العين » . وليس فى الأبيات ، عدا هذا ، شىء أرى أنه يستأهل الوقوف أمامه ، فالمعانى والصور بعد ذلك عادية شائعة ليس فيها طرافة ولا خصوصية .

ويرى د. عمر فروخ أن الصواب أن تُجْعَل « تحنو» فى البيت الثانى مبنية للمجهول (٨) . ويرد صبيح رديف عليه بأنَّ « الأضالع » لا يمكن أن تكون نائب فاعل بأى حالٍ من الأحوال (٩) . والواقع أننى لا أدرى على أى أساس يرى د. فروخ أن الصواب هو بناء « تحنو » للمجهول ، إذ لم يَسُقْ لنا رواية للبيت على النحو الذى يريد تعديله إليه . كذلك لست أفهم السبب الذى حدا بصبيح رديف إلى الجزم بأن « تحنو » لا يمكن أن تُبْنَى للمجهول ، لأنه (كما قال) لا يجوز أن تكون « الأضالع » نائبًا للفاعل بأى حالٍ من الأحوال . ذلك أنه يصحّ من الناحية النظرية أن نقول « تحنو » أو « تُحْنَى » . ومعناها على البناء للمعلوم : « تَعْطِف » ، وعلى البناء للمجهول : « تُطْوى » . فجزم الأستاذ رديف إذن لا أساس له . ومع ذلك فليس من حقِّ د. فروخ أن يغير رواية البيت ما دام لم يرد إلينا إلاَّ على هذه الصورة .

وقد نسب صبيح رديف القصيدة الغزلية التالية أيضا لابن العلاف ، اعتمادا فيما يقول على رواية ابن المعتزّ لها (١٠) ، رغم أن صاحب « الأغانى » يعزوها هو وصاحب « معاهد التنصيص » والنويرى فى « نهاية الأرب » لبكر بن النطاح (١١) . اما ابن المعتز فلم يورد من هذه القصيدة إلا البيتين الأولين والبيت الرابع . وعلى هذا فليس من حقّ صبيح رديف أن يرويها كلها لابن العلاف ، بل كان ينبغى الوقوف عند الأبيات الثلاثة المذكورة لا أن يعمّى على القارىء ويوهمه أن ابن المعتز قد رواها كلَّها لشاعرنا . قد يقال إنه لما رأى هذه الأبيات عند غير ابن المعتز ضمّن قصيدة جعل القصيدة برمتها لابن العلاف ، على أساس أن أبيات

القصيدة كتلة واحدة . لكن الردّ على هذا هو أنه كثيرًا ما تتشابه قصيدتان أو أكثر فى الوزن والقافية والموضوع ويكون ذلك مدعاةً لاختلاط أبياتهما بعضها ببعض . فليس شرطًا إذن أن نأخذ الأبيات جميعها وننسبها إلى شاعرٍ واحد أو ننفيها كلها عنه . على كل حال هذه هى القصيدة ، وهى ليست من الفن الشعرى بمكان عال :

نَمْ فقد وكّلْتَ بى الأرقا ... لاهيًا بعدى بمن عشقا
إنما أبقيتَ من بدنى ... شبحا غير الذى خلقا
كنت كالنقصان فى قمر ... ما خفى منه الذى اتسقا
وفتى ناداك من كُرَبٍ ... أشْعلَت أحشاؤه حرقا
غرقت فى الدمع مقلتُهُ ... فدعا إنسانها الغرقا
إنما عاقبت ناظره ... إذ أعاد الطرف مسترقا
ما لمن نمّت محاسنه ... أن يعادى طرف من رمقا
لك أن تبدى لنا حسنا ... ولنا أن نعمل الحدقا
قدحت كفاك زند هوى ... فى سواد القلب فاحترقا

ونبلغ بذلك أكبر موضوع وصلنا للشاعر شعرٌ فيه ، وهو الرثاء . وقد أورد صبيح رديف له تسعة أبيات فى رثاء المبرّد ، وأربعة فى رثاء ابنه هو ، وقصيدة طويلة ومقطوعتين فى رثاء هرٍّ له . ونبدأ بما نسبه صبيح رديف إليه من رثاء فى المبرد :

مات المبرد وانقضت أيامه ... وليذهبن مع المبرد ثعلبُ
بيت من الآداب أصبح نصفه ... خربا ، وباقى النصف منه سيخرب
فابكوا لما سلب الزمان ، ووطّنوا ... للدهر أنفسكم على ما يسلب
غاب المبرد حيث لا ترجونه ... أبدا ، ومن ترجونه فمغيّبُ
شملتكمو أيدى الردى بمصيبة ... وتوعدت بمصيبة تترقب
فتزودوا من ثعلب ، فبكأس ما ... شرب المبرد عن قليل يشرب

واستحلبـــوا ألفاظـــه فكأنكـــم بسريـــره وعليـــه جمـــع ينحـــب
وأرى لكـــم أن تكتبـــوا أنفاســـه إن كانـــت الأنفـاس ممـا تُكْتَـــبُ
فليلحقـنَّ بمـن مضـــى متخلـــفٌ مـــن بعـــده ، وليذهبـــنَّ وتذهـــبُ

والأستاذ صبيح ، رغم اختلاف المصادر فى نسبة هذه الأبيات ، يرى أنها « ألصق بابن العلاف وأقرب إلى نفسه الشعرى » (١٢) ، وذلك دون أن يبين لنا كيف أنها أقرب إلى نفس ابن العلاف الشعرى . والواقع أنه لم يصلنا لابن العلاف شعر كاف لكى نقيس عليه الشعر المختلف على نسبته إليـه وإلى غيـره . وليـس له بالذات من رثاء البشر ، فيما عدا هذه الأبيات ، إلا أربعة فى رثاء ابنه . وباقيه فى رثاء هرّه . فكيف يا ترى نستطيع أن نستخلص نفسه الشعرى فى الرثاء لكى نقيس عليه الأبيات التى بين أيدينا ؟

وقد كنتُ ، قبل أن أرجع إلى تخريج الأستاذ صبيح لهذه الأبيات وأعرف أنها نسبت أيضا لغير ابن العلاف ، أستغرب إلحاح الشاعر على اقتراب منية ثعلب ولحاقه بالمبرد ، الذى سبقه إلى لقاء ربه ، وأقول إن هذا المديح لثعلب هو أثقل مديح عرفته ، لأنه ورد فى سياق توقع موته ونعيه . فلمَّا عرفتُ ، من تخريج شعر الشاعر (١٣) ، أن بعضها على الأقل يُنْسب لثعلب نفسه رجحت أن يكون ثعلب هو الذى نظمها أو نظم بالأحرى معظمها (١٤) . ومن المعروف أن بعض من يعتزون بعلمهم قد يلجأون ، فى سبيل افتخارهم بمواهبهم ولفت أنظار من حولهم نحو أهميتهم ، إلى حث الناس على انتهاز فرصة وجودهم بين ظهرانيهم والإفادة من علمهم قبل أن يتلفتوا حولهم فلا يجدوهم . أمَّا أن يقول غيرهم عنهم ذلك فهو سمج

ثقيل .

وثمة رواية أخرى للبيت قبل الأخير .. هكذا :

وأرى لكـــم أن تكتبـــوا ألفاظـــه إذ كانـت الألفـاظ ممـــا تُكْتَـــبُ

بإبدال « الألفاظ » بـ « الأنفاس » . والمعنى ، على هذه الرواية ، تافه لا قيمة له ، إذ لا أظن أحدًا ممن يعرفون ثعلبا كان يحتاج إلى مثل هذه النصيحة . أمَّا « كتابة الأنفاس » فتدل على عظيم التقدير لثعلب ولكل ما يصدر عنه حتى لو كان مجرد زفرات .

وقال ابن العلاف فى مرثية ابن له :

يا حسرتـى بسعيد منـذ فارقنـى ! ويا حنينى إلى مـا فات من أنسه !
فلسـت أنسـى وكفّـى تحت منخـره وكان آخـر مـا أحسسـت مـن نفسـه
وقد قضى النـاس حقى فى جنازتـه وكنتُ آمـل أن يقضـــوه فى عرسـه

وهى أبيات تنفح أسًى ، ولكنها لا تصل إلى روعة أو التهاب رثاء أبى ذؤيب الهذلى لأولاده ، أو رثاء بشار لابنه ، أو ابن الرومى لابنه الأوسط محمد .

على أنَّ الرثاء الذى اشتهر به ابن العلاَّف وأثار من الضجة ما أثار هو رثاؤه لهرّه ، الذى نظم فيه قصيدة طويلة تجاوزت الستين بيتا (١٥) ، ومقطوعتين : إحداهما سبعة أبيات ، والأخرى أربعة .

وقصة هذا الهرّ أنه كان يتسلل إلى برج للحيران ويفترس أفراخ الحمام هناك فضاق به أصحاب البرج وتربصوا به وقتلوه .

بيد أن هناك روايات أخرى ترى فى ذلك الهرّ رمزا إلى شخص لم يجرؤ الشاعر على التصريح باسمه خوفا من الأذى : فقد ذكر بعضهم أن

المقصود هو ابن المعتز ، الذى استطاع بمؤازرة أنصاره أن يخلع المقتدر من عرش الخلافة لمدة يوم ، لكن رجال المقتدر استطاعوا أن يعيدوه إلى سرير الملك مرة أخرى ، وانتهى الأمر بمصرع ابن المعتز . وكان الشاعر صديقًا له ، فرثاه هذا الرثاء الرمزى ، خوفا من المقتدر . وذكر آخرون أن غلامًا للشاعر كان يهوى جارية لأحد الوزراء ، وأن هذا الوزير قبض عليهما وسلخهما وحشا جلدهما تبنًا . وقال بعض ثالث : بل المرثى هو ابن الوزير على بن الفرات ، الذى قُتل فلم يستطع الشاعر أن يذكر اسمه صراحة . أمَّا الصفدى فقد استنكر أن يكون المرثىُّ إنسانًا ، وأكّد أنّه هرّ حقيقى (١٦) .

وإليك أوّلاً المقطوعتين :

يـــا رُبَّ بيـــت رثَّـــه ... فيـــه تضايـــق مستقـــرُّهْ
لمـــا تكاثـــر فـــأره ... وجفـــاه بعـــد الوصـــل هـــرُّهْ
وسعـــى إلـــى بـــرج امـــرىء ... فيـــه الفـــراخ كمـــا يســـرُّهْ
ظـــن المنافـــعَ أكْلُهـــا ... فـــإذا منافعهـــا تضـــرُّهْ

* * *

يا هـر ، بعـت الحـق بالباطـل ... وصـرت لا تصغـى إلى عـاذلِ
إذا أتيـت البـرج مـن خـارج ... طـارت قلـوب الطيـر مـن داخـلِ
علمنـا بمـا تصنـع فـى برجهـا ... فهـى علـى خـوف مـن الفاعـلِ
قـد كنـتَ لا تغفـل عـن أكلهـا ... ولـم يكـن ربـك بالغافـلِ
فانظـر إلـى مـا صَنَعَـتْ بعـد ذا ... عقوبـة المأكـول بالآكـلِ
مازلـت يـا مسكيـن مستقتـلا ... حتـى لقـد منيـت للقاتـلِ
قـد كنـت للرحمـة مستأهـلا ... إذ لم يكـن منـك بمستاهـلِ

وهاتان المقطوعتان تلخّصان ما فى القصيدة الطويلة .

وفى رأيى أن من الصعب جدًّا الاعتقاد بأن ابن المعتز هو المقصود

بالهرّ ، إذ كيف يقول الشاعر له إنك « بعت الحق بالباطل ، ولم يكن ربك بالغافل » ، وقد كان ، كما يقولون ، صديقا له لصيقا ؟

كما أنه قد نُسب إليه فى القصيدة الإيذاءُ والظلمُ والجريمةُ والغى والطمع والعدوان ، مما يدل على أنه كان يرى قتله أمرًا عادلا :

حتى اعتقدت الأذى لجيرتها ... ولم تكن للأذى بمعتقد
وحمت حول الردى بظلمهو ... ومن يحم حول حوضه يَرِد
إن الزمان استقاد منك ، ومن ... يسلم لغير الزمان يستقد

...

أطعمك الغَىُّ لحمها فرأى ... قتلَك أربابُها من الرشد

...

صادوك غيظا عليك ، وانتقموا ... منك وزادوا . ومن يَصِدْ يُصَد

...

فحين كاشفت وانتهكت وجا ... هَرْتَ وأسرفت غير مقتصد
أذاقك الموتَ من أذاق كما ... أذقتَ أطياره يدا بِيَدِ
أردت أن تأكل الفراخ ولا ... يأكلك الدهر أكل مضطهِد ؟
هذا بعيد من القياس ، وما أعزه ... فى الدنو والبعد !

...

عشتَ حريصا يقوده طمع ... ومتّ ذا قاتل بلا قود

...

عاقبة البغى لا تنام ، وإن ... تأخرت مدةً من المُدد

كذلك فابن المعتزّ كما ذكرنا من قبل لم يرو عن ابن العلاف شيئًا رواية مباشرة فى « طبقات الشعراء » ، ولا ذكر أنه كانت له به صلة . فهل يمكن القول بعد ذلك إنهما كانا صديقين ودودين ؟ أم ترى ابن المعتز كتب كتابه « طبقات الشعراء » قبل أن تربط بينهما الصحبة ؟ لكن ألم

يعد ابن المعتز النظر فى كتابه بعد أن عرف ابن العلاف وأصبحا صديقين ؟ وحتى لو سلَّمنا بأنه كانت بينه وبين ابنَ المعتزّ تلك الصداقة المتينة ، فأين اللوعة فى القصيدة ؟

لكل هذا لا أستطيع أن أهضم أن ابن المعتز هو المقصود فى مراثى ابن العلاف الهرّية .

ثم كيف يقال إن القصيدة رمزية ، وإن الشاعر خاف أن يصرح باسم الشخص المرثى ، وليس فى القصيدة ما يسىء إلى القاتل ؟

إننى أميل إلى أن القصيدة هى فعلاً فى رثاء هرّ عزيز على الشاعر كان يلاعبه ويلاطفه ويطلقه على الفئران التى كانت تعيث فى بيته فسادًا وقرضًا وتمزيقًا ونقبا . والشاعر [illegible] صريح العبارة :

وكيف ننفكّ عن هواك وقد	كنت لنا عدة من العُدَد
تمنع عنا الأذى وتحرسنا	بالغيب من حية ومن جُرَد
وتخرج الفأر من مكامنها	ما بين مفتوحها إلى السَّدَد
يلقاك فى البيت منه سو عدد	وأنت تلقاهم بلا عدد
لا عدد كان منك منفلتا	منهم ولا واحد من العدد

كما أنه يشير أيضا إلى أن الفئران بعد موت الهر قد تكاثرت وصارت لا تخاف ، وأخذت تحطم كل شىء وتأكله وتأتى [illegible] :

قد كنت بددت شملهم زمنا	فاجتمعوا بعد ذلك البدد
وفتتوا الخبز فى السلام ، فكم	[illegible] للعيال من كبد
فلم يقوا لنا على سبد	فى سوف أبيتنا ولا لبد
وفرشوا قعرها و[illegible]رتوا	ما علقته يد على وتد
ومزقوا من ثيابنا [illegible]دا	فكلنا فى مصائب جُدُد

أما إن أصرَّ البعض ، [illegible] على أنها فى شخص لا هرّ ، فإن

أقرب ما يمكن أن تنطبق عليه هو غلامه الذى قيل إنه كان يحب جارية لأحد الوزراء ، فنذر بهما الوزير فقتلهما ... إلخ . ذلك أن من الممكن أن يقال إنه يشير بالعدوان والبغى والظلم إلى اعتداء ذلك الغلام على حرمة بيت الوزير ، وإن من الطبيعى أن يرى ابن العلاف فيما وقع عليه جزاء عادلاً ، وأن يقول إنه ما كان أغناه عن التطلع إلى ما عند الجيران ! كذلك فقوله إنه كان يتخذه « عدة من العدد » إنما ينطبق على خادم لا صديق . وأيضا فعدم اللهفة والتحسر فى القصيدة يكون عندئذ مفهومًا ، فهو يرثى خادمًا لا صاحبًا عزيزا .

هذا هو ابن العلاف ، وهذا هو شعره ، وهو (فيما عدا قصيدته الطويلة فى الهرّ) ليس بالشعر الرائع ، على خلاف ما أجهد صبيح رديف نفسه لإثبات عكسه ، إذ ردّ حكم د. عمر فروخ عليه بالتكلف والجفاف (١٧) ، قائلاً إن « الدكتور فروخ قد غالى فى حكمه ، لأن الذى وصل إلينا من شعر ابن العلاف لا يكفى لإعطاء مثل هذا الحكم وإطلاقه على شعره وشاعريته . ولم يذهب أحد من الأقدمين إلى هذا الرأى ، بل ذهبوا إلى أن لابن العلاف الشعر الفائق . ولكن الذى يلاحظ على ما وصل إلينا من شعر ابن العلاف الميل إلى السلاسة والبساطة وإلى الظرف وطغيان روح المنادمة فيه » (١٨) . وهو كلام فيه غلوّ كبير ، فقد استعرضنا شعر ابن العلاف كله قصيدة قصيدة ومقطوعة مقطوعة ، ورأينا أن نصيبه من نفحة الشعر ، عدا القصيدة الهرّية ، جد قليل . أما قول بعض القدماء بعكس ذلك فهو لا يلزمنا ، إذ إن لنا ذوقنا ومقاييسنا ولهم مقاييسهم وأذواقهم . ثم إننا محكومون بما وصلنا من شعر الشاعر . وربّما كان له

شعر آخر أفضـــل من الذى وقع إلينا قد اعتمدوا عليه فى إصدار هذا الحكم . ربَّما .

الهوامش

١- طبقات الشعراء / تحقيق عبد الستار فراج / دار المعارف بمصر / ط ٢ / ٣٥٨ .

٢- انظر ترجمة ابن العلاف فى « طبقات الشعراء » لابن المعتز / ٣٥٨ - ٣٥٩ ، و « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى / دار الكتاب العربى / بيروت / ٧ / ٣٧٩ وما بعدها ، و « وفيات الأعيان » لابن خلكان / تحقيق د . إحسان عباس / دار صادر / بيروت / ٢ / ١٠٨ وما بعدها ، و « البداية والنهاية » لابن كثير / مكتبة المعارف / بيروت / ط ٢ / ١٩٧٧م / ١١ / ١١٦ ، و « نكت الهميان فى نكت العميان » للصفدى / المطبعة الجمالية / القاهرة / ١٣٢٩هـ - ١٩١١م / ١٣٩ - ١٤٢ ، و « دائرة معارف البستانى » / ١ / ٦١٤ - ٦١٥ ، و « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان / تعليق د . شوقى ضيف / دار الهلال / ٢ / ١٦٧ - ١٦٨ ، و « تاريخ الأدب العربى » لبروكلمان / ترجمة د . عبد الحليم النجار / دار المعارف / ط ٤ / ٢ / ٥٩ ، و « تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية » لعمر فروخ / دار العلم للملايين / ط ٤ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م / ٣٩٤ - ٣٩٧ ، و « شعر ابن العلاف » / جمع وتحقيق صبيح رديف / مطبعة الجامعة / بغداد / ١٩٧٤ / ٧ - ٢٥ .

٣- وهذه الأشعار تشغل الصفحات من ٢٨ إلى ٤٧ من « شعر ابن العلاف » / جمع وتحقيق صبيح رديف .

٤- هو الزجاج أو الزجاجى النحوى . انظر « شعر ابن العلاف » / ٤١ ..

٥- يقصد : فى « طبقات الشعراء » / ٩٠ ، ٤٥٤ .

٦- انظر « شعر ابن العلاف » / ٥٠ .

٧- الفرقان / ٥٩ .

٨- انظر عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية / ٣٩٦ / هـ ٧ .

٩- شعر ابن العلاف / ٥٧ .

١٠- يبدو أنه رأى الاخذ برواية ابن المعتزّ لأنه أقدم من كتبوا عن الشاعر .

١١- انظر « طبقات الشعراء » / ٣٥٩ ، ٥٠٤ ، وشعر ابن العلاف / ٤٢ ، ٥٧ .

١٢- شعر ابن العلاف / ٤٨ .

١٣- نفس المرجع والصفحة.

١٤- احترزت بقولى : « أو نَظَم بالأحرى معظمها » ، لأن من غير المفهوم أن يقول ثعلب فى آخر القصيدة ، بعد كل الذى قاله عن اقتراب موته :

فليلحقنّ بمن مضى متخلفٌ من بعده ، وليذهبن ونذهب

إذ المضارع المسند إلى ضمير جماعة المتكلمين (فى « نذهب ») لا موضع له هنا لو أن ثعلبا هو صاحب البيت ، كما هو واضح .

١٥- لم يستطع رديف صبيح أن يجمع أكثر من ثمانية وخمسين بيتا منها .

١٦- انظر « وفيات الأعيان » / ٢ / ١٠٨ - ١٠٩ ، ونكت الهميان / ١٣٩ - ١٤٠ ، ودائرة معارف البستانى / ١ / ٦١٤ - ٦١٥ ، و « تاريخ الأدب العربى » لبروكلمان / ٢ / ٥٩ ، وتاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية / ٣٩٥ ، و شعر ابن العلاف / ١٥ ، ٣٢ .

١٧- انظر « تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية » / ٣٩٥ .

١٨- شعر ابن العلاف / ١٤ - ١٥

محمود الورّاق

هو محمود بن الحسن (وقيل : محمود بن الحسين) ، من أهل بغداد . وكانت صنعته الورّاقة ، كما يفهم من تسميته بـ « محمود الوراق » . وبعضهم يقول إنه كان يشتغل نخَّاسًا إلى جانب صنعته كورّاق (١) .

وبحقٍّ يرى د. محمد زهدى يكن ، جامع ديوان محمود الوراق ومحققه ، أن دعوى اشتغاله نخاسا هى رواية غير موثقة (٢) ، إذ لم يذكر هذا إلا الخطيب البغدادى ، الذى يفصل بينه وبين الوراق زمن طويل ، فقد توفى البغدادى سنة ٤٦٣ للهجرة على حين مات محمود الوراق على أكثر تقدير سنة ٢٣٢ ، أى أن بين وفاتيهما قرنين وثلثًا تقريبًا .

صحيح أن شاعرنا ، كما جاء فى بعض الروايات ، قد احتاج يومًا إلى أن يبيع جاريةً له ، وأنه حزن لذلك حزنًا شديدًا ، وأنها عندما عرض عليها أن تخرج من ملكه إلى ملك سيدها الجديد عاتبته وذكرته بالعشرة الطويلة التى كانت بينهما ، ممَّا آلمه وأخجله وجعله يبقى عليها (٣) . بيد أن مثل هذه الرواية لا تصلح أبدا أن تكون دليلاً على أنه كان يحترف بيع الجوارى وشراءهن . إنها على العكس تبرهن على أن الأمر بينه وبين هذه الجارية كان أمر عشرة طويلةٍ ومودة ورحمة ، وليس أمر تجارة ونخاسة . لقد كان ردّه عليها عندما سألته معاتبة : « يا محمود ، هذا كان آخر أمرى وأمرك أن اخترت علىَّ مائة ألف درهم ؟ » أن قال : « فتجلسين

على الفقر والخسف ؟ » . فهل النخَّاس يفتقر ؟ وإن افتقر فهل يعضه الفقر بأنيابه هذا العضَّ الأليم ؟

ثم إن الرواية تمضى قائلة إنه قد أعتقها أمام الحاضرين فى الحال وأصدقها داره ، فما كان من الشارى ، وهو أحد كبار رجال الدولة ، إلاَّ أن وهبهما الثمن الباهظ الذى كان قد عرضه فى شرائها ، فعاشا بأغبط عيش (٤) . فهذا دليل آخر على أنها كانت جارية خاصةٌ له لا واحدة من جوارٍ يتاجر فيهن .

كذلك جاء فى رواية أخرى أن شاعرنا قد رفض أن يبيع جارية أخرى له إلى أحد الخلفاء العباسيين (٥) ، رغم أنه قد بذل فيها سبعة آلاف دينار ، وأبقاها إلى جانبه وظلت فى بيته إلى أن مات (٦) . ترى أيمكن أن يرفض نخاس عرضًا مثل هذا ؟ وممَّن ؟ من خليفة . فلمن سيبيعها إذن ؟ إن أحدًا آخر من رجال الدولة ما كان ليجرؤ على أن يشتريها بعد ذلك ، وإلا كان معنى هذا أنه يريد أن يتفوق على الخليفة ، وهو ما كان سيعرضه فى الغالب لغضبه .

ولا ينبغى أيضا أن يفوتنا أن شعر الوراق يخلو تمامًا من كل ما يُشْتَمّ منه أنه كان نخاسًا فى يوم من الأيام . قد يقال إنه كان له شعر ماجن لكنه أهمله فلم يجمعه ، ومن ثم لم يصلنا (٧) . لكن لو كان الوراق قد أهمل شعره الماجن الذى قاله قبل تزهدُّه ، فكيف أهمله مؤرخو الأدب والنقاد ؟ إن شعر أبى العتاهية مثلا الذى نظمه أيام تخنثه ومجونه قد وصل إلينا رغم انصراف الشاعر بعد ذلك إلى شعر الوعظ والموت والحكمة . وبطبيعة الحال ليس أبو العتاهية هو الذى وصَّله إلينا بل من

كتبوا عن حياته وإنتاجه . بل لقد وصلنا شعر كعب بن زهير وعبد الله بن الزبعرى فى هجو الرسول عليه السلام قبل إسلامهما . ولا شك أنهما ، بعد دخولهما فى الإسلام ، كانا حريصين على إهماله بل إخفائه عن العيون والأسماع نهائيا . ومع ذلك فقد وصلنا .

وحتى الخبر الوحيد الذى يشير إلى أن شاعرنا كان يتردد على الحانات ويشرب الخمر ، وهو ما كان يمكن أن يحاول الاعتماد عليه بعضُ الباحثين للتدليل على أنه كان يشتغل بالنخاسة ، هذا الخبر اليتيم يسمّى شاعرنا بـ « محمود الوراق » لا « محمود النخاس » (٨) .

وأخيرا فإنى لا أفهم كيف يكون الإنسان نخَّاسًا يشتغل ببيع اللحم البشرى ، وفى ذات الوقت يكون شعره كلّه فى الحكم والمواعظ وما أشبه . إن د. محمد مصطفى هدارة يرى أن الوراق قد « تخلى عن أسلوب النخاسين فى تربية الجوارى على الفساد والإفساد ووجّههن وجهة صالحة » (٩) . لكن لم تأتنا مع ذلك أية رواية تقول إن محمودا الوراق قد باع أية جارية .

وقد اتصل الوراق ببشَّار (١٠) . وكان حيًّا فى خلافة المعتصم وربما المتوكل أيضا ، على ما سبقت الإشارة إليه فى الهامش رقم ٥ عند الكلام عن رفضه بيع جاريته لأحد الخلفاء العباسيين . وقد حدَّد ابن المعتز سنة وفاته بحدود المائتين والثلاثين للهجرة (١١) .

وذكر الأونبى وابن شاكر الكتبى وابن المعتز أن أكثر شعره فى الحكم والمواعظ والأدب (١٢) .

والحق أنَّ شعره ، أو على الأقل الذى وصل إلينا منه ، قليل ، إذ

يقع مع حواشيه فى نحو مائة صفحة من القطع الصغير ، ويمكن أن يُختزل إلى سبعين أو ما يقارب ذلك ، فقد روعى فى طبعه كتابة البيت فى سطرين بدلا من سطر واحد .

وبعض ما ورد فى الديوان من شعر قد نُسِب للوراق ولغيره . ومن ذلك الأبيات التالية :

دع الريـــاء لمـــن لـــج الريـاء بـــه ... فى الأمر بالبـذل ، واذكر ذلة العَدَم
ومت على الدرهم المنقوش موت فتى ... رأى الممـات عليـــه أكـرم الكـرم
وعـدّ عـن ذا وعن هذا وقولهمو : ... « الذكر يبقى ، وتفنى لذة النّعَم »
لولا غنـاك لكنتَ الكلبَ عندهمـو ... فـإن أبيـت فجـرّب واشـــقَ بالنـدم

فقد رُوِيت أيضا للعطوى . كما رُوِى البيتان الثانى والرابع لأبى على الحمدونى (١٣) .

ومعظم الشعر الذى وصلنا للوراق نتف ومقطوعات . أما القصائد فأربع فقط : اثنتان كلٌّ منهما أربعة عشر بيتا ، واثنتان كلٌّ منهما ثمانية أبيات ليس غير (١٤) . وإلى جانب هذا تقابلنا له أبيات منفردة بين الحين والحين .

أما موضوعاته فتدور حول الشيب ، والتزهيد فى الدنيا ، والتنفير من سؤال الناس ، والعلاقات بين الإخوان وما يعتورها من فتور وانفصام ، والدعوة إلى الصفح ، والتحذير من الذين يتخذون الدين أو التصوف ذريعة لأغراضهم الدنيوية ، وتصوير فساد الأحوال فى الدولة ، والمقابلة بين العقل والجهل ، والتذكير بنعم الله ، ومناجاته سبحانه ، والتحذير من المعاصى . إنها ، كما ترى ، كلها موضوعات وعظية .

فأمَّا شعره عن الشَّيْب فيصور إحساسه بأن الدنيا مولّية وأن الآخرة قد دنت وأزف الحساب ، كما يعبِّر عن حسرته على ما مضى من الشباب :

اغتنم غفلة المنية واعلمْ ... أنما الشيب للمنية جسْرُ
كم كبير يوم القيامة يُقْصَى ... وصغير له هنالك قدرُ

* * *

فاجاك من وفد المشيب نذيرُ ... والدهر من أخلاقه التغييرُ
فسواد رأسك والبياض كأنه ... ليل تدب نجومه وتسيرُ

* * *

بكبت لقرب الأجلْ ... وبُعْد فوات الأملْ
ووافد شيب طرا ... بعقب شباب رحل
شباب كأن لم يكن ... وشيب كأن لم يزل
طواك بشير البقا ... وجاء بشير الأجل
طوى صاحب صاحبا ... كذاك انتقال الدُّوَلْ

* * *

سُقيا لأيام خلت ... وكأن أوجهها رياضْ
أيام يحيينا الهوى ... وتميتنا الحَدَق المراض (١٥)

* * *

سُقْيًا لأيام توالت به ... أحسن ما كانت صروف الزمنْ
ولّى ، فما الدنيا بأقطارها ... لليوم والساعة منه ثمنْ

ولعلَّ مما له دلالته القوية أن إحدى القصائد الثلاث فى ديوان الشاعر ، بل إحدى أطول قصيدتين منها ، هى فى التحسُّر على الشباب والعافية والنضرة والوسامة التى تجعل النساء يترامين على الرجل ويتنافسن فى التحبب إليه :

لا تطلبنْ أثـرًا بعيـن ... فالشيب إحدى الميتتين (١٦)
أبدى مقابحَ كل شَيْـن ... ومحا محاسنَ كل زَيْـن
فإذا رأتك الغانيا ... ت رأين منك غراب بَيْـن
ولربَّما نافسن فيـ ... ـك ، وكنَّ طوعًا لليدين
أيام عمَّمَك الشبا ... ب وأنت سهل العارضين
حتى إذا نزل المشيـ ... ـب وصرت بين عمامتين
سوداء حالكة وبيـ ... ـضاء المناشر كاللُّجَيْن
مزج الصدود وصالهن ... فكنَّ أمرا بين بين
وصبرن ما صبر السَّوا ... د على مصانعة ومَيْن
حتى إذا شمل المشيـ ... ـبُ فجاز قطرَ الجانبين
قفَّين شر قَفِيَّةٍ ... وأخذن منك الأطيبين
فاقْن الحياء ، وسلّ نفـ ... ـسك ، أو فنَادِ الفرقدين
ولئن أصابتك الخطـ ... ـو ب بكل مكروه وشين
فلقد أمِنْتَ بأن يصيبـ ... ـك ناظر أبدا بعَيْن

كما قد تكرر ، فى حديثه عن المشيب ، الإشارة إلى الخضاب ، الذى تارة ما يحسِّنه لمن نزل برؤوسهم الشيب ، وتارةً يسخر منه وممَّن يلجأ إليه ليستر به الحقيقة المرة :

إذا ما الشيب جار على الشباب ... فعالجه وغالط فى الحساب
فقل : لا مرحبا بك من نزيل ... وعذِّبه بأنواع العذاب
بنتف أو بقصّ كل يوم ... وأحيانا بمكروه الخضاب
وإن هو لم يُجِرْ وأتى لوقت ... فقل : فى رحب دار واقتراب

* * *

للضيف أن يُقْرَى ويُعْرف حقُّه ... والشيب ضيفك ، فاقْرِه بخضاب
وافى بأكذب شاهد ، ولربما ... وافى المشيب بشاهد كذاب
فافسخ شهادته عليك بخضبه ... تنفى الظنون به عن المرتاب

فـإذا دنـا وقـت المشيـب فخلّـه والشيـب يذهب فيـه كـل ذهـاب

* * *

فمـا منـك الشبـاب ولسـت منـه إذا سامتْـك لحيتُـك الخضابـا

* * *

يـا خاضـب الشيـب الـذى فـى كـل ثالثـة يعـودْ
إن النّصـول إذا بـدا فكأنـه شيـب جديـد
ولـه بديهـة روعـة مكروههـا أبـدا جديـد
فـدع المشيـب لمـا أرا د ، فلـن يعـود لمـا تريـدْ

* * *

يا خاضب الشيبة ، نُحْ فَقْدَهـا فإنمـا تُدرجهـا فـى كَفَـنْ
أمـا تراهـا منـذ عاينتهـا تزيـد فى الرأس بنقـص البدنْ ؟

وقد يمكننا التوفيق بين النظرتين المتعاكستين بالقول بأن الشاعر إنما يحسّن الخضاب ونتف الشعرات البيض أو قصّها فى أول مقدم المشيب ، إذ تكون هذه الوسائل مجدية ، أمّا بعد أن يشتعل الرأس شيبا ويصعب إخفاء بياض الشعر ويظهر تقدم العمر على الشخص جليّا فإنه يرى التسليم بالحقيقة على مرارتها ، إذ لا فائدة من المكابرة .

ومن شعره فى الشيب هذا البيت الذى يردّ فيه على من يلحاه فى مشيبه :

لا تلْحَ شيبى وما شاهدت من كبرى ما دمتُ أغدو صحيح العقل والبدن

وهو ما ينم على أنه كان يحسُّ بالمشيب إحساسًا مؤلما ، وأن بعض الناس من جهة أخرى لا يريدون أن يفهموا أن طبيعة الحياة هى التحول والصيرورة ومن ثم لا يبقى فيها مخلوق على حال ، وأن الشيب إحدى مراحل العمر لا معدى عنه ، وأن صاحبه على أية حال لا ذنب له فيه .

أما فى البيتين التاليين :

وعاتـــبٍ عابنـــى بشيـــبٍ لـم يَعْـدُ ، لمّـا ألـمَّ ، وقتَـهْ
فقلـتُ للعائبـــى لشيبـــى : يا عائـب الشيـب ، لا بلغْتَـهْ

فيقول إن الشيب نعمة ، لأنه فى واقع الأمر يعنى طول العمر . على أنه لا ينبغى أن يفوتنا ما يوحى به البيت الأخير من أنه لم يكن متسامحًا مع الناس على طول الخطّ . ففى ردّه ، كما هو بيّن ، غيظ وحدّة ونقمة . وسوف نأتى إلى هذه النقطة فيما بعد ونعالجها فى سياقها بشىء من التفصيل .

وفى التزهيد فى الدنيا نجد له :

يحبُّ الفتـى طـول البقـاء كأنـه على نقـد أن البقـاء بقـاءُ
إذا ما طوى يومًا طوى بعض يومه ويطويه إن جنّ المسـاء مسـاءُ
زيادتـه فـى الجسـم نقص حياتـه وأنى على نقـص الحيـاة نماء ؟
جديـدان لا يبقـى الجميع عليهمـا ولا لهمـا بعـد الجميـع بقـاءُ

وهى أبيات تكشف إحدى مفارقات الدنيا . ذلك أنَّ مرور الأيام إذا كان من ناحيةٍ يعنى طول العمر فإنه من الناحية الأخرى يقرّبنا من آجالنا ، أى أنه يقصّر فى ذات الوقت هذه الأعمار التى طالت . وهى مفارقة لا نتنبه إليها حين نكون ، لسبب أو لآخر ، متعلقين فوات الوقت ، ساهين عن أن فواته إنما هو فوات حياتنا . إن الحياة فى واقع الأمر وحقيقته هى سعى إلى الموت . بيد أن التفطُّن إلى هذه الحقيقة لا يسوّغ الإزراء على الناس ، إذ ماذا بإمكانهم أن يفعلوا ؟ إنهم لا يستطيعون تبديل طبيعة نفوسهم . ولقد كان أولى بالشاعر أن يأسى لهم (ولنفسه بطبيعة الحال) ويرثى لحالهم الذى وضعهم فيه هذه المفارقة التى ليست من صنعهم ، ولا

باختيارهم كانت .

وليس فى حبّ البقاء ما يؤخذ على البشر ، فهذه غريزة غُرزت فيهم . ومن منا لا يتمنى ، ولو بخلع عينيه ، الخلود ؟ واعتمادًا على هذه الغريزة تلوّح الأديان السماوية بالجنة والعيش الخالد فيها حثًّا للإنسان على إحسان العمل وتجنب الشرّ والأذى . كذلك فلولا هذه الغريزة ما صنع صانع ولا زرع زارع ولا قرأ عالم ولا درس طالب ولا حارب محارب ، بل ولا كان أكل وشرب وحبّ وجنس وتأنُّق ... إلخ . إنها هى القوة الدافعة لكل المخلوقات ، فهى بمثابة المحرك والوقود للسيارة . وما دام الأمر كذلك فلا معنى ولا جدوى لوعظ الواعظين الذين يقبّحون حبّ الدنيا والتمسك بها ، وكأن الدنيا فى ذاتها شرّ لابد من نبذه . فلماذا خلق الله الدنيا إذن وامتنّ سبحانه بها علينا ؟ وأحجى بهؤلاء أن يسأل الواحد منهم نفسه : هل أنت على استعداد يا هذا أن تفارق الدنيا طوعًا وتنفّذ ما تدعو إليه الآخرين ؟ والجواب بطبيعة الحال : « كلاَّ » . إن الوعظ إذا جرى ضدّ تيار الحياة بل سيلها العرم كان بمثابة المحاربة لأشباح الظلام . إن محمودا الوراق حين يقول :

يا عامر الدنيا على شَيْبه ... فيك أعاجيب لمن يعْجَبُ

ما عذر من يعمر بنيانهُ ... وعمره مستهدم يخربُ ؟

إنما يخالف سنة الإسلام ، الذى قال نبيه عليه السلام : « إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها » . ثم إنه لا معنى لسؤال شاعرنا عن عذر من يعمر الدنيا ويبتنى ، فالعذر واضح لمن يريد أن يبصر . إن عامر الدنيا إنما يصغى لنداء قلبه وكل كيانه ، وإلاَّ فما معنى خلق الدنيا

إذا كنا سندير ظهورنا إليها ؟ ودعك من أن إدارة الظهر لها هو أمر غير ممكن . إننا ينبغى أن نفرق بين أمرين : حبّ الحياة والاستزادة من البقاء فيها ، وذلك أمر مفهوم ولا غبار عليه ، بل هو استجابة طبيعية لذلك الشعور الفطرى الذى أودعه الله فى أعماق قلوبنا وغرائزنا . والثانى الإساءة إلى الحياة ، بظلم الآخرين وأذاهم والسطو على حقوقهم وطعنهم فى الظلام دونما وجه حق ، أو العيش عالة عليهم ، أو عدم المبالاة بالأشواق الإنسانية العليا من نظام وجمال وسلامة ذوق وسكينة نفس واستنارة عقل وأريحية قلب وكرامة . إن رفض الحياة هو رفض للنعمة الإلهية . فلنحذر ذلك ، ولنقصر إزراءنا على من يسيئون إلى الحياة وإلى الأحياء .

أما وعظ محمود الوراق الذى يذمّ فيه الدنيا بإطلاق فهو وعظ ساذج قد تفرح به العامة ويمصمصون شفافهم قليلا ثم لا يبالون به بعد ذلك أدنى فتيل ! وإذا كان صادقا فعلاً فيما يقول فلماذا هذا الحزن الممضّ على فوت الشباب ؟ لنسمع :

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عيناك حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقْد الشباب وفرقة الأحباب

إن الشباب هو رمز الخلود ، إذ يبلغ فيه قمة الحياة ويحسّ باصطخاب تيارها فى نفسه كأعنف وأحلى ما يمكن أن يكون . وحين تنضو الدنيا عنه بُرْد الشباب يجد نفسه هابطًا الجبل من سفحه الآخر مندفعًا إلى هوة الفناء ، التى يراها تحته فاغرة فاها المرعب القبيح .

الإزراء على من يحسون الحياة إذن لا معنى له . والمطلوب بدلاً من ذلك العملُ على تصحيح طريقة العيش . ويجرى فى هذا المجرى قوله :

تحـرَّ مـن الطـرق أوساطهـا وعـدّ عـن الجانـب المُشْتَبِـهْ
وسمعَـك صُـنْ عـن سماع القبيـ ـح كصون اللسان عن النطـق بهْ
فإنـك عنـد استمـاع القبيـ ـح شريـك لقائلـه ، فانتبـهْ

ومثل ذلك إزراؤه على هؤلاء الذين لا يبصرون فى الدنيا شيئًا غير الفلوس ولا هم لهم إلا تكويمها :

أراك يزيـدك الإثـراء حرصًـا على الدنيـا كأنـك لا تمـوتُ
فهـل لـك غايـة إن صرت يومًـا إليهـا قلت : حسبى ، قد رضيتُ ؟

وتحذيره من الإقدام على الأمر دون تروٍّ أو دراسة ومشاورة :

إن اللبيـب إذا تفـرق أمـره فَتَـقَ الأمـور مناظـرا ومشـاورا

...

وأخـو الجهالـة يستبـدُّ برأيـه فتـراه يعتسـف الأمـور مخاطـرا

وتحبيبه القناعة إلى نفسه وإلى غيره ، فإن الغِنى هو غنى النفس أوّلاً ، ومن لم تكن نفسه غنية فلن يغتنى أبدا حتى لو حاز كنوز الأرضين :

غنى النفـس يغنيهـا إذا كنـتَ قانعًا وليس بمغنيك الكثيـر مع الحـرص
وإن اعتقـاد الهـمّ للخيـر جامـع وقلة همّ المـرء تدعـو إلى النَغْـص

وتزيينه المسارعة إلى الكرم وسدّ عوز السائلين :

سأمنـح مالى كـل مـن جـاء عافيًـا وأجعله فرضا على الفرض والفرض
فإمَّـا كريـم صنـتُ بالجـود عرضـه وإمَّا لئيم صنتُ عن لؤمه عِرْضى(١٣)

وتبغيضه بذل الوجه وما فيه من مذلةٍ وهوان :

ليس يعتـاض باذل الوجـه فـى الـ ـحاجـة مـن بـذل وجهـه عوضـا
كيـف يعتـاض مـن أتـاك وقـد صيَّـر للـذلّ وجهـه غرضـا ؟

* * *

إن السـؤال ، فعـدّ عنـه ، قليله ثمـن لكـل عطيـة أو مـال
والحـال تقعـد بالكريـم فما تـرى فيـه ، لعزّتـه ، تغيـر حـال

وتنفيره من تيه المتدينين بتدينهم :

التيـــه مفســـدة للدين ، منقصـة ... للعقـل ، مجلبـة للـذمّ والسخـطِ

وفضحه الذين يتوسلون بكل ما عندهم من جهد إلى بلوغ المناصب بغية التسلُّط والاغتناء من أموال المسلمين خيانةً واستغلالاً :

ركبـــوا المراكـــب واغتـــدوا ... زُمَـــرًا إلـــى بـــاب الخليفـــهْ
وصلـــوا البكـــور إلـى الـــروا ... ح ليبلغـــوا الرتـــب الشريفـــهْ
حتـــى إذا ظفـــروا بمـــا ... طلبـــوا مـــن الحـــال اللطيفـــهْ

...

وتعسفـــوا مـــنْ تحتهـــم ... بالظلـــم والسّيَـــر العنيفـــهْ
خانـــوا الخليفـــة عهـــده ... بتعســـف الطـــرق المخوفـــهْ
باعـــوا الأمانـــة بالخيـــا ... نـــة ، واشتـــروا بالأمـن جيفـــهْ
عقـــدوا الشحـــو[illegible]ـــرئـــوا ... مـــن الأمانـــات السخيفـــهْ

وتصويره قبح النفاق الرخيص مزلّفا لذوي السلطان :

كل من حلّ سُرَّ من رى (١٨) من النا ... س ومـــن قـــد يداخـل الأملاكـا
لـو رأى الكلـــب ماشـــيًا بطريـــق ... قال للكلب : يا جُعِلْتُ فداكا !

وتزيينه صدق القول :

ولفظـك حيـــن تلفـظ فـى جميع ... ولا تَـــذب مقدّمـــة لفعلـــكْ
فزنـــه إن أردت القـــول وزنـــا ... وإلاّ [illegible]ـدّ مـــن أركـــان نبلـــكْ

ودعوته أن يقترن العلم بالعمل ، وإلاّ صار [illegible] يسمن ولا يُغْنى ولم يعره الناس أذنا :

إذا أنت لم ينفعـــك علمـــك لم تجـد ... لعـامل مخلوقـا مـن الناس يقبلـهْ
وإن زانـــك العلم الذى قـــد حملتـــه ... و[illegible]ـدت لـه مـن يجتنيـه ويحملـه

وتحبيبـــه أهـــل العطـــاء [illegible] يجعلوا عطاياهم خالصة من شائبة المنّ والأذى :

أحْسَنُ من كل حَسَنْ ... فى كل وقت وزمنْ
صنيعة مربوبة ... خالية من المِنَنْ

وينتشر فى شعر الورّاق التنفير من سؤال الناس لأنه يجلب الذل ، والتأكيد على أن الرّزق بيد اللّه وحده سبحانه ، لا يقدمه السعى فى طلبه ولا يؤخره النوم عنه :

فاطلب إلى ملك الملوك ، ولا تكن ... بادى لضراعة طالبًا من طالب

* * *

والرزق لو لم تأته ... لأتاك عفوا من كَثَبْ
إن نمت عنه لم ينم ... حتى يحركه السّبَبْ

* * *

وذى ثقة تبدل حين أثرى ... وما شيَمى موافقة الثقات
فقلت له : عتبتَ علىَّ ظلما ... فرارا من مثونات العدات
فَعُدْ لمودّتى وعلىّ نذر : ... سؤالك حاجةً حتى الممات

* * *

وكم أزعج الحرص من راغب ... إلى الصين والرزق فى بيته

* * *

علام يشقى الحريص فى طلب الرز ... ق بطول الرواح والدّلَجِ ؟
يا قارع الباب ، ربّ مجتهد ... قد أدمن القرع ثم لم يَلِج
وربَّ مستولج على مهل ... لم يشق من قرعه ولم يهج
فاطو على الهمّ كشح مصطبر ... فآخر الهمّ أول الفرجِ

* * *

ليس يجدى الحرصُ والسّعْـ ... ـىُ إذا لم يُكُ جَدُّ

* * *

ليس يعتاض باذل الوجه فى الـ ... حاجة من بذل وجهه عوضا
كيف يعتاض من أتاك وقد ... صيّر للذلّ وجهه غرَضا ؟

* * *

إن السؤال ، فعدّ عنه ، قليله ... ثمن لكل عطيةٍ أو مالِ
والحال تقعد بالكريم فما ترى ... فيه ، لعزّته ، تغير حال

* * *

يا أيها الطالب من مثله ... رزقًا جُررْتَ عن الحكمهْ
لا تطلب الرزق إلى طالب ... مثلك محتاج إلى الرحمهْ
وارغب إلى الله الذى لم يزل ... فى يده النعمة والنقمهْ

* * *

لا تحسبنّ الموت موت البلى ... فإنما الموت سؤال الرجالْ
كلاهما موت ، ولكن ذا ... أشدّ من ذاك لذل السؤالْ

* * *

أتطلب رزق الله من عند غيره ... وتصبح من خوف العواقب آمنا ؟

ومع ذلك ففى أشعاره أخرى نراه لا يجد فى السؤال غضاضة ، وإن اشترط أن يكون المسؤول إنسانًا كريما :

اسأل العُرْف ، إن سألت ، كريما ... لم يزل يعرف الغنى واليسارا
فقليل الشريف يُكْسب مجدا ... وكثير الوضيع يُكْسب عارا

أو يكونَ باب المسؤول مفتوحا للزائرين المعتفين :

سأطرق هذا الباب ما دام إذنه ... كعهدى به حتى يلين قليلا

...

إذا لم أجد فيه إلى الإذن سلّما ... وجدت إلى رد المجىء سبيلا

بل إنه فى بعض أشعاره يسخر ممن يحجب عن عُفاته :

لولا مقارفة الريب ... ما كنت ممن يحتجب
أو لا فعىٌّ نكد أو ... بخل على أهل الطلب

وهو يكرّر ذلك فى أبيات أخرى له ، ممّا يدلُّ على أن إغلاق

المقصودين أبوابهم كان يزعجه . ولولا أنه كان يسألهم ويبغى نوالهم لما ضايقه هذا منهم :

إذا اعتصم الوالى بإغلاق بابه ... وردّ ذوى الحاجات دون حجابه
ظننتُ به إحدى ثلاث ، وربما ... نزعتُ بظنّ واقع بصوابه
فقلت : به مسٌّ من العىّ قاطع ... ففى إذنه للناس إظهار ما به
فإن لم يكن عىُّ اللسان فغالب ... من البخل يحمى ماله عن طلابه
فإن لم يكن هذا ولا ذا فريبة ... يصرُّ عليها عند إغلاق بابه

وهو ما يرينا أن للقاعدة العامة عنده ، كما عند غيره من الناس ، استثناءات . فالحياة لا يمكن أن تجرى على قضبان من الحديد لا تخرج عنها أبدًا ، وإرادة الإنسان ليست من فولاذ ، فكثيرًا ما تقع أمور وأحداث تجبره على تغيير قراره أو تحويره ولو بصفة مؤقتة . ومن ذا الذى يستغنى فى كل الأحوال عن الناس ؟ بل من قال إن سؤال الناس يناقض بالضرورة الإيمان بأن الرزق بيد اللَّه ؟ إن السماء ، كما قيل ، لا تمطر ذهبا ولا فضة ، بل ذهبها وفضتها لا يأتيان إلاَّ عن طريق الآخرين : عملاً لهم ، أو استعطاءً منهم ، أو تعاونًا معهم ... إلخ . والعبرة فى كل ذلك أن يكون قلب المرء معلقا بربه وألا يظن أن الضرَّ والنفع إنما هما بيد أمثاله من العباد ، وأن يكون السؤال بحق .

إذن فموقف الوراق من سؤال الآخرين ومن قضية الرزق غير ثابت على حال واحدة . ولا أظنه كان يؤمن بالجبرية فى الرِّزْق ، بل هو مجرد مردِّد لما يقوله العوام من أن رزق الإنسان لابدَّ آتيه أينما يكن . وهو كلام كان شاعرنا يقوله ، فيما يخيل إلىَّ ، حين لا تعضه أنياب الحاجة ، أو حين يستولى عليه اليأس مما فى أيدى الآخرين فيريد أن يعزِّى نفسه . وإلاَّ

فلو كان يؤمن حقيقةً بما كان يقوله فى الرزق ما نهض لعملٍ (١٩) ولا دقَّ بابًا ، وقد كان يقصد الأبواب أحيانًا (٢٠) .

وإذا كنا قد رأينا موقف الوراق من سؤال الناس يتغيَّر إلى حدٍّ ما بين النظر والتطبيق ، فإن موقفه من الغنى والفقر ومن إعطاء السائلين أو طيِّ الكشح عنهم يبدو متناقضًا أيضا . فهو فى بعض أشعاره يدعو إلى أن يتمتع الإنسان بما فى يده من مالٍ أو يبذله ، ولا يبقى منه شيئًا :

تمتـــع بمالـــك قبـــل الممـــا ... ت وإلاَّ فـلا مـال إن أنـــتَ متَّـــا
شقيـــت بـــه ثـــم خلَّفْتَـــه ... لغيـــرك . يُعْـــدًا وسحقـــا ومقتـــا
فجـــادوا عليـــك بـــزُور البكـــا ... وجُـــدْتَ عليهم بمـا قـد جمعتـا
وأوهبتهـم كـل مـــا فـــى يديـــ ... ـك ، وخلَّوْك رهنا بمـا قد كسبتا

* * *

وقالوا : ادَّخـــر ما حُزْتَه وجمعتـه ... لعقبـك إن الحزم أدنـى من الرُشْـد
فقلت : سأمضيه لنفسـى ذخيـــرةً ... واجعل ربِّى الذخـرَ للأهـل والولـد

ويحث على الجود ويذم البخل والحرص :

ويسرع بخل المرء فـى متلـف عرضه ... ولم أر مثل الجـود للعـرض حارسا

* * *

سأمنـح مالى كل مـن جـاء عافيـا ... وأجعـ فرضا على الفرض والفَرْض
فإمـا كريـم صنتُ بالجـود عرضه ... وإمّا لئـم صنتُ عن لؤمـه عرضى

* * *

لا تحمـدنّ أخـا حـرص على سعـة ... وإ ـيـه بعيـن المقـت القالـى
إن الحريـص لمشغـــول بشقوتـه ... عن السـرور بما يحـوى مـن المـال

* * *

فكـرت فـــى المـــا ... ـه فكـــان ما يبقـى هـــو الفانـــى
وكـــان ما أنفقـــت فـ ... ـــــبر بمعـــــروف وإحســـان

هـو الـذى يبقـى وأجـزى بـه ... يـوم يجـازى كـل إنسـان

* * *

مـن ظن باللـه خيـرا جـاد مبتدئـا ... والبخـل مـن سـوء ظـن المرء باللّـه

* * *

الفقـر فـى النفـس ، وفيها الغنـى ... وفـى غنـى النفـس الغنـى الأكبـرْ

مـن كـان ذا مـال كثيـر ولم ... يقنـع فـذاك الموسـر المعسـرْ

وكـل مـن كـان قنوعـا ، وإن ... كـان مقـلاً ، فهـو المكثـرُ

* * *

غنـى النفـس يغنيهـا إذا كنتَ قانعًا ... وليس بمغنيك الكثيـر مع الحـرص

* * *

ورأيـت أسبـاب القنـوع منوطـة ... بعُـرى الغنـى فجعلتهـا لى معقـلا

بل إنه ليدافع عن الفقر ويعيب الغنى :

يا عائـب الفقـر ، ألا تزدجـر ؟ ... عيـب الغنـى أكثـر لو تعتبـرْ

مِـنْ شـرف الفقـر ومـن فضلـه ... علـى الغنـى إن صـحَّ منك النظـر

أنـك تعصـى اللـه تنـال الغنـى ... ولسـت تعصـى اللـه كـى تفتقـر

وهى حجة فيها نظر ، فكثيرا ما جاء الفقر نتيجة عصيان أوامر اللّه سبحانه ، كما هو الحال إذا كسل الإنسان عن السعى وراء المعاش أو أسرف وبذر أمواله .

وهو فى بعض أشعاره الأخرى يذم الفقر ويقبّحه ويبين عواقبه الوخيمة ، ويدعو إلى الحرص ، ويعلى من شأن المال :

إذا قـلّ مال المـرء قـل حيـاؤه ... وضاقـت عليـه أرضـه وسمـاؤه

* * *

لبسـت صـروف الدهر كهلا وناشئًا ... وجربـت حاليه على العسر واليسر

فلم أرد بعد الديـن خيـرا من الغنـى ... ولم أر بعـد الكفر شـرا مـن الفقـر

كذلك لا يفوته انتقاد مواضعات المجتمع التى ترفع شأن الغنىّ حتى لو كان عاريا عن الفضائل الذاتية ، وتحقر من أمر الفقير مهما تكن مواهبه وسجاياه :

أرى دهرنا فيه عجائب جمة ... إذا استُعْرِضَتْ بالعقل ضل لها العقلُ
أرى كل ذى مال يسود بماله ... وإن كان لا أصلٌ هناك ولا فصلُ
وآخر منسوبا إلى الرأى خاملا ... وأنّوك مخبولاً له الجاه والنُّبْلُ
وما الفضل فى هذا الزمان لأهله ... ولكن ذا المال الكثير له الفضلُ

بل إنه فى البيت التالى يبدو وكأنه هو أيضا قد أُعْدِى وصار ينظر إلى هذا الأمر من نفس الزاوية التى ينظر المجتمع منها إليه :

ولم أر مثل الفقر أوضع للفتى ... ولم أر مثل المال أرفع للنَّذْل

ومن ثم فهو يبخل ويدعو إلى البخل :

بخلتُ وليس البخل منى سجية ... ولكن رأيت الفقر شرَّ سبيل
لَمَوتُ الفتى خير من البخل للفتى ... وللبُخْلُ خير من سؤال بخيل

وهو يبلغ فى ذاك مدًى بعيدا بحيث لا نكاد نصدّق أن هذا كلام الوراق (٢١) :

دع الرياء لمن لجّ الرياء به ... فى الأمر بالبذل ، واذكر ذلة العدم
ومت على الدرهم المنقوش موت فتى ... رأى الـ ـات عليه أكرم الكرم
وعدّ عن ذا وعن هذا وقولهمو : ... « الـ ـقى ، وتفنى لذة النّعم »
لولا غناك لكنت الكلبَ عندهمو ... فإن أنت فجرّب ، واشق بالندم

ولعلّ مرد هذا التناقض ، إن كان الشعر له ، أنه كان ينظم ذلك فى مواقف وحالات نفسية متباينة ، وأنه كمعظم البشر لا يسلم ، مهما كان مستقل الفكر والرأى وحر النفس جوادا ، من الوقوع بين الحين والحين تحت تأثير المواضعات الاجتماعية آونةً والإصغاء إلى صوت غرائز

الحرص والتكثر من المال آونة أخرى .

المهم أن موقف محمود الوراق من هذه المسألة غير ثابت . وعلى هذا فليس من الدقة ما ذُكِر من أنه كان « دائما يقول : ألا تبًّا للغنى الذى يتملك الإنسان ويستعبده ، ومَرْحى بالفقر وعيشة الكفاف التى يعيشها الزهاد غير ملتمسين شيئا فوق ما يسدّ رمقهم ويدفع الحاجة عنهم » (٢٢) ، ولا صحيحًا أنه كان دائمًا ذامًّا للحرص ، كما يفهم من كلام د. على نجيب عطوى فى كتابه « شعر الزهد فى القرنين الثانى والثالث للهجرة » (٢٣) .

أما فى إخوانياته فإننا نراه حريصًا على ألا يفقد أصدقاءه حتى لو كان الذنب ذنبهم هم . فهم إذا قلبوا له عند إثرائهم ظهر المجنّ ذكَّرهم بالمودة القديمة ، وناشدهم الرجوع إلى عهد الصفاء الأول مطمئنا إياهم إلى أنه لن يطمع فى شىء مما فى أيديهم :

وذى ثقة تبدل حين أثرى ... وما شيمى موافقة الثقات
فقلت له : عتبتَ علىَّ ظلما ... فرارا من مئونات العدات
فَعُدْ لمودّتى وعلىَّ نذرٌ : ... سؤالك حاجةً حتى الممات

وهو يدعو إلى شكر صنيع الأصدقاء إذا أحسنوا ، وغفران هفواتهم إذا أساءوا . المهمّ ألا يفقدهم الإنسان :

لا برَّ أعظم من مساعدة ... فاشكر أخاك على مساعدتهْ
وإذا هفا فَأَقِلْهُ هفوته ... حتى يعود أخًا إليك كعادتهْ
فالصفح عن زلل الصديق ، إن ... أعياك ، خير من معاندتهْ

وعلى الصديق ألاَّ يناطح صديقه فى حال الغيظ ، بل يداريه ويتلطف معه ما أمكن تجنبا لسوء العواقب :

دار الصديقَ إذا استشاط تغضُّبا ... فالغيظ يُخْرج كامن الأحقاد
ولربما كان التغضب باعثًا ... لمثالب الآباء والأجداد

لا ، بل إنه ليرجع إلى الصديق الذى كان قد جفاه ، لا لرأى فيه طيب ، بل لأن العَوْد إليه هو أهون الشرين ، إذ هناك من هو أسوأ منه وأردأ . والأمور على أية حال نسبية :

ذممتك أوّلاً حتى إذا ما ... بلوتُ سواك عاد اللوم حمدا
ولم أحمدك من خير ولكن ... رأيت سواك شرًا منك جدًّا
فعدتُ إليك محتملا خليلا ... لأنى لم أجد من ذاك بُدًّا
كمجهود تحامى أكل ميْتٍ ... فلما اضطُرّ عاد إليه شدًّا

والمعنى والصورة فى البيت الأخير ينمّان على أن للضرورة أحكامًا مُرّة .

وعلى الصديق أن يحب الخير لصديقه وألا يحسده على نعمة تصيبه :

لا تحسدن أخاك وار ... ع على الأيام عهدهْ
حسد الصديق صديقه ... وأخاه من سقم المودهْ

وهو يحذر من الانسياق فى المزاح مع الأصدقاء ، فكثيرا ما جرَّ المزاح إلى السباب فالأحقد :

تلقى الفتى يلقى أخاه وخدنه ... فى لحن منطقه بما لا يُغْفَرُ
ويقول : « كنت ممازحا وملاعبا » ... ه هيهات . نارك فى الحشا تتسعّر
ألهيتنا وطفقت تضحك لاهيا ... عد به وفؤاده يتفطر
أو ما علمت ، ومثل جهلك غالب ، ... أن المزاح هو السباب الأكبرُ ؟

وعلى الصديق ألا يحاول التدسس إلى ما فى قلب صديقه ، بل يأخذه بظاهر أمره وعلى علاته ، وإلاّ فقده ، فليس هناك إنسان كامل مبرأ من العيوب :

لا يغلبنّك غالب الحرص ... واعلم بأن الناس فى نقص
والبس أخاك على تصنعه ... فلَرُبّ مفتضح على النصّ
ما كدت أفحص عن أخى ثقة ... إلا ذممت عواقب الفحص

* * *

وخلّ الفحص ما استغنيتَ عنه ... فكم من جالب غيظا بفحصهْ

ومع ذلك ، فإنه يطلب من الصديق ألا يكتم صديقه سرّا ، فإن المصارحة هى أساس الأخوة :

إذا كتم الصديق أخاه سرا ... فما فضل الصديق على العدوّ ؟

وكل ذلك حرصًا منه على الصداقة ، فإن الإخوان كنوز فى ساعة الشدائد :

تكثّرْ من الإخوان ما اسطعت ، إنهم ... كنوز إذا ما استُنْجدوا وظهورُ
وما بكثير ألفُ خلّ وصاحب ... وإن عُدّ منهم واحد لكثيرْ

لكنه قد يضيق صدره إذا هجره صاحبه ولجَّ فى الهجران ولم يفلح معه عتاب ولا تودُّد . بيد أنه فى هذه الحالة يتذرع بضبط النفس . إنه لا يداجى صديقه فيظهر نحو مودة كاذبة ، ولكنه فى ذات الوقت لا يخوض فى عرضه ولا يناله بسوء :

لست ممن يماذق الصاحبَ الـ ... ـودّ إذا أظهر الجفاء صريحا
أنا أنهاه ما استطعت فإن لـ ... ـج أعرتُ الفؤاد يأسًا مريحا
غير أنى على القطيعة لا أُظْـ ... ـهر هُجْرًا ولا أقول قبيحا

ومن هذا نجد أن موقف الوراق من الصداقة والصديق هو موقف مطرد على طول الخطّ (على عكس موقفه من المال والسؤال) ، وهو موقف المحافظة بكل سبيل ممكن على الصديق ، والصفح عن هفواته ، وعدم التفريط فيه .

وهو يقول إنه لا يردّ على الإساءة بمثلها ولا ينتصف ممن ظلمه :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه علىَّ الجرائمُ

ويمضى فيبين فلسفته فى ذلك :

وما الناس إلا واحد من ثلاثة : ... شريف ومشروف ومثلى مقاومُ
فأما الذى فوقى فأعرف فضله ... وألزم فيه الحقَّ ، والحق لازمُ
وأما الذى دونى فإن قال صنتُ عن ... مقالته نفسى وإن لام لائمُ
وأما الذى مثلى فإن زلّ أو هفا ... تفضّلْتُ . إن الفضل للحرّ حاكمُ

* * *

رجعت على السفيه بفضل حلمى ... فكان الحلم عنه له لجاما
وظن بى السفاه فلم يجدنى ... أسافهه ، وقلت له : سلاما
فقام يجرّ رجليه ذليلا ... وقد كسب المذلة والملاما
وفضل الحلْم أبلغ فى سفيه ... وأحرى أن تنال به انتقاما

وهذه الأبيات الأخيرة تكشف لنا أن المسألة عند شاعرنا ليست صفحًا بل هى انتقام ، وإن كان انتقاما من نوع خاص .

وهو يبلغ الذروة فى التهكم بظالمه ومكايدته فى هذه الأبيات التى لم أر له أبياتًا مثلها فى مزج المنطق بالسخرية المقنَّعة :

إنى وهبت لظالمى ظلمى ... وغفرت ذاك له على علمى
ورأيته أسدى إلىّ يدًا ... فأبان منه بجهله حلْمى
رجعتْ إساءته علىّ له ... حسنا فعاد مضاعف الجُرْم
وغدوتُ ذا أجر ومحمدة ... وغدا بكسب الذمّ والإثم
فكأنما الإحسان كان له ... وأنا المسىء إليه فى الحكم
ما زال يظلمنى وأرحمه ... حتى بكيت له من الظلم

وهو يدعو غيره إلى الحذو على مثاله :

اصبر على الظلم ولا تنتصر ... فالظلم مردود على الظالم

وكـلٌ إلى اللـه ظلومًـا ، فمـا ربّـى عـن الظالـم بالنائـم

ورغم ذلك ، فإن هناك أشعارا له تظهره ضيق الصَّدر يردّ على الإساءة بمثلها ، أو على الأقلّ لا يتلقاها بقلب صافٍ ، وبخاصة مع غير الإخوان والأصحاب :

وعائـب عابنـى بشيـب لـم يَعْـدُ لمّـا ألـمَّ وقْتَـهْ
فقلـت للعائبـى بشيبـى : يا عائـب الشيـب ، لا بَلَغْتَـهْ

* * *

ذممتُـك أوّلاً حتـى إذا مـا بلـوتُ سـواك عاد اللوم حمـدا
ولم أحمـدك مـن خيـر ، ولكـن رأيـتُ سواك شـرّا منـك جـدّا

كما أنه قد يستعمل ألفاظا حادّةً ، مثـل :

تمتـع بمالـك قبـل الممـا ت وإلاّ فـلا مـال إن أنـت متّـا
شقيـت بـه ثـم خلّفتَـه لغيـرك . بُعْـدًا وسُحْقًـا ومقتـا !

* * *

كل من حلّ سُرَّ من رى مـن النـا س ومـن قـد يداخـل الأملاكـا
لـو رأى الكلبَ ماثلاً فـى طريـق قـال للكلـب : يا جُعلْتُ فداكـا

* * *

خنازيـر نامـوا عـن المكرمـات فأنّبهـم قَـدْرٌ لـم ينـم
فيـا قبحهـم عندمـا خُوّلـوا ! ويا حسنهـم فـى زوال النعـم !

الصفح عند الوراق إذن ، كما تخبرنا أشعاره ذاتها ، ليس نابعًا عن قلب صاف بقدر ما هو صادر عن رغبة فى الانتقام ، ولكنه كما قلت انتقام من لون خاص ، انتقام هادىء يجنِّن الخصم . وليس الأمر أن الشاعر كان « يلقى (الإساءة) بالعفو والرفق والبر والرحمة مطفئا نار الجهل بالحلم وموجدة الغضب بالصفح » (٢٤) . بالعكس ، إن أسلوبه

يزيد جهل خصمه وموجدته اشتعالا ، وهذا بالضبط ما يريده .

وقد اختصَّ محمود الوراق المرائين فى الدين ببعض أشعاره ، وسخر منهم سخرية موجعة . لقد أشار إلى عبادتهم للمال ، بيد أنه لم يقرر ذلك تقريرا ، بل أفرغه فى صورة مضحكة فاضحة :

أظهـــروا للنـــاس دينـــا ... وعلـــى الدينـــار داروا
ولـــه صامـــوا وصلّـــوْا ... ولـــه حجـــوا وزاروا
لـو بـــدا فـــوق الثريـــا ... ولهـــم ريـــش لطـــاروا

وتهكم بعلمهم بالفقه والحديث وتطويلهم للحاهم ، إذ جعلوا ذلك مصيدة يصطادون بها الوظائف العالية والقرب من السلاطين وخيانة الأمانات التى وُكِلَتْ إليهم :

ركبـــوا المراكـــب واغتـــدوا ... زُمَـــرًا إلـى بـــاب الخليفـــه
وصلـــوا البكـــور إلـــى الـــروا ... ح ليبلغـــوا الرتـــب الشريفـــهْ

...

باعـــوا الأمانـــة بالخيـــا ... نـــة ، واشتـــروا بالأمـــن جيفـــهْ

...

مـــن كـــل ذى أدب ومعـــ ... ـرفـــة وآراء حصيفـــهْ
متفقـــه جمـــع الحديـــ ... ـث إلـى قيـاس أبـى حنيفـهْ
فأتـــاك يصلـــح للقضـــا ... ء بلحيـــة فـــوق الوظيفـــهْ
لـــم ينتفـــع بالعلـــم إذ ... شغلتـــه دنيـــاه الشغوفـــهْ
نســـى الإلـــه ولاذ فـــى الـــ ... ـدنيـــا بأسبـــاب ضعيفـــهْ

وفوَّق لدجاجلة المتصوفة سهمًا مُصْمِيًا:

تصـوَّف فازدهـى بالصـوف جهـلا ... وبعـض النـاس يلبسـه مجانـهْ
يريـك مجانـة ويُجـنّ كِبْـرا ... وليـس الكبـر مـن شكـل المهانـهْ
تصنع كى يقـال لـه : « أميـنٌ » ... وما معنـى التصنـع للأمانـهْ ؟

ولـم يـــرد الإلـة بـه ، ولكـــن أراد بـه الطريـــق إلـى الخيانـــة

كذلـك لم يتـرك الوراق أحوال الدولة الفاسدة ، بل صوَّر بعض جوانبهـا :

كنـــا نفـــرّ مـــن الـــولا ة الجائريـــن إلـــى القُضَـــاة
فـــالآن نحـــن نفـــرُّ مـــن جـــور القضـــاة إلـ الـــولاة

* * *

إذا اعتصـم الوالـى بإغـلاق بابـه وردّ ذوى الحاجـات دون حجابـه
ظننت بـه إحـدى ثلاث . وربمّـا نزعـت بظـن واقـع بصوابـه
... إلخ .

* * *

شـاد الملـوك قصورهـم فتحصنـوا مـن كـل طالـب حاجـة أو راغب
غالـوْا بأبـواب الحديـد لعزّهـا وتنوقـوا فـى قبـح وجـه الحاجب
فـإذا تلطـف للدخـول عليهمـو راج تلقـوه بوعـد كـاذب

وما أبرع قوله : « فتنوَّقوا فى قبح وجه الحاجب » ، الذى يصوِّر الجهد الجهيد الذى كانوا يبذلونه فى البحث عن أقبح الحجّاب وجها لتخويف من يقترب من أبوابهم . وفى العبارة تهكم ، إذ « التنوُّق » هو صعوبة الرضا عـن أى شـىء طلبـا للأفضل الذى لا شائبـة فيـه ، والمطلـوب هنـا هـو « القبح » ، وليـس فـى القبـح فضـل البتـة . فهـو مثل قوله تعالى : « فبشِّرهم بعذاب أليم » .

وقد تكرر فى ديوان الوراق المقابلة بين حزم العقل وحذره وطيش الجهل وغشمه فى اعتساف الأمور دون تبصُّر أو مشاورة . وفى النص التالى نراه يتعجب من أحوال الدنيا ، إذ يفشل العاقل وينجح الجاهل الغشوم :

ليس شيء مما يدبره العا ... قل إلا وفيه شيء يريبهْ
فأخو العقل ممسك يتوقى ... ويخاف الدخول فيما يعيبهْ
وأخو الجهل لا يقدر في الأمـ ... ـر وإن أشكلت عليه ضروبُهْ
راكبٌ ردعه كحاطب ليل ... يخطيء الأمر كله أو يصيبهْ
تتأتى له الأمور على الجهـ ... ـل إذا ما أرادها وتجيبهْ
وأخو العقل بعد ينتج الرأ ... ى فيرضى ، ومرةً يستريبه
وإذا صيَّر البعيد قريبا ... عاد فيه فازداد بعدا قريبُه
فهو الدهرَ شاخصُ القلب فكرا ... ما تقضّى همومه وكروبُهْ

وتفسير ذلك ، في بعض الأحيان على الأقل ، واضح . ففرص الحياة لا تنتظر ، ولابد لمن يريد الإفادة منها أن يسارع باهتبالها في غير تردّد أو خور . والمغامرة في كثير من الأحوال هي سرّ الوصول . أمَّا الذي يظل يقلّب أمره ولا يعزمه فإن الفرصة تفوته . والعاقل من كثرة تعمقه في الأمور يخاف أن يخطيء . أما الجاهل فإن جهله يزيّن له سهولة الأمر فيمضي دون تروٍّ ، وكثيرًا ما يصيب ، وبخاصة أن العقل هنا معناه أيضا التحرج والعمل على توقي الحرام وما لا يليق . وهذا إذا لم يرشَّدْ كان غُلاًّ يمنع صاحبه من إنجاز أي شيء . ومع هذا يعود شاعرنا فيذكر أن الجهل ضارّ يفسد ما يفعله صاحبه :

وما سَبَقَتْ من جاهل قطّ نعمة ... إلى أحد إلاَّ أضرّ بها الجهلُ
وذو اللب إن لم يُعْطِ أحمدت عقله ... وإن هو أعطى زانه القول والفعل

وأنَّه يحرمه نعمة التحسُّب للنوازل ، فإذا ما ضربت ضربتها أعول وانهار ، بخلاف العاقل ، الذي يتوقع الشرّ قبل نزوله ، فإذا نزل كان له مستعدا ، ولأثقاله متحملا :

يمثّل ذو اللبّ في نفسه ... مصائبه قبل أن تنزلا

فـــإن نزلـــت بغتـــة لم ترُعْـه ... لمـا كـــان فـى نفســـه مثّـلا
رأى الهـمّ يفضـــى إلـــى آخـــر ... فصيّـــــــر آخـــــــره أوّلا
وذو الجهـــل يأمـــن أيامـــــه ... وينســـى مصـارع من قـد خـــلا
فـــإن بدهتـــه صـــروف الزمـــا ... ن ببعـــض مصائبـــه أعـــولا
ولـو قـدّم الحـــزم فـى أمـــره ... لعلّمـه الصبـرَ عنـــــد البَـــلا

وأمّا بقية موضوعات الوراق الشعرية فإليك عليها هذه الشواهد :

يا ناظـرا يرنـو بعينـــى راقـــد ... ومشاهـــدًا للأمـر غيـر مُشاهـــد
منّيْـتَ نفســك ضلـــة وأبحتهـــا ... طـرق الرجـاء وهُـنّ غيـر قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب ، وترتجى ... درك الجنـان بهـا وفـوز العابـــد
ونسيـــــت أن اللـه أخـرج آدمًـــا ... منهـا إلـى الدنيـا بذنـب واحـــد

* * *

فيا رب ، قد أحسنتَ بدءًا وعودةً ... إلـىّ فلـم ينهـض بإحسانك الشكرُ
فمـن كـان ذا عـذرٍ لديـك وحُجّـة ... فعذرى إقرارى بأن ليـس لى عـذرُ

* * *

إذا كـان شكـرى نعمـة اللـه نعمـةً ... علـىّ لـه فـى مثلها يجب الشكرُ
فكيـف بلـوغ الشكـــر إلاّ بفضلـه ... وإن طالت الأيـام واتصل العُمْـرُ ؟
إذا ســـرّ بالسّـرّاء عـم سرورهـا ... وإن مـسّ بالضراء أعقبها الأجـرُ
وما منهمـــا إلا لـــه فيـــه نعمـةٌ ... تضيـق بهـا الأوهـام والبـرُّ والبحرُ

* * *

إذا عُـرف الكـذاب بالكـذب لم يكـن ... لدى الناس ذا صدق وإن كان صادقا
ومـن آفـة الكـذاب نسيـان كذبـه ... وتلقـاه ذا حفـظ إذا كـان حادقا

وبعد ، فنحب فى خاتمة المطاف أن نلقى نظرة على السمات الفنية التى يتميز بها شعر محمود الوراق . وأول ما يتميَّز به هو غلبة المنطق عليه . إنه ليس شعر العاطفة والوجدان أو الخيـال ، إذ لا حرارة ولا تصوير فى الغالب ، ولكن مجرد أفكار معروضة عرضا عقليا يغلب عليه

البرود .

والعبارة عند الوراق منسابة ، ولكنها عبارة الناظم الحاذق لا الشاعر المحلّق . ولا يوجد فى كلامه ما يحتاج إلى شرح أو مراجعةٍ أو معاودة قراءة ، بل يكفى أن ينظر الإنسان إليه نظرة واحدةً ليسلمه كل ما فيه . وهذا ناشىء من افتقاره إلى العمق والتعقيد الفنى أو الفكرى .

ورغم أن شعره كله دينى فى الوعظ والحكمة ، فمن النادر أن تجد له اقتباسات من القرآن الكريم بله أن يكون فيه تضمينات من حديث النبى عليه السلام . ولعلَّ المرتين الوحيدتين اللتين تنبهتُ إلى استيحائه القرآن فيهما هما قوله :

تجاهره به عوْدًا وبدءًا وتستخفى بها فى شرّ خلقه

الذى ينظر فيه إلى الآية الكريمة التالية : « يستخْفُون من الناس ولا يَسْتَخْفُون من الله وهو معهم » (٢٥) ، وقوله :

رجعت على السفيه بفضل حلمى فكان الحلم عنه له لجاما
وظن بىَ السفاه فلم يجدنى أسافهه وقلت له : سلاما

إذ أُخذت الشطرة الثانية من قوله تعالى فى وصف المؤمنين المتقين : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلامًا » (٢٦) .

والوراق حريصٌ على إيصال فكرته المجردة من أيسر طريق وأبسطه . ومن ثمَّ لا تكاد تجد فى شعره من المحسنات البديعية شيئًا ، اللهم إلاَّ المقابلة بين المتضادات . ولا أظن ذلك عن وعىٍ منه أو قصد فى الغالب ، بل بسبب طبيعة الموضوعات التى يدور شعره عليها ، فهى تقوم على المقارنة بين الأمانة والخيانة ، أو العقل والجهل ، أو الجود والبخل ،

أو بسبب استعماله للعبارات المحفوظة .

وقد رأينا كيف أنه قادر ، حين يريد ، على السخرية ، وأن لسانه لا يخلو من حدة فى بعض الأحيان .

والمترادفات ملحوظة عنده ، بخاصة فى الشطور الثوانى من الأبيات حيث يحتاج إليها الشعراء ، وبخاصة غير الموهوبين ، لتكملة البيت والوصول إلى القافية . وهذه أمثلة عليها :

ما عـــذر مـن يعمـــر بنيانـــه وعمـــره مستهـــدم يخـــرب ؟

* * *

شـــاد الملوك قصورهـم فتحصنـــوا من كـل طالـب حاجـة أو راغـب

فهـو الدهرَ شاخـص القلـب فكـرا مـا تقضـــى همومـــه وكروبـــه

* * *

غيـر أنـى علـى القطيعـــة لا أُظْهِـ ـــر هُجْـــرًا ولا أقـــول قبيحـا

* * *

فكيـف بلـوغ الشكـر إلا بفضلـه وان طالت الأيام واتصـل العمر ؟

* * *

ويقول : كنـت ممازحًـا وملاعبـــا هيهات . نارك فى الحشا تتسعّرُ

* * *

إن اللبيـــب إذا تفـــرق أمـــره فتـق الأمـــور مناظـرا ومشـاورا

* * *

اسأل العُرْفَ ، إن سألـــت ، كريما لم يـزل يعـرف الغنـى واليســارا

* * *

لا تحمـــدن أخا حرص على سعة وانظر إليـه بعيـن المقـت النقالـى

* * *

فـإذا نبـا بـي منـزل لا يُرْتَضَـى جاوزتـه واخترتُ منـه منـزلا

* * *

وكـان ما أنفقتُ فـي أوجـه البـ ـرّ بمعـروف وإحسـان

* * *

ولئـن أصابتـك الخطـو بُ بكـل مكـروه وشيـن

الهوامش

١- انظر « تاريخ بغداد » / دار الكتاب العربى / بيروت / ١٣ / ٨٧ .

٢- انظر د . محمد زهدى يكن / ديوان محمود بن الحسن الوراق البغدادى / دار يكن للنشر / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / ٢١ - ٢٣ .

٣- انظر ابن المعتز / طبقات الشعراء / تحقيق عبد الستار أحمد فراج / دار المعارف / القاهرة / ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م / ٣٦٧ - ٣٦٨ .

٤- نفس المرجع والموضع .

٥- هو المعتصم أو المتوكل .

٦- انظر ابن خلكان / وفيات الأعيان / بيروت / ٧ / ٥٦ ، وابن عبد ربه / العقد الفريد / لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة / ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م / ٦ / ٤٠٤ - ٤٠٥ .

٧- انظر د . محمد مصطفى هدارة / دراسات فى الشعر العربى - تحليل لظواهر أدبية وشعراء / دار المعرفة / ١٩٨٢ / ٢ / ٧٠ .

٨- انظر ابن المعتز / طبقات الشعراء / ٣٧٩ - ٣٨٠ .

٩- دراسات فى الشعر العربى / ٢ / ٧٤ .

١٠- انظر « وفيات الأعيان » / ١ / ٤٢٥ .

١١- طبقات الشعراء / ٣٦٧ .

١٢- انظر على الترتيب كتبهم : سمط اللآلى فى شرح أمالى القالى / عليكره / ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م / ١ / ٣٢٨ ، وفوات الوفيات / المطبعة المنيرية / بولاق / ١٢٩٩ هـ - ١٨٨١ م / ٢ / ٢٨٥ ، وطبقات الشعراء / ٣٦٨ .

١٣- انظر د . محمد زهدى يكن / ديوان محمود بن الحسن الوراق البغدادى / ٩٥ / هامش ١ ، ومحمد جبار المعيبد / شعراء بصريون من القرن الثالث الهجرى - دراسة ونصوص - العطوى ، الجاحظ ، الحمدوى / مطبعة الإرشاد / بغداد / ١٩٧٧ م / ٦٣ .

١٤- انظر ص / ٧٥ ، ٩٩ ، ٣٨ ، ٤٧ من الديوان على الترتيب .

١٥- ما أروع وصف الشاعر للهوى بأنه يُحيِّى الشباب ! إن الشباب فعلاً بدون هذه

الحيوية الدافقة فى عروقه والمشاعر التى يحسها الشاب فى حلقه كقطعة السكر المركز ليس شبابا فى الحقيقة ، بل ليس حياة . إن حياة خاملة الإحساس ، وبخاصة وقت الشباب ، إنما هى فى الحقيقة موت مقنع .

١٦- لعلنا لم ننس بعد ما وصف به محمود الوراق هوى الشباب بأنه يُحْيِى . وها هو ذا هنا يصف الشيب بأنه موت قبل الموت .

١٧- يلاحظ فى الشطرة الأخيرة من البيت الثانى ما سبق أن لاحظته قبلاً من أن محمودا الوراق غير متسامح تمامًا : فها هو ذا يعى لؤم الآخرين ، وهو حين يعطيهم لا يعطى عن سماحة نفس بل عن رغبة فى تجنيب نفسه شرّ لؤمهم . فدافعه هنا ذاتىّ . ولا ضير فى هذا بطبيعة الحال ، ولكنه ليس هو الدافع الأمثل .

١٨- « سُرَّ من رأى » كانت عاصمة الخلافة العباسية بعض الوقت .

١٩- وقد كان ورّاقا كما هو معروف .

٢٠- انظر فى جبرية الرزق عند الوراق د . محمد مصطفى هدارة / دراسات فى الشعر العربى / ٢ / ٨٢ .

٢١- فى نسبة الأبيات التالية اختلاف : فبعضهم يجعلها لشاعرنا ، وبعضهم يعزوها لأبى عبدالرحمن العطوى ، وبعض ثالث لأبى على الحمدوى . انظر الديوان / ٩٥ / هـ ١ .

٢٢- د . شوقى ضيف / العصر العباسى الأول / دار المعارف / ط ٦ / ٤١١ .

٢٣- نشر المكتب الإسلامى / ط ١ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ٢٤٣ .

٢٤- العصر العباسى الأول / ٤١٣ .

٢٥- النساء / ١٠٨ .

٢٦- الفرقان / ٦٣ .

ديك الجن

هو عبد السلام بن رغبان ، وكنيته أبو محمد ، ولقبه ديك الجنّ . وفى سبب تلقيبه بهذا اللقب خلاف : فبعضهم يقول إن عينيه كانتا تشبهان عينى الديك ، وبعضهم يُرْجع ذلك إلى أنه نظم قصيدة هزلية فى رثاء ديك ذبحه صاحبه وعمل وليمة دعا الشاعر إليها ، وبعضهم يرى أنه قد سُمِّى على اسم دويبة « ديك الجن » ، التى توجد فى البساتين والتى كان الناس يلقونها فى الخمر حتى تموت ، ثم تترك فى محارة وتُدْفن فى وسط الدار لمنع الأرضة من غشيانها . ووجه الشبه بينه وبين تلك الدويبة ، فى رأى هؤلاء على ما يظهر ، هو أن ديك الجن كان كثير الخروج إلى البساتين ومغرمًا بمعاقرة الخمر .

وديك الجن من أهل حمص ، ويقولون إنه لم يبرح الشام طول حياته . وقد مرَّ به فى حمص أبو نواس فى طريقه إلى مصر لمدح واليها الخصيب بن عبد الحميد . وكذلك مرَّ به دعبل الخزاعى . أما أبو تمام فقد كان ديك الجن يشجّعه ويأخذ بيده فى مبتدإ أمره .

ولديك الجن قصة مأساوية مع زوجته ، إذ كان يحب فتاة نصرانية اسمها ورد ، ثم تزوجها بعد أن أدخلها الإسلام . ولكن بعض أقاربه تآمروا على إيهامه أنها تخونه فى غيابه ، فعاد إلى بيته فوجد ما أرابه مما كانوا قد موهوا به عليه ، فقتلها بالسيف . ثم سرعان ما انكشفت الحقيقة ، ولكن بعد فوات الأوان ، فظل النادم يلدغ قلبه طويلا على تلك الزوجة التى كان يحبها حبا شديدا ، ونظم فى ذلك أشعارا مختلفة .

وقد ولد ديك الجن فى ١٦١ هـ ، ومات فى ٢٥٣ هـ أو بعدها بعام (١) .

ويقع شعره فى ديوانه الذى حققه وكمّله د. أحمد مطلوب وعبد الله الجبورى فى أقل قليلا من ١٧٠ صفحة بكتابة كل بيت تقريبا على سطرين ومع التخريجات والشروح والتعليقات . والقصائد فى الديوان غير قليلة ، إلا أن عدد المقطوعات وما دونها أكبر (٢) . وفى شعره أبيات تُنْسَب إليه وتُنْسَب لغيره سوف نعرض لها بالمناقشة فى حينها .

وكان ديك الجن متشيعا . وعن تشيعه يقول أبو الفرج الأصفهانى إنه « كان يتشيع تشيعا حسنا . وله مراث كثيرة فى الحسين بن على عليهما السلام ، ومنها قوله :

يا عيـن ، لا للقضـا ولا الكُتُـب بُكَـا الرزايـا سـوى بُكَـا الطَّرَب

وهى مشهورة عند الخاصّ والعام ، ويُنَاح بها . وله عدة أشعار فى هذا المعنى » (٣) ، وهـو نفـس مـا قاله ابن خلكان تقريبًا ، إذ كتب فى « وفيات الأعيان » أنه « كان يتشيع تشيعا حسنا ، وله مراثٍ فى الحسين رضى الله عنه » (٤) . وفـى بروكلمـان كذلـك أنـه « كان يتشيع تشيعا حسنا معتدلاً ، فأنشأ عدة مراثٍ للحسين » (٥) . وهو نفس ما يقوله د. عمر فروخ (٦) .

أمَّا د. شوقى ضيف فإنه ، وإن أورد ما قاله أبو الفرج فيـه من أنه « كان يتشيع تشيعا حسنا ... إلخ » ، قد عاد بعد ذلك بثلاثة أسطر فوصف قصيدته فى تعزية جعفر بن على الهاشمى عن أخيه أحمد (أو عن زوجته) بأنها « تصوّر غلوه فى التشيع ، إذ نراه يتمثله وكأنه إمام كبير

من أئمة الشيعة ، ومن ثم يخلع عليه بعض صفاتهم القدسية فى رأى شيعتهم من مثل قوله :

نحن نعزّيك ، ومنك الهدى ... مستخرجٌ والنور مستقبلُ
نقول بالعقل ، وأنتَ الذى ... نأوى إليه وبه نعقلُ
وأنت علام غيوب النُّهى (٧) ... يومًا إذا نُسْألُ أو نُسْألُ
نحن فداء لك من أمة ... والأرض والآخر والأوّلُ

فهو يجعله مصدر الهدى والنور ومعقل العقل وعلام الغيوب ، وكأنه يرى فيه ما يراه الشيعة الغالون فى أئمتهم » (٨) .

ويكتفى جرجى زيدان بالقول بتشيعه غير محدّد لون هذا التشيع ، إذ ذكر أنه « كان يتشيع لآل البيت » ، مضيفا أنه « كان له مراث كثيرة فى الحسين بن على ... » إلى آخر ما جاء فى « الأغانى » (٩) . ومثل زيدان فى الاكتفاء بذكر تشيع ديك الجن من غير حكم على هذا التشيع د. مصطفى الشكعة ، الذى يقول إنه « كان متشيعا مستمسكا بحب آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . وله فى مدحهم ورثاء حالهم والبكاء على الحسين قصائد كثيرة لعل أشهرها تلك التى يقول فيها :

يا عين ، لا للقضا ولا الكُتُب ... بُكا الرزايا سوى بُكا الطرب » (١٠)

كما اقتصر د. أحمد مطلوب وعبد الله الجبورى محققا ديوانه على إيراد ما قاله ابن خلكان من أنه « كان يتشيّع تشيعا حسنا » (١١) .

وسبيلنا نحن فى دراسة هذه النقطة أن نتصفح ديوان الشاعر ثم نصدر حكمنا بعد هذا التصفح موثقين ما نقول بالاستشهاد.

والملاحظ أوّلاً أن أكبر قدر من الشعر فى ديوان ديك الجن يدور حول موضوع واحد هو أهل البيت ، ما بين ذكر لمناقب على كرم الله وجهه

وحديث عن حقه فى الخلافة وادعاء افتئات الصحابة عليه ، وثناء على الزهراء رضى الله عنها ، ورثاء لابنها الشهيد فى كربلاء ، ومديح لآل البيت بعامة ولأحمد بن على الهاشمى (معاصره المقيم بسلمية فى الشام) بوجه خاص ، وتعزية لأخيه جعفر بن على الهاشمى فى زوجته (أو فى أحمد هذا) .

وثانيًا فإن أطول شعر له هو فى هذا الموضوع أيضا ، إذ تبلغ قصيدته فى على بن أبى طالب ، وهى أولى قصائده فى الديوان ، خمسين بيتا . وليست له قصيدة فى أى موضوع آخر فى عدد أبياتها ولا ما يقارب ذلك . ويبدو أنه كانت له أرجوزة طويلة فى الرسول عليه السلام وآل بيته لم يبق منها إلا عشرون بيتا (١٢) .

وكما أشرنا فهو فى هذا الشعر يشيد بمناقب أهل البيت فى الدنيا والآخرة ويفضلهم على العالمين :

مقابر تحتها منابر من ... علم وحلم ومنظر عجب
من البهاليل آل فاطمة ... أهل المعالى والسادة النُّجُب

...

يا صفوة الله فى خلائقه ... وأكرم الأعجمين والعرب
أنتم بدور الهدى وأنجمه ... ودوحة المكرمات والنسب
وساسة الحوض يوم لا نهلٌ ... لموردیکم موارد العطب

* * *

يا سيد الأوصياء والعالىَ الحـ ... ـجة والمرتضَى وذا الرتب

...

فربما تقعَص الكماة بأقدا ... مك قعصا يُجْثي على الرُّكَب
ورُبَّ مُقْوَرَّة ململمة ... فى عارض للحمام منسكب

فلَلْـــت أرجامهـــا وجحفلهـــا ... بـــذى صقـــال كوامض الشُّهُـــب
أو أسمـر الصـــدر أصفـر أزرق الرأ ... س وإن كـــان أحمـــــر الحَلَـــب

* * *

الحوض حوضهمو ، والجَدُّ جدُّهمو ... وعنـد ربهمـو فـى خلقـه غِيَـرُ

* * *

من ذا الـذى كلمتـه البيـد والشجر ... وسلـم التُّـرْبُ إذ نـاداه والحَجَـرُ
حتـى إذا أبصر الأحيـاء مـن يَمَـنٍ ... برهانـه آمنـوا من بعد ما كفروا ؟
أم من حـوى قصبـات السبـق دونهمو ... يـوم القَلِيـبِ وفـى أعناقهـم زَوَرُ ؟
أم من غدا داحيا باب القموص لهم ... وفاتحا خيبرا من بعد ما كُسِرُوا ؟

* * *

شرفـــى محبـــــة معشـــــر ... شَرُفـوا بســورة « هـل أتَـى »
وولاى فيمـــــن فتكـــــه ... لـذوى الضلالـــة أخبتـــا
وإذا تكلـــم فـــى الهـــدى ... حـــج الغـــوىّ وأسكتـــا
فلفتكـــــه ولهديـــــه ... سمّـــاه ذو العـــرش « الفتـى »
ثَبْـــت إذا قدمـــا ســـوا ... ه فـــى المهـــاوى زلّتـــا
لـــم يعبـــد الأصنـــام قـــط ... ولا أراب ولا عتـــــا
غرســـت يـــد البـــارى لـــه ... ربـــع الرشـــاد فأنبتـــا
وأقامـــه صنـــوا لأحمـــ ... ـد دوحـــه لـــن يُنْحتَـــا
صنـــوان : هـــذا منـــذر ... وافـــى ، وذا هـــاد أتـــى
يهـــدى لمـــا أوفـــى بـــه ... حكـــمُ الكتـــاب وأثبتـــا
فهـــو القريـــن لـــه ، وما افـ ... ـترقـا بصيـــف أو شتـــا

* * *

أنتـم أدلاء الهـــدى ، وبكـــم ... قـد سيـرَ فـى بـرٍّ وفـى بَحْـر
ودعائـــمُ التقـــوى وقادتهـــا ... للفـــوز يـــوم الحشـــر والنشـــر
والعارفـو سيمـا الوجـوه علـى الـ ... أعـــراف معرفـــة بلا نُكْـــر
ومُقاســـم النيـــران أنـــت لمـــن ... أخـــذوا العهـــود بعالم الـــذرّ

فتقول : « يا نار ، اتركى لى ذا ولذا خذى » ، فتدين للأمر

* * *

إن الرسول لم يزل يقولُ والخير ما قال به الرسولُ :
إنك منى يا علىُّ الأبى بحيث من موساه هارون النبى
لكنه ليس نبىٌّ بعدى فأنت خير العالمين عندى
وأنت منى الزرُّ من قميصى وما لمن عاداك من محيص
وأنت لى أخ ، وأنت الصِّهْرُ زوّجك الذى إليه الأمرُ

* * *

وقد حبانى منكم السِّبْطَيْن هما بحلى العرس كالقُرْطَيْن
فالحمد لله على ما قد حَبَا لخمسة الأشباح أصحاب العَبَا
هُمو لمن والاهمو أمانُ إذ كان فيهم يكمل الايمانُ
وهم يَدُعُّون الذى لهم قَلَى للنار دعًّا حيث كان المصطلَى
وهم هداة الخلق للرشاد والفوز فى المبدإ والمعاد

كما يؤكد حقهم دون غيرهم فى الخلافة :

من ثم أوصى به (١٣) نبيكمو نصًّا فأبدى (١٤) عداوة الكَلِب

* * *

يا سيد الأوصياء والعالىَ الحجَّة والمرتَضَى وذا الرُّتَب

* * *

أليس قام رسول الله يخطبهم وقال : مولاكمو ذا أيها البَشَرُ ؟
أضَبْع غير علىّ كان رافعَه محمد الخير أم لا تعقل الحُمُرُ ؟
دعوا التخبط فى عشواء مظلمة لم يَبْدُ لا كوكب فيها ولا قمر
الحقّ أبلج ، والأعلام واضحةٌ لو آمنت أنفس الشانين أو نظروا

* * *

طلب النبى صحيفة لهمو يُمْلى ليَأْمَنَهُمْ من الغَدْرِ
فأبوا عليه وقال قائلهم : قوموا بنا . قد فاه بالهُجْر

ومضوا إلى عقد الخلاف ، وما حضروه إلا داخل القَبْر
جعلوك رابعهم أبا حسن ظلموا وربّ الشفع والوتر
وعلى الخلافة سابقوك وما سبقوك في أُحُد ولا بدْر

لكنه لا يقف عند هذا الحدّ ، بل يتعداه إلى اتهام أبى بكر وعمر رضى الله عنهما باغتصاب حق على كرم الله وجهه وظُلْمه ، بل وتحقيرهما وسبهما :

حتى إذا أودع النبى شَجّا قَيّدَ لهاة القَصَاقِص الحَرِب
مع بعيدين (١٥) أحرزا نسبا مَعْ بُعْد دارٍ عن ذلك النَّسَب
ما كان تَيْمٌ (١٦) لهاشمٍ بأخ ولا عدىٌّ (١٧) لأحمدٍ بأب
قاما بدعوى فى الظُّلم غالبةٍ وحجّة جَزْلةٍ من الكذِب
من ثم أوصى به نبيكمو نصًّا فأبدى (١٨) عداوة الكلب

* * *

ما لى فراغ إلى عثمان أندبه ولا شجانى أبو بكر ولا عُمَرُ
لكم عدىٌّ وتيمٌ ، بل أزيدكمو أميةٌ ، ولبنا الأعلامُ والغُرَرُ

...

أنسى عليًا وتفنيد الغواة له وفى غدٍ يُعْرَف الأفّاك والأَشِرُ

* * *

إن بُحْتُ يوما طُلَّ فيه دمى ولئن كتمتُ يضيق به صدرى
مما جناه على أبى حسن عمرٌ وصاحبه أبو بكر
طلب النبى صحيفة لهمو يُمْلى ليأمنهم من الغدر
فأبوا عليه وقال قائلهم : قوموا بنا . قد فاه بالهُجْر
ومضوا إلى عقد الخلاف ، وما حضروه إلا داخل القبر
جعلوك رابعهم أبا حسن ظلموا ورب الشفع و وتر

وهو يبكيهم ويتحسَّر عليهم حسرةً مؤلمة :

يا عين ، لا للغضا ولا الكُثُب بُكَا الزايا سوى بُكَا الطُّرَب

جودى وجدّى بملء جفنك ، ثـ ـمّ احتفلى بالدموع وانسكبى
يا عين ، فى كربلا مقابرُ قد تركن قلبى مقابر الكُرَبِ

...

يا طول حزنى ولوعتى وتبارى ـحى ، ويا حسرتى ، ويا كُرَبى !

...

لهفى لذاك الرواء أم ذلك الـ ـرأ ى وتلك الأنباء والخطبِ

* * *

ما أنتِ منى ولا ربعاكِ لى وَطَرُ الهمُّ أملك بى والشوق والفِكَرُ
وراعها أن دمعًا فاض منتشرا لا أو ترى كَبِدى للحزن تنتثرُ

...

أبكيكمو يا بنى التقوى وأعْولكم وأشرب الصَّبْرَ وهو الصابُ والصَّبِرُ

* * *

واحسرتا مر ـ وسكوته ! واحسرتا !

* * *

أصبحتُ جم بلابل الصَّدْر وأبيتُ منطويا على الجَمْرِ

* * *

ولقد تأملتُ القبور وأهلها فتشتتت فِكَرى بها تشتيتا

* * *

أصبحتُ ملقّى فى الفراش سقيما أجد النسيم من السقام سَمُوما
ماء من العبرات حرّى أرضُه لو ـا من مطر لكان هزيما
وبلابلٌ لو أنهن مآكلٌ لم تخطىء الغسلين والزقّوما
وكرى يروّعنى سَرَى لو أنه ظلٌ لكان الحرّ واليحموما
مرت بقلبى ذكرياتُ بنى الهدى فسبتْ منها الرَّوْح والتهويما

وإلى جانب ما مرَّ هناك الأبيات الثلاثة التى قالها فى جعفر بن على الهاشمى عند تعزيته فى زوجته (أو أخيه) :

وأنـت عـلاَّم غيـوب النُّهـا (١٩) يومًـا إذا نَسْـأَلُ أو نُسْـأَلُ
نحـن نعزّيـك ومنـك الهـدى مستخـرَجٌ والنـور مُسْتَقْبَـلُ
نقـول بالعقـل وأنـت الـذى نـأوى إليـه وبـه نعقـلُ

والتى علق عليها د. شوقى ضيف بأنها « تصوّر غلوه فى التشيع ، إذ نراه يتمثله (أى يتمثل جعفر بن على الهاشمى) وكأنه إمام كبير من أئمة الشيعة ، ومن ثم يخلع عليه بعض صفاتهم القدسية فى رأى شيعتهم ... فهو يجعله مصدر الهدى والنور ومعقل العقل وعلام الغيوب ، وكأنه يرى فيه ما يراه الشيعة الغالون فى أئمتهم » (٢٠) .

فأمَّا بكاء ديك الجن بدموع غزار وتحسّره الأليم على أهل البيت وما أصابهم من تقتيل وترويع على أيدى خصومهم فهو شعور نبيل لا يستطيع أحد أن يلومه عليه . وكذلك من حقه وحق أى إنسان أن يؤمن بأن عليا كرم الله وجهه أحقُّ من غيره بالخلافة ، فهذه مجرد وجهة نظر . ولكن ليس من حسن الأدب ولا ممَّا تَقرُّ به عين الإسلام أن يتهجم أحد على صحابيين جليلين لهما أيادٍ كريمة بيضاء فى تاريخ الإسلام ، مثل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . وإن عليا نفسه ، كرم الله وجهه ، لم يُؤْثر عنه أنه خاض فى سيرتهما أو مسَّهما لسانه بسوء ، ولا كان يطيب نفسًا لو سمع هذه السفاهات التى طاش بها مِقْوَلُ الشاعر فى حقهما من وصفهما بالكذب والغدر والظلم والكَلَب والغواية ، وسبِّهما بأنهما ومن لم يقل من الصحابة بخلافة علىّ للرسول عليه الصلاة والسلام خمير . إن هذا سوء أدبٍ وضلال مبين ، وتجاوز من الشاعر لحدوده ، إذ زج بنفسه بين قومٍ أكفاء فى النبل والشرف والعظمة والدين لا هو منهم فى العير ولا فى

النفير . هلاَّ نظر إلى نفسه وعكوفه على الخمر وعَدْوه يلهث وراء الغلمان فعرف قدره وخرس ؟ كذلك قد سفه الشاعر نفسه عندما قال عن الشيخين إنهما لا يستحقان مصاهرة الرسول عليه السلام . فهل نسى أن النبى عليه السلام هو الذى اختار ابنتيهما زوجتين له ؟

ترى كيف يوصف تشيعه بعد ذلك بالحسن والاعتدال ؟ أم ترى من وصفوا تشيعه بهذا قصدوا أن تهجمه على الشيخين الجليلين قليل بالقياس إلى غيره ؟ قد يكون تهجمه عليهما أقل من تهجم غيره ، لكنه فى ذاته ليس بالقليل .

أما الأبيات الثلاثة التى مدح بها جعفر بن على الهاشمى فقد نستطيع أن نفسّر البيتين الأخيرين منها بما يمحو عنهما وصمة الغلوّ فنقول مثلاً إن « الهدى » و « النور » فى أولهما هما الهدى والنور بالمعنى العام ، وليسا مصطلحين مذهبيين ، ويكون مقصده أن جعفرًا هذا ، بوصفه واحدا من آل البيت ، يأخذ بأيدى الناس إلى الهدى وينير طريقهم نحوه . وكذلك يمكن أن يكون معنى البيت الأخير « أننا وإن نصحنا لك بالاستمساك بالعقل ، وعدم الانسياق مع العاطفة والاستسلام للآلام ، فإن هذا لا ينسينا أننا نستمد منك أنت العقل والصبر » . قد نستطيع أن نفهم البيتين على هذا النحو . ولكن يبدو لى أن من الصَّعب تجاهل ما فى البيت الأول من خلع لإحدى الصفات الإلهية ، وهى علم الغيوب ، على واحد من البشر . إن هذا غلوٌّ سخيف لا يسوِّغه آل البيت البتة . ومَنْ جعفر هذا بإزاء النبى عليه السلام وهو الذى أمره اللَّه سبحانه وتعالى أن « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم

الغيب » (٢١) ، « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسَّنِيَ السوء » (٢٢) ؟

لكن الإنصاف يقتضينا أن نقول أيضًا إن مثل هذا الغلوّ لم يكن مقصورًا على شيعة آل البيت ، بل كان كثير من مدّاحى ذلك العصر ينعتون الخلفاء وغيرهم بما لا يقره الدين ولا العقل ، كقول أبى نواس فى محمد الأمين ، وهو من نعرف مجونه وتهتكه :

يا ناق ، لا تسأمى أو تَبْلُغى مَلِكًا ... تقبيلُ راحتِه والركنِ سيَّانِ

وقول أبى العتاهية فى المهدى :

ولو لم تطعه بنات القلوب ... لما قبل الله أعمالَها

وقول سلم الخاسر فى الهادى :

وجدناك فى كتب الأولين ... مُحْيِى النفوس وقتَّالَها

لقد جعل الله فى راحتيك ... حياة النفوس وآجالها

وقول أبى الشيص فى أبى دلف :

أنت الذى تُنْزل الأيامَ منزلها ... وتنقل الدهر من حال إلى حال

وما مددتَ مدى طرفٍ إلى أحدٍ ... إلا قضيتَ بأرزاقٍ وآجال

وقول على بن الجهم فى المتوكّل :

أنت ميثاقنا الذى أخذ الله ... ـه علينا وعهده المسؤولُ

بك تزكو الصلاة والصوم والحـ ... ـج ويزكو التسبيح والتهليلُ

وقوله أيضا فيه :

ولن يُقْبَل الإيمانُ إلا بحبكم ... وهل يقبل الله الصلاةَ بلا طُهْر ؟

وهذه مجرد أمثلة عارضة .

هذا ، وقد اتهم صاحبُ « الأغانى » شاعرنا بالشعوبية ، فقال عنه

إنه « كان شديد التشعُّب والعصبية على العرب ، يقول : ما للعرب علينا فضل . جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وأسلمْنا كما أسلموا . ومن قتل منهم رجلا منا قُتِل به . ولم نجد الله عز وجل فضلهم علينا إذ جَمَعَنا الدين » (٢٣) . وقد جاء ابن خلكان فأوجز ما قال أبو الفرج قائلا إنه « كان يفخر على العرب ، يقول : ما لهم فضل علينا . أسلموا وأسلمنا » (٢٤) .

أما قول بروكلمان عنه إنه « كان يتعصب لأهل الشام على العرب ذاهبا مذهب الشعوبية » (٢٥) فلا ندرى من أين أتى بالجزء الأول منه ، وهو تعصبه لأهل الشام . ولعلَّه فهمه خطأً من قول أبى الفرج عنه إنه كان يذهب فى شعره مذهب أبى تمام والشاميين من شعراء الدولة العباسية » (٢٦) . وعلى أية حال ، فلسنا نعرف أنه كان لأهل الشام عصبية على العرب ، بل المعروف أن أهل الشام كانوا مع بنى أمية ، وكانت دولة هؤلاء تتعصب للعرب ، بخلاف أهل خراسان ، الذين ناصروا العباسيين تعصّبا منهم على العرب . أمّا الجزء الثانى من كلامه ، وهو أن ديك الجن كان يذهب مذهب الشعوبية ، فمن الواضح أنه إنما يتابع فيه أبا الفرج وابن خلكان ، إذ إنه لم يورد دليلاً على دعواه .

وقد اتهمه بالشعوبية أيضا د. أحمد أمين ناقلاً عن صاحب « الأغانى » ما قاله فيه مما أوردناه آنفا (٢٧) . كذلك اتهمه بالشعوبية ، اعتمادًا على ابن خلكان ، د. محمد نبيه حجاب ، الذى يقرُّ مع ذلك بأنه لم يجد له ولا بيتا واحدًا ينم على هذه التهمة (٢٨) . ويؤكد د. شوقى ضيف اتهام ديك الجن بالشعوبية ، واصفا إياها بأنها « شعوبية

شديدة على العرب » . ومع ذلك نراه يذكر أنه « لم يبق من شعوبيته إلا آثار قليلة كقوله فى شعر له يخاطب به بعض أجواد العرب :

إن كان عرفك مذخورًا لذى نَسَب فاضمم يديك ، فإنى لست بالعربى
إنى امرؤ بازل فى ذروتَىْ شرف لقيصر ولكسرى محتدى وأبى » (٢٩)

هذا ما قاله عن شعوبيته بعض من كتبوا عنه قديما وحديثا ، فهل فى كلامه وشعره ما يدل على ذلك ؟

فأما قوله عن العرب إنه ليس لهم على الأعاجم فضل ، لانتماء الأمتين من جهة الدم إلى إبراهيم عليه السلام ومن جهة الدين إلى الإسلام ، وإن دم الأعجمى ليعدل دم العربى ، فلعمرى ليس فيه ما يدل على تعصُّب على العرب أو احتقار لهم ، بل الشاعر يدافع عن نفسه وبنى جنسه مردّدا فى ذلك مبدأً من مبادىء الإسلام العظيمة ، وهو أن البشر سواسية كأسنان المشط فى أصل الخلقة ، فلا فضل لعربى على أعجمى ولا لأسمر على أبيض من جهة الدم والعرق والنسب ، بل الفضل بين الناس كسبىّ يعود إلى ما يبذلونه من جهد لإحراز التقوى وإنجاز صالح الأعمال . أمَّا من يرى أن تطلع الأعاجم إلى التساوى بالعرب هو عصبية على العروبة فلهم دينهم ولنا ديننا . فنحن رغم عروبتنا لا نرى للعروبة تلك الأهمية التى يخلعها عليها بعض من يبدو أنهم لا يزالون يدينون بدين الجاهلية وعنجهيتها وكراهيتها لغير العرب واحتقارها إياهم . إن هذه النظرة لتُصادم الإسلام فى قيمة من أنبل قيمه وأزكاها ، وهى التأكيد على التساوى بين الأجناس والدماء ، فقد كرَّم الله سبحانه بنى آدم جميعًا دون تفرقة بين عرب وغير عرب .

ولقد كانت بعض القبائل العربية ترى لنفسها امتيازا على غيرها من القبائل ، فكانت لا تسوّى بين دماء من يُقْتَلُ من أبنائها ودماء من يقتلهم أفرادها من أبناء القبائل الأخرى ، فجاء القرآن الكريم وجعل الدماء واحدةً لا فضل لقبيلة على أخرى (٣٠) . فهل كان يريد العربُ ، بعد أن قضى الإسلام على هذه التفرقة بين بعضهم وبعض ، أن ينقلوها من داخل الجزيرة إلى المجال العالمى فيفرقوا بين دمائهم ودماء الأعاجم ؟ ألا إن هذا لإجحاف صراح !

أما شعره فإننا نجد فى قصيدة منه كاملة فخرًا بولائه فى قبيلة « كلب » وبطولات هذه القبيلة فى الذبّ عن الإسلام وأهل البيت . كما نجد فى أول أبياتها وصفًا للعرب بأنهم « غُرّ » ، على حين ذكر الأعاجم فى البيت ذاته دون أن [illegible] :

كَلْبٌ قبيلى ، وكلبٌ خير من ولدت حواءُ من عرب غُرٍّ ومن عَجَم

كذلك نسمعه فى خمرية له يقول إنه ظل يشرب كأسا واثنتين وخمسًا وستا :

حتى توهمت نوشروان فى خولا وخلتُ أن نديمى عاشر الخُلَفا

هو قول له دلالته ، إذ على حين يجعل كسرى خادمًا له فإن وهْمه فى حالة الخلفاء لم يزد على أن خيَّل إليه أن نديمه عاشرهم . وليس هذا كلام شعوبيين ولا فيه نكهته .

أما ما أشار إليه محققا ديوانه من قوله :

إنى امرؤ فى ذرونَىْ شَرَف لا صر ولكسرى محتدى وأبى

. إلخ ، ممَّا يريان أنه قد يكون صورة من شعوبيته التى اتهم

بها (٣١) ، فهو افتخار بأعجميته كما كان العرب يفتخرون بعروبتهم . فلماذا ندين ذلك ونُسيغ هذا ؟ أليس عملنا ذاك كيلا بمكيالين ؟

هذا من الناحية النظرية . لكن إذا نظرنا إلى الظروف التى قيلت فيها القصيدة التى منها هذا البيت تبين لنا أنَّ ديك الجن كان يعانى من ضائقة مالية ألجأته إلى ذلك الممدوح الذى مدحه بتلك القصيدة . ويبدو أن ذلك الممدوح كان أعجميا مثله ، إذ نراه يركز على هذا النسب العام الذى يقول إنه يربط بينهما إن فاتتهما القرابة الأسرية :

إنـــى ببابـــك لا ودّى يقرّبنـــى ... ولا أبـى شافـع عنـدى ولا نسبى
إن كـان عرفك مذخورا لذى سبب ... فاضمم يديك على حُرّ أخـى سببِ
لو كنتُ وافقتـه يومـا علـى نسب ... فاضمم يديك ، فإنى لست بالعربى
إنـــى امرؤ بـــازل فى ذروتَىْ شـرف ... لقيصر ولكسرى محتدى وأبى (٣٢)

وأيا ما يكن الأمر فليس فى القصيدة أى هجوم على العرب أو افتئات عليهم ، بل بالعكس نرى شاعرنا يفتخر فيها بما كان الشاعر العربى منذ وقت طويل يتمدح به ، إذ يقول عن نفسه :

خوّاض ليـل تهـــاب الجـنُّ لُجّتَـهُ ... وينطوى جيشها عن جيشه اللجب

ويذكر الشَّنْفرَى والسُّلَيْك بوصفهما المثل الأعلى فى العَدْو السريع وخوض المفاوز المهلكة فى سدفة الليل البهيم دون خوف ، وإن فضل نفسه عليهما :

ما الشَّنْفَرى وسُلَيْـــكٌ فـى مُغيَّبَـة ... إلا رضيعـا لبـان فـى حمى أشب

على أن ثمة تهمة أخرى اتُهِم بها ديك الجنّ ، إذ قال د. شوقى ضيف مثلاً إن لديـه « شكوكًا فـى الدين ، حتى ليبدو أحيانا شاكًّا فى البعث والنشور » (٣٣) .

ولكن المتصفح لديوان ديك الجنّ يرى أن الرجل كان مؤمنًا باللّه

ورسوله والملائكة واليوم الآخر :

لابـــد أن يُحْشَـــرَ القتيـــلُ وأن ... يُســـأل ذو قتلـــه عن السبـــب
فالويـــل والنـــار والثبـــور لمـــن ... قـد أسلمـــوه للجمـــر واللهـــب

* * *

أنتم (٣٤) بـدور الهـدى وأنجمـه ... ودوحـة المكرمـات والنسـب
وساسـة الحـوض يـوم لا نهـلٌ ... لمورديكـم مـوارد العطـب

* * *

إنا إلـى اللـه راجعـون علـى ... سَهْـو الليالـى وغَفْلـة النُّـوَب

* * *

الحوض حوضهمو ، والجَدُّ جدُّهمو ... وعنـد ربهمـو فـى خلقـه غِيَـرُ

* * *

والعارفـو سيمـا الوجـوه على الأعـ ... ـراف معرفـةً بـلا نُكْـر

* * *

ثـم قضـى اللـه بـين الجنـان ... أن يُجْتَنَـى الدانى من الأغْصـان

* * *

جـاد علـى قبـرك من ... بالـرَّوْح ربّ لـك لا يَبْخَـلُ

* * *

وهـم هـداة الخلـق للرشـاد ... والفـوز فـى المبـدإ والمعـاد

* * *

بأبـى أنت فـى الحيـاة وفـى المـو ... ـ حت الثـرى ويـوم النُّشُـور

* * *

أنـت حديثـى فـى النـوم واليقظة ... ـ ـتْ مما أهْـذى بـك الحَفَظَـةْ

* * *

إن يُفْـن مـن صلـى عليـه كرامـة ... لـه قـد صلّى عليـه تعالـى

* * *

وأغـــث واستغـــث بربـك فـى الأزْ ل إذا جلّحَـتْ صـــروف الليالـــى

* * *

واللـه رب النبـى المصطفـى قَسَمًـــا بَرًّا وحقٌ منىَ والبيـت ذى الحُجُب

* * *

تأمّلْ إذا الأحـزان فيـك تكاثفت : أعاش رسول اللـه أم ضمه القَبْـرُ ؟

حتـى فى هزلـه يظْهر إيمانه ، إذ يقول فى ديك ذُبح ودُعى إلى وليمته :

أيُـذْبح بيـــن المسلميـن مـــؤذّنٌ مُقيمٌ علـى ديـن النبـى محمـد ؟

ويقول متغزلا بحبيبته ورد ، التى تزوجها بعد أن أسلمت :

عفّرتُ خـدّى فـى الثـرى لك طائعًا وعزمتُ فيك على دخـول النـار

ويقول متمنيا أن يكون دائمًا مع حبيبته أيا ما يكن المكان الذى يضمهما :

ألا ليتنـا كنـا جميعا فـى الهـوى تُضَـمُّ علينـا جنـــةٌ أو جهنّـــمُ

ويتغزل فى فم حبيبته قائلا :

بأبـــى فـــمٌ شهـد الضمير لـه قبـل المـذاق بأنـــــه عـذبُ
كشهادتـــى للـــه خالصـــة قبـــل العيـــان بأنـــه ربُّ (٣٥)

* * *

سبحان مـن يمسك السماء على الـ أرض وفيهـا أخلاقـك القـــذره

وفى هجائه لابن عمه نراه يقول :

وكـم ، إذا مـــا رأوك يا ملـك المـو ت ، لهـم مـن أنامـل حَصَـــرهْ

وفى البيتين التاليين ، رغم أنهما فى وصف سُكْره وما دفعه السكر إليـه مـن آثـام ، دليل قوى على أنه ، مع مجونه وفسقه ، كان مؤمنًا باللّه :

أستغفـــر اللـــه لذنبـــى كلّـــة قتلـــتُ إنسانـــا بغيـــــر حلّـــة
وانصـــرم الليـــل ولـــم أصلّـــة والسُّكّـــرُ مفتـــاحٌ لهـــذا كلّـــة

وإلى جانب هذا فله قصيدة ميمية أولها :

كلبٌ قبيلى ، وكلبٌ خير من ولدت حـواء من عربٍ غُـرٌ ومـن عجـم

يفتخر فيهـا بنصـرة قومه للدين على الروم ، وكذلك وقوفهم مع أهل البيت . ويضاف إلى ذلك قصائده فى أهل البيت ، فإنها دليل إيمان ، إذ لا يكون الإنسان شيعيـا إلا إذا كـان مسلمًا أوّلاً ، وهذا من البداهة بمكان ، وإن كنا قد أخذنا عليه سفاهته مع جلة الصحابة الذين يظن الشيعة أنهم اغتصبوا حقّ على رضى الله عنه وعنهم جميعا .

وأخيرا هل يمكن أن يُشكّ فى دين رجل كان يعشق فتاة نصرانية فلم يتزوجها إلا بعد أن أ خلها فى الإسلام ، مع أن ديننا يبيح للمسلم أن يتزوج من أهل الذمة ؟

ورغم ذلك كله نراه يقول :

قـد ذكـر النـاس عـن قيامتهـم ذكـرى بعقلـى ما أصبحـت نَفِرَهْ

وقد فُهم هذا البيت على أن النبى « يحدث به الناس عن القيامة ينفر منه عقلى ولا يسيغه » (٣٦) . وقد جاء البيت فى درج قصيدة يرد بها الشاعر على ابن عم له يقال إنه كان ينهاه عن علاقة عزيزة عليه حسدا منه له (٣٧) . ولا صلة ، فيما أرى ، بين هذا وبين ما قـال الشاعـر فى البيـت السابـق . وأحسـب أن القصـة التى وردت فـى « الأغانى » من أن الشاعر كان يجتمع فى بيته بأهل الميون والخلاعة ، فكان ابن عمه هذا يضيق بما يفعلون ، فصح الشاعر بالإقـلاع عـن غيّه ، هى أكثر

إقناعًا (٣٨) . على أن القصيدة اختتمت بالبيت التالى :

سبحـان مـن يمسك السماء على الـ ـأرض وفيهـا أخلاقـك القـذرة

وهو ختام لا يتمشى مع البيت الذى نحن بصدده ، إذ يبدو فيه إيمان الشاعر بالله سبحانه وقدرته . فكيف يستقيم شكّ مع إيمان ؟

يخيل إلىَّ أن البيت الذى يتحدث عن القيامة لا يُقْصَد به إنكار البعث والحساب بقدر ما يُقْصد به إظهار اللامبالاة بما أحسب أن ابن عم الشاعر كان يخوّفه هو وعصبته به من النار ، لا عن إيمان منه بذلك ، ولكن عن عناد ومغايظة لابن عمه ، فقد سبق أن استعرضنا له أبياتا متعددة يظهر فيها إيمانه بالله واليوم الآخر . ويبدو أن ذلك كان فى عُرام الشباب وشِرّته وفى وقتٍ لعبت فيه الخمر برأسه . ولعلّ هذين النصين يلقيان شيئًا من الضوء على هذا الذى نقول :

للـــه درّى فـــى الشبيبـــة من أخـــى لهـــو أريـــب
أيـــام يحملنـــى الشبـــاب على التهـــاون بالذنـــوب

* * *

أستغفـــر اللـــه لذنبـــى كلّـــهْ قتلـــتُ إنسانـــا بغيـــر حلّـــهْ
وانصـــرم الليـــل ولـم أُصلّـــهْ والسُّكْـــرُ مفتـــاح لهـــذا كلّـــهْ

أما البيتان التاليان :

أأتـــرك لـــذة الصهبـــاء عمـــدا لما وعـدوه مـــن لبـــن وخَمْـــر ؟
حيـاةٌ ثـم مـــوتٌ ثـــم بعـــثٌ حديـث خرافـة يا أم عمرو (٣٩)

فليس ثمة اتفاق على قائلهما : فمرة يقال إنهما له ، ومرة يقال إنهما لأبى نـواس ، ومرة يقال إن ثانيهما لعبد الله بن الزِّبَعْرَى (٤٠) . ومـن جهـة ثانية ، فقد أنشدنا له شواهد غير قليلة تدل على إيمانه ، على عكس شعره

الـذى صـح له واتُّهم بسببه بالشكّ فى القيامة ، إذ هو لا يعدو بيتا واحدًا .

ومثل البيتين السابقين الثلاثة الآتية المنسوبة إليه :

هـى الدنيـا وقـد نعمـوا بأخـرى ... وتسويـف النفـوس مـن السّواف
فـإن كذبـوا أمنـتَ ، وإن أصابـوا ... فـإن المبتليـك هـو المعافـى
وأصـدق مـا أبثـك أن قلبـى ... بتصديـق القيامـة غيـر صـافِ

إذ فيها عرض منطقى مرتب للفكرة وتفنيد لها مما يخالف روح شعره ، علاوةً على أنى لم أقابل عنده اسم الفاعل المعرف بالألف واللام مضافًا إلى مفعوله ، كما هو الحال فى « المبتليك » . أضف إلى هذا أن الأصفهانى فى « محاضرات الأدباء » ينسب البيت الأخير إلى أبى نواس مع روايته هكذا : « وأيسر ما أبثك » (٤١) . وحتى لو قبلنا أنه هو قائلها فإنها لا تخرج عن البيت الذى تقدم قبل قليل ، ويقال فيها ما قلناه هناك .

وهذا يقودنا إلى الشّعر الذى رُوِى له ولغيره فى ذات الوقت . وقد ذكرنا فى الفصل الذى عقدناه فى هذا الكتاب لمطيع بن إياس أن الأبيات الرائية الثلاثة التى رواها صاحب « الأغانى » لذلك الشاعر وقيل عنه بسببها إنه شيعى ليست له بل لديك الجنّ ، وأنها مذكورة له فى ديوانه . وهذه الأبيات هى :

أصبحـت جـمّ بلابـل الصـدر ... وأبيـتُ منطويـا علـى الجَمْـر
إن بُحْـتُ يومًـا طُـلّ فيـه دمـى ... ولئن كتمـتُ يضـق بـه صـدرى
ممـا جنـاه علـى أبـى حَسَـن ... عُمَـرٌ وصاحبـه أبو بكـر

وهى مفتتح قصيدة من خمسة عشر بيتا يمدح بها عليا كرم الله وجهه . والذى يقرأ القصيدة يشعر فى الحال أن الأبيات فى محلها تمامًا هناك .

أمَّا فى ديوان مطيع فقد وردت مستقلة ، ويشعر الإنسان أنها نشازٌ فى وسط ذلك الجوّ الذى يظلل الديوان ، فليس لمطيع أية اهتمامات مذهبية ، ولا له شىء فى التشيّع . وفوق هذا فجزء كبير من ديوان ديك الجن هو فى آل البيت وحقّ علىّ فى الخلافة والادعاء بافتئات أبى بكر وعمر على هذا الحقّ مع ذكرهما بالاسم ، كما مرَّ . فذكر الشيخين فى آخر الأبيات الثلاثة دليل آخر على أن هذه الأبيات لديك الجن لا لمطيع . وقد كنتُ ، قبل أن أصل إلى الفصل الحالى ، فى ريب من نسبة تلك المقطوعة إلى مطيع ، وأعربتُ عن شكى ذاك ، وقلت إننى أرى أنها قد نُسبت إليه خطأً . ثم لمَّا أخذت فى إعداد الفصل الذى نحن فيه الآن وشرعت أقرأ شعر ديك الجنّ ووجدت تلك الأبيات مرويَّة له ضمن قصيدة كاملة شعرت براحة ضميرى النقدى ، إذ وجدتُ أن شكّى كان فى محله تمامًا وأننى لم أرم الكلام على عواهنه ، فحسمت المسألة ونصصت على الاكتشاف الذى وقع لى .

أما القصيدة التى مطلعها

يا طلعةً طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها

والتى تعبر عن لوعة قائلها على زوجته التى قتلها من شدة حبّه لها وغيرته عليها فهى تُرْوى له ولغيره . فقد ذكر أبو الفرج ، بعد أن نسبها لديك الجن ، أنها تروى أيضا لرجل من العرب (اسمه السُّلَيْك بن مجمع) خرج عليه هو وزوجته فى الطريق قوم يطلبونه بدماء من قتل منهم ، فدارت بينه وبينهم معركة صرع فيها منهم عددًا وجرح عددًا ، وجُرح هو أيضا . ولما رأى أنه ميت عرض على زوجته أن يقتلها حتى لا

يسببها أعداؤه فشجعته على ذلك فقتلها ، ثم تقدم فواصل القتال حتى قُتِل ، وروى أعداؤه ما قاله فيها من شعر . وفى رواية أخرى أن أعداءه لم يقتلوه بل تركوه وفيه ذماء ، وأن قومه أدركوه وهو يجود بأنفاسه ويتغنى بهذه الأبيات فحفظوها عنه ورووها (٤٢) . ورُويت فى هذا الشعر قصة أخرى فى « مصارع العشاق » للسَّرّاج تختلف عن هذه القصة ، وبطلها رجل من العرب آخر (٤٣) . بيد أن شعر القصيدة المختلف على نسبتها ذو مذاق حضرى يختلف عن مذاق الشعر البدوى القديم . وقد تنبه لذلك د. عمر فروخ ، منكرا أن يكون هذا الشعر لذلك الأعرابى القديم الذى أورد أبو الفرج قصته وذكر أن القصيدة أيضا تنسب إليه (٤٤) . وفوق ذلك فنكهة هذا الشعر لا تختلف ، فيما يبدو لى ، عن نكهة شعر ديك الجنّ فى رثاء زوجته وَرْد ، التى قتلها فى لحظة من لحظات الغيرة المجنونة ، ثم لما تبين له أنه كان ضحية مؤامرة دنيئة ركبه الندم طويلا على ما فعل .

وفى الديوان أيضا بيتان فى رثاء أبى تمام ، وهما :

فُجِع القريض بخاتم الشعراء ... وغدير روضتها حبيب الطائى

ماتا معًا فتجاورا فى حفرة ... وكذا كانا قبلُ فى الأحياء

وقد نُسِبا أيضا لكلّ من الحسن بن وهب وأبى نهشل بن حميد (٤٥) . وإن فى نفسى شيئا من عزوهما إلى ديك الجنّ ، فهما غريبان على الديوان ، الذى اقتصر على رثاء آل البيت والثناء عليهم ومدح من عاصر الشاعر منهم ، ورثاء زوجته ورد ، وفسقه بالعلمان والخمر . ولا ننس أن ديك الجن عاش حياته بوجه عام متباعدًا عن الناس ، فلا أظن أن موت

أبى تمام كان يشغله إلى هذا المدى . ثم إنه لم تكن بين ديك الجن وأبى تمام تلك الصلة الحميمة التى تدفعه لمثل هذا الرثاء ، بل كل ما ذُكر عن علاقتهما هو أن ديك الجن قد عطف عليه أيام أن كان صبيا مبتدئا فى الأدب ، فأعطاه بعض شعره ليستعين به على عيشه أو على صقل موهبته (٤٦) . فمن المستبعد أن يذكر الأستاذ تلميذه ، وبعد مرور كل ذلك الوقت الطويل ، بهذا الثناء الكبير ، وبخاصة أن بعض النقاد القدماء قد قالوا بسرقة أبى تمام من شعر ديك الجن واحتذائه عليه (٤٧) ، ولا أظن ديك الجنّ إلا كان يعتقد هذا هو أيضا ، فكيف يثنى هذا الثناء العظيم عليه ؟ (٤٨)

ومما نُسب له ولغيره أيضا :

يأبى فَمٌ شهد الضمير له ... قبل المذاق بأنه عذبُ

كشهادتى لله خالصةً ... قبل العيان بأنه ربُّ (٤٩)

وثمة أبيات خمسة مطلعها :

مرت فقالت : تحية مغرم ... ماذا عليك من السلام ؟ فسلّمى

رواها بعضهم لديك الجن ، وبعضهم لعلى بن الجهم (٥٠) .

هذا ، ويدور شعر ديك الجن على التشيع والبكاء على آل البيت ومدحهم والدفاع عما يرى أنه حقهم ، والبكاء على زوجته ، والخمر ، والتغزل ، والافتخار ، والرثاء ، والهجاء ، والمديح ، والحكمة ، والشيب ، والهزل ، والوصف .

فأما شعره فى آل البيت فقد مضى الكلام عنه أثناء حديثنا عن تشيعه . وكذلك مرَّ كلامنا عن شعره الفخرى عند مناقشتنا اتهامه

بالشعوبية .

وأما شعره فى زوجته فمنه قوله فى قتله إياها حين جازت عليه حيلة المتآمرين فتوهم أنها فعلاً تخونه :

خنـــتِ ســـرّى مواتيَـــةْ ... والمنايـــــا مُعاديَـــــةْ
أيهـــا القلـــب ، لا تَعُـــدْ ... لهـــوى البِيـــض ثانيـــةْ
ليـــس بـــرق يكـــون أخـــ ... ـلب مـــن بـــرق غانيـــةْ
خنـــت ســـرى ولـــم أخنـــ ... ـك ، فَمُوتـــى علانيـــةْ

وهى أبيات تصوِّر سخطه عليها وإحساسه بالراحة بعد انتقامه لشرفه منها .

أما الأبيات التالية فتعكس عاطفة أكثر تعقيدا ، إذ يمتزج فيها حبه العارم لها مع النقمة الشديدة عليها والارتياح الناشىء عن قتلها :

قـل لمن كـان وجهـه كضياء الشمـ ... ـس فـى حسنـه وبـدرٍ منيـر :
كنـتَ زين الأحياء إذ كنتَ فيهـم ... ثم قـد صـرت زيـن أهل القبـورِ
بأبـى أنـت فـى الحيـاة وفى المـو ... ت ، وتحت الثـرى ويـوم النشـورِ
خُنْتَنـى فى المغيب ، والخون نُكْـرٌ ... وذميـم فـى سالفـات الدهـورِ
فشفانـى سيفى وأسرع فى حز الـ ... ـحراقى قطعـا وحـزّ النحـور

ثم لما تبين له أنه وقع فريسةً لمؤامرة حقيرة وأنه قتل زوجته التى كان يعشقها ويتدله فى هواها ظلما واندفاعا مع الغضب الأعمى والوهم المضلِّل أخذ ينوح عليها قائلاً :

أساكـنَ حفـرةٍ وقـرار لحـد ... مفـارقَ خُلَّـة مـن بعـد عَهْـدِ
أجبنـى إن قـدرتَ علـى جوابـى : ... بحـقّ الـودّ كيـف ظللت بعدى ؟
وأيـن حللـتَ بعـد حلـول قلبـى ... وأحشائـى وأضلاعـى وكبـدى ؟
أمـا واللـه لـو عاينـتَ وجـدى ... إذا استعبرتُ فـى الظلمـاء وحـدى
وجـدٌ تنفسـى وعـلا زفيـرى ... وفاضت عبرتـى فـى صحن خـدى
إذن لعلمـتَ أنـى عـن قريـب ... ستُحْفَـرُ حفرتـى ويُشَـقُّ لحـدى

ويعذلنـــى السفيـه علـــى بكائى　　كأنـــى مُبْتَلَـــى بالحـــزن وحـدى
يقـــول : قتلتهـــا سَفَهًـا وجهـلا　　وتبكيهـا بكـــاءَ ليـــس يُجْـدى
كصيـــاد الطيـــور لـه انتحـــاب　　عليهـــا وهـــو يذبحهـا بحـــدّ

وترسم الأبيات الثلاثة الأخيرة الموقف كلَّه رسمًا دقيقًا . كذلك تذكرنا صورة الصيَّاد الذى يذبح الطيور وهو يبكى فى ذات الوقت عليها شفقة وحنانًا بقول ربيعة الرقّىّ :

فأنـــت كذبَّـــاح العصافيـــر دائبًـــا　　وعينـــاه من وجـد عليهـــن تَهْمِـــلُ

ويبدو أن زوجته كان تأتيه فى الحلم وهو نائم ، كلونٍ من التعويض النفسى عن فراغ الواقع المحبط المؤلم :

جاءت تزور فراشـى بعدمـا قُبِرَتْ　　فَظَلْـــتُ ألثـم نحـرا زانـــه الجِيـــدُ
وقلت : قُرَّةَ عينـى ، قد بُعِثْـتِ لنا　　فكيف ذا وطريـق القبر مسـدودُ ؟
قالت : هنـاك عظامـى فيه مودعـةٌ　　تعيـث فيهـا بنـاتُ الأرض والدُّودُ
وهـذه الـروح قد جاءتـك زائـرةً　　هـذى زيـارةُ من فى القبر ملحودُ

ولكن الأحلام المسعدة لا تواتى الإنسان على حسب رغبته . ومن ثم نراه يهتف بطيفها الذى أخذ يُقِلّ الزيارة :

امـــا آن للطيـــف أن يأتيـــا　　وأن يطـــرق الوطـــن الدانيـــا ؟
وانـى لأحســـب ريـــب الزمـــا　　ن يتركنـــى جســـدا باليـــا
سأشكـــر ذلـــك لا ناسيـــا　　جميـــل الصفـــات ولا قاليـــا
وقـــد كنـــتُ أنشـــره ضاحكًـــا　　فقـــد صـــرتُ أنشـــره باكيـــا

وله فى زوجته شعر آخر غير هذا .

وبالنسبة لخمرياته فقد لاحظت أنها كلها مقطوعات وأنها قليلة العدد ، وأنها لا تحوى قصصًا بل تقتصر عادة على وصف الكأس والساقى . كذلك لا تخلو هذه الخمريات من بعض الحوار . ومن ذلك

قوله :

نبّهتُـه والنـدامـى طـال مكثهمـو ... فقلت : قم ، واكفنا الهمّ الذى وكفا
واصـرف بصرفك وجه الهمّ يومك ذا ... حتـى تـرى نائمـا منهـم ومنصرفـا
فقـام مختلفًـا ، كالبـدر مطّلعـا ... والظبـى ملتفتـا والغصـن منعطفـا
كـأن قافًـا أديـرت فـوق وجنتـه ... واختـط كاتبهـا مـن فوقهـا ألفـا
فقلتُ من بعد ما شاهدتُ هيئتـه : ... حسبى بذا عوضا من خمرتى وكفى
واستلّ راحًا كبيض صادفت حجفا ... خلائقا (٥١) ، أو كنـارٍ صادفت سعفا
رقـت غلالـة خدّيـه ، فلو رُميا ... باللحـظ أو بالمنى همًّـا بـأن يكفَـا

ومن ذلك أيضا :

وقهـوةٍ كوكبهـا يُزْهِـرُ ... ينفـح منهـا المسـكُ والعَنْبَـرُ
ورديّـة يحملهـا مثلهـا ... كأنمـا مـن خـدّه تُعْصَـرُ
مهفهـف لم يبتسـم ضاحكًـا ... مـذ كـان إلا كسـد الجَوْهَـرُ

وليس فى غزله بالمرأة شىء خاصٌّ يلفت الانتباه . ومنه قوله :

وقائلـة وقـد بصُـرت بدمـع ... على الخدّيـن منحـدر سكـوب
أتكـذب فى البكـاء وأنـت خلـو ؟ ... قديمـا ما جسـرت علـى الذنوب
قميصـك والذنـوب تجـول فيـه ... وقلبـك ليـس بالقلـب الكئيـب
شبيـه قميص يوسـف حيـن جاءوا ... علـى لبّاتـه بـدم كـذوب

ومنه :

ومعدولـةٍ مهمـا أمالـت إزارهـا ... فغصنٌ ، وأمـا قدّهـا فقضيـبُ
لهـا القمر السارى شقيق ، وإنهـا ... لتطلـع أحيانـا لـه فيغيـبُ
أقـول لهـا والليـل مُـرخ سدولـه ... وغصن الهوى غضُّ النبات رطيبُ
ونحن بـه فـردان فى ثنْـى مئـزر : ... بـك العيـش يا زيـن النساء يطيبُ
لأنت المنـى يا زيـن كـل مليحـة ... وأنـت الهـوى أُدعَـى لـه فأجيبُ

ومنه :

ودّعتُهـا لفـراق فاشتكـت كبـدى ... إذ شبّكتْ يدهـا مـن لوعـة بيدى

وحاذرتْ أعين الواشين فانصرفتْ تعضُّ من غيظها العناب بالبرد
فكان أول عهد العين يوم نأتْ بالدمع آخر عهد القلب بالجلد
جسّ الطبيب يدى جهلا فقلت له : إن المحبة فى قلبى فخلّ يدى

ولـه فـى فتـاة نصرانيـة مقطوعتان (٥٢) . وأغلب الظن أنها هى « ورد » التى تزوجها ثم قتلها ثم ندم على قتلها وبكاها آلم بكاء . ولا يخرج غزله فيها عن المعانى والصور التقليدية ، من تشبيه القدّ بالقضيب والردف بالكثيب ، والخدّ بالورد ، والأسنان بالأقحوان ، ومن تعفير خدّه فى التراب ، وغير ذلك . ومع هذا فإن له مقطوعة طريفة يفضّل فيها الحُبّ الأخير ، على عكس ما قال الشاعر الآخر :

نقّل فـؤاك حيـث شئتَ من الهوى ما الحـب إلاّ للحبيـب الأوّل

إذ قال :

اشرب على وجه الحبيب المقبل وعلى الفم المتبسّم المتقبّل
شُرْبا يذكّر كل حبّ آخر غضّ وينسى كل حبّ أوّل
نقّل فؤادك حيث شئت فلن ترى كهوى جديد أو كوصل مُقْبل
ما إن أحنّ إلى خراب مقفر درست معالمه كأن لم يُؤْهَل
مقتى لمنزلى الذى استحدثتُه أما الذى ولّى فليس بمنزلى

أمّا غزله الغلمانى فله فيه عدد من المقطوعات فى غلام اسمه بكر بن دهمرد كان يراوده عن نفسه والغلام يتأبى عليه لا يستجيب . ثم حدث أن خدعه جماعة دعوه إلى متنزه ميماس فأسكروه ونالوا منه وهو غائب عن وعيه ، فقال ديك الجنّ هازئا متلذذا شامتا :

قل لهضيم الكشح ميّاس انتقض العهدُ من الناس
يا طلعة الآس التى لم تَمِدْ إلاّ أذلّت قُضُب الآس
ونقّت بالكأس وشرّابها وحتفُ أمثالك فى الكاس

وديـــر ميمـــاس ، ويا بُعْدَ مـــا ... بيـــن مغيثيـــك وميمـــاس
تقطيع أنفاسك فـــى إثرهـــم (٥٣) ... وَملْكهـــم (٥٤) قطّـــع أنفاســى
لا بـــأس مـولاى ، علـــى أنهـــا ... نهايـــة المكـــــروه والبـــاس
هـــى الليالـــى ولهـــا دولـــة ... ووحشـــةٌ مـــن بعـــد إينـــاس
فالْـــهُ ودع عنـــك أحاديثهـــم ... سيصبـــح الذاكـــر كالناســـى

وقال فى نفس الموضوع أيضا :

يا بَكْر ، ما فعلت بك الأرطال ؟ بل ... يـا دار مـا فعلـت بـك الأيـامُ ؟
فـى الـدار بَعْـدُ بقيـةٌ نستامهـا ... إذ ليـس فيـكَ بقيّـةٌ تُسْتَـامُ
عَـرمَ الزمـان على الديـار برغمهـم ... وعليـــك أيضـــا للزمـــان عُـــرامُ
شغـل الزمـانُ كـراكَ فـى ديوانـه ... فتفرغـــت لدواتـــك الأقـــلامُ

وإنى لأعجب كيف انتشرت هذه الفاحشة فى حضارتنا الإسلامية ، وكيف كان الشعراء وغير الشعراء يجاهرون بها غير مستحيين من هذا النتن العفن الذى ينزّ صديدًا وقيحًا ! إننا لسنا غافلين عن أن هذه الفاحشة قد عرفتها كل الحضارات قديمًا وحديثا ، وأنها منتشرة فى أعظم الدول فى عصرنا تقدما ، وللمبتلَيْن بها عندهم حرمة يكفلها لهم القانون . بل إن الكنيسة فى بعض دول الغرب قد أقرّت هذا الوضع المنتكس الذى لا يعرفه الحيوان ذاته . لكنّى يعزّ علىَّ أن يكون هذا الرجس منتشرا فى حضارةٍ تستند إلى الإسلام ، ويجعل منه الشعراء المسلمون موضوعا من موضوعاتهم ويتفننوا فيه دون حياءٍ أو حرج ! ولو كان الأمر بيدى لمحوتُ هذه الصفحات المقزّزة المغثّية من سفر تاريخنا الأدبىّ ، ولكنَّ صدق التأريخ لحضارتنا وأدبنا يلزمنا أن نعرض الأمر على الوجه الذى كانه لا على الوجه الذى نشتهيه . ثم إنه هكذا البشر ! ولابدّ أن يأخذ عوجهم مداه إلى أن

يرث الله الأرض والسماوات .

على أن الملاحظ فى غلمانيات ديك الجن أنّه يكنّى عن المعانى الفاحشة ولا يعبّر عنها تعبيرا صريحًا ، فقد عبَّر كما رأينا عن عنف الوطء بـ « مَلْك » العجين ، وبـ « الدواة والأقلام » عن العضوين المعروفين . وكذلك كنّى عن اللواط بـ « الإسراج والإلجام والركض » ، كما فى قوله لذلك الغُلام يشمتُ بذله لمن أسكروه وفسقوا به بعد أن كان يتمنع عليه هو :

وكنتَ تَفْزَعُ من لَمْسٍ ومن قُبَلٍ ... فقد ذللت لإسراج والجام

إن تَدْمَ فخذاك من ركضٍ فربتما ... أُمْسِى وقلبى عليك الموجَعُ الدامى

وهى صورة حيوانية . ولكن لا غَرْو أن تصدر ممن يقول فى نفس الموضوع :

أعشق المرد والنكاريش(٥٥) والشيـ ... ـب ، وعندى مثل البنين البناتُ

حدّ ما يُشْتَهَى ويُعْشَقُ عندى ... حيوانٌ تحلُّ فيه الحياةُ

وهناك أبيات ثلاثة أخرى فى الديوان تعبّر عن نفس الرغبة المنحطة القذرة ، وإن رُويت أيضا لغيره . ولكن أغلب المصادر التى اعتمد عليها جامعا الديوان تنسبها إليه (٥٦) . وهذه الأبيات هى :

حدّ ما يُنْكَحُ عندى ... حيوانٌ فيه رُوحُ

أنا من قولى : « مليح ... أو قبيحٌ » مستريحْ

كل من يمشى على وجـ ... ـه الثرى عندى مليحْ

أما المديح فإن الذى وصلنا للشاعر منه جدّ قليل . وإذا صحَّ أن الأبيات التالية تكوّن مقطوعة واحدةً فإن الشاعر يكون قد بدأ مدحه بالغزل فى بيتين أتبعهما ببيت ثالث ربط فيه ربطا ظريفا بين ما يفعله حبيبه به

وما يفعله الممدوح بالأموال ، وهو ما يسمّى فى نقدنا القديم بـ « حسن التخلص » . قال :

وغريـر يقضـى بحكمين : فى الرا ... ح بجَوْر ، وفـى الهـوى بمُحَـال
للنّقا ردفه ، وللخُـوط ممـا حمّـ ... ـل لينًـا ، وجيـدُه للغـزال
فعلـت مقلتـاه بالصبّ مـا تفـ ... ـعل جـدوى يديـك بالأمـوال
لم تُقَسْ بالـذى عـداك مـن الخلـ ... ـق ، فمـا الشامخـات مثل الرمـال
وإذا شئتَ أن تـرى الموت فـى صو ... رة ليـث فـى لبدتَـىْ رئبـال
فالقـه ، غيـر أنمـا لبدتـاه ... أبيـضٌ صـارمٌ وأسمـر عـال
تلـق ليثـا قـد قُلّصَـتْ شفتـاه ... فيُـرَى ضاحكـا لعبـس الصّيـال

وهى أبيات ليس فيها ، حاشا حسن التخلص الذى ذكرته ، شىء معجب . فكـل مـا فيها تقليدى ، علاوةً على عـدم إحكـام المقابلـة بيـن الجبـال « الشـامخات » و « الرمال » ، إذ كان ينبغى أن يجعلها بين الجبال والوديان مثلاً ، وكذلك التكلف فى جعل لبدتى الممدوح سيفًا ورمحا ، إذ وجه الشبه بينهما معدوم أو يكاد .

ثم إن أبياته الأربعة التى قالها فى المشيب بعد أن تجاوز الخمسين هى أقرب إلى النظم منها إلى الشعر . وها هى ذى :

نهنهـت الخمسـون مـن شدتـى ... وضيقـت خطـوى بعـد اتسـاع
وأتحفتنـى خَـوَرًا ظاهـرا ... وكنـتُ قبـل الشيب عين الشجاع
تعتـرف النـفس ببعـض القـوى ... فأمْسـك النـفس ببعـض الخـداع
أنسأنـى الدهـر ولـم ينسنـى ... والموت قد يـودى بمن فى الرضاع

وهى ، كما ترى بنفسك ، لا حرارة فيها ولا حسرة ولا ألم .

وله فى رثاء ابنه مقطوعتان : فأما المقطوعة الأولى فتقول :

مـات حبيـب فمـات ليـث ... وغـاص بحـر وبـاخ نَجْـمُ

سمت عيون الردى إليه وهى إلى المكرمات تسمو
ما أمّك اجتاحت المنايا كل فؤاد عليك أمُّ

وهو شعر فاترٌ لا تتوقد فيه جمرة أحزان أبٍ مكلومٍ . ولعله فى شخص آخر غير ابنه . وأما المقطوعة الثانية فاللوعة فيها ظاهرة :

بأبى نبذتُك فى العراء المُقْفر وسترتُ وجهك بالتراب الأعفر
بأبى بذلتُك ، بعد صون ، للبلى ورجعتُ عنك صبرتُ أو لم أصْبر
لو كنتُ أقدر أن أرى أثر البلى لتركتُ وجهك ضاحيًا لم يُقبَر

والبيت الأخير من أروع ما قيل فى التعبير عن تعلقنا بأحبابنا الذى غادرونا إلى القبر ، ورغبتنا المحرقة فى أن نستبقيهم إلى جانبنا ولا نسلمهم للتراب حارمين أنفسنا من التطلع إليهم والشعور بوجودهم حولنا ، لولا الخوف من رؤية ما تفعله أيدى البِلى بأجسادهم وملامحهم . يا سلام ! هذا بيت عجيب !

ولديك الجنّ فى الهجاء قصيدةٌ يسخر فيها من قريب له اسمه « أبو الطيب » يبدو أنه كثيرًا ما كان ينصحه بالإقلاع عن مجونه وخلاعته . وقد جاء فيها بعد مقدمة تعلن إصراره على لهوه وتهتكه :

يا عجبا من أبى الخبيث ومن سروجه فى البكاثر الدثرهْ !
يحمل رأسا تنبو المعاول عن صفحته والجلامدُ الوعرهْ
لو البغال الصلب ارتقت سندا فيه لمدّت قوائما خدره
وما المجانيق فيه مُغْنيةٌ ألفٌ تسامى وألفُ منكدره
انظر إلى موضع المقصّ من الها مة تلك الصبيحة العجره
فلو أخذتم لها المطارق حرًا نيّة صنعة اليد الخبره
إذن لراحت أكفُّ جلّتهم كليلة والأداة منكسره

وهو هجاء لا أذكر أنى قرأت مثله فى الشعر القديم ، إذ يصف رأس قريبه

بالصلابة . ولعلّه يقصد أن يشتمه بأن « دماغه ناشف » كما نقول اليوم ، أى أنه غبيٌّ لا يلين . ثم يمضى فيصوّر كيف كان وقع طلوعه عليه هو وأصحاب لهوه وتهتكه ، داعيا إياه « ملك الموت » :

كم طرَبات أفسدتهن ! وكم ... صفوة عيش غادرتها كَدِرَهْ !
وكم إذا ما رأوك يا ملك المو ... ت لهم من أنامل خضرَهْ !
وكم لهم دعوة عليك ! وكم ... قذفة أمّ شنعاء مشتهره !

... إلخ .

وهناك مقطوعة لاميَّة يهجو بها ديك الجنّ أهل حمص لعزلهم خطيبًا لهم كان يكثر الصلاة والسلام على النبى عليه السلام . وهى شعر وسط يؤدى المعنى والسلام (٥٧) .

ومن شعره الحِكْمِىّ ، وهو قليل ، هذان البيتان ، وفيهما يحذر من غلبة الهوى ومن الوثوق بالمرأة :

أخا الرأى والتدبير . لا تركب الهوى ... فإن الهوى يُرديك من حيث لا تدرى
ولا تثقنْ بالغانيات وإن وفت ... وفاءُ الغوانى بالعهود من الغدْر

وأيضا تلك القصيدة التى يبغّض فيها الرضا بالهوان ويحث على طلب الغنى والمكرمات وعلى الجلاد بالرماح والسيوف وخوض الموت فى سبيل كسبهما ، فالموت فى عزٍّ أزين للرجال من العيش الضارع المستكين . وهى روحٌ سوف نلقاها عند المتنبى بعد ذلك . كذلك يبدو أن المتنبى قد احتذى البيت الأول من هذه القصيدة حين قال :

عش ابْقَ اسْمُ سُدْ جُدْ قُدْ ... مُر انْهَ اسْر فُهْ تَسَلْ
غظ ارْم صب احْم اغْزُ ... اسْب رُعْ زعْ دُلّ اثن نَلْ

وإن كان بيت ديك الجنّ أسهل وأقل قُبْحًا . وإليك بعض أبيات

القصيدة :

أُحْلُ وامْرُرْ ، وضُرَّ ، وانفع ، ولِنْ ... واخشُنْ ، وبِشّ ، وابْرِ ، وانتدب للمعالى

وأغث واستغث بربّك فى الأز ... ل إذا جلّحت صروف الليالى

لا تقف للزمان فى منزل الضيم ، ... ولا تستكن لرقة حال

وإذا خفتَ أن يراهقك العُدْ ... مُ فغُذَّ بالمثقفات العوالى

وأهن نفسك الكريمة للمو ... ت ، وقحّم بها على الأهوال

فلعمرى للَّمَوْتُ أزين للحـ ... ـىّ من الضّرّ ضارعًا للرجال

أى ماءٍ يدور فى وجهك الحُـ ... ـرّ إذا ما امتهنتَه بالسؤال ؟

...

عادِ تدميثك المضاجع للجنـ ... ـب فعال الخريدة المكسال

وادّرعْ يَلْمَقَ اجتياب دجى الليـ ... ـل بطرْف مغبّر الأوصال

...

واتخذ ظهره من الذل حصنا ... نعْم حصن الكريم فى الزلزال

لا أحب الفتى أراه إذا ما ... عضّه الدهر جاثما فى الضلال

مستكينا لذى الغنى خاشع الطر ... ف ذليل الإدبار والإقبال

...

ذهب الناس ، فاطلب الرزق بالسيـ ... ـف ، وإلا فمُتْ شديد الهُزال

ومن أجمل شعر ديك الجن مقطوعتاه فى الديك : فأما الأولى منهما ففى ديك ذُبح ودُعى إلى أكله ، وهى :

دعانا أبو عمرو عميرُ بن جعفر ... على لحم ديك دعوة بعد موعد

فقدّم ديكا عُدّ دهرا مُلَقّحا (٥٨) ... مؤنّس أبيات ، مؤذّن مسجد

يحدثنا عن قوم هود وصالح ... وأغرب ما لاقاه عمرو بن مرثد

وقال : لقد سبّحتُ دهرًا مهلّلا ... وأسهرتُ بالتأذين أعين هُجّد

أيُذْبَحُ بين المسلمين مؤذّنٌ ... مقيم على دين النبى محمد ؟

فقلت له : يا ديك ، إنك صادق ... وإنك فيما قلت غير مفنّد

ولا ذنب للأضياف إن نالك الرّدى فإن المنايا للديوك بمرصد

ومن الطريف فى هذه الأبيات أن ديك الجن يتحدث عن الديك وكأن شكواه إليه ما حلّ به إنما كانت بعد ذبحه وتقديمه على المائدة لا قبل ذلك . وهى شكوى لا تنفع ولا تشفع . والطريف أيضا أن الديك يعتزى إلى الشاعر بأنه مسلمٌ ، ومسلم مؤذّن لا مسلم عادىّ ، فكيف يجوز فى الإسلام ذبح هذا المسلم الورع ؟ والطريف كذلك أن الشاعر سرعان ما يسلّم بحجة الديك ويرثى له . ولكن هذا لا يمنعه أن يأكله ، فهذه نقرة ، وتلك نقرة أخرى . إن الشاعر يأسى للديك بقلبه ، لكنه يشتهيه ببطنه . وسبيل هذا غير سبيل ذاك ، وإذن فلا تناقض . ثم إنه ليس هو الذى ذبحه ، بل هو مجرد ضيف دُعى إلى أكله ، وها هو ذا يفعل . ثم أليس الموت غاية كل ديك » ؟ :

فقلت له : يا ديك ، إنك صادقٌ وإنك فيما قلت غيرُ مُفَنَّد
ولا ذنب للأضياف إن نالك الردى فإن المنايا للديوك بمرصد

وأما المقطوعة الأخرى ففى وصف الديك وهو يؤذن عند الفجر :

أما ترى راهب الأسحار قد هتفا وحثّ تغريدَه لمّا علا الشّعَفا ؟ (٥٩)
أوْفى بصبغ أبى قابوس مفْرِقُهُ كدُرّة التاج لمّا أن علا شرفا
مشنَّفٌ (٦٠) بعقيق فوق مذبحه هل كنتَ فى غير أذن تعرف الشُّنُفا ؟
لمّا أراحت رعاةُ الليل عازبةً من الكواكب كانت ترتعى السُّدُفا
هزّ اللواءَ على ما كان من سَنَةٍ فارتجّ ثم علا ، واهتزّ ثم هفا
ثم استمرّ كما غنّى على طرب مرّيحُ شرْب على تغريده ، وضفا (٦١)

وبعد هذه الأبيات يمضى الشاعر فيدعو ساقيه أن يوافيه بالكأس حتى يسكر ، مع أن السّكر كله والحسن والنشوة والبهجة فى هذه الأبيات .

وإذا كان الشاعر قد جعل الديك المذبوح « مؤذن مسجد » ، فها هو ذا يجعل هذا الديك « راهب أسحار » . وربّما لم يشأ أن يجعل منه هو أيضا مؤذّنا يدعو إلى الصلاة حتّى لا يكون ثمة تناقض بين جوّ الأذان الإسلامى وجوّ الخمر التى يُهبّ ساقيه ويهيب به أن يوافيه بكؤوسها صرْفةً تصرف عنه هو وصحبه الهموم .

وإمعانًا فى خلق التناغم بين وصف الديك وما يتلو ذلك من أبيات خمرية ، نرى الشاعر يشبه ديكه هذا بشارب قد سرى فى كيانه الطرب واستخفّه ، فاندفع يغنّى مرتاحًا منتشيا :

ثم استمر كما غنىَّ على طَرَبٍ مرَّيحُ شرْبٍ على تغريده ، وضَفَا

لقد أُعجب د. مصطفى الشكعة بهذه الأبيات الديكية الأربعة عشر (٦٢) ، وحقّ له بها الإعجاب !

وللشاعر فى الوصف أيضا أبيات سينية يصوِّر فيها كلاب الصيد وما تفعله بالفريسة المراد قنصها وما يحدث من ضجيج أثناء المعركة بين الطرفين . وفيها أيضا وصف للبزاة وإنغاضها رؤوسها تحفزا للانقضاض على الفرائس ... إلخ . وفيها بعض التشبيهات الشكلية البسيطة (٦٣) .

ونصل أخيرا إلى السمات الفنية لشعر ديك الجن :

فمن ذلك أنه يدخل عادة فى قصائده مباشرة ، سواء كانت مديحًا أو رثاءً أو فخرًا أو غزلاً أو هجاءً ، دون مقدمات ، مما يحقق لها وحدة الموضوع . فمثلاً يبدأ قصيدته البائية فى آل البيت بالبكاء عليهم دون تمهيد مُعْرِضًا عن الوقوف على الأطلال والحنين إلى الغضا والكثبان قائلاً :

يا عين ، لا للغضا ولا الكُثُب ... بُكا الرزايا سوى بُكَا الطربِ
جودى وجدّى بملء جفنك ، ثـ ... ـمّ احتفلى بالدموع وانسكبى
يا عين ، فى كربلا مقابر قد ... تركن قلبى مقابر الكُرَبِ

وهو استهلال يذكرنا باستهلال الكميت بن زيد لإحدى بكائياته على آل البيت أيضا ، إذ يقول :

طربتُ ، وما شوقًا إلى البيض أطربُ ... ولا لعبًا منى ، وذو الشيب يلعبُ
ولم تلهنى دار ولا رسم مَنْزِلٍ ... ولم يتطربنى بنانٌ مخضّبُ
ولكن إلى أهل الفضائل والنُّهَى ... وخير بنى حواء ، والخيرُ يُطْلَبُ
بنى هاشم رهط النبى ، فإننى ... بهم ولهم أرضى مرارًا وأغضب

ويستفتح لاميته الحِكْمية بعرض نصائحه مباشرة :

احْلُ وامرُرْ ، وضر وانفع ، ولِنْ ... واخشُنْ ، ورِشْ وابْرِ ، وانتدب للمعالى
وأغث واستغث بربك فى الأزْ ... ل إذا جلَّحَتْ صروف الليالى

... إلخ .

وفى الافتخار بقبيلة كلب يبدأ قصيدته بالفخر من فوره :

كلبٌ قبيلى ، وكلبٌ خير من وَلَدَتْ ... حواءُ من عَرَبٍ غُرٍّ ومن عجم

وفى لاميته التالية نجده فى البيتين الأولين يهاجم تقليد الوقوف على الأطلال ، متغنيا بالخمر وبمغامراته النسائية ، خالصًا من ذلك إلى الدعوة للبذل والكرم والتماسك فى وجه شدائد الدهر :

قالوا : السلام عليكِ يا أطلالُ ... قلت : السلام على المُحيل مُحالُ
عاج الشقىُّ مرادُه دمَنُ البِلى ... ومَرادُ عينى قبة وحجالُ
لأُغادِيَنَّ الراحَ وهى زُلال ... ولأَطْرُقَنَّ البيت فيه غزال
ولأتركن حليلها وبقلبه ... حُرَقٌ ، وحَشْوُ فؤاده بلبالْ
ولَيَشْفِيَنْ قلبى فمٌ وجَنَى يدٍ ... وكلاهما لى بارد سلسالُ
يا ذا الغنى والبخل ، مالك من غنىً ... وكذاك ، يا ذا المال ، مالك مالُ

... إلخ .

وهى استفتاحية تجرى فى ركاب أبى نواس . وبالمناسبة ، فالبيتان الثالث والرابع يردّدان بقوةٍ أصداء قول امرىء القيس :

سمـوتُ إليهـا بعـد ما نـام أهلهـا سموّ حبـاب الماء حالاً على حال

...

فأصبحت معشوقـا ، وأصبـح بعلهـا عليـه القتـام سـيء الظـنّ والبـال

أما أبياته الميمية فى الشماتة والتلذذ بما حدث لبكر بن دهمرد ، الغلام الذى كان يشتهيه ولكن لم يستطع أن يناله ، فهو يبدؤها بالتلاعب بشطرة من مقدمة طللية قديمة :

يا بكر ، ما فعلت بك الأرطال ؟ بل يـا دار ، ما فعلـت بـك الأيـامُ

فـى الـدار بَعْـدُ بقيـةٌ نستامهـا إذ ليـس فيـكَ بقيـة تُسْتَـامُ

ومن شعر ديك الجن الذى استهله بمقدمةٍ (وهى مقدمة غزلية) أبياته المدحية التالية :

وغريـر يقضـى بحكمين : فى الرا ح بجَـوْرٍ ، وفـى الهـوى بمُحَـال

للنّقـا ردفـه ، وللخُـوط مـا حُمّـ ـل لينّـا ، وجيـده للغـزال

فَعَلَـتْ مقلتـاه بالصبّ ما تفـ ـعل جـدوى يديـك بالأمـوال

لم تُقَسْ بالـذى عـداك من الخَلْـ ـق ، فمـا الشامخات مثل الرمال

متخلّصا هكذا من الغزل إلى المديح ، كما بينا سابقا .

ويكثر الطباق والجناس ، وبالذات الأول ، كثرة ملحوظة عند شاعرنا . ولنأخذ بائيته فى رثاء جعفر بن على الهاشمى مثالاً على ذلك ، ونلتقط منها هذه الأبيات :

ويضحك سنُّ المـرء والقلب موجـع ويرضـى الفتى عن دهره وهو عاتب

...

إلى أى فتيان الندى قصد الرَّدَى ... وأيهمو نابت حماه النوائبُ ؟

...

ويا لأبى العباس ! إن مناكبًا ... تنوء بما حمَّلْتَها لنواكبُ

...

أخًا كنتُ أبكيه دمًا وهو حاضر ... حذارا ، وتعمى مقلتى وهو غائب

...

وما الإثم إلا الصبر عنك ، وإنما ... عواقب حمد أن تُذَمَّ العواقبُ

...

فو الله إخلاصًا من القول صادقا ... وإلاَّ فحبّى آل أحمد كاذبُ

...

شمائل إن يشهد فهن مشاهد ... عظامٌ ، وإن يرحل فهن كتائبُ

وعلى ذلك فقس بقية شعره .

وفى حالات غير قليلة نلحظ حرصه على توفير القوافى الداخلية ، التى أحيانًا ما تكون جناسًا أيضا ، مثل :

مقابر تحتها منابر من ... علم وحلم ومنظر عجب

* * *

الحوض حوضهمو ، والجَدّ جدّهمو ... وعند ربهمو فى خلقه غِيَرُ

* * *

دعوا ابن أبى طالب للهدى ... ونحر العِدا كيفما يفعلُ

* * *

والدهر لا يأمن مَنْ صَرَفَه ... مُسَرْبَلٌ بالسَّرْدِ مُسْتَبْسِلُ

* * *

إلى أى فتيان الندى قصدى الرَّدِىَ ... وأيهمو نابت حماه النوائبُ ؟

* * *

قال ذو الجهل : قد حَلُمْتُ . ولا ... أعلم أنى حَلُمْتُ حتى جَهِلْتُ

* * *

أما والله لو عاينت وجْدى إذا استعبرتُ فى الظلماء وحدى

* * *

فقام مختلفا كالبدر مطّلعا والظبى ملتفتا ، والغصن منعطفا

* * *

إذا غَدَتْ خيلهم تَخْدِى بهم خَبَبًا لنجدة عَدَتِ الآجالُ فى الخَذَم

* * *

ودَّعتُها لفراق فاشتكت كبدى إذ شبَّكتْ يدها من لوعة بيدى

أنا من قولى : « مليحٌ أو قبيحٌ » مستريحُ

إن العلا شيَمى ، والبأس من نقمى والمجد خلْط دمى ، والصدق حشو فمى

ومن الملامح الفنية فى شعر ديك الجن أيضا تكرار اللفظ أو العبارة فى مواقف الحدة العاطفية لتأكيد المعنى وإحداث شىء من الموسيقى :

يا عين ، لا للغضا ولا الكُثُب بُكَا الرزايا سوى بُكَا الطَّرَب

جودى وجِدّى بملء جفنك ، ثم احتفلى بالدموع وانسكبى

يا عين ، فى كربلا مقابر قد تركن قلبى مقابرَ الكُرَب

مقابر تحتها منابر من علم وحِلْم ومنظر عجب

* * *

أبكيكمو يا بنى التقوى وأُعْولكم وأشرب الصَّبْرَ وهو الصاب والصَّبرُ

أبكيكمو يا بنى بنت الرسول ، ولا عفت محلّكم الأنواءُ والمطرُ

* * *

فيا لأبى العباس ! كم رُدَّ راغب لفقدك ملهوفا ! وكم جُبَّ غاربُ !

ويا لأبى العباس ! إن مناكبًا تنوء بما حملتها لنواكبُ

* * *

خفتِ سرّى مواتيه والمنايا معاديه

...

خنـــتِ ســـرّى ، ولم أخنـــ ـك ، فَمُوتِـــــى علانيـــه

* * *

جاءوا برأسك يا ابن بنت محمد مترمـــلا بدمائـــه ترميـــلا
وكأنما بـــك يـــا ابن بنت محمد قتلـوا جهـــارا عامديـــن رسولا

وتكثر عنده سلاسل المعطوفات :

نفســـى فـــداء لكـــم ومـــن لكمـــو نفســـى وأمّـــى وأسرتـــى وأبـــى

* * *

يا طـول حزنـى ولوعتـى وتبارِيـــ ـحى ، ويـا حسرتـى ، ويا كُرَبِى

* *

يا سيـد الأوصيـاء والعالـى الحـــ ـجة والمرتضَـــى وذا الرُّتَـــبِ

* * *

نحـن فـــداء لـــك مـن أمـــــة والأرضُ والآخـــــرُ والأوّل

* * *

وأيـن حللـتَ بعـد حلـول قلبـى وأحشائـــى وأضلاعـــى وكبـدى ؟

* * *

أمـا واللـه لـو عاينْـت وجـــدى إذا استعبرتُ فى الظلمـاء وحـدى
وجـدٌ تنفســـى وعـــلا زفيـــرى وفاضت عبرتـــى فـــى صحن خـدّى

* * *

بأبـى فـى الحيـــاة وفـــى المـــو ت ، تحـت الثـرى ويـوم النشـور

* * *

أيـن جـوب البـلاد شرقـا وغربـا واعتســـاف السهـــول والأجبـال
واعتـــراض الرقـــاق يوضـــع فيهـا بطبـــاء النّجـــاد والعُمَّـــال ؟

* * *

انظـر إلى شمـس القصـ ـرهـــا وإلى خزاماهـــا وبهجـــة زهرهـــا

ورغم أن لغة ديك بوجه عام لغة سهلة فإننا نفاجأ بين الحين

والآخر بلفظة غريبة تبدو نشازاً فى العبارة التى وردت فيها :

حتـــى إذا أوْدَع النبـــى شجـــا قَيْدَ لهـاة القَصَاقِص الحَرب (٦٤)

* * *

والدهـر لا يأمـــن مـــن صَرْفِـــه مُسَرْبَـــلٌ بالســـــرد مستبســـلُ

ولا عَقَنْبَـــــاةُ السُّلامـــى لهـــا فـى كـل أفـق عَلَـقٌ مُهْمَلُ (٦٥)

* * *

بينـــا علـى ذلـــك إذ عرشَـــتْ فى عرشـه داهيـةٌ ضَبْـلُ (٦٦)

* * *

ومُـــزْرٍ بالقضيـــب إذا تثنَّـــى وعزْهَـاة على القمر التَّمـام (٦٧)

* * *

وادَّرِعْ يَلْمَـق اجتيـاب دجـى الليـــــل بطـرْف مُغَبَّـر الأوصـال (٦٨)

* * *

فقـدّم ديكًـا عُـدّ دهـــرا ذملّقـــا مؤنّـس أبيات ، مؤذّن مسجد (٦٩)

وهو يستوحى العبارات القرآنية من وقت لآخر :

إنـــا إلـى اللـــه راجعـــون علـــى سهو الليالى وغفلة النُّوب (٧٠)

* * *

وفـى غـد ، فاعلمـــن ، لقاؤهمـــو فإنهـــم يرقبـــون فارتقـــب (٧١)

* * *

جعلـــوك رابعهـــم أبا حسَـــن ظلموا وربّ الشَّفْـع والوتْـر (٧٢)

* * *

وكـرّى يُروّعنـى سـرى لـــو أنـه ظـلٌّ لكـان الحرّ واليحمومـا (٧٣)

* * *

سمعـوا الصـلاة علـى النبـى توالـى فتفرّقوا شيعا وقالوا : لا ، لا (٧٤)

* * *

شبيـه قميـص يوسـف حيـن جـاؤوا علـى لبّاتـه بـدم كَـذُوب (٧٥)

وقد تكررت عنده التفدية بأبيه (هكذا : « بأبى ... ») :

بأبى أنت فى الحياة وفى المو ت ، وتحت الثرى ويوم النشور

* * *

بأبى نبذتك فى العراء المقفر وسترتُ وجهك بالتراب الأعفر
بأبى بذلتُك بعد صون للبلى ورجعتُ عنك صبرتُ أم لم أصبر

* * *

بأبى فمٌ شهد الضميرُ له قبل المذاق بأنه عذبُ (٧٦)

* * *

بأبى ، وإن قلّتْ له « بأبى » ، من ليس يعرف غيرَه أرَبى

* * *

يأبى الثلاث الآنسا تُ الرائعاتُ الغانياتُ

كما لاحظت عنده تكرر القسم بـ « وحق كذا » ثلاث مرات :

فوحق نعليها ، وما وطىء الحطى شىءٌ أعزّ على من نعليها

* * *

أجبنى إن قدرتَ على جوابى : بحقّ الودّ كيف ظللتَ بعدى ؟

* * *

وحقّهم ، إنه حق اضنّ به ، لأُنفدنّ لهم دمعى كما نفدوا

ولديك الجنّ عدد من المعانى والصور المنعشة الطريفة ، مثل قوله على لسان النبى عليه السلام مخاطبا عليا كرم الله وجهه :

وأنت منى الزرُّ فى قميصى وما لمن عاداك من محيص

* * *

غداة مؤتة والإشراك مكتهل والدين أمرد لم يبقع فيحتلم

* * *

بانوا فأضحى الجسم بعدهم لا تصنع الشمس له فيئا

...

يا ليت شعـرى ما اعتـذارى لهـم إذا رأونـى بعدهـم حيًّـا ؟

* * *

ومملـوء مـن الحَـزَن يعالـج سَـوْرَةَ الأرَق

...

كـأن فـؤاده قلقـا لسـان الحيـة الفـرق

وأضلعـه لقضقضـة صيـارفُ حاسبـو وَرق

* * *

كـأن قلبـى إذا تذكَرهـا فريسـةٌ بيـن ساعـدىْ أسـد

* * *

يرقد النـاس آمنيـن ، وريـب الدهـ ـر يرعاهمـو بمقلـة لـصّ

* * *

نبـاتٌ فـى الـرؤوس لـه بيـاض ولكـن فـى القلـوب لـه سـوادُ

كما أن بعض أبياته تصلح أن تكون أمثالاً :

كصيـاد الطيـور لـه انتحـابٌ عليهـا وهـو يذبحـا بحـدّ

* * *

الخَلْـق ماضـون ، والأيـام تتبعهـم تفنى ويبقـى الاله الواحد الصَّمَـدْ

* * *

ولا تثقَـنْ بالغانيـات وإن وفـت وفـاءُ الغوانـى بالعهـود من الغـدْر

* * *

جسّ الطبيب يدى جهدا فقلـت له : إن المحبة فـى قلبـى فخَـلّ يدى

* * *

فـإن مـات لم يَحْـزُنْ صديقًا مماتُهُ وإن عـاش لم يضـرر عـدوًا بقـاؤُهُ

وأخيرا ينبغى التنبيه إلى التشابه الواضح فى الألفاظ ، وبخاصة ألفاظ القوافى ، وفى بعض العبارات والصور بين بائية أبى تمام فى فتح عمورية وبائية ديك الجنّ فى آل البيت التى مطلعها :

يا عيـــن لا للغضـا ولا الكُثُـــبِ بُكَـا الرزايـا سوى بُكَـــا الطَـــرَبِ

وذلك مثل : « الكُرَبِ ، منقلب ، اللَّهبِ ، من كَثَبِ ، العَرَبِ ، النُّوَبِ ، الخَرِب ، مهتوكة الحُجُبِ ، سَرِبِ ، رَبْعها الخَرِبِ ، الشُّهُبِ ، الحَلَبِ ، اللَّعبِ ، الحَرَب ، الخُطَبِ ، النَّسَبِ ، بأبِ » . ومعلوم أن ديك الجنِّ كان يشجِّع أبا تمام فى أيام شدوه للأدب ، كما اتُّهم أبو تمام بالسرقة من شعر ديك الجنِّ . وقد أشرنا إلى هذا وذاك آنفا . ومع ذلك فليس ثمة وجه للمقارنة بين القصيدتين ، فبائية أبى تمام فوق هام السحب .

الهوامش

١- انظر فى ترجمة ديك الجن « الأغانى » / مؤسسة عز الدين / بيروت / ١٢ / ١٣٦ وما بعدها ، و « وفيات الأعيان » / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد / القاهرة / ط ١ / ١٣٦٧ هـ / ٢ / ٣٥٦ وما بعدها ، و « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان / تعليق د . شوقى ضيف / دار الهلال / ٨٤ - ٨٥ ، و « تاريخ الأدب العربى » لبروكلمان / ترجمة د . عبد الحليم النجار / دار المعارف / ط ٤ / ٢ / ٧٧ ، و « العصر العباسى الأول » للدكتور شوقى ضيف / دار المعارف / ط ٦ / ٣٢٤ ، و « تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية » لعمر فروخ / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ٢٧١ - ٢٧٢ ، و « الشعر والشعراء فى العصر العباسى » للدكتور مصطفى الشكعة / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٢ / ١٩٧٥ م / ٥٧٧ وما بعدها ، ومقدمة ديوانه لمحققيه د . أحمد مطلوب وعبد الله الجبورى / دار الثقافة / بيروت . وثمة دراسة عن الشاعر وشخصيته وشعره أتانى بها أحد الأصدقاء بعد الفراغ من هذا الفصل بعنوان « ديك الجن الحمصى » لمظهر الحجّى ، وكذلك مقدمة هذا المؤلف لديوان الشاعر ، الذى أضاف فيه إلى ما كان معروفا من شعره شعرًا كثيرًا آخر . وهو غير الديوان الذى حققه د . مطلوب والأستاذ الجبورى ، والذى سيكرن معتمدى فى الأساس عليه .

٢- بعد أن حبَّرتُ هذا الفصل وقع لى ديوان الشاعر (جمع وتحقيق الأستاذ مظهر الحجىّ) وفيه زيادات على ما جمعه د . مطلوب والأستاذ الجبورى تبلغ نحو الثلث . وقد أعدت النظر ، بناء على ذلك ، فيما كتبته فى هذا الفصل ، فزدت أشياء ، واستدركت أشياء . وحينئذ كنتُ أشير إلى تحقيق الأستاذ الحجّى . أما عندما أشير إلى ديوان الشاعر بإطلاق فالمقصود ديوانه بتحقيق د . مطلوب والأستاذ الجبورى .

٣- الأغانى / ١٢ / ١٤٠ .

٤- وفيات الأعيان / ٢ / ٣٥٦ .

٥- تاريخ الأدب العربى / ترجمة د . عبد الحليم النجار / ٢ / ٧٧ .

٦- تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية / ٢٧١ .

٧- النَّثا : الأخبار .

٨- العصر العباسى الأول / ٣٢٤ - ٣٢٥ .

٩- تاريخ آداب اللغة العربية / ٢ / ٨٥ .

١٠- الشعر والشعراء فى العصر العباسى / ٥٧٨ .

١١- ديوان ديك الجن / ١٧ .

١٢- ص / ٥٧ - ٥٩ من الديوان .

١٣- أى أوصى بعلى كرم الله وجهه .

١٤- المقصود عمر رضى الله عنه .

١٥- المقصود أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

١٦- قبيلة أبى بكر .

١٧- قبيلة عمر .

١٨- المقصود عمر .

١٩- النُّثاَ : الأخبار .

٢٠- العصر العباسى الأول / ٣٢٠ - ٣٢٥ .

٢١- الأنعام / ٥٠ .

٢٢- الأعراف / ١٨٨ .

٢٣- الأغانى / ١٢ / ١٣٦ .

٢٤- وفيات الأعيان / ٢ / ٣٥٦ .

٢٥- تاريخ الأدب العربى / ٢ / ٧٧ .

٢٦- الأغانى / ١٢ / ١٣٦ . ويفسر د . شوقى ضيف هذه العبارة بأن أبا الفرج يقصد « أن يقرنه بأبى تمام والبحترى ومن كانوا يُعْنَوْن فى شعرهم بالبديع » (العصر العباسى الأول / ٣٢٦) .

٢٧- انظر « ضحى الإسلام » / مكتبة النهضة المصرية / ط ٧ / ١ / ٦٣ - ٦٤ .

٢٨- انظر كتابه « مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى » / القاهرة / ط ١ / ٣١٣ - ٣١٤ .

٢٩- العصر العباسى الأول / ٣٢٥ .

٣٠- البقرة / ١٧٨ .

٣١- مقدمة « ديوان ديك الجن » / ١٦ - ١٧ .

٣٢- يرى د . شوقى ضيف أن ممدوح ديك الجن فى هذه القصيدة كان واحدًا من أجواد العرب . وأرجّح أنا أنه كان أعجميا مثله . ذلك أن الأستاذ الدكتور قد أورد الشعر الذى استشهد به على نحو آخر غير الرواية التى ورد بها فى الديوان الذى أعتمد عليه . وقد فهم قول الشاعر : « فاضمم يديك » بمعنى : « اقبضهما عنى ، ولا تصلنى » . أما على الرواية التى اعتمدتُ عليها فقد فهمته على أنه يعنى : « اضمم يديك علىّ ، وقربنى منك وأكرمنى » . فإن أخذنا مع ذلك بتفسير الأستاذ الدكتور يكن السبب فى ثورة ديك الجن هو هذا الفشل الذى باء به من لدن ذلك العربىّ ، مما أثار عزة نفسه وجعله يفخر بأصله الفارسى الذى كان وراء تجهم السيد العربى فى وجهه . وهى ثورة مفهومة ، وليس فيها أية إساءة إلى العرب ولا غضّ من قدرهم .

٣٣- العصر العباسى الأول / ٣٢٥ .

٣٤- المقصود آل البيت .

٣٥- وإن كان هذان البيتان قد نُسبا لغيره أيضا . انظر « ديوان ديك الجن الحمصى » / جمع وتحقيق مظهر الحجى / منشورات وزارة الثقافة السورية / دمشق / ١٩٨٧ م / ٢٠٢ .

٣٦- انظر شرح البيت فى هامش ١ / ص ٨١ من الديوان .

٣٧- انظر تقديم القصيدة فى الديوان / ٧٨ .

٣٨- انظر « الأغانى » / ١٢ / ١٣٦ - ١٣٧ ، وانظر كذلك هـ ١ / ص ٧٨ من الديوان .

٣٩- ص / ١٧٠ من الديوان .

٤٠- انظر الراغب الأصفهانى / محاضرات الأدباء / المطبعة الشرقية / القاهرة / ١٣٢٦هـ / ٤ / ٤٢٣ . وانظر كذلك « تعريف القدماء بأبى العلاء » / دار الكتب / القاهرة / ١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤ م / ٤٠١ . وكذلك هـ ١ ، ٢ / ص ١٧٠ من الديوان .

٤١- الراغب الأصفهانى / محاضرات الأدباء / ٢ / ١٨٣ . وانظر الأبيات فى « ديوان ديك الجن الحمصى » / جمع وتحقيق مظهر الحجّى / ١٣٩ .

٤٢- انظر « الأغانى » / ١٢ / ١٣٨ - ١٣٩ .

٤٣- انظـر « مصارع العشاق » / القسطنطينية / ط ١ / ١٣٠١ هـ / ٣ / ٤٢ - ٤٣ .

٤٤- انظر عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية / ٢٧٢ .

٤٥- انظر الديوان / ١٤٧ / هـ ١ .

٤٦- انظـر « وفيـات الأعيـان » / ٢ / ٣٥٦ ، والأغانى / ٢ / ٣٥٦ ، ومقدمـة « ديوان ديك الجن » / ٩ . صحيح أن هناك قصة فى ابن عساكـر عن محاولة أبى تمام ، بناء على طلب بعض الشعراء ، أن ينبه ديك الجن من سكره لقاء عشرة آلاف درهم ثم إيثاره فى النهاية أن يتركه عندما وجده عقيب يقظته ينشده ، فى تيه وتحدّ ، قصيدته الرائعة فى وصف الديك ، وقوله لهم : إنه فضّل أن يتركه لينام خوفا من أن يكلفهم عشرة آلاف كبيرة ، مما استنتج منه مظهر الحجّى أن العلاقة بين الشاعرين لم تنقطع ، وأنها علاقة ودّ وتبسّط لا كلفة فيها (انظـر مقدمة « ديوان ديك الجـن الحمصـى » / جمع وتحقيق مظهر الحجى / ٢٣ - ٢٤ ، وكذلك « ديك الجن » لنفس المحقق / ٩) . بيد أن ذلك الخبر يبدو لى مصنوعا لا صحّة له ، وبخاصة أن أحدا قبل ابن عساكر لم يذكره ، وبين ابن عساكر وديك الجن أكثر من ثلاثة قرون .

٤٧- انظـر « العمدة » لابن رشيق / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد / المكتبة التجارية الكبرى / ط ٢ / ١٩٥٥ م / ١ / ١٠١ .

٤٨- وذلك بخلاف الحسن بن وهب مثلاً ، الذى كتب لأبى تمام رسالةً تعبّر بكل وضوح عن شدة إعجابه بشعره وفنه . وفى هذه الرسالة يقول : « أنت ، حفظك الله ، تحتذى من البيان فى النظام مثل ما يقصد بحر فى الدرر من الأفهام . والفضل لك ، أعزّك الله ، إذ كنت تأتى به فى غاية الاقتدار على غاية الاقتصار فى منظوم الأشعار ، فتحل متعقده ، وتربط متشرده ، وتنظم أشطاره ، وتجلو أنواره ، وتفصله فى حدوده ، وتخرجه فى قيوده ، ثم لا تأتى به مهما اقتبسته مشتركا فيلبس ، ولا متعقدا فيطول ، ولا متكلفا فيحول . فهو كالمعجزة تضرب فيها الأمثال ، ويشرح فيه المقال . فلا أعدمنا الله هداياك واردة ، وفوائدك وافدة ... إلخ » / الحصرى / زهر الآداب (مطبوع على هامش « العقد الفريد » / المطبعة العامرة الشرفية / القاهـرة / ١٣٠٥ هـ / ٣ / ١٤٢) .

٤٩- انظر « ديوان ديك الجن الحمصى » / جمع وتحقيق مظهر الحجّى / ٢٠٢ .

٥٠- انظر ديوان ديك الجن / ١٨٨ ، وديوان على بن الجهم / تحقيق خليل مردم بك / لجنة التراث العربى / بيروت / ط ٢ / ١٨٠ .

٥١- حَجَفٌ خلائق : تروس ملساء .

٥٢- الديوان / ١٦٥ - ١٦٦ .

٥٣- الإثر : ضراب الفحل للناقة .

٥٤- مَلْك العجين : عجنه جيّدا .

٥٥- النكاريش : أصحاب اللحى . وهى كلمة فارسية .

٥٦- انظر الديوان / ١٦٢ / هـ ٢ .

٥٧- ص / ١١٠ - ١١١ من الديوان .

٥٨- الذملّق : الفصيح الحادّ اللسان .

٥٩- الشَّعَف : المكان العالى .

٦٠- مشنَّف : لابسٌ الشنف ، وهو القرط .

٦١- ضَفَا : استمر فى الغناء .

٦٢- انظر كتابه « الشعر والشعراء فى العصر العباسى » / ٥٩٣ - ٥٩٤ .

٦٣- انظر « ديوان ديك الجن الحمصى » / جمع وتحقيق مظهر الحجّى / ١٢٣ - ١٢٥ .

٦٤- القَصَاقِص : القوى .

٦٥- العَقَنْباة : العُقاب الحادة المخالب .

٦٦- ضِنْبِل : دهياء .

٦٧- العِزْهاة : التيّاه .

٦٨- اليلمق : نوع من الأقبية .

٦٩- الذملّق : الفصيح الحاد اللسان .

٧٠- من قوله تعالى « إنا لله وإنا إليه راجعون » (البقرة / ١٥٦) .

٧١- من قوله تعالى : « فارتقب ، إنهم مرتقبون » (الدخان / ٥٩) .

٧٢- من قوله تعالى : « والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر » (الفجر ١ - ٣) .

٧٣- من قوله تعالى : « وظلٍّ من يحموم » (الواقعة / ٤٣) .

٧٤- من قوله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ... » (الأنعام / ١٥٩) .

٧٥- من قوله تعالى : « وجاءوا على قميصه بدمٍ كَذب » (يوسف / ١٨) .

٧٦- وإن كان هذا البيت والبيت الذى يليه ينسبان إلى غيره أيضا ، كما سبق أن ذكرنا .

العَطَوِىّ

هو محمد بن (عبدالرحمن بن (أبى)) عطية ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، ولقبه « العطوىّ » ، نسبة ، فيما يبدو ، إلى « عطية » هذا . وهو مولًى لأحد أفخاذ بنى كنانة .

وقد نشأ بالبصرة ، ولا تُعْرف سنة مولده ، أمَّا وفاته فجعلها الزركلى فى سنة ٢٥٠ هـ أو نحوها .

وكان العطوىّ معتزليا . وقد اتصل بالقاضى أحمد بن أبى دؤاد ، وكان يحضر مجالسه . كما كان فصيحًا بارع الحجة فى الجدال . وذكر له مؤرخوه كتابين فى عقيدة الاعتزال .

ولم تكن حياة العطوى ميسورة ، وبخاصة بعد وفاة ابن أبى دؤاد ، الذى كان يقرِّبه إليه ويَبرّه ، والذى انقطعت بموته هذه المبرّات ، مما جعل حياة الشاعر حياة ضنك وإملاق ، وأطلق لسانه بشعر الشكوى والتسخُّط على ما كان يعانيه من فقر وحرمان .

ويقول صاحب « الفهرست » إن ديوانه يبلغ مائة ورقة ، فى كل ورقة عشرون سطرًا ، أى فى حدود ألفى بيت . ومع ذلك فإن ما استطاع محمد جبار المعيبد أن يجمعه له من شعر من المظانّ المختلفة لم يزد عن الثلاثمائة بيت إلا قليلا ، ويقع فى اثنتين وأربعين صفحة من القطْع المتوسط بالتعليقات والشروح ، مع ملاحظة أن البيت يُكْتب دائمًا فى سطرين (١) ، وذلك فضلاً عمَّا اختُلف فى نسبته إليه أو إلى غيره ، ويقع فى عشر صفحات من هذا النوع (٢) .

ويدور شعره الذى جمعه له الأستاذ المعيبد على وصف مجالس الشراب ، وشكوى الزمان ، والإخوانيات ، والغزل ، والمديح ، والرثاء ، والهجاء . وله قصيدة اعتزالية يرد فيها على هشام بن الحكم الرافضى . وأكثر شعره فى وصف الشراب ومجالسه . وقد كان « منهومًا بالنبيذ » كما يقول صاحب « الأغانى » ، الذى وصف شعره فى الخمر قائلاً إن « له فى وصف الصبوح وذكر الندامى والمجالس أحسن قول . وليس له قول يسقط » (٣) .

ونصوص شعره الخمرى تتراوح ما بين البيتين إلى الأحد عشر بيتا . وهو فى هذا اللون من الشِّعر يهتم بوصف الجوّ وتحديد الوقت . وأفضل الظروف للشرب فى نظره أن يكون الوقت صبحا أو ليلا ، والجو غائمًا أو ممطرا :

ما ترى يومنا وحسن ابتدائه ... وندى أرضه وهطل سمائه ؟
إن صدر النهار أنضر شطريـ ... ـه كما نضرة الفتى فى فتائه

* * *

أدرتُها والبساط منتشرة ... حمراء فى لؤلؤ من الحَبَب
فوق قصور على مشرفة ... تضىء والليل أسود الحجب
بيض إذا الشمس حان مغربها ... حُسبت أطرافهن من ذهب

* * *

يومنا طيب به حسن القصـ ... ـف وحث الأرطال والكاسات
ما ترى البرق كيف يلمع فيه ... ورشاشا يسل فى الساعات ؟

* * *

يوم مطير ، وعيش نضير ... وكأس تدور ، وقدر تفور

...

فقم نصطبح قبل فوت الزمان ... فإن زمان التلهى قصير

* * *

أدر الكأس ، قد تعالى النهار ... ما يميت الهموم إلا العقارُ
صاح ، هذا الشتاء ، فاغد علينا ... إن أياميه لذاذ قصارُ
أى شيء ألذ من يوم دجن ... فيه كأس على الندامى تدارُ ؟

* * *

قم سيدى ، قد تنفس السَّحَرُ ... والماء من برد ريحه خَصِرُ
والراح قد صُفّقت أبارقها ... موقوفة ، والسقاة تنتظر
وزهرة أشرقت مصابحها ... لولا الندى طار حولها شررُ
دنا إليها فى الليل مقتبس ... لما رآها كالنار تستعر
رعت نجوم السماء باهتة ... والليل داجى القناع معتكرُ
بعين يقظى وجيد ناعسة ... دام عليها الوقوف والسهرُ

* * *

أعن المدامة عذرة مبسوطة ... برح الخفاء ولاحت الأسرار
ما للسلامة كالصبوح مطية ... لا سيما إن حنت الأوتارُ

أما الشراب فى وسط النهار فإنه يتسخّطه ولا يطيقه :

قبّح الله أولَ الناس سن الشـ ... ـرب ظُهْرا ! ماذا أتى من خسار ؟
مجلس مونق وكأس وندمان ... وتأخيرها إلى الأظهار
نكتة فى السرور بادية الشيـ ... ـن لأهل العقول والأبصار
إن شرب المدام سير إلى اللهـ ... ـو ، وخير المسير صدر النهار

وله فى الخمر بيتان يصوران شربها وما يصاحبه من ملاهٍ وكأنه الحجّ ومشاعره ، وهو ما يشى بمكانة بنت الكرم عنده :

يوم حج إلى المدام ، وقربا ... ن بزقٌّ مُوثق كالهدىّ
فاقتحم فى مشاعر اللهو ، وانظر ... كم بها من حليف بال رخىّ

والذى جعل للخمر كل تلك المكانة عنده أنه كان يريد أن ينسى بها

همومه ، ويتشاغل عن حظه السيىء ، ويفقد قدرته على التفكير فى أحوال الدنيا المقلوبة ، التى تَسُرُّ الجاهل الفَدْم بكل ما يريد وتحرم العاقل العالِم وتملؤه حزنًا وكربا :

أعجبنى أن أنـــاخ بـــى الـــد ... هـــر فحاكمتـــــه إلى الأقـــداح
لا تـــرد الهمـــوم ينشبـــن أظفـــا ... را حـــدادا بشـــرب مـــاء قراح
لم أحاكـم صـــروف دهـــرى فى الأقـ ... ـداح حتـى فقدت أهـــل السماح
أحمـد اللـه ، صـارت الخمر تأسـو ... دون إخوانـــىَ الثقـــات جراحـــى

* * *

فى الراح لى راحة من بعض ما أجدُ ... فسقّينها . سقاك البـــارقُ الرعـــدُ

* * *

لمـا رأيـت الدهـــر دهـــر الجاهـــل
و ... المحـــزون غيـــر العاقـــل
شربـــت صرفًـــا مـــن كـــروم بابـــلِ
فصـــرت مـــن عقلـــى علـــى مراحـــل

وما أجمل الصورة التى فى الشطرة الأخيرة ، تلك التى تُخْرِج عقل الشخص من رأسه وتضعه فى مكان بعيد منه تفصل بينهما مراحل . ولعلّ المقطعة التالية تجرى فى نفس الاتجاه :

يـــا أيهـــا الجامـــع عامـــا جمًا
امـض إلى الحُرقة (٤) قدمـ قدمـــا
حُرمْـــت وفـــرا وازدْت وهمـــــا
فـــو الـــذى أجـــزل منـــه القسمـــا
لأحـــدن أن أكـــون خد ـــــا

وهو فى خمرياته يلحّ على أهمية النديم فى الاستمتاع بالشراب ، بل قد يجعله أهمَّ من الشراب ذاته . والنديم عنده ليس أى شخص والسلام ،

بل لابدَّ أن يكون حرًّا كريمًا مجرّبا سمحًا لا يصخب ولا تغلبه سورة السكر على نفسه :

فكم قالوا: « تمنّ » : فقلت : كأسا ... يطوف بها قضيب فى كثيب
وندمانا يساقطنى حديثا ... كلحظ الحبّ أو غضّ الرقيب

* * *

اخطب لكأسك ندمانًا تُسَرُّ به ... أوْ لا فنادم عليها حكمة الكتب
اخطبه حرًّا كريما ذا محافظة ... يرى ندامتها (٥) من أقرب النسب
فإن يكن حلب الأيام أشطرها ... وقوّمَتْه وأرْضَتْه يد الأدب
فقد ملأت به كفيك من رجل ... يرعى ذمامك رعى الواصل الحدب

* * *

طيب النديم يفُوق طيب الراح ... ويحث شاربها على الأقداح
تصفو الزجاجة بالنديم إذا صفا ... ويكدّر الندمان صفو الراح

* * *

ما رأينا لنشوة الصبح شكلا ... كنديم مساعد وعقار

* * *

حقوق الكأس والندمان خمس : ... فأولها التزين بالوقار
وثانيها مسامحة الندامى ... فكم حمت السماحة من ذمار
... إلخ .

* * *

يقولون : « قبل الدار جارٌ مجاورٌ ... وقبل طريق النهج أُنْسُ رفيق »
فقلت : « وندمان الفتى قبل كأسه ... فما حث كأسَ المرء مثلُ صديق »

* * *

ما حث كأسك كالصديق الوامق ... ونفى همومك كالشراب العاتق
الكأس والندمان أحسن منظرا ... من كل ملتف الحدائق رائق
فإذا جمعت صفاءه وصفاهما ... فاقذف بكلّ ملمة من حالق

وللحديث على الشراب (وعلى غير الشراب) عنده قيمة جليلة . وهو يشبّه الحديث الطيب تشبيهات مختلفة : فهو كلحظ الحِبّ أو غضن الرقيب ، أو كابتسام الرياض عقيب المطر ، بل إنه ليَفْضُل نفح نسيمها أوانذاك :

وندمانا يساقطنى حديثًا ... كلحظ الحِبّ أو غضّ الرقيبِ

* * *

خذ حديثى ، فإن وجهىَ مُذْ با ... رز هذا الأنام فى ثوب فارِ

وهو للسامعين أطيب من نَفـ ... ـح نسيم الرياض غِبّ القطارِ

* * *

ما رأينا لنشوة الصبح شكلا ... كنديمٍ مساعدٍ وعقار

...

وأحاديث فى خلال الأغانى ... كابتسام الرياض غِبّ القطار

إذا حدّثته (٦) فاكْسُ الحديث الـ ... ـذى يصغى له ثوب اختصار

فما حُثّ النبيذ بمثل حسن الـ ... أغانى والأحاديث القصار

وعلى عكس وقوفه عند النديم والحديث على الشراب نراه لا يتريث عند وصف الكأس أو الساقى أو المغنية . كذلك لا نجد له قصصا خمريا .

ومما تكرر عنده من معان تتعلق بالخمر ومجالسها معنى « دوران الكأس على الشاربين » :

فكم قالوا : « تمنَّ » ، فقلت :كأسًا ... يطوف بها قضيب فى كثيب

* * *

أدرتُها والبساط منثرة ... حمراء فى لؤلؤ من الحَبَب

* * *

وندمان صدق أدرتُ الكؤوس ... على رأسه جهرة فاستدارا

* * *

يـوم مطيـــر ، وعيـــش نضيـــر وكـأس تـدور ، وقـــدر تفـــور

* * *

أدر الكـأس ، قـد تعالـى النهـار ما يميـت الهمـــومَ إلا العقـــارُ

* * *

أى شـــىء ألـذّ من يـوم دجـــن فيـــه كـأس علـى الندامى تدار ؟

ولأترك القارىء الآن مع أطول خمريات شاعرنا كى يأخذ فكرة كاملة عن الفن الشعرى الخمرى عنده . وهو يركز الكلام فيها على حقوق الكأس والنّدمان ، أى أنه يرسى من خلالها آداب الشراب كما يراها :

حقـوق الكـأس والندمـان خمـس : فأولهـــا التزيُّـــن بالوقـــار

وثانيهـــا مسامحـــة الندامـــى فكـم حمت السماحـة مـن ذمار

وثالثها ، ولـو كنـت ابـن خيـر الـ ـبريـة محتـــدا ، تَـرْكُ الفخـار

ورابعهـــا ، وللندمـــان حـــقّ ســوى حـــق القرابـة والجـوار ،

إذا حدثتـــه فاكْـــنُ الحديـث الـ ـذى يصغـى لـه ثـوب اختصار

فمـا حُثّ النبيـذُ بمثـل حسـن الـ أغانـى والأحاديـــث القصـــار

وخامســـة يـــدل بهـــا أخوهـــا علـى كـرم الخليقـة والنّجـــار

حديـــث الأمـــس تنســاه جميعـــا فـإن الذنـــب فيهـــا للعقـــار

ألـم تـــر أن شـرب الـراح صرفـــا ومزجـــا بالصفـــار وبالكبـــار

يـــردّ الشيـــخ ذا الستيـــن غـــرًّا غلامًا ما يفيـــق مـــن الخُمـــار ؟

فمـــن حكّمت كأسك فيـــه فاحكم لـــه بإقالـــة عنـــد العثـــار

وبجانب خمرياته ، التى يبدو فيها واضحًا قويا عشقُه للخمر فإن له شعرًا آخر يبدو فيه التدين والعبادة :

يا نفـس ، دومى على العبادة والصبـ ـــر ، فخيـر العلقيـــن فـى يـدك

إنـى وإن كنـــتُ لابســـا سَنَـــلاً فهمّتـــى فـــوق كاهـــل الفلـــك

والإيمان بأن الأرزاق بيد اللّه ، لا يستطيع العبد ، مهما فعل ، أن يزيدها أو ينقصها :

لا تحسبَنْ طول الرّحَلْ ... يزيد في زرق الأجَلْ
ولا مقامًا وادعًا ... يدفع رزقًا قد نزلْ

وكذلك دعوة النفس إلى الانصراف عن الدنيا واللهو ، والاستعداد للموت والتأهب لما بعده من حساب :

يأمل المرء أبعد الآمال ... وهو رهن بأقرب الآجال
لو رأى المرء رأى عينيه يومًا ... كيف صول الآجال بالآمال
لتناهى وأقصر الخطو في الـ ... ـلهو ولم يغترر بدار الزوال
نحن نلهو ، ونحن يُحْصَى علينا ... حركات الإدبار والإقبال
فإذا ساعة المنية حمَّت ... لم يكن غير عاثر بمقال
نحن أهل اليقين بالموت والبعـ ... ـث وعرض الأقوال والأعمال
ثم لا نرعوى وقد أمهل الـ ... ـله بطول الإيقاظ والإهمال
أي شيء تركت ، يا عارفا بالـ ... ـله ، للممترين والجهّال ؟
تركب الأمر ليس فيه سوى ... أنّك تهواه ، فعل أهل الضلال
أنت ضيف . وكل ضيف ، وإن طا ... لت ليالية ، مُوَدَّنٌ بارتحال
أيها الجامع الذي ليس يدرى ... كيف حَوْز الأهلين للأموال
يستوى في الممات والبعث والوقـ ... ـف أهل الإكثار والإقلال
ثم لا يقسمون للنار والجنـ ... ـة إلاّ بسالف الأعمال

وهذا اللون الأخير من الشعر غريبٌ بإزاء اللون الخمرى . ولسنا نجد له تفسيرًا إلا أن يكون الشاعر قد تاب بأخرة ولم تذكر المصادر عن ذلك شيئًا ، أو ربَّما كانت تنتابه نوبات ندم كان يختلط فيها الواقع بالأمل ، فكان رغم عدم أدائه شعائر العبادة يتخيل أنه يؤديها ويتحدث عنها على هذا الأساس . أم ترى هذا الشعر ليس له ؟ لكن لم يُثِر أحد ، فيما نعلم ،

مسألة الشكّ فى هذه المقطعات ، ولا نُسبت إلى غيره معه .

وفى شكوى الدهر نراه يعلن ضيقه بما كان يعانيه من فقر وحرمان ، ويبدى تعجبه من كثرة عدد أصدقائه وعدم اهتمام أى واحد منهم مع ذلك به أو انتفاعه منهم بشىء :

لى خمسون صديقا ... بين قاض وأمير
لبسوا الوفر فلم أخل ... مع بهم ثوب الفقير
كلهم كال لى الحرما ... ن بالصاع الكبير

وفى جعل « الحرمان » ، وهو معنى سلبى ، مفعولاً لـ « الكيل » ، وهو شىء إيجابى ، تهكم شديد المرارة بهؤلاء الأصدقاء وبحاله معهم .

والبيتان التاليان يعبّران عن نفس المعنى ، وبنفس الطريقة التهكمية :

هذى رقاعكمو بالرفد وافدة ... وليس عندى بحمد الله توفيرُ
أمضيت عزمك فى تضييع حرمتنا ... فليس عندك فى التقصير تقصيرُ

حتى وهو يتغزّل لا ينسى فقره وحرمانه ، وإن أضاف إليهما الشيخوخة والقبح :

تاهت علىّ بحسنها وجمالها ... وتقول لى : يا شيخ ، أنت مخادعْ
شيخٌ وإفلاسٌ وقبحٌ ظاهرٌ ... أطمعتَ فينا ؟ أخلفتك مطامع
فأجبتها : الإفلاس يُذهبه الغنى ... والشيب يُذهبه الخضاب الناصعُ
قالت : فقُبْحُ الوجه فيه حيلة ... والقبح ليس له دواء نافع ؟
يا صدقها ! ما كان أوضح حجتى ... لو كان يدفع قبح وجهى دافعُ !

وقد دفعه بؤسه إلى أن يمد يده ، غير مستنكف من تقبيل الأيادى :

أصبحت بين غضاضة وخصاصة ... والمرء بينهما يموت قتيلا
فامدد إلىّ يدا تعوّد بطنُها ... بذلَ النوال وظهرُها التقبيلا

* * *

إذا ما الحرّ فاز بحسن حال ... أجار صديقه من سوء حال
إذا أثرى رأى حقا عليه ... له الإفضال من قبل السؤال
لعمرك ما رأيت فتى كريما ... يحب المال إلا للنوال
أبا حسن ، ثكلتُ الحزم فيما ... أحاول من مقال أو فعال
لقد كذبت ظنونى فيك إن لم ... أتب من حسن ظنى بالرجال

ثم مع تكرار الفشل أخذ يشعر باليأس التّام من كل الناس . لقد هلك الكرام ولم يبق إلاّ ذوو الشحّ الأدنياء :

سألت عن سبب الإقتار والعدم ... وعن زوال الندى فى العرب والعجم

...

لمّا أناخ علىّ الدهرُ كلكلَه ... وخاننى كل ذى ودّ وذى رحم
ناديت : ما فعل الأحرار كلهمو ... أهل الندى والهدى والبعد فى الهمم؟
قالوا : حدا بهمو ريب الزمان ، فسل ... أحداثه عنهم تخبرك عن رِمَم

أما قصيدته التالية ، وهى أطول ما وصل لنا من شعره ، فتبدو فيها نكهة هزلية شعبية تذكّر بأبى الشمقمق وأبى فرعون الساسى ، إذ يذْكر الشاعر أطماره البالية التى لا تحجز عنه عادية البرد ، والقمل السارح فى قميصه وأنحاء جسده . كما أن فى الأبيات الأخيرة منها شيئًا من رائحة شعر ابن الحجاج فى حديثه عن الكنيف والنَّجْو:

من رماه الله بالإقتار ... وطلاّب الغنى من الأسفارِ
هو فى حيرة وضنك وإفلا ... س وبؤس ومحنة وصغار
يا أبا القاسم الذى أوضح الجو ... د إليه مقاصد الأحرارِ
خذ حديثى ، فإن وجهىَ منذ ... بارز هذا الأنام فى ثوب فار
وهو للسامعين أطيب من نف ... ح نسيم الرياض غِبّ القطارِ
هجم البرد مسرعا ويدى صف ... ر وجسمىَ عارٍ بغير دثار

فتستـــرت منـــه طـــول التشاريـــ ـــن إلـى أن تهتكـــت استـــارى
ونسجـت الأطمـار بالخيـط والإبـ ـــرة حتـــى عريت مـن أطمـــارى
وسعـى القمـــل مـــن دروز قميصـى مـــن صغـار مـا بينهـــم وكبـار
يتساعـون فـــى ثيابـــى إلى رأ ســى قطـــارا تجـول بعـد قطـار
ثـم وافـــى كانـــون واســودّ وجهـى وأتانـــى ما كـــان منـــه حـذارى
لـو تأملـت صورتـــى ورجوعـــى حيـــن أمْشـــى إلـى ربـوع قفـار
أنـا وحـدى فيـه . وهـل فيـه فضـل لجلـوس الأنيـــس والـــزوار ؟
والخـــلا لا يـراد فيـه ، فمـا لـى أبـــدا حاجـــة إلـــى الحفـــار
بـل يـراد الخـــلا لمنحـــدر النَّجْـــ ـــو ، وما ذقت من لقمة فى الدار
وإذا لـم تـــدر علـى المطعـم الأفـــ ـــواه سُدّت مثاعـب الأحجار (٧)

ويلاحظ قول الشاعر فى البيت الثالث قبل الأخير إنه « وحده » فى مسكنه . فهل نفهم من هذا أنه لم يكن قد تزوج بعد عندما نظم هذه القصيدة ؟ أم إن الشاعر فى قوله هذا إنما كان منساقًا مع تيار الهزل الذى يسود الأبيات كلها ؟

ومع ذلك ففى أبيات له أخرى نجده يذكر أولاده ، وفى سياق مشابه لهذا السياق ، إذ نراه يشكو البرد والفقر ، فضلاً عن الديون :

أنـــا طـــرح بيـــــن خـــلاّ ت حديـــــدات النصَّـــــال
بيـــــن ديـــــن وشتـــــاء وعيـــــال واختـــــلال

على أنه فى أحيان أخرى كان يتصبَّر ، محاولاً القناعة والرضا بالواقع ، مؤكدا أن الفقر ليس عيبًا بل العيب هو البخل ، راجيًا أن تتحسن الأحوال فى المستقبل بمشيئة الله ، مؤمنا أن الرزق بيده تعالى وينبغى ألا يذل الإنسان نفسه فى طلبه :

مستشعـر الصبـر مقـرون به الفـرجْ يبلـى ويصبـر والأشيـــاء تتهيّجْ

حتـــى إذا بلغـــت مقـدور غايتها ... جاءتـك تضحك من ظلمائها السُّرُجُ
فاصبر ودُمْ واقرع الباب الذى طلعت ... منـه المطامـع فالمغـرى بـه يلـــج
يقـدّر اللـه ، فـارْجُ اللـه وارض بـه ... ففـــى إرادتـه الغمـــاءُ تنفـــرجُ

* * *

أرِقّـةُ بعيـش فتـى يغـدو على ثقة ... أن الـذى قسـم الأرزاق يرزقـهْ !
فالعِـرْض منـه مصـون لا يدنّســه ... والوجـــه منه جديد ليـس يُخْلِقُـهُ

* * *

إن القناعـة مـن يحلـل بساحتهـا ... لـم يلـق فـى دهـره همًّـا يؤرقـه

* * *

تقـــول : هـــلاَّ رحلـــةٌ ... تنقلنـــا خيـــر نَقَـــــلْ
أخشـــى علـــى جائلـــة الـ ... آمـــال جـــوّالَ الأجـــلْ

* * *

مـــا الفقـــر عـــار . إنمـــا الـ ... ـعار الثَّـــرا والبُخْـــلُ

* * *

رضينـــا بحكـــم اللـه بيـن عبـاده ... رضـا علمـاء لا تسخّـط جهـال
لئـن خَـصّ قومـا بالنباهـة والغنـى ... وألبسنـا ثوبـى خمـــول وإقـلال
لقد جاء بالعلـم النفيـس الـذى بـه ... رشدنـا فلـم نلبـس ملابـس ضـلاّل
فلـو سُمْتَنـا لـم نُعْطِ علمـا بثروة ... ولم نـر للتمييـز كفـوا مـن المـال

والأبيات التالية تعكس أيضا هذا الشعور ، وإن بدا الشاعر فى البيت الأول منها ساخطًا أشدّ السخط على الذين وُسّع عليهم فى الرزق ، إذ يدعو عليهم بأن يُحْرَموا الاستمتاع بما هم فيه :

أقـــول وحالتـــى تـــزداد نقصًـــا : ... أيا من قـد ظفـرتَ ، فـلا تُهَنَّـــا
وللنفـــس التـــى تنقـــضّ حزنـــا ... علـى طلـب المعيشـة : لا تعنّـى
سيأتيـــك المقـــدر ، فاعلميـــه ... ولا تعصـــى الإلـــه ولا تمنـــى

وفى إخوانياته نرى أهل الأدب والفكر من أمثاله يحتلون المحل الأول

والأرفع من فؤاده ، إذ لا يعدل بالرسائل التى تأتيه من لدنهم أى شىء آخر فى الوجود مهما كانت لذاذته . حتى ساعات الوصال لا تساوى شيئًا بجانبها :

أحسنُ من غفلة الرقيب ... ولحظة الوعد من حبيب
والنقر والنغم من كعاب ... مصيبة العود والقضيب
ومن بنات الكروم راحت ... من راحتَىْ شادن ربيب
كُتْبُ أديب إلى أديب ... طالت به مدة المغيب
فنمّقت كتبه سطورا ... تمُّق الشوق فى القلوب

وله أيضا مقطوعة يطلب فيها من صديق أن يزوره ، داعيًا له بطول العمر والبقاء بعده طويلاً ، مؤكدًا أن زيارته إياه ستكون مبعث سرور عظيم له :

كنتَ المعزَّى بفقدى ... وعشتَ ما شئت بعدى
أهدى إلىّ أخٌ لى ... سليل مسك وورد
أرق من لفظ صب ... يشكو حرارة وجُد
فاخلع علىَّ سرورا ... بكونك اليوم عندى

وقد تكررت عنده هذه الاستزارات ، ودائمًا ما تكون الدعوة إلى مشاربته الخمر . وقد مرَّ بعض ذلك فى كلامنا عن شعره الخمرى .

ومع ذلك ، فقد تكررت عنده أيضًا الشكوى من الأصدقاء ومن قلْبِهم له ظهر المجنّ :

لأبى بكر خليلى ... حسن رأى فى الحجاب
يا أبا بكر ، سقاك اللـ ... ـه من صوب السحاب
لن ترانى بعدها ما ... بعدها قارع باب
إن ينب خطب ففى الرسـ ... ـل بلاغ والكتاب

* * *

لـــى خمســـون صديقـــا بيـــن قـــاض وأميـــر
لبســـوا الوفـــر فلـــم أخـــ ـلـع بهـم ثـوب الفقيـر
كلهـم كـال لـى الحـرْ مـانَ بالصـاع الكبيـر

* * *

هـذه رقاعكمـو بالرفـد وافـدة وليـس عنـدى بحمـد الله توفيـرُ
أمضيـت عزمـك فى تضييع حرمتنـا فليس عندك فى التقصير تقصيرُ

وهو يدعو إلى ألا يبذل الإنسان قلبه ومودته إلا لمن يستحق :

صـن الـودّ إلا عـن الأكرميـن ومـن بمؤاخاتـه تشـرفُ
ولا تغتـرر مـن ذوى خلـة بمـا موّهوا لـك أو زخرفـوا
وكـم مـن أخ ظاهـر ودّه ضميـرٌ مودتـه أحيـفُ
إذا أنـت عاتبتـه فـى الإخـا ء تنكـر منـه الـذى تعـرفُ

وإلى أن يبيع الإنسان من يبيعه ويأخذ طريقًا أخرى غير طريقه . ولكن إذا عاد إلى الحسنى فليعد عند ذاك إليه :

إذا أنكـرت أخـلاق الصديـق فلست مـن التحيـر فـى مضيق
طريقـا كنـت تسلكهـا سليمـا فأسبـع ، فاجتنبـه إلى طريـق
فـإن قابلـت يسـرى منـه عسـرى فراجـع مـن قطعـت مـن الصديق

وفى غزلياته نجد البيت المفرد والبيتين والأبيات . فمن الأبيات المفردة قوله يصف ما تفعله عيون الغوانى بالقلوب :

فلا عجـب ولا أمـر بديـعٌ جنايـات العيـون علـى القلـوب

وقوله إن ألم الحب يفوق كل ألم آخر :

وفـى دون ما ألقـاه مـن ألم الهـوى تُشـزُّ قلـوب لا تُشـقُّ جيوبُ

ومن الأشعار المكونة من بيتين قوله يصف حبيبه الذى هجره ، مشبّها إياه بالقمر فى بهائه وبُعْده ، وهى صورة ليس فيها جديد :

يا قمـــــرًا وافـــق التمامـــا ... اقـــرأ علـــى شبهـــك السلامـــا
نأيـــتَ عنـــى ، وبـــان عنـــى ... كلاكمـــا عـــزَّ أن يلامـــا (٨)

وهو فى البيتين التاليين يلم بمعنى يبدو لى طريفًا ، إذ يحسد مجموعة أنجم الثريا لاجتماع شملها على الدوام ، على حين قد فقد هو حبيبه الوحيد الذى كان له :

خليلـــىَّ ، إنـــى للثريـــا لحاســـد ... وإنـــى علـــى ريـــب الزمان لواجـــدُ
أيُجْمَع منها شملهـــا وهـــى تسعـــة ... وأفقـــد مـــن أحببتـــه وهـــو واحـــدُ ؟

وفى الأبيات التالية نراه يعلن أنه لو وُكِل الأمر إليه لقضى على الرقابة والرقباء :

أترانـــى أنـــا وقَـــدَ ... ـــرتُ مـــن الهـــم نصيبـــى ؟
أنـــا أعطيـــت العيـــون النجـــ ... ـــل أســـلاب القلـــوب
لـــو إلـــىَّ الأمـــر مـــا أقـ ... ـــذيـــت عينًـــا برقيـــب

وتصوّر الأبيات التالية مدى الألم الذى انتابه عند وداع الأحبّة . وقد ساق فى سبيل ذلك أربع صورٍ ليس لها شيوع ، فى حدود علمى ، فى هذا السياق :

فمـا ازدحمت عيـر على ورد منهـل ... دنا وردها ترعى النجيل من الحمض
تزاحُمَ دمعى فى الجفـون وقد غدت ... عداتهمو بين القريبين فالعرض (٩)

* * *

وقـد تركونـى فـى الديـار كأننـى ... سليـم حوتـــه الأفعوانـة بالمـض
ولا أم أمـــلاط أقامـــت فراخهـــا ... علـى فنن فى الضال ذى المنحنى الغضّ
رأى سوذنيـــقُ الجـــوّ منهـــن غـرّةً ... فكفكـف يبغيهن كالنجم فى القضّ
ولا أم خشـف أقبلـت بعـد فيقـة ... لتمنحـه من ضرعهـا صفـوة المحض
فأبصـــرت المعبـــوط روع إهابهـــا ... وقد خبّ آل الصحصحان على الأرض
بأوحـد منـى يـوم قالـت حُداتُهم : ... أستوطن بعد الظعائن أم تمضى ؟

كما أن له فى الغزل هذه الأبيات التى يتهكم فيها على لسان إحدى النساء بحاله من إفلاس وشيب وقبح . وهى أبيات جميلة بارعة الحوار ، حيث تتناطح حجته وحجة المرأة التى كان يتعلق بها وتصده ، لينتهى الأمر بإفحامها إياه وإقراره بما قالت على مضضٍ وألم :

تاهت علىَّ بحسنها وجمالها ... وتقول لى : يا شيخ ، أنت مخادعُ
شيخ وإفلاس وقبح ظاهر ... أطَمِعْتَ فينا ؟ أخلفتك مطامع !
فأجبتها : الإفلاس يُذهبه الغنى ... والشيب يُذهبه الخضاب الناصعُ
قالت : فَقُبْحُ الوجه فيه حيلة ... والقبح ليس له دواءٌ نافع ؟
يا صدقها ! ما كان أوضح حجتى ... لو كان يدفع قبحَ وجهىَ دافعُ !

كما أن له حواريّة أخرى ولكن أطول من هذه ، وموضوع الحوار فيها مختلف شيئًا ما عنه فى الأبيات الماضية ، إذ تسأله محاورته عن حكم شرب النبيذ ، فيزينه لها ويغريها به ، هادفا فيما هو واضح إلى أن ينال موافقتها على سُؤْله الذى عرضه بعد ذلك ، وهو الفوز برضاها وحبّها . ولكنها كانت أبرع منه وأدهى ، إذ بعد أن حصلت على موافقته على ما أرادت لم تنوله شيئًا من رغبته وانفلتت عنه مولّية دون أن تعطيه على سؤاله جوابا :

جارة لى أجارها الـ ... ـحسن من كل عائب
فهى بين النساء كالبد ... ر بين الكواكب
لحظها قبل لفظها ... من جليل المواهب
سألتنى : هل النبيـ ... ـذ حلال لشارب ؟
قلت : إى والذى يريـ ... ـك برغم الأقارب
اشربيه فإن فيـ ... ـه لإحدى العجائب
ينبت الورد فى نقا ... ء خدود الكواكب

ويزيـــــد الخـــــلاف درًا ... لأيـــــدى الحوالـــــب
فأجيبـــــى بغيـــــر رأ ... ىٍ عـــن الحـــق عـــازبِ :
هـــل حـــلال دماؤنـــا ... للظبـــاء الربائـــب ؟
قالت : « استفـــت غيـــر خصـــ ... ـمك » ، فعـــل المُلاَعِـــب

ومع هذا فإن له بيتين يتيه فيهما تيهًا شديدًا كمحبٍّ رائد عبَّد طريق الحب والغزل لمن أتى بعده ، فساروا على إثره لابسين ما أبلى من الثياب ، ومحتسين ما فضل عنه من شراب . ولعلَّه قالهما فى عزّ شبابه قبل أن يشيب ويصير قبيحا :

وما لبـس العشـاق ثوبًا مـن البلى ... ولا خلعـوا إلا الثيـاب التـى أُبْلى
ولا شربـوا كأسًا مـن الحب حلوةً ... ولا مـرةً إلا وشربهمـو فَضْلى

أما مدائحه فقليلة . وفى الأبيات التالية نراه يردِّد المعانى والصور التقليدية : فالممدوح سحاب هاطل ، وهو فرع يشبه أصله كرمًا ونبلا . وهى فى مدح البخترى وهب بن وهب :

إذا افتـر وهـب خلْتَه برق عـارض ... تبعَّـق فـى الأرضين أسعده السكبُ
وما ضـرّ وهبـا ذمُّ من خالف الملا ... كمـا لايضر البـدرَ ينبحـه الكلب
لكـل أنـاس مـن أبيهـم ذخيـرة ... وذُخْـرُ بنى فهر عقيدُ الندى وهبُ

وله بيتان سبق أن استشهدنا بهما من قبل يمد فيهما يده ولا يستكف أن يقبل الأيادى ، فلقد عضه الفقر عضة سامة :

أصبحـت بيـن غضاضـة وخصاصـة ... والمـرء بينهمـا يمـوت قتيـلا
فامـدد إلـىَّ يـدًا تعـود بطنُهـا ... بـذل النـوال وظهرُهـا التقبيـلا

وفى أبيات أخرى نراه يتخذ المديح وسيلةً إلى الحصول على باطية خمر ، إذ كان قد خرج للشراب هو وندامى له ، فأتوا على ما كان معهم من نبيذ . وكانوا على مقربة من بيت أحمد بن الحسين العلوى ، الذى

كانت بينه وبين الشاعر صلة صداقة ومودة ، فأرسل إليه يمدحه بهذه الأبيات ، فأرسل إليه براوية شراب (١٠) . والعجيب أنه يدير مدحه له على أنه من سلالة العترة النبوية المطهرة من لدن آدم إلى أبيه ، ومع ذلك يجعل هذا المدح سبيلاً إلى الحصول منه على خمر . ولكن ماذا نقول وهذا هو الشعر وهذه حال الشعراء ؟ وهو يخلط مديحه له بالتظرف ، واصفًا فعل الخمر والغناء فى نفسه . قال :

يا ابن من طاب فى المواليد مذ آ ... دم جَـرًّا إلـى الحسيـن أبيـه
أنا بالقرب منك عند كريم ... قد ألحّت عليه شُهْبُ سنيه
عنده قينة إذا ما تغنّت ... عاد منا الفقيه غير فقيه
تزدهينى وأين مثلى فى الفهـ ... ـم تغنيه ثم لا تزدهيه ؟
مجلس كالرياض حسنا ، ولكن ... ليس قطب السرور واللهو فيه
فأقمه بما به يمترى دنّ عجو ... ز خمارة ممتريه
وبأشياخك الكرام إلى السؤ ... دد موسى بن جعفر وأبيه
إن تحشمتنى وإن كان إلا ... مثل ما يأنس الفتى بأخيه

وللعطوى أبيات يذكر الأخفشُ أنه كتب بها إلى المعتضد عندما ترك بغداد وأقام بسنجار . وفيها يدعوه إلى العودة لبغداد ، التى لا تعدلها فى رأيه بلدة أخرى بخيولها العتاق المسوّمة وخرائدها الرائعات الجمال وأدبائها الذين لا يضاهيهم أحد ، ثم يختمها قائلاً :

فأنا أقول بفرط حرّ فى الحشا ... وسعير نار غيـر ذات شرار :
لـمَ تستحلّ دمى وتعلم أنه ... من يستحل دم امرىء فى النار ؟ (١١)

وإنى لأستغرب صدور هذه القصيدة عن العطوى ونحن لا نعرف له علاقة بأحد من الخلفاء ، لا المعتضد ولا غيره ، علاوة على أن ختامها غريب ، فهو لا يكون إلاَّ بين صديقين حبيبين قد زالت بينهما كل أسباب الكلفة

والاحتشام . كذلك فمطلعها مما لا يُخاطب به الخلفاء عادة . وها هو ذا

يا من أقام على قرى سنجار ... واختارها دارًا بخير قرار
أتركت بغداد التي لنسيمها ... أرج من الأنوار والأشجار ؟
هي جنة الدنيا ، فكيف تركتها ... وسكنت دارًا غير ذات قرار ؟

... إلخ .

ومع ذلك فإنى أقف عند حدود الاستغراب لا أعدوه .

هذا ، وليس فيما وصلنا من شعره المقطوع بنسبته له من الرثاء إلا القليل جدّ القليل . ومنه هذا البيت :

فلقد كُفّن في أكفانه ... المجد المجدّدُ

ولاندرى فيمن قاله . كما أن له هذه الأبيات ، وهى فى رثاء أخيه . وفيها حزن ، ولكنه ليس بالشديد الملتاع :

لقد باكرتْه بالملام العواذلُ ... فما رقأت منه الدموع الهواطلُ
أيَقْنَى جميل الصبر من هُدّ ركنُه ... وهيض جناحاه وجُدّ الأناملُ
أمن بعد ما ذاق المنية أحمدٌ ... تطيب لنا الدنيا وتصفو المناهلُ ؟
كأن لم يكن لى خير خلّ وصاحب ... وخير خطيب تتقيه المقاولُ
كأن أبا العباس لم يلق ضيفه ... ببشر ولم يرحل بجدواه راحلُ

أمّا الأبيات الآتية ، وهى فى رثاء القاضى المعتزلى أحمد بن أبى دؤاد (١٢) أو فى رثاء أخى الشاعر (١٣) ، فليست مجزومة النسبة إليه :

حنطته يا نصر بالكافور ... وزففته للمنزل المهجور
هلا ببعض خلاله حنطته ... فيضوع أفق منازل وقبور ؟
تالله لو بنسيم أخلاق له ... تُعْزَى إلى التقديس والتطهير
طيبت من سكن الثرى وعلا الربا ... لتزودوه عدة لنشور
فاذهب كما ذهب الوفاء ، فإنه ... ذهبت به ريحا صَبًا ودَبُور

واذهب كما ذهب الشباب ، فإنه قد كان خير مصاحب وعشير
والله ما أبْنْتُه لأزيده شرفا ، ولكن نفثة المصدورِ

هذا ، وقد نسبها الدكتور شوقى ضيف إليه دون تردّد هى والبيتين التاليين اللذين يُنْسبان أيضا لابن المعتز ، وهما فى رثاء ابن أبى دؤاد أيضا :

وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه أصلاب قوم تقصَّفُ
وليس نسيم المسك ما تجدونه ولكنه ذاك الثناء المخلَّفُ (١٤)

وتصوير شدة الحزن على ابن أبى دؤاد على هذا النحو فى البيت الأول من أجمل ما ورد فيما يسميه البلاغيون : « حسن التعليل » .

ويرى الأستاذ محمد الجبار المعيبد أن هذين البيتين للعطوى ، لثبوتهما برواية المبرّد ، فضلاً عن أن الذى نسبهما لابن المعتزّ هو الكتبى ، (فى « فوات الوفيات ») ، وهو متأخر . إلى جانب أنهما لا وجود لهما فى ديوان ابن المعتزّ (١٥) .

أمَّا فى الهجاء فلم أجد للعطوى من الشعر المجزوم النسبة إليه إلا هذين البيتين . وهما بيتان هادئان ، يخلوان من اللذع ، وحظهما من الفن الشعرى شبه معدوم :

قل لمن فضَّض الدواة لكيما يحسبوه من جملة الكتابِ :
ليس حَلْىُ الدواة ينفع شيئا إن تخليت من حلى الآدابِ

ونصل إلى قصيدته الاعتزالية . وقد حكى صاحب « الأغانى » عن محمد بن داود أن العطوى « كان له فن من الشعر لم يسبق إليه ، ذهب فيه مذهب أصحاب الكلام ، ففارق جميع نظرائه ، وخف شعره على كل لسان ، ورُوِىَ واستعمله الكتاب واحتذوا معانيه وجعلوه إمامًا » (١٦) . وللأسف لم يصلنا من هذا اللون من شعره إلا هذه القصيدة :

جـــلّ رب الأعـــراض والأجســـام ... عـن صفـات الأعراض والأجســام
جـل ربّـي عـن كـل ما اكتنفتـه ... لحظـــات الأبصـــار والأوهـــام
بـــرىء اللـــه مـن هشـام وممـن ... قـــال فـــي اللـــه مثـل قول هشام
أى زاد تزوّدتْـــــه يـــــداه ... عامـــدا مـــن كبائـــر الآثـام ؟
ســوف تلقـاه ، حيـن يلقاه ، نـار ... تتلظـــى لأهلهـــا بضـــرام
كـــم شديـــد العنـــاد للإســـلام ... بيـــن أبنـــاء ملـــة الإســـلام
كهشـــام ! فإنـــه خلـــع الربـ ... ـقة مـــن كـــل حرمـــة وذمـــام
قـــل لمـــن قـــال قولـــه ورآه ... خيـــر مسترشـــد وخيـــر إمـام :
لـــم أنكـــرت أن يكـــون مصيبـــا ... فـــى مساعيـــه عابـــد الأصنـام ؟
لم أنكـرت قـول مـن عبـد الشمـ ... ـس وصلـى للأنجـم الأعـلام ؟
إن تـرم بينهـــا انفصـــالاً فهيهـا ... ت . لقـد رمت منـه صعب المـرام
ما الدليـل المبيـن عـن حدث العـا ... لم ؟ أفصـح بـــه لـــدى الأقـوام
لا دليـــل . فـــلا تَرُمْـهُ وقـد قُلْـ ... ـت : « كبعض الأنام رب الأنام »
لم ترد غير قدمـة الخلق ، فاقصـد ... قصـده . دع مناقضـات الكـــلام

وهى ، وإن كانت فى الحجاج الفكرى والمذهبى ، قد استطاعت أن تتغلغل على البرودة والهمود اللذين يصيبان هذا اللون من الشعر ويحيلانه نظمًا لا روح فيه ولا رونق له . وهذا راجع إلى أنها ليست مجرد جدال عقلى ، إذ خلط الشاعر بهذا الجدال هجاء خصمه واتهامه بخلع ربقة الإسلام والدعاء عليه أن يبرأ الله منه ومن كل من اقتفى خطواته ، كل ذلك فى حرارة وانفعال نهض التكرار والمراوحة بين الخبر والإنشاء بعبء جزء غير قليل منهما .

هذا ، وفى الشعر المنسوب للعطوى وغيره قصيدة فى تهنئة علىّ بن القاسم بن الحسين العلوى على مولودٍ له . وفى القصيدة عاطفة قوية نحو

أهل البيت ، ولكن ليس فيها من أفكار الشيعة شيء . ولستُ أستطيع الإدلاء بحكم حول ملكية العطوى لها . وقد نُسِبت إلى أبى على البصير أيضًا (١٧) . وكان البصير هذا شيعيا ، أمَّا العطوى فلا نعرف عنه شيئًا فى هذا الجانب . ومع ذلك فإن ابن المعتز ، وهو أقدم من كتبوا عن شاعرنا ، قد عزاها قولةً واحدةً له (١٨) :

علىُّ ، أيا ابن الشفيع المطاع ... ويا ابن المصابيح ، يا ابن الغُرَرْ

ومنها :

أتيتك جذلان مستبشرا ... ببشرك لما أتانى الخبرْ
أتانى البشير ، فكم ساء ما ... أتانى به من أناسٍ وسَرّ
أتانىَ يَذْكُر أن قد رُزِقْتَ ... غلامًا فأبهجنى ما ذَكَرْ

أما بالنسبة للأبيات التى تتحسر على البرامكة وتُنْسَبُ إليه وإلى غيره ، فإن البرامكة قد نكبوا عام ١٨٧ هـ . فإذا عرفنا أن الشاعر قد توفى على أبكر تقدير فى عام ٢٥٠ هـ فمعنى ذلك أنه قال هذه الأبيات قبل ثلاث وستين سنة من وفاته . فماذا كانت سنه آنذاك يا ترى ؟ هذا إن كان قد وُلد قبل ذلك الحين . وإذا غضضنا الطرف عن هذه النقطة فهل يمكن أن نتقبل بسهولة أنه قال فيهم هذا الشعر الملتاع الذى يعرِّضه ، لو عُرِف عنه ، لغضب الدولة وتنكيلها ؟ على كل حال هذه هى الأبيات :

أما والله لولا قول واشٍ ... وعين للخليفة لا تنامُ
لَطُفْنا حول جذع واستلمنا ... كما للناس بالحجر استلامُ
على الدنيا وساكنها جميعا ... ودولة آل برمك السلامُ !

كما سبق، فى فصل « محمود الوراق » ، أن ذكرنا بضعة أبيات تنسب لكلا الشاعرين ، فيرجع إليها هناك .

وأخيرا نصل إلى السمات الفنية التى لاحظناها فى شعر العطوى :

إنه شعر سهل ، إذ يكاد أن يكون خاليًا من الألفاظ التى تحوج إلى النظر فى المعاجم . ولكنه فى نفس الوقت يعانى أحيانًا من الركاكة وعدم إحكام العبارة أو الدقة فى التعبير . فمثلاً ما المقصود بقوله : « فى الساعات » فى البيت التالى :

ما ترى البرق كيف يلمع فيه ورشاشا يسلّ فى الساعات ؟

هل المقصود : « فى هذه الساعات » بمعنى « فى هذه الساعة » ؟ أم المقصود : « بالساعات » ؟ وهل يصلح الكلام كما ورد فى البيت أن يؤدى أيا من هذين المعنيين ؟

أما فى البيت التالى :

لِمَ تستحل دمى وتعلم أنه من يستحل دم امرىء فى النار ؟

فجملة الحال : « وتعلم أنه ... » تبدو وكأنها ينقصها « قد » أو « أنت » قبل الفعل حتى يكون لها مساغٌ . كما أن من الأفضل كثيرًا لو أنه أدخل على شبه جملة « فى النار » حرف « الفاء » ، فإن التركيب على هذا النحو قد يوهم بأن الكلام غير تام .

ومثله فى احتياجه إلى الترميم قوله عن الكأس :

ولم يُخْلَق المال إلاّ لها وما خُلِقَتْ غير أُنس النفوس

فإنه يقصد أن الكأس « لم تخلق إلاّ لأنس النفوس » . وتركيب كلامه ركيك .

كذلك فإن قدم الشاعر تنزلق أحيانا فى النثرية . ومن أمثلة ذلك الأبيات التالية :

وإذ كان هذا كما قد وصفت فإن التفرق خطب كبير

* * *

ما للسلامة كالصبوح مطية لا سيّما إن حنّت الأوتارُ

* * *

وكذاك فيها ألف ألف خريدة في وجهها متنزه الأبصار

* * *

فأما بعد فالدنيا علينا مكدرة ببعدك ، والسلام

ويكثر فى شعره التكرار والمقابلة . وبإمكان القارىء ملاحظة ذلك فيما استشهدنا به من شعر .

كذلك فإن التوقيع الموسيقى داخلَ البيت غيْرُ قليل عنده ، مثل :

يوم مطير ، وعيش نضير وكأس تدور ، وقدر تفور

* * *

من ذا تصاحبه هناك وعنده نتف من الأخبار والأشعار ؟

* * *

فأنا أقول بفرط حرّ فى الحشا وسعير نار غير ذات شرار

* * *

هجم البرد مسرعا ويدى صف ـر وجسمى عارٍ بغير دثار

* * *

لو رأى المرء رأى عينيه يومّا كيف صول الآجال بالآمال

* * *

أبا حسن ، ثكلت الحزم فيما أحاول من مقالى أو فعالى

* * *

سوف تلقاه ، حين يلقاه ، نار تتلظى لأهلها وضرام

* * *

ناديت : ما فعل الأحرار كلهمو أهل الندى والهدى والبعد فى الهمم ؟

الهوامش

١- محمد جبار المعيبد / شعراء بصريون من القرن الثالث الهجرى - دراسة ونصوص - العطوى ، الجاحظ ، الحمدونى / مطبعة الإرشاد / بغداد / ١٩٧٧ م / ٧ - ٧٢ .

٢- انظر فى ترجمته « طبقات الشعراء » لابن المعتز / تحقيق عبد الستار أحمد فراج / دار المعارف بمصر / ط ٢ / ٣٩٤ - ٣٩٥ ، والأغانى / مؤسسة عز الدين / بيروت / ٢٠ / ٥٨ وما بعدها ، والخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / دار الكتاب العربى / بيروت / ٣ / ١٣٧ - ١٣٨ ، وابن خلكان / وفيات الأعيان / تحقيق د . إحسان عباس / دار الثقافة / بيروت / ٦ / ٣٩ ، وابن النديم / الفهرست / تحقيق رضا - تجدد / مطبعة دانشكاه / طهران / ١٩٧١ م / ٢٣٠ ، ود . عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى ـ الأعصر العباسية / دار العلم للملايين / ط ٤ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ٣٠٢ - ٣٠٣ ، وخير الدين الزركلى / الأعلام / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٥ / ١٩٨٠ م ، ود . شوقى ضيف / العصر العباسى الأول / دار المعارف بمصر / ط ٦ / ٤١٧ - ٤١٩ ، ومحمد جبار المعيبد / شعراء بصريون من القرن الثالث الهجرى - دراسة ونصوص - العطوى ، الجاحظ الحمدونى / ٧ - ١٣ .

٣- الأغانى / ٢٠ / ٥٩ .

٤- الحُرْقة (بضم الحاء وسكون الراء) : الفقر وسوء الحَظّ .

٥- ما أحلى وأخفّ الإضافة هنا ، بدلاً من قولنا : « نِدامى (أى منادمتى) إيا! عليها » !

٦- أى حدّثْتَ نديمك .

٧- المشاعب : مجارى المياه .

٨- لعلّها : « عزّ أن يراما » ، فذلك أنسب للسياق .

٩- القريبان والعرض موضعان .

١٠- الأغانى / ٢٠ / ٥٩ - ٦٠ .

١١- شعراء بصريون / ٣١ - ٣٢ .

١٢- انظر « شعراء بصريون » / ٥٩ .

١٣- انظر الحصرى / زهر الآداب (على هامش « العقد الفريد » / المطبعة العامرة الشرفية / القاهرة / ١٣٠٥ هـ / ٢ / ٢٢٧) .

١٤- العصر العباسى الأول / ٤١٨ - ٤١٩ .

١٥- انظر « شعراء بصريون » / ٦١ .

١٦- الأغانى / ٢٠ / ٥٩ .

١٧- انظر « شعراء بصريون » / ٥٨ .

١٨- طبقات ابن المعتز / ٣٩٤ - ٣٩٥ .

الحمدونى

هو إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه ، وكنيته أبو على . أما لقبه فبعضهم يقول : « الحمدونى » ، والبعض الآخر : « الحَمْدَوى » . فمن الفريق الأول ابن المعتز (١) ، وابن عبد ربّه صاحب « العقد الفريد » والحصرى صاحب « زهر الآداب » (٢) ، وابن شاكر الكتبى (٣) ، ود. شوقى ضيف (٤) ، ود. حسين عطوان (٥) . ومن الفريق الثانى أبو الفرج الأصفهانى (٦) ، ومحمد جبار المعيبد جامع شعر الشاعر مع شعر العطوى والجاحظ ، وذلك فى كتابه « شعراء بصريون من القرن الثالث الهجرى - دراسة ونصوص - العطوى ، الجاحظ ، الحمدوى ») . ولم يكتف الأستاذ المعيبد بذلك ، بل أضاف أن لقب « الحمدوى » نسبةٌ إلى « حمدويه » جد الشاعر ، وهو صاحب الزنادقة فى عهد المهدى والرشيد . كما أكّد أن هذا اللقب قد حُرِّف فى معظم كتب الأدب إلى « الحمدونى » ، ظنا من أصحابها أن النسبة إلى « حمدون » لا إلى « حمدويه » (٧) .

بيد أن الأستاذ المعيبد لم يوضح مَنْ « حمدون » هذا الذى يرى أن لقب « الحمدوى » قد حُرِّف بالنَّسَب إليه فصار « الحمدونى » . وقد ذكر د. شوقى ضيف أن لأحمد أخى شاعرنا ترجمة فى « معجم الأدباء » لياقوت الحموى ، وبالرجوع إلى هذه الترجمة وجدنا ياقوتًا يذكر نسب « أحمد » هذا هكذا : « أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود بن حمدون » ، ثم يعود بعد صفحات قلائل فيقول إنه يظن أن إبراهيم (أبا

أحمد) كان يلقب بـ « حمدون » (٨) . فربَّما كانت « الحمدونى » نسبة إلى « حمدون » الجد الأعلى للشاعر (وأخيه) أو أبيهما ، وإن كنتُ أرجِّح أن النسب إنما هو إلى « حمدون » لقب والد الشاعر ، إذ كان هذا الوالد نديمًا مقربا لعدد من خلفاء بنى العباس ، كما سيأتى بيانه . وأحرى بالشاعر أن يُنْسَب إلى أبيه النديم المشهور ، لا إلى جدّ بعيد ليست له هذه الشهرة . وإن كنا نلاحظ أن النسب كما ذُكر فى أول الترجمة يخلو من اسم « حمدويه » ، الذى ذكر الأستاذ المعيبد أنه جدّ الشاعر وصاحب الزنادقة ، كما مرّ ذكره .

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى ما ذكره الدكتور شوقى ضيف فى ترجمة « ابن بسام » الكاتب والشاعر العباسى من أن أباه قد تزوج أمامة بنت حمدون ، التى قال عقيب ذلك إنها هى ، فيما يبدو ، أخت إسماعيل بن إبراهيم شاعرنا . وهو ما يبين أن الأستاذ الدكتور يرى أن « حمدون » هو أبو الشاعر . ومع هذا فقد ذكر فى نفس الموضع أن الحديث عن بنى حمدون فى المصادر التى تحدثت عنهم مضطرب (٩) .

إذن هناك لقبان للشاعر : « الحمدونى » (وهو الشائع) ، و « الحمدوى » . وهذا الأخير نسبة إلى « حمدويه » جدّه ، أما الأول فنسبة إلى « حمدون » لقب أبيه أو اسم أحد جدوده الأعلَيْن (١٠) . ولا داعى للقول بالتحريف ، كما فعل محمد جبار المعيبد ، إذ لا يُعْقَل اتهام معظم المصادر بذلك ، وبخاصة أن أقدم مصدر معروف لنا كتب عن شاعرنا ، وهو « طبقات » ابن المعتز ، قد لقبه بـ « الحمدونى » لا « الحمدوى » ، فضلا عن أننا قد وجدنا وجهًا وجيها لتلقيبه بذلك

اللقب .

وكان أحمد بن حمدون ، أخو الشاعر ، نديمًا للمتوكل مقربا إليه ، ثم انقلب عليه ذلك الخليفة العباسى وقطع أذنه ، ليعيده بعد ذلك إلى خدمته . كما كان أبوه ينادم المعتصم فالواثق فالمتوكل (١١) .

ويجعل محمد جبار المعيبد ولادة الحمدونى على رأس العشرة الأخيرة من القرن الثانى الهجرى تقريبًا ، ووفاته بين ٢٦٠ و ٢٧٠ للهجرة (١٢) .

وقد عاش الحمدونى فى البصرة ، كما تردد على بغداد ، واتصل من الأدباء والشعراء بالعتابى وأبى تمام والصولى وعبد الصمد بن المعذَّل والمبرّد ودعبل وسعيد بن حميد الكاتب (١٣) . ولم يَفِد على الخلفاء ولم يصلنا له مديح فى أىّ منهم .

ويشغل الشعر الذى استطاع محمد جبار المعيبد جمعه له ستًّا وأربعين صفحة من القطع المتوسط بالحواشى والتعليقات ، مع ملاحظة أن كل بيت يُكْتَب فى سطرين (١٤) . وهذا إلى جانب ثمانى صفحات أخرى للشعر المنسوب إليه وإلى غيره .

وأكثر موضوع نظم فيه الحمدونى هو وصف طيلسان ابن حرب وتصويره تصويرًا مشوّهًا مبالغًا فيه . وله كذلك ثمانى مقطوعات فى الشاة العجفاء التى أهداها له سعيد بن أحمد (أو ابن حميد) فى أحد أعياد الأضحى ، فجعل منها هُزْأة فى أفواه الناس . وإلى جانب الشاة والطيلسان له شعر فى الهجاء والفخر والغزل والإخوانيات والطبيعة . كما أن له مقطوعة فى وصف العود ، وبيتان فى شكوى حاله .

فأما شعره فى طيلسان ابن حرب فيقول بشأنه صاحب « زهر

الآداب » : « كان أحمد بن حرب المهلبى من المنعمين عليه ، والمحسنين إليه . وله فيه مدائح كثيرة . فوهب له طيلسانا أخضر لم يرضه . قال أبو العباس المبرد : فأنشدنا فيه عشر مقطعات ، فاستحلينا مذهبه فيها ، فجعلها فوق الخمسين ، فطارت كل مطار ، وسارت كل مسار » (١٥) .

وقد استطاع الأستاذ المعيبد أن يعثر من هذه القطع التى أربت على الخمسين وتبلغ ، كما قال ابن المعتز ، نحو مائتى بيت (١٦) ، على ١٢٩ بيتا فى ثلاث وثلاثين قطعة .

وقد ضرب المثل بطيلسان ابن حرب هذا من جرّاء ما ألح عليه الحمدونى بأشعاره البارعة الكثيرة . كما أشار إليه الشعراء فى قصائدهم والكتّاب فى كتاباتهم ، فقال مثلا ابن سكرة فى هجاء المتنبى :

يا ليت خصمك ... دى ... وحلّ عندك جدبى
حتى أراك مردّى ... بطليسان ابن حرب

وقال ابن النقيب مخاطبا السراج الوراق :

فطيلسان ابن حرب قد سمعت به ... من طول بعث وترداد وتكرار

فرد هذا عليه قائلاً

وطيلسان ابن حرب فى تردّد ... قلبى إليك من الأشواق فى نار

وقال ابن خروف فى الثناء على ثوب من الثياب إنه ليس « كطيلسان بن حرب » (١٧) .

وفى « زهر الآداب » : « أجْمَعُ للعيوب من بغلة أبى دلامة وحمار طناز وطيلسان ابن حرب ... » (١٨) .

وقال الثعالبى إن طيلسان ابن حرب « قد صار مثلاً فى البِلى

والخلوقة » (١٩) ، كما ذكر أن الحمدونى قد نسج على منوال أبى حمران السلمى ، الذى قال فى طيلسانه :

يا طيلسان أبى حمران قد برمت ... بك الحياةُ فما تلتذُّ بالعمر
فى كل يوم له رقّا يجدّده ... هيهات ينفع تجديد مع الكبر
إذا ارتداه لعيد أو لجُمْعته ... تنكّبَ الناسُ لا يَبْلَى من النظرِ (٢٠)

والحقُّ أن ثمة تشابها قويًا بين أبيات أبى حمران هذه فى طيلسانه وبين ما قاله الحمدونى فى طيلسان ابن حرب ، فكلاهما يذكر الرقاء وكثرة الرقو وتقدم العمر بالطيلسان وعجزه عن تحمل مجرد النظر إليه . وسوف نأتى إلى شعر الحمدونى فى هذا الموضوع بعد قليل .

ومن قبلُ عاب أبو نواس إسماعيل بن نوبخت بالبخل فجعله يستعيد الرغفان من أيدى ضيوفه ويرفوها كلما مدّ ضيف يده إلى رغيف وشقّه ليأكل منه :

خبز إسماعيل كالوشـ ... ـى ، إذا ما انشقّ يُرْقَا
عجبا من أثر الصَّنْعـ ... ـة فيه ، كيف يخفى !
إن رقّاماك هذا ... ألطف الأمة كفّا

ومن قبل أيضا صوَّر أبو العتاهية الشخص الأحمق بصورة الثوب البالى الذى لا ينفع معه رفو ولا ترقيع ، فهو كلما أُصْلِح ورُمِّم هبت الريح فمزّقته من جديد . قال :

احذر الأحمق أن تصحبه ... إنما الأحمق كالثوب الخَلَقْ
كلما رقّعْتَه من جانب ... زعزعته الريح يومًا فانخرق

وسوف تقابلنا عند الحمدونى صورة الدُّرّاعة التى إذا ما هبَّت ريح الصَّبا ، وهى أرق ريح وألطفها ، تقشعت وتقطعت :

يا ابن الحسين ، أما ترى دراعتى سَمَلاً تردّت بالبلى وتدرّعتْ ؟
فيها من التمزيق ما لو أنها مرت بها ريح الصبا لتقشعتْ

كما جرى ابن الرومى فى عدد من المقطوعات على طريقة الحمدونى فى وصف بالى الثياب ، كقوله فى البيتين التاليين :

معمَّرٌ قال نوح حين أبصره : إنا محيُّوك ، فاسلم أيها الطَّلَلُ
أميل فى الطُّرُق خوفا من مزاحمة تهدُّه ، فكأنى شاربٌ ثملُ

وقد أصاب محمد جبار المعيبد فى قوله إنه « لم يُؤْثَر فى الأدب العربى قبل الحمدوى أنْ طَرَق شاعر موضوعًا معينا بهذه الكثرة من القول وهذا الإلحاح » (٢١) .

والملاحظ أن كل ما وصلنا من أشعار الحمدونى فى الطيلسان إنما هو مقطعات ما بين البيت الواحد (مرة واحدة) والاثنين (وهو كثير) إلى الثمانية الأبيات . ولا يكاد يخلو أى شعر له فى الطيلسان من ذكر ابن حرب والرَّفْو .

وهو فى هذه المقطعات كثيرا ما يقتبس عبارة من الذكر الحكيم ، أو يضمّن بيتا شعريا أو حملة من بيت شعرى (فى الغزل غالبًا) ، محدثًا بهذه الاقتباسات والتضمينات مفارقة تبعث على الضحك ، إذ ينزل القارىء من جوّ القرآن والحديث الجادّ أشد الجدّ أو الجوّ الغزلى الملتاع إلى جوّ الطيلسان العادى بل المبتذل ، فيكون لهذا النزول المفاجىء من النقيض إلى النقيض أثره فى إكمال الصورة الكاريكاتورية التى يرسمها الشاعر لطيلسانه . وها هى ذى بعض الأمثلة . قال :

قل لابن حرب : طيلسا نك قوم نوح منه أحدثْ
أفنى القرون ولم يزلْ عمن مضى من قبل يُورَثْ

فـــإذا العيـــون لحظنَـــــهُ فكأنـــه باللحـــظ يُحْـــرَث
يـــودى إذا لـــم أرفُـــهُ وإذا رفـــوتُ فليـــس يَلْبَـثْ
كالكلـــب إن تحمـــل عليـــ ـه الدهـــرَ أو تتركـــه يلهـــثْ

وقد اقتبس فى البيت الأخير قوله تعالى فى الذى آتاه سبحانه آياته فانسلخ منها وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين : « فَمَثَلُه كمَثَل الكلب ، إن تَحْمِلْ عليه يلهث أو تتركه يلهث » (٢٢) .

وقال :

وهبتَ لنا ، ابنَ حرب ، طيلسانا يزيـــد المـرءَ ذا الضعـة اتضاعـا
ولستُ أشـك أنْ قـد كـان قدمًـا لنـوح فـى سفينتـــه شراعـــا
وقـد غنَّيْتُ إذ أبصرتُ منـه جوانبـــه علـى بدنـــى تَدَاعَـى :
« قفـى قبـل التفـرق يا ضُبَاعـا ولا يَـكُ موقـفٌ منـك الوداعـا »

والبيت الأخير من قصيدة للقطامى الشاعر الأموى فى حبيبته « ضُباعة » .

وقال :

يا ابـن حـرب كسوتنـى طيلسانًـا أمرضتْـه الأوجـاع فهـو سقيـمُ
فـإذا مارفوتـه قـال : « سبحـا نك محيـى العظـام وهـى رميـمُ »
طيلسـان لـه ، إذا هبـت الريـ ـح عليـه ، بمنكبـىَّ هميـمُ
أذْكَرَتْنـى بيتـا لحسـانَ فيـه حُـرِقّ للفـؤاد حيـن أقـومُ
« لـو يدبّ الحولـىّ من ولـد الذ رّ عليهـا لأنْدَبَتْهـا الكلـومُ »

والبيت الثانى اقتباس من قوله سبحانه : « قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ » (٢٣) . والبيت الأخير هو لحسان بن ثابت برمته . وقد أشار إلى ذلك الشاعر فى البيت الذى قبله ، أى أنه قد جمع فى هذه المقطوعة بين الاقتباس والتضمين .

وهو يلح على قِدَم الطيلسان ، ويبالغ فى ذلك مبالغة شديدة ، حتى ليجعله من عهد نوح أو سابقًا عليه :

قــل لابـن حــرب : طيلســا نك قـوم نــوح منــه أحــدثْ
أفنــى القــرون ولــم يــزل عمــن مضــى مـن قبـلُ يُـوَرِّثْ

* * *

مــات رفّــاؤه ، ومــات بنــوه وبــدا الشيـب فـى بنيـه وشاخـوا

* * *

يا ابـن حـرب ، كسوتنـى طيلسانـا ملّ مـن صحبـة الزمــان وصـدّا

* * *

فهـو قــد أدرك نوحًــا ، فعسـى عنـده مـن علـم نــوح خبـره

* * *

قــد طــوى قرنًــا فقرنًــا وأناسًــــا فأناســــا

* * *

فلســت أشـك أنْ قـد كـان قدما لنــوح فــى سفينتــه شراعــا

* * *

لئـن بليـتَ فكـم أبليـتَ مـن أمم تتــرى ، أبادتهـم أيّامُــك الأُوَلُ

* * *

طيلسـان مـا زال أقدم فـى الدهــ ـ مــن الدهــر ما لرافيـه حيلَـهْ

كما يُكْثِر من ذكر بِلَى الطيلسان . ويتفنن فى وصف ذلك البلى تفنّنًا عجيبا ، حتى ليجعل للبلى عنده ثأرًا ، فهو يتخذه ألهيته فى الهزل والجدّ . وهو ينشقّ من تنحنح الشاعر فيه ، ويتمزق من تسليم الناس عليه وهو لابسه ، ثم يتمزق ثانية من جوابه على السلام . بل إنه لينشق من مجرد النظرة إليه كما يشق المحراث الأرض بسنّه . ولقد تمزق تمامًا حتى أصبح من المستحـ ن يتمزق ثانية . كما صار يصيح كلما اقترب

منه أحد ، كما كان يصيح السامرىّ فى قصة موسى وهارون : « لا مساس ! » . لا ، بل إن الطيلسان قد أعدى ببِلاه بقية ملابسه ، أو علّمها البلى فتعلمّت وصارت مثله :

يا ابن الحسين ، أما ترى درّاعتى ... سَمَلاً تردت بالبلى وتدرَّعَتْ ؟
فيها من التمزيق ما لو أنها ... مرت بها ريح الصَّبا لتقشعت
تحكى تخرق طيلسانى . إنها ... منه تعلمت البلى فتضعضعت
لا فرّج الرحمن عنه . إنه ... أعدى ثيابى كلها فتقطعت

* * *

فإذا العيون لحظنه ... فكأنه باللحظ يُحْرَثْ

* * *

فحسبنا نسج العناكب لو قيـ ... ـس إلى ضعف طيلسانك سَدّا
إن تنفستُ فيه ينشقّ شقّا ... أو تنحنحتُ فيه ينقدّ قدّا

* * *

بطيلسان خلتُ أن البِلَى ... يطلبه بالوتر والحقد
أجد فى رفوى له ، والبِلَى ... يلهو به فى الهزل والجِدّ
ذكّرنى الجنّة لمّا غدا ... أصحابها منها على حرْد (٢٤)

* * *

فإذا ما صحتُ فيه صيحةً ... تركتْه « كهشيم المحتظر »
وإذا ما الريح هبت نحوه ... طيّرته « كالجراد المنتشر » (٢٥)

* * *

طيلسان لابن حرب جاءنى ... قد قضى التمزيق منه وطرهْ

* * *

طيلسانُ لابن حرب ... يتداعى : « لا مساسا »

* * *

تصدَّع حتى قد أمنتُ انصداعه ... وأظهرت الأيام من عمره الغرض

* * *

وطيلســـان إن تأملتـــــــه قددتـــــه بالطـــول والعـــرض

* * *

يسلّـم صاحبـى فيقـدّ شبـرا به ، وأقـدّ فـى ردنى ذراعـا

* * *

يا طيلسانا إذا الألحاظ جُلْن بـه فعلـن فعـل سهـام فيـه تنتضـلُ

* * *

كـــأن كفَّـــىَّ إذا انضمتـــا عليـــه خـــوفَ الريـــح فى غُـــلّ

* * *

طيلســـان لـــه ، إذا هبـــت الري ـح عليـــه ، بمنكبىّ هميم (٢٦)

* * *

يصدعـــه اللحـــظ بايماضـــه صـــدع فـــؤاد العاشـــق المغـــرم

ولعلّك لاحظت أن أكثر " . دورانا فى شعر الشاعر عن بِلَى الطيلسان هى عجزه عن تحمُّل وقوع النظرة عليه ، وأن الشاعر قد نوَّع فى هذه الصّور ولوَّن .

وبنفس هذا التفنُّن الثرىّ المبدع يتناول الشاعر رفْو طيلسانه والعلاقة التى نشأت بينه وبين الرفّاء من كثرة تردّده على دكانه حتى إن الشاعر لو بعثه وحده إليه لعرف الطريق . وهو يشبّهه بالأرض التى يُزْرَع فيها الرَّفْوُ فلا ينبت لأنها أرض سبخة . ويقول إنه من كثر انفراز إبر الرفو الصدئة فيه أضحى أسود . بل إنه من كثرة رفوه أصبح كله رقاعًا ولم يعد ثمة مكان يمكن رفوه ، مما اضطر الرفّاء إلى أن يرفو الرفو ذاته . لا ، بل إن الطيلسان قد هلك وبقى الرفو . ولقد أراح الشاعر نفسه فلبث دهره كله فى دكان الرَّفّاء لا يفارقه ، لأنه علم أنه إذا ما انصرف بالطيلسان فسرعان ما

سيعود إليه لرفوه ثانية . كما صوَّر بقاء الطيلسان هو أيضا عند الرفاء بصورة من يريد أن يتتلمذ عليه ويتشرب الصنعة من يديه . ثم إن الرفاء الذى كان يرمُّه ويتعهده بالتصليح قد مات وشبع موتا ، ولحق به بنوه ، وسوف يمضى على إثر هؤلاء أبناؤهم أيضا عما قليل :

يا ابـن حـرب ، كسوتنى طيلسانا ... يُـزْرَع الرفـو فيـه وهو سبـاحُ
مـات رفـاؤه ، ومـات بنـوه ... وبـدا الشيـب فـى بنيـه وشاخـوا

* * *

طـال تـرداده إلـى الرفـو حتـى ... لـو بعثنـاه وحـده لتهـدّى

* * *

إن أتّهَـم الرفّـاءُ فـى رفـوه ... مضـى بـه التمزيـق فـى نجّـد

* * *

قـد كان أبيض ، ثـم ما زلنـا بـه ... نرفـوه حتـى اسـودَّ مـن صدإ الابَرْ

* * *

مهطـع الداعـى إلـى الرافـى إذا ... مـا رآه قـال : ذا « شـىء نُكُرْ »
وإذا رفـاؤه حـاول أن ... يتلافـاه « تعاطـى فعقر » (٢٧)

* * *

إذا الرفـاء أصلـح منـه بعضـا ... تداعـى بعضـه الباقـى انصداعـا

* * *

طيلسـانٌ رَفَوتُـه ، ورفـوت الـرّ ... فـو منـه ، وقـد رَقَعْتُ رقاعَـهْ
فأطـاع البلـى فصـار خليعـا ... ليـس يعطـى الرفّاءَ فى الرفو طاعهْ

* * *

غمرتـه الرقـاع ، فهـو كمصـر ... سكنتـه نُـزّاع كـل قبيلـهْ (٢٨)

* * *

فإذا مـا رفوتـه قـال : « سبحـا ... نك محيى العظام وهى رميـم » (٢٩)

* * *

وإذا رممنـــاه وقيـــل لنـــا : « قـد صحّ » قال له البلى : انهدم

* * *

فقـد ترانـى لـدى الرفّـاء مرتبطا كأننـى فـى يديـــه الدهرَ مرتهـن

* * *

كـــم رفونـــاه إذا تمـــزق حتـى بقـــى الرفـو وانقضـى الطيلســان

* * *

لقـد حالـف الرفـاء حتـى كأنـه يحـاول منـه أن يعلمـه الرَّفْـــوا

ولا تقف براعة الشاعر عند هذا الحدّ ، بل يمضى مصورًا ما نزل به من ألوان الإزعاج والتعب من جرّاء هذا الطيلسان ، الذى أفقره من كثرة ما أنفق من أموال على رفوه وترميمه ، وأرهقه بطول قيامه على رعايته ، وأعدى ثيابه الأخرى ببلاه فتمزقت ، وجعل الناس يزدرونه ويتجنبونه فأصبح يزورُّ عن عيونهم خجلاً أن يروه فى هذا الطيلسان الذى استحال كله رقعًا والذى يبدو فيه كالسائل الذليل :

ويا ريـــح ، صيّرتنـــى أتقيـــك وقد كنـــتُ لا أتقـــى أن تهبّـــى

* * *

يا ابـن الحسيـن ، أما ترى دراعتى سَمَـلا تـردت بالبلـى وتدرعـت

...

تحكـى تخـرّق طيلسـانى . إنهـا منـه تعلمـت البلـى فتضعضعـت

* * *

أنـا مـن خوفـى عليـه أبـدًا سامـرىّ ليـس يألـو حـذره

* * *

كأنـى لإشفاقـى عليـه ممـرّضٌ أخـا سقـم ممـا تمادى به المـرض

* * *

وهبـت لنـا ابـن حـرب طيلسانـا يزيـد المـرءَ ذا الضعـة اتضاعـا

* * *

فـــإذا سائـــل رآنـــىَ فيـــه ظـن أنـى فتـى من اهل الصناعَـةْ

* * *

كأنـه مـن طـــول رفـــوى لـــه يملكنـى مـذ صـار فـى ملكـى

* * *

أظـل أجتنـب الاخـوان فـى حـذر كأنمـا بـى جـرح ليـس يندمـلُ

* * *

قـل لابـن حـرب : طيلسانـه قـد أوهـى قـواى بكثـرة الغُـرْم

* * *

يا ابن حـرب ، أطلت فقرى برفوى طيلسانـا قـد كنـتُ عنـه غنيًّـا

...

زرتُ فيـه معاشـرا فازدرَوْنـى فتغنيـت إذ رأونـى زريًّـا :

« جئـتُ فـى زى سائل كى أراكم وعلـى البـاب قـد وقفـتُ مليًّـا »

ومع هذه المتاعب والإزعاجات التى سبَّبها له الطيلسان فإن له أبياتًا أخرى ذكر فيها الأيدى التى له عنده ، وهى بالضبط عكس ما جلبه عليه من ألوان الشقاء والتعاسة ، فقد جلب له الطيلسان أثوابا أخرى كثارًا ، وصار الناس يقربونه إليهم بعدما كانوا ينبذونه ، وذلك إعجابًا بشعره الذى أخذ يسحّ فى تصوير الطيلسان :

طيلســـان ابـــن حـــرب ذو أيـــاد ليـــس تُحْصَـــى

أنـــا فيـــه أشعـــر النـــا س إذا مـــا الشعـــر نصّـــ

وأرانـــى صـــرتُ أدْنَـــى بعدمـــا قـــد كنـــتُ أُقْصَـــى

واتقانـــى النـــاس وازدا دِا علـــ ـى شعـــرىَ حرصـــا

ولكـــم قـــد حـاز لـــى أردبـــة تتـــرى وقمصـــا

كـــان دهـــرًا طيلسانـــا ثـــم أصبـــح شصًّـــا

وهذا برهان قوىّ على قدرة الشاعر على توليد المعانى وتقليب الأمر على وجهيه ، وبراعته فى تصوير الطيلسان على أى نحو يشاء .

وهو يبدأ هذه المقطعات أحيانا بنداء ابن حرب :

دعنـــى أبكّـــى كسوتـــى إذ ودّعت ... فلأُزمعـــنّ على البكـــا إذ أزمعـــتْ

يا ابن الحسين ، أما ترى دراعتـى ... سَمَـلاً تـــردّت بالبلـى وتدرعـتْ ؟

* * *

يا ابـن حـرب ، كسوتنـى طيلسانًـا ... يُـــزْرِعُ الرفـــو فيـــه وهو سبـاحُ

* * *

يا ابـن حـــرب ، كسوتنـى طيلسانا ... ملّ مـن صحبـة الزمـــان وصـدّا

* * *

وهبتَ لنا ، ابـنَ حـرب ، طيلسانا ... يزيـد المـرءَ ذا الضعـــة اتضاعـا

* * *

يا ابـن حـرب ، إنى أرى فـى زوايا ... بيتنـا مثـل ما كســوت جماعـــه

* * *

يا ابـن حـرب ، كسوتنـى طيلسانـا ... أمرضتـــه الأوجـاع فهـو سقيـم

...

يا ابن حرب ، أطلت فقرى برفـوى ... طيلسانـــا قـد كنـــتُ عنـه غنيًـا

أو بعبارة : « قل لابن حرب : ... » أحيانا أخرى :

قـل لابن حـــرب مقالـــة العاتـب ... ولســـتُ فيمـا أقـــول بالكـاذب

* * *

قـل لابـــن حـــرب : طيلســـا ... نك قـوم نـــوح منـــه أحـــدثْ

* * *

قل لابـن حـرب : طيلسانـك قـد ... أوهـى قـــواى بكثـــرة الغُـرمِ

وأكثر من هذا وذاك بدؤه إياها بكلمة « طيلسان » :

أيـا طيلسانـــى ، أعـــد طـــى ... أسُـــلٌّ بجسمـك أم داء حـــبّ ؟

* * *

طيلســـان لابـن حـــرب جاءنـى خلعـةٌ فـــى يـــومِ نحـسٍ مستمرّ

* * *

طيلســـان لابـــن حـــرب جاءنـى قـد قضـــى التمزيـق منـــه وطَرَهْ

* * *

طيلســـــان خلعتـــــــه إذ تجافَـــوْه فـــــى الشّـــرا

* * *

طيلســـان لابـــن حـــــرب يتداعـــى : « لا مساســـا »

* * *

طيلســـان لابـــــن حـــــرب ذو أيـــادٍ ليـــس تُحْصَـــى

* * *

ولى طيلســـان إن تأملـت شخصـه تيقنـت أن الدهـر يفنـى وينقـرض

* * *

وطيلســـــان إن تأملتـــــــه قددتـــــه بالطـــول والعـــــرض

* * *

وطيلســـــان إن تأملتـــــــه لـــجّ مـــن التمزيـق فـى مَحْـــك

* * *

لطيلســان ابن حـرب نعمـة سبقت بهـا تبيّـنَ فضلى ، فهـو متّصـلُ

* * *

طيلســان مـازال أقـدم فـى الدهـــ ـر من الدهـر . مـا لرافيه حيلـه

* * *

وطيلســـانٌ هـــرمٌ يُحتَمَـــــى عليـــه أكـــلُ الخَـــلّ والبقـــل

* * *

يا طيلسان ابن حرب، قد هممتَ بأن تودى بجسمى كمـا أودى بـك الزمن

* * *

طيلسان لـو كـان لفظـا إذن مـا شـك خلـقٌ فـى أنـه بهنـانْ

وتتردّد فى أشعار الطيلسان ألفاظ الغرام والطبّ ومصطلحات علم الكلام تصويرًا لحاله ومحاولة إصلاحه :

أفنـــاه جـــور البلـى عليـــه كمـا ... أفنى الهوى قلب خالد الكاتب (٣٠)

* * *

أيا طيلسانـــى ، أعييـــت طبـــى ... أسُلٌّ بجسمـك أم داء حـــبّ ؟

* * *

غـــاب تحـــت الحـــسّ حتـــى ... لا يُـــــــرى إلا قياســـــا

* * *

كأنـى لإشفاقـى عليـه ممـــرّضٌ ... أخـا سقـم مما تمادى به المرض

فلو أن أصحـاب الكـلام يرونـــه ... لَمـارَوْك فيـه وادّعوا أنـه عَـرَض

* * *

يا ابـن حـرب ، كسوتنـى طيلسانـا ... أمْرَضَتْـه الأوجـاع فهـــو سقيـمُ

* * *

يصدعـــه اللحـــظ بإيماضـــــه ... صـدع فـــؤاد العاشـــق المغـــرمِ

* * *

مثـــل السقيـــم بـــرا فراجعـــه ... نكـــسٌ ، وأسلمـــه إلـى السُّقْـــمِ

* * *

طيلســان لـو كـان لفظـا إذن مـــا ... شـــك خلـــق فـــى أنـــه بهتـــان

* * *

كسانى ابـن حـرب طيلسانـا كأنـه ... فتـى عاشق بـال من الوجد كالشَّـنّ

وكمثل صنيعه فى أشعار الطيلسان نراه يكرر النظم فى الشاة التى أهداها إليه سعيد بن أحمد حتى بلغ به مقطوعات ثمانى على الأقل هى الموجودة بين أيدينا مما جمعه له عبد الجبار المعيبد من شعر . وهو يضمن هذه الأشعار عباراتٍ أو أبياتا كاملة من أشعار الشعراء الآخرين ، وكلها

فى الغزل وضناه . أما الاقتباسات القرآنية فقد اختفت من أشعار الشاة ، اللهم إلا قوله :

صـــاح بـــى ابـــن سعيـــد مـــــن وراء الحجـــــرات

الذى اقتبسه من قوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » (٣١) . وأخال أنه أراد لمز سعيدٍ هذا بأنه لا يعقل ، إذ هو أيضا قد ناداه بل صاح به من وراء الحجرات .

ومن الأمثلة على التضمينات الشعرية فى شعر الشاة :

كـــم قـــد تغنَّت بحرقـة ونحيـــب لم تـذق غير سفّ محض التراب :
« رب ، لا صبر لى على ذا العـــذاب بَلِيَتْ مهجتـــى وأودى شبابـــى »

* * *

وهـــى تغنـــى لســـوء حالتهـــا : « حسبى ما قـد لقيتُ يا عُمَـرُ »

* * *

مـرّت علـى علـف فقامـــت لم تَرِمْ عنـــه ، وغنَّـت والمدامـع تَسْجُـمُ :
« وقف الهوى بى حيث أنت ، فليس لى متأخَّـــرٌ عنـــه ولا متقـــدّمُ » (٣٢)

وفى سبع من مقطوعات الشاة الثمانى نرى الحمدونى يمهِّد لهذا التضمين بقوله إنها « تغنَّت » أو « تتغنَّى » ، ثم يورد العبارة أو البيت المراد تضمينهما . وفى الشواهد الثلاثة السالفة أمثلة على ذلك .

ويدور التهكم فى هذه الأشعار على أن الشاة ليست فى الحقيقة إلاَّ جلدًا وعظامًا بحيث لو رآها أحد وجسَّها لحسبها جراباً مملوءًا ببعض الأغصان الصلبة . والسبب فى هذا أنها لم تكن تأكل فى بيت مُهْديها ، فلذلك أضحت بذلك الهزال . ولقد بلغ منها الجوع أن رأت يوما ، وهى عند الشاعر ، قطعًا من ثياب خضر فحسبتها نباتات تؤكل ، فانقضت

عليها بكل عُرَام الجوع ، فإذا بها تكتشف الحقيقة وترجع مفعمة القلب خيبة وإحباطًا وهى تغنّى أغنيات الهجر والحرمان .

وإذا كان الشاعر فى مقطعات الطيلسان يستعمل ألفاظ الغرام والطب ومصطلحات الكلاميين فإنه فى أشعار الشاة يلجأ إلى عبارات الغرام والنسيب ليس غير .

وهو يتفنَّن فى وصف جوع الشاة وهزالها وما لقيته من إهمال وضُرّ عند صاحبها الأول : فهى ليست إلا جلدًا وعظامًا :

ما إن أرى إن ذَبَحْتُ شاة سعيد ... حاصلاً فى يدى غير الإهابِ
ليس إلا عظامها . لو تراها ... قلت : هذه أرانٌ فى جرابِ (٣٣)

وهى تستحلف الشاعر بحياتها ، عندما يهمُّ بأن يضحى بها ، ألا يفعل ، فإنه لن يناله منها شىء :

كلما أضجعتها للـ ... ـذّبح قالت : بحياتى !

وهى لم تكن تعرف من الطعام إلا سفّ التراب الخالص الذى لا يخالطه شىء :

كم قد تغنّت بحرقة ولهيب ... لم تذق غير سفّ محض التراب

أو الأبيضين : الشمس والقمر . وهما بالطبع لا يؤكلان ولا يُشْرَبان ، ومن ثم فهى لا تبول ولا تبعر :

أبا سعيد ، لنا فى شاتك العبَرُ ... جاءت وما إن لها بول ولا بعرُ
وكيف تبعر شاةٌ عندكم مكثت ... طعامها الأبيضان : الشمس والقمرُ؟

ولعلّ الشاعر قد أراد بذكر « الأبيضين » إيهام القارىء أولاً أنهما طعامان فاخران ، ما دام « الأسودان » هما « التمر والماء » (٣٤) ، ثم لم يدعه مع هذا الوهم إلاَّ لُحَيْظة ، إذ سرعان ما فسّر المراد بهما ، فإذا هما (يا

لحرمان الشاة ! ويا لعذابها !) الشمس والقمر .

ويبلغ تهكم الشاعر بالشاة ذروته فى قوله إنها إذا مرّت بجيف سمعتهن يصحن بها أن تلحق بهن . يقصد أن الجيف يرينها لعجفها واحدة منهن لا من الأحياء :

ناحلـــــة الجســـــم ، إذا ... مـــا هى مـــــرت بالجيَـــــفْ
صاحـــت عليهـــا : « ها هنـــا ... يا أختنـــا ذات العجـــــف »

وكذلك فى قوله إنَّها حين تلقى يوم القيامة من يضحى بها فسوف تبصق فى وجهه . يريد أن يقول إن التضحية بها لا تصحّ ، إذ ليس فيها لحم ولا دهن ، وإن من قربَّها أضحية سوف يخزيها حين ترى الأضاحى الأُخر يوم العرض وتقيس هزالها إلى سمنتهن :

ستراهـن كيـف يبصقـن فـى وجـ ... ـه المضحّـى بهـن يـوم الحساب

وهى لذلك تحلم بالطعام والعلف بقطةً ومنامًا . وقد مرّت بقُطُف خضر ينشرها أصحابها لتجف فظنتها نباتات خضراء ، فهجمت عليها تريد أن تأكلها ، ولكنها لم تجد إلا الخيبة والحرمان :

مرت بقطـف خضـر يشرّرهـا (٣٥) ... قـــوم فظنـــت بأنهـــا خُضَـــرْ
فأقبلـــت نحوهـــا لتأكلهـــا ... حتـــى إذا مـا تبيَّـــن الخَبَـــرْ
وأبدلتهـــا الظنـــون مـن طمـــع ... يأسًـــا ، فغنـت والدمـع ينحـدرْ :
« كانـــوا بعيـــدا فكنـتُ آملهم ... حتـى إذا مـا تقاربـــوا هجـــروا »

* * *

فقل لهـم : كانـت لديهـم (٣٦) أسيرةً ... ترى القتَ فى أيدى العدوّ وفى الحُلَم

* * *

لـو أنهـا أبصـرت فـــى نومهـا علفـا ... غنـت لـــه ودمـــوع العـــدوّ تتحدرْ
« يا مانعى لـذة الدنيـا بأجمعهـا ... إنى ليقنعنـى مـن وجهك النظـرُ »

والآن إلى أشعار الحمدونى الأخرى . ونبدأ بالهجاء . ويقول د. حسين عطوان إن الحمدونى فيما يبدو قد « سلك طريق الهجاء الخبيث الفاحش فى أول عهده بالهجاء ... ولكنه سرعان ما انتهج ... مذهبا يقوم على الفكاهة المضحكة والسخرية اللاذعة » ((٣٧) . ثم يقدم دليلاً على فحش هجائه فى أول حياته الشعرية هذين البيتين فى هجاء الجاحظ :

لو يُمْسَخُ الخنزير مسخا ثانيًا ... لرأيته فى دون قبح الجاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بوجهه ... وهو العدوّ لكل عين لاحظ (٣٨)

والحقُّ أن البيتين ليس فيهما أى فحش . وبالمناسبة فقد نُسب الأول منهما فى « ثمار القلوب » ، إلى الجمَّاز (٣٩) . كما يرجح محمد جبار المعيبد أن يكونا فعلا للجماز ، لما كان بينه وبين الجاحظ من مهاجاة (٤٠) .

ومن هجائه بيتان على رويّ الهمزة فى امرأة يصف نتن إبطها ، مؤكدا أنه لا يصلح معه أى دواء أو طيب . وليس فيهما فنٌّ ولا إمتاع :

قل لها : لا تمرتكيه ، فما ... ينفع ضرب بالطبل تحت الكساء

كيف يخفى وقد تبقع فى النيـ ... ـق منه كالمرة السوداء ؟

ومن هجائه أيضا قوله فى امرأة ذات صنان :

من كان لا يدرى لها منزلاً ... فقل له : يمشى ويستنشق

وقوله فى شخص بغيض :

فى حمير الناس إن كنـ ... ـتَ من الناس تُعَدُّ

ولقد أُنبئتُ : إبليـ ... ـس إذا رآك يصدّ

وقوله فى رجل بغيض أيضا ، وقد يكون هو نفس الشخص السابق :

يا ابن البغيضة وابن البغيض ... ومن هو فى البغض لا يُلْحَقُ

سألتك بالله : إلاّ صدقتَ ... وعلمى بأنك لا تصدقُ

أتبغض نفسك من بغضها ؟ ... وإلا فأنت إذن أحمقُ

وهو شعر ليس فيه كبير فنٍّ أو إمتاع ، على عكس البيت التالى الذى يصف فيه وجه شخص :

كـــأن دمامـــلاً جُمعـــتْ ، فصُـــوِّر وجهـــه منهـــا

فهو بيت حرِّيف حارّ ، ومثله فى الحرافة واللذع البيتان التاليان ، وهما فى شكوى حاله وشتم من هم فى رفاهيةٍ ونعمة :

تسامـــى النـــاس علـى خيلهـــم ورجلـىَ مـــن بينهـــم حافيَـــةْ
فـــإن كنـــت حاملَنـــا ربَّنـــا وإلا فأرْجـــل بنـــى الزانيَـــةْ

ووجه الحرافة فيهما أنه لا يتورع عن الهزل والسفاهة حتى وهو يدعو ربّه . والمفروض أن يكون الدعاء بتذلُّل ، وأن يراعى فيه الأدب . ثم إنَّ هؤلاء الذين يسبُّهم لم يفعلوا له شيئًا حتى يستحقوا منه هذا . ولكنه مجرد الغيظ من ترجُّله وركوبهم .

ومن شعره القوى هذه الأبيات الثمانية فى هجاء أبى زرارة ووسمه بالبُخْل والسفاهة حتى مع أبيه :

رأيـــت أبـــا زرارة قـــال يومـــا لحاجبـــه وفـــى يـــده الحســـامُ :
لئـــن وُضـــع الخـــوان ولاح شخـص لأختطفـــن رأســـك والســـلامُ
فقال : سوى (١١) أبيك ، فذاك شخص بغيـض ليـس يردعـــه الكـــلامُ
فقـــام وقـــال مـــن حنـــقٍ إليـه ببيـــت لـم يـــرد فيـــه القيـــام :
أبـــى وابنـــا أبـــى والكلب عنـدى بمنزلـــةٍ إذا حضـــر الطعـــامُ
وقـال لـه : أبـنْ لـى يـا ابن كلب علـى خبـزى : أصادر أم أُضـامُ ؟
إذا حضـــر الطعـــام فـــلا حقـوق علـــىَّ لوالـــدىَّ ولا ذمـــامُ
فمـــا فـى الأرض أقبـح مـن خـوان عليـــه الخبـــز يحضـــره الزحـــامُ

ومثلها فى العنف ، وإن زادت عليها ببعض البذاءة ، القصيدة التالية فى هجاء ابن أبى حزرة والسخرية الكاوية بحبِّه لـ « عجاب »

المغنية ، إذ يستكثره عليه لفقره وعدم استطاعته أن يهدى إليها شيئا تعبيرا عن ذلك الحب :

ألم تـــر فـى ابـن أبـى حـــزرةٍ ... يحـب عجابـا كمـا قـد زعَـمْ
وليـس بكافيـــه مـن حبّهـــا ... ســـوى أن يدلّـــك أو يحتلـم
إذا يـات سكـــران مـــن حبهـا ... وأصبـــح مـــن جوعـــه مُتَخـمْ
فيـا لـــك مـن عاشـق مفلـس ... أخـى صبـوة موسـر مـن عـدمْ !
ونُبِّئْـــتُ زارهـــا ليلـــة ... تبيـــل الحمـــار مـن القـــرّ دَمْ
عليـــه قميـــص لـــه واحـد ... يقـصّ عليـــك حديث الأمـم
فغنَّـــتْ فآثرهـــا بالقميـص ... وغُـــودر عريـــان كالمستحـــمّ
وغنـــى وقـد ضربـــته الشَّمـــال ... وأصبـــح مـن بردهـا قد صُـدم :
أخـــذتِ بُرَيْـــدِى فأعريتنـــى ... وأورثـــت جسمـــىَ طـول السقَـمْ

وهى قصيدة تذكّرنا بشعره فى الطيلسان : ففيها حديث عن القميص الذى أهداه ابن أبى حزرة لحبيبته ، ذلك القميص الذى « يقصّ حديث الأمم » . كما ختمها ، مثلما ختم كثيرا من أشعار الطيلسان (وكل أشعار الشاة تقريبا أيضا) ، بغناء ، وإن كان الغناء للمُهْدِى لا للهدية . وهو يمزج بين الأضداد التى لا تَلاقِىَ بينهـا ، فهو يجعل مهجوّه « متخما من الجوع » و « موسرًا من العدم » . وهذا مثل قوله تعالى فى السخرية بالكافرين : « فَبَشِّرْهم بعذابٍ أليم » (٤٢) .

أما أبياته التالية فى هجاء عبد الصمد بن المعذَّل ففاترة . وهى تقوم على التلاعب اللفظى فـى البيـت الثانى بكلمتى « يلكز » و « بنى لكيز » ، الذين ينتمى إليهم مهجوّه ، وكذلك التلاعب فى البيت الأخير بلفظتى « يضرط » و « مضرطان » ، وهو لقب الشخص الذى ضرب ابن

المعذّل . قال :

ألذّ من صحبة القناني ... أو اقتراح على قيان
لكز فتى من بني لكيز ... يهدى له أهون الهوان
أهوى له بازل خِدَبٌّ (٤٣) ... يطحن قرنيه بالجران
فنال منه نُؤُورَ (٤٤) قوم ... باليد طورا وباللسان
وكان يفسو فصار حقا ... يضرط من خوف مضرطان

وله فى وصف الطبيعة فى فصل الربيع مقطوعة وقصيدة ، وليس فيهما شىء خاص . وهأنذا أسوق المقطوعة لإعطاء القارىء فكرة عن فنه فى هذه الناحية :

بروضة صنعت أيدى الربيع لها ... برودَها ، وكستها وشيها عدنُ
عاجت عليها مطايا الغيث مسبلة ... لهنّ فى ضحكاتٍ أدمعٌ هُتُنُ
كأنما البين يبكيها ، ويضحكها ... وصلٌ حباها به من بعدها سكنُ
فولدت صفرا أثوابها خضرا ... أحشاؤهن لأحشاء الندى وطنُ
من كل عسجدة فى خدرها اكتتمت ... عذراء فى طنها الياقوت مكتمنُ

ولعلك لاحظت الطباق والمقابلة فى هذه الأبيات ، كما لعلّك لاحظت اهتمامه بالألوان . وهو نفس ما نجده فى قصيدته الدالية فى نفس الموضوع ، مثلما نجد فيها أيضا الإشارة إلى « عدن » وبرودها :

فكأنها عدن لدى أكنافه ... قد نشّرت فيه التّجّار برودا

على أن فى تلك القصيدة بيتا جميلاً مونقا يصف فيه أثر جو الترف والنعمة فى البستان على زهور النهار ، التى قد غلبها الكسل والفتور فلا تبالى بالنسيم إذا هبَّ :

فإذا الرياح مشين فيه ظللن من ... كسل النعيم رواكعًا وسجودا

وللحمدونى فى الغزل هذه الأبيات التى يحاول أن يصوّر فيها لحبيبته

مـدى الحرقات التى يصطليها فى عشقه لها وعجزه عن السلوّ عنها بغيرهـا :

زعمـوا أن مـن تشاعـل بالحـ ـب سـلا عـن حبيبـه وأفاقـا
كذبـوا . مـا كـذا بلونـا ، ولكـن لم يكونـوا ، فيمـا أرى ، عشاقـا
كيـف أسلـو بلـذة عنـك واللّـ ـذّات يحدثن لـى إليك اشتياقا ؟
كلمـا رمـت سلـوة تذهـب الحر قة زادت قلبـى عليـك احتراقـا

وهى كما ترى أبيات صادرةٌ عن العقل لا القلب ، فليس فيها حرارة ولا آلام ولا حرقات ، وإنما محاولةٌ للإقناع بذلك . وهيهات !

وله فى الغزل والفخر قصيدة هى أطول ما وصلنا من نظمه ، إذ تبلغ ثمانية وعشرين بيتا (٤٥) . وهو يبدؤها بوصف جمال ألحاظ حبيبته وتورد خديها ، اللذين يزدادان تورُّدا كلما سقاهما طل دموعه . وهى صورة لا تخلو من عذوبة . كما يصف كلامها أيضا بالعذوبة ، اللّهم خلا معارضتها لرغبته فى السفر بحثًا عن الرزق والعزّة بدلاً من البقاء حيث هو فى الفقر والحاجة والهوان . وهو يخرج من ذلك إلى الفخر بشجاعته واقتحامه الأهوال لا يبالى ورفضه للضيم .

وتتخلّى عن الشاعر فى هذه القصيدة البساطة التى تسم شعره الآخر وبخاصة فى الطيلسان والشاة ، ويذهب مذهب الشعراء المفتخرين فيستعمل خشن الألفاظ ، مثـل « ، سِمْـع أزلّ » و « المضمئلّ » « المسهب المشعلّ » ، و « رِفَلّ » . وإليك بعض أبياتها :

لـك ألحـاظ مـراض ودلُّ عيـر أن الطـرف عنهـا أكـلُّ
وأرى خديـك وردا نضيـرا جـاده مـن دمـع عينـىّ طـلُّ
عذبـة الألفـاظ لـو لم يشنهـا كـرّ تفنيـد بسمعـى يضـلُّ

...

إن أوّلَـــى منـــك بـــى لمـــرام ... لا يحـــل الهـــوان حيـــث يحـــلُ
ما مقامـى وحسامـــــى قاطـــعٌ ... وسنانـــــى صـــارم ما يُفَـــلُّ ؟

...

هـــو سيـــف غمـــده بردتـــاه ... ينتضيـــه الحـــزم حيـــن يُسَـــلُّ
لا يشـــك السمـــع حيـــن يـــراه ... أنـــه بالبيـــد سِمْـــعٌ أزلُّ (٤٦)
ليـــس تنبـــو بـــى رحـــال وبيـــدٌ ... إن نبـــا بـــىَ منـــزل ومحـــلُّ
فأقلّـــى بعـــض عـــذل مُقِـــلٌّ ... لا يـــرى صـــرف الزمـــان يقـــلُّ
إن وخـــد العيـــس إثمـــار رزق ... يجتنيهـــا المسهـــب المشعمـــلُّ (٤٧)

...

فالفتـــى مـــن ليـــس يرعـــى حمـــاه ... طمعًـــا يومًـــا لـــه مستـــذلّ (٤٨)

...

شمـــرت أثوابـــه تحـــت ليـــل ... ثوبـــه ضـــاف عليـــه رفَـــلُّ (٤٩)

ومما وصلنا من شعره أيضا أبياتٌ في الحسين بن أيوب والي البصرة . ويبدو أنه كانت بينهما صداقة ومودة تغيرت بعد أن أصبح الحسين هذا واليا :

قل لابن أيُّوبَ : قد أصبحتَ مأمولاً ... لازال بابـك مغشيًـــا ومأهـــــولا
إن كنـــتَ فـــى عطلـــة فالعذر متّصلٌ ... وصلٌ إذا كنتَ بالسلطـــان موصـــولا
شـرّ الأخـــلاء مـــن ولّـــى قفـــاه إذا ... كـان المولّـــى وأعطـــى البشـــر معـــزولا
مـن لم يسمّـــن جـــوادًا كـــان يركبـــه ... فى الخصب قام به فى الجدب مهزولا
افـــرغ لحاجاتنـــا مادمـــت مشغـــولا ... لـــو قـــد فرغـــت لقد ألقيت مبـــذولا

وهى أبيات حسنة فى تصويرها ، وإن كنت لا أحب هذا الترامى على أبواب الخلفاء والوزراء والولاة . ولكن ماذا نفعل وقد كانت تلك العصور كلها هكذا ، لا يجد الشاعر حرجًا فى ذلك ولا جمهوُره ؟ والبيتان الثالث

والرابع هما بيتا القصيد فى هذه المقطوعة ، إذ فى كل منهما صورة بارعة .

وله فى الإخوانيات مقطوعتان أخريان ليس فيهما ما فى هذه من حسن التصوير وبراعته . ثم نأتى إلى أبياته فى العود ، وهذه هى :

وسجّعت رجع عود بين أربعة ... سرّ الضمائر فيما بينها علَنُ
فولّدتْ للندامى بين نغمتها ... وكفّها فرَحًا تفصيله حَزَنُ
فما تلعثم عنها لفظ مزهرها ... ولا تحيّر فى ألحانها لحن
يهدى إلى كل جزء من طبائعها ... بنانها نغما أثمارها فتَنُ
وترتعى العين منها روض وجنتها ... طورًا ، وتسرح فى ألفاظها الأذنُ

وهى أبيات متوسطة الجودة . وقد خلع عليها شيئا من النضرة ذكرهُ « الإثمار والسروح والارتعاء والروض » مصوّرًا بها صوتها وجمال وجهها .

الهوامش

١- طبقات الشعراء / تحقيق عبد الستار أحمد فراج / دار المعارف بمصر / ط ٢ / ٢٧٠ .

٢- انظر « العقد الفريد » / المطبعة العامرة الشرفية / القاهرة / ١٣٠٥هـ / ١ / ٢٣٥ ، وزهر الآداب (على هامش « العقد الفريد ») / ٢ / ١١٣ ، ١٤٩ وما بعدها ، و ٣ / ٣٣٨ .

٣- انظر كتابه « فوات الوفيات » / بولاق / ط ٢ / ١٢٩٩هـ / ١ / ١٤ .

٤- انظر « العصر العباسى الثانى » / دار المعارف بمصر / ط ٢ / ٤٣٥ .

٥- انظر كتابه « الشعراء الصعاليك فى العصر العباسى الأول » / دار الطليعة / بيروت / ط ٢ / ١٩٨١م / ١١٢ .

٦- انظر « الأغانى » / مؤسسة عز الدين / بيروت / ١٢ / ٥٩ (فى ترجمة « عبد الصمد بن المعذّل ») .

٧- شعراء بصريون من القرن الثالث الهجرى / مطبعة الإرشاد / بغداد / ١٩٧٧م / ص ١١٣ (النصّ وهامش رقم / ١) .

٨- انظر د . شوقى ضيف / العصر العباسى الثانى / ٤٣٥ / هـ ١ . وتجد الترجمة المذكورة فى « معجم الأدباء » / دار الفكر / بيروت / ط ٣ / ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م / ٢ / ٢٠٤ .

٩- العصر العباسى الثانى / ٤٣٩ .

١٠- سبق أن رجحتُ نسبته إلى لقب الأب على نسبته إلى اسم الجد الأعلى .

١١- معجم الأدباء / ٢ / ٢٠٤ - ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

١٢- شعراء بصريون / ١١٤ - ١١٥ .

١٣- المرجع السابق / ١١٤ .

١٤- الصفحات من ١٢١ إلى ١٦٦ من « شعراء بصريون » .

١٥- الحصرى / زهر الآداب (على هامش « العقد الفريد » / ٢ / ١٥٠ - ١٥١) . وكان السبب فى عدم رضاه أنه وجد فى الطيلسان فزرا (أى شقا) . انظر

« شعراء بصريون » / ١١٥ .

١٦- انظر « طبقات الشعراء » / ٣٧١ .

١٧- ابن خلكان / وفيات الأعيان / تحقيق د . إحسان عباس / دار الثقافة / بيروت / ١٩٦٤ م / ٧ / ٩٥ .

١٨- زهر الآداب (على هامش « العقد الفريد » / ٢ / ٤٠) .

١٩- الثعالبى / ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / مكتبة نهضة مصر / ١٩٦٥ م / ٦٠٢ .

٢٠- المرجع السابق / ٦٠١ .

٢١- شعراء بصريون / ١١٨ .

٢٢- الأعراف / ١٧٦ .

٢٣- يس / ٧٨ .

٢٤- أى هلك كما هلكت جنة أصحاب الجنة ليلا . ولما ذهبوا إليها مبكرين قبل استيقاظ الفقراء لئلا يعطوهم منه وجدوها قد احترقت عن آخرها . وهو ما حكته لنا الآيات / ١٧ - ٣٣ من سورة « القلم » .

٢٥- ما بين علامات التنصيص فى الشطرتين الأخيرتين من البيتين اقتباس من الآيتين / ٣١ ، ٧ من سورة « القمر » .

٢٦- الهميم : الذيب .

٢٧- ما بين علامات التنصيص فى الشطرتين الأخيرتين من البيتين مقتبس من الآيتين / ٦ ، ٢٩ من سورة « القمر » .

٢٨- النزاع : الأعراب .

٢٩- ما بين علامة التنصيص مقتبس من الآية / ٧٨ من سورة « يس » على ما مرّ بيانه .

٣٠- خالد الكاتب شاعر رقيق العاطفة ، توفى عام ٢٦٣ هـ . انظر « شعراء بصريون » / ١٢١ / هامش ١

٣١- الحجرات / ٤ .

٣٢- البيت الأخير لا ص ، الشاعر العباسى (وله فصل خاص به فى هذا

الكتاب) أو لعلي بن عبد الله بن جعفر . أنظر « شعراء بصريون » / ١٤٦ / هامش ١ .

٣٣- الأرزن : شجر صلب .

٣٤- على ما جاء فى سبب نزول الآية الأخيرة من سورة « التكاثر » .

٣٥- فى « الشعراء الصعاليك فى العصر العباسى الأول » للدكتور حسين عطوان (ص / ١١٥) : « ينشرها قوم » .

٣٦- أى لدى صاحبها الأول .

٣٧- الشعراء الصعاليك فى العصر العباسى الأول / ١١٢ .

٣٨- نفس المرجع والصفحة .

٣٩- انظر الثعالبى / ثمار القلوب / ٤٠٤ .

٤٠- انظر « شعراء بصريون » / ١٦٩ .

٤١- ظن الأستاذ المعيبد أن كلمة « سوى » تصحيف وأن الصواب : « فدى أبيك » . لكن المعنى إنما يستقيم بـ « سوى أبيك » .

٤٢- الانشقاق / ٢٤ .

٤٣- البازل : البعير فى قمة فتوته ، وذلك عندما يطلع نابه . والخدبّ : الضخم الشديد الصلابة .

٤٤- تُؤور : جمع « ثأر » .

٤٥- القصيدة التى تليها فى الطول هى قصيدته فى وصف الربيع ، وتبلغ خمسة عشر بيتا . وتليها قصيدته فى ابن أبى حزرة (تسعة أبيات) ، فقصيدته فى بخل وسفاهة أبى زوارة (ثمانية) . وسائر شعره بعد ذلك مقطوعات أو أقل من ذلك .

٤٦- السّمع الأزلّ : حيوان ضخم من الفصيلة الكلبية معروف بحدة سمعه .

٤٧- المشمعلّ : الرجل الطويل الشريف أو الحصان النشيط السريع .

٤٨- المستذلّ : العدوّ .

٤٩- وفَلٌ : سابغ واسع .

الحلاَّج

هو الحسين بن منصور ، وكنيته أبو مغيث (أو أبو عبد الله) ، ولقبه الحلاَّج . ونشأ بواسط (أو تستر) ، وقدم بغداد حيث اختلط بالصوفية ، ومنهم الجنيد وأبو الحسين النورى وعمرو المكىّ . وقد حج ثلاث مراتٍ ، وساح فى البلاد فذهب إلى خراسان وما وراء النهر والهند . وكان يلبس أحيانا زى الصوفية ، وأحيانا زى الجند . واختلف الناس فيه ما بين مُثْنٍ عليه وعلى دينه وتقواه ومشكّك فيه متّهم له بالشعبذة والحيل والخداع . وكان يدّعى حلول الله فيه ، وأُثِرتْ عنه أقوال يتحدث فيها عن نفسه واللّه بوصفهما شيئًا واحدًا . كذلك قيل إنه دعا إلى إسقاط فريضة الحج والاستعاضة عنها بالدوران وقت الحج حول حجرة طاهرة فى البيت والقيام ببعض أعمال الخير تجاه الفقراء كإطعامهم وتوزيع الأموال عليهم .

ويَحْكِى عنه من لهم اعتقاد فيه أشياء لا تقبلها عقليتنا الإسلامية المستنيرة التى ترى أن الله سبحانه قد نظم الكون على قوانين صارمة ، وأنه إذا كان هناك خرق لهذه القوانين فلا سبيل إلى التصديق بها إلاَّ عن طريق الوحى الإلهى . من ذلك قولهم إنه كان يمدّ يده فى الهواء ثم يستردها وقد امتلأت بالدراهم ، وكان يسميها « دراهم القدرة » . كما رُوِى أنه أحيا عددا من الطير ، وأنه كان يأتى بالفاكهة فى غير إبانها ، ويقرأ ما فى نفوس الناس .

أما من كان رأيهم فيه سيئا فقد كانوا يعْزُون ذلك إلى ما تعلمه فى الهند من السّحر والشعبذات ، وإلى الحيل التى كان يعدّها سلفا ويموّه بها

على السذّج .

وقد حُكِى عن واحد من هؤلاء أن الحلاج لما قال له : « تؤمن بى حتى أبعث إليك بعصفورة تطرح من ذرقها وزن حبة على كذا منًّا من نحاس فيصير ذهبا ؟ » ردّ عليه متهكما : « بل أنت تؤمن بى حتى أبعث إليك بفيل يستلقى فتصير قوائمه فى السماء . فإذا أردت أن تخفيه أخفيته فى إحدى عينيك ؟ » ، وأن الحلاَّج قد بُهت عندئذ وأُفْحِم .

كما ذكر واحد آخر منهم أن الحلاَّج لـمَّا أرسل إليه يدعوه إلى الإيمان به ومتابعته على ما يقول قال للرسول : « هذه المعجزات التى يظهرها قد تأتى فيها الحيل ، ولكن أنا رجل غزِل ، ولا لذة لى أكبر من النساء وخلوتى بهن . وأنا مبتلًى بالصلع ... ومبتلًى بالخضاب لستر المشيب . فإن جعل لى شعرا وردّ لحيتى سوداء بلا خضاب آمنت بما يدعونى إليه كائنا ما كان : إن شاء قلت إنه باب الإمام ، وإن شاء : الإمام ، وإن شاء قلت إنه النّبى ، وإن شاء قلت إنه الله ! » وأن الحلاج لما سمع جوابه يئس منه وانصرف عنه .

وقد حكيت حكايات عن زهده وعبادته لا أظن الإسلام يستسيغها ، فقد قالوا مثلا إنه لما كان فى مكة مكث سنة فى صحن المسجد الحرام لا يبرح موضعه إلا للطهارة أو الطواف ، غير مبال بالشمس أو المطر . وكان إفطاره على ماء وأربع قضماتٍ من رغيف . وقد عاب بعضهم عليه تعذيبه هذا لنفسه وتنبأ له بأن الله يبتليه بلاءً لا يطيقه .

وكانت نهاية الحلاج أن سُجن فى عهد المقتدر باللّه ثمانى سنوات غير مضيَّق عليه ، حتى إنه كان مسموحًا للناس أن يزوروه ويسمعوه

ويأخذوا عنه . ثم حُوكم على ما نُسب إليه من ادعاء النبوة والألوهية وقوله بسقوط الحج إلى مكة (على ما تقدم ذكره) . وشهدت عليه زوجة ابنه بأنها كانت نائمة على السطح ذات ليلة ، وكانت معها ابنته ، ففوجئت به يغشاها . فلما هبت مذعورة مستنكرة ذكر لها أنه إنما جاء ليوقظها لصلاة الفجر . كما اتهمته أمام القضاة الذين كانوا يحاكمونه بأنه أمرها صبيحة ذلك اليوم ، وهى نازلة من السطح وكان هو فى أسفل الدرج ، أن تسجد له فرفضت . وانتهت المحاكمة بأن ضُرب ألف سوط وقُطِّعت أطرافه وصُلِب وأُحْرِقت جثته وعُرضت على الناس عدة أيام على الجسر ببغداد . وكان ذلك فى سنة ٣٠٩ هـ .

والغريب أن بعض أتباعه قد زعموا أن الذى قُتِل وصُلِب ليس هو الحلاج بل عدوّه ، أُلْقِى عليه شبهه فظنه الناس الحلاج . كما ادعى بعضهم أنهم رأوه بعد القتل راكبا حمارا فى طريق النهروان ، وأنه قال لهم : لعلكم مثل هؤلاء البقر الذين ظنوا أنى أنا المقتول والمضروب (١) .

وقد جمع د. كامل مصطفى الشيبى ديوان الحلاج . وهو يضمُّ شعرًا مقطوعًا بنسبته إلى الشاعر ، ويبلغ نحو خمسمائة بيت ، وشعرًا آخر ينسب إليه وإلى غيره ، وعدد أبياته مائتان وأربعة وثلاثون .

ومعظم أشعار الحلاَّج عبارة عن مقطوعات . والقليل منه قصائد ، وهى فى الغالب ليست بالطويلة . ويدور شعره بوجه عام حول مشاعره تجاه اللَّه سبحانه وعلاقته به عز وجل . وأحيانا ما يتناول بعض الأفكار الخاصة بالعلاقة بينه سبحانه وبين عباده من البشر . وبعض مقطوعاته عبارة عن ألغاز شعرية . ويقل فى شعره الوعظ إلى حد كبير .

ومن هذا اللون الأخير قوله :

إلى كم أنت في بحر الخطايا ... تبارز من يراك ولا تراهُ
وسَمْتُك سَمْتُ ذى ورع ودين ... وفعلك فعل متبع هواه ؟
فيا من بات يخلو بالمعاصى ... وعين الله شاهدة تراه
أتطمع أن تنال العفو ممن ... عصيت وأنت لم تطلب رضاهُ ؟
أتفرح بالذنوب وبالخطايا ... وتنساه ولا أحد سواه ؟
فتب قبل الممات وقبل يوم ... يلاقى العبدُ ما كسبت يداه

وكذلك هذا البيتان :

يا جاهلا مسلك طرق الهدى ... فما على الحق له موقفُ
خلِّ طريق الجهل ، واعدل إلى ... مولّى له الأعمال تستأنفُ

وهو نظم ، كما ترى ، لا يستحق من الناحية الفنية أن نقف حياله .

وأحسن منه وأدفأ بالمشاعر والصّور التشخيصية قوله :

دنيا تخادعنى كأنـ ... ـى لستُ أعرف حالَها
حظر الإله حرامها ... وأنا اجتنبت حلالَها
مدت إلىَّ يمينها ... فرددتها وشِمالَها
ورأيتها محتاجةً ... فوهبتُ جملتها لها
ومتى عرفت وصالها ... حتى أخاف ملالَها ؟

على أنه مما يلفت النظر أن الحلاج ، الذى قال هذا ، هو نفسه الذى يقول فى موضع آخر :

ما حيلة العبد والأقدار جارية ... عليه فى كل حال ، أيها الرائى ؟
لُلقاه فى اليم مكتوفًا ، وقال له : ... إيساك إياك أن تبتل بالماءِ !

وهو يخالف ما سبق كل المخالفة ، إذ إن البيتين الأخيرين يقرران الجبر على نحو لا يحتمل تأويلاً ، على حين أن البيتين السابقين والمقطوعة التى قبلهما تقرِّع المقصرين وتستحثهم على استفراغ كل جهدهم فى عمل الطاعات

والبعد عن المعاصى والخطايا ، مما يفيد إيمان الشاعر بحرية الإرادة الإنسانية واستطاعة العبد الفعلَ والترك .

وينتهى الشاعر أيضا من طريق أخرى إلى أنه لا معنى لمعاقبة الخاطىء على ما يرتكب من شرّ ، إذ إنه يرى نَفْسَه واللهَ شيئًا واحدًا ، وذلك عن طريق عقيدة الحلول ، التى عبَّر عنها فى أشعارٍ له كثيرة . ومن ثمَّ فإن الخطيئة التى يرتكبها إنما تقع فى ذات الوقت (أستغفر الله) منه سبحانه أيضا . يقول مستنكرا :

أنـــا أنـــت بلا شـــــك ... فسبحانـــــك سبحانـــى !
وتوحيـــــدك توحيـــــدى ... وعصيانـــــك عصيانـــى
وإسخاطـــــك إسخاطـــــى ... وغفرانـــــك غفرانـــى
ولـــمْ أُجْلَـــدْ يـــا ربّ ... إذا قيـــل : هـــو الزانـــى ؟

وأغلب الظن أن هذا التناقض يرجع إلى أن الحلاَّج قال الشعر الذى يوحى بإيمانه بحرية الإرادة الإنسانية أوّلاً ، ثم غامت على عقله غمامة الاعتقاد بالجبر ، ثم انتهى به المطاف إلى ادّعاء الحلول والاتحاد مع الله سبحانه .

وأغلب الظن أيضا أن الحلاج لم يجرؤ على هذا الزعم دفعة واحدة ، بل وصل إليه على درجات . فقد كان يقف أولا موقف المحبّ الخاضع المستكين :

إذا دهمتـــك خيـــول البعـــا ... د ونـــادى الإيـــاس بقطـــع الرّجـا
فخـذ فـى شمالـك تـــس الخضـــو ... ع وشـــد اليميـــن بسيـــف البُكـــا
ونَفْسَـــك ! نفســـك ! كـــ خ نفـــا ... على حـذر مـن كميـــن الجفـــا
فـــإن جـــاءك الهجـــ ـمة ... فســـرْ فـى مشاعـل نـور الصفـا

وقـل للحبيـب : تـرى ذلتى ... فجـد لـى بعفـوك قبـل اللّقـا
فـوالحـب لا تثنـى راجعـا ... عـن الحـبّ إلا بعَـوْض المُنَى

وهى أبيات تمتلىء ، كما ترى ، بالصُّور الطريفة التى لا ترد عادةً فى مثل هذا السياق ، إذ تبرز أدوات الحرب وأسلحتُها فى مواقف التذلُّل والانكسار ، والمفروض أنها للهجوم والاقتحام والعدوان . لكم هى غريبة « خيول البعاد » ، و « ترس الخضوع » ، و « سيف البكاء » ، و « كمين الجفاء » ! إن الشاعر هنا يقرن بين المتناقضين . وهو فى هذا كمن يجمع بين الماء والنار فى إناءٍ واحدٍ .

ولعل الأبيات التالية لا تبعد فى روحها ومنحاها عن الأبيات السالفة :

الصبُّ ، ربّ ، محبُّ ... نوالـه منـك عُجْبُ
عذابـه فيـك عَذْبُ ... وبُعْدُهُ عنـك قُرْبُ
وأنـت عنـدى كروحـى ... بـل أنـت منهـا أحَبُّ
وأنـت للعيـن عيـنٌ ... وأنـت للقلـب قلـبُ
حسبـى مـن الحـب أنّـى ... لمـا تحـبُّ أحـب

ومثلها قوله :

طلعتْ شمـس مـن أُحبُّ بليـل ... فاستنارت ، فما لها من غـروبْ
إن شمـس النهـار تغـرب بالليـ ... ـل ، وشمس القلوب ليس تغيبْ
مـن أحَبَّ الحبيـبَ طـار إليـه ... إشتياقًـا إلـى لقـاء الحبيـبْ

وقوله وقد صرّح فيه باسم « الله » سبحانه على شكل تهجئة لحروفه : الألف فاللام فاللام فالهاء :

أحْـرُفٌ أربـعٌ بهـا هـام قلبـى ... وتلاشـت بهـا همومـى وفكـرى :
ألِـفٌ تألـف الخلائـق بالصفـح ، ... ولامٌ علـى الملامـة تجـرى

ثم لامٌ زيادة في المعاني ... ثم هاءٌ بها أهيم وأدرى

وهو فى تعبيره عن هذا الحبّ قد يلجأ إلى عبارات الغزل البشرى :

نسمات الريح ، قولي للرشا : ... لم يزدني الوِرْدُ إلا عَطَشا
لي حبيب حُبُّه وسط الحشا ... إن يشأ يمشي على خدي مشى
روحه روحي ، وروحي روحه ... إن يشأ شئتُ وإن شئتُ يشا

فالمحبوب « رشأ » ، والمحب على استعداد أن يفرش له « خدّه » ليطأه ويمشى عليه . وفى الأبيات التالية نراه يختتمها بالتصريح باستعداده بأن يفديه بنفسه من كل سوء ، وكأنه يخاطب حبيبًا من البشر يمكن أن يلحقه أذى :

مازلت أجرى فى بحار الهوى ... يرفعني الهوى وأنحطُّ
فتارة يرفعني مَوْجُها ... وتارةً أهوى وأنغطُّ
حتى إذا صيرني في الهوى ... إلى مكان ما له شطُّ
ناديت : يا من لم أبحْ باسمه ... ولم أخنه في الهوى قطُّ
تقيك نفسي السوءَ من حاكم ... ما كان هذا بيننا الشَّرْطُ

وإننا لنتساءل : وأى شرط كان بينهما ؟ هل يمكن أن يشترط العبد على مولاه شرطًا ؟ ألا إن هذا لعجيب .

ويهيج الوجد بالحلاج فيصرخ ألما ، ويتلوّى من تباريح الحبّ :

أنتم ملكتم فؤادى ... فهمتُ في كل وادى
ردّوا علىّ فؤادى ... فقد عدمتُ رقادى
أنا غريب وحيد ... بكم يطول انفرادى

* * *

وما وجدتُ لقلبي [illegible] أبدا ... وكيف ذاك وقد هُيِّئْتُ للكدر ؟
لقد ركبتُ على التغرير [illegible] ... ممن يريد النجا في المسلك الخَطِر !
كأنني بين أمو[illegible] ... مقلّبا بين إصعاد ومنحدر

الحزن فى مهجتى ، والنار فى كبدى والدمع يشهد لى ، فاستشهدوا بصرى

* * *

إذا ذكرتُك كاد الشوق يتلفنى وغفلتى عنك أحزان وأوجاعُ
وصار كلّى قلوبًا فيك واعيةً للسقم فيها وللآلام إسراعُ
فإن نطقت فكلّى فيك ألسنة وإن سمعتُ فكلّى فيك أسماعُ

* * *

أنا سقيم عليلٌ فداوني بدَواكْ
أجرى حشاشة نفسى فى سفن بحر رضاك
أنا حبيسٌ ، فقل لى : متى يكون الفكاكْ ؟
حتى يظاهر روحى ما مضّها من جفاك
طوبى لعين محب حَبَوْتَها من رؤاكْ
وليس فى القلب والل ـب موضع لسواك

إنه كل شىء فى حياته ، فهو لا يبصر سواه ولا يسمع إلا إياه . وليس فى قلبه ، كما قال وكما يعيد فى البيتين التاليين ، مكان لكائن حاشاه :

مكانك من قلبى هو القلب كله فليس لشىء فيه غيرك موضعُ
وحطّتْك روحى بين جلدى وأعظمى فكيف ترانى ، إن فقدتُك ، أصنعُ ؟

وهو يقول إن الهجر بالنسبة له ولأمثاله هو الموت ، والوصال هو البعث . ومع ذلك فهم يموتون من الحبّ . كيف ذلك ؟ لا أدرى :

والله لو حلف العشاق أنهمو موتى من الحب أو قَتْلى لما حنثوا
قوم إذا هُجِروا من بعد ما وُصلوا ماتوا ، وإن عاد وصل بعده بُعثوا
ترى المحبين صرعى فى ديارهمو كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

وهو يعلن شوقه وتوقه لهذا الحب المميت ، الذى يعود فيقول إن روحه قد أَبِقَتْ منه ، ليعود ثانية فيؤكد أنه لو نجح فى هذا الإباق وفُطِم كبده عن هذا الحبّ لذاب واحترق . ألا إنه لأمر محير أشد التحيير :

أنـــا الـــذى نفســـه تشوقـــه ... لحتْفه عنـــوةً وقـــد علقـــتْ
أنـــا الـــذى فـــى الهمـــوم مهجتـــه ... تصيح من وحشـة وقـــد غرقـــت
أنـــا حزيـــن معـــذّب قلـــق ... رُوحـــىَ مـــن أســـر حبّهـــا أبَقـــتْ
كيـــف بقائـــى وقـــد رمـــى كبـــدى ... بأسْهُم مـــن لحاظـــه رشقـــتْ ؟
لـــو لفَطْم تعرضـــت كبـــدى ... ذابـت بحـــرّ الهمـــوم واحترقـت
باحـــت بمـــا فـــى الضميـــر يكتمـــهُ ... دمـــوع بـــثٌ بســـره نطقـــتْ

من هنا فلا عجب أن نجده يؤكد أن ما يلاقيه المحب من عذاب الهوى هو أحلى من النعيم :

قضـى عليه الهـوى ألا يذوق كَـرًى ... وبـات مكتحـــلا بالصـــاب لم يَنَم
يقول للعين : جودى بالدموع ، فإن ... تبكـى بجِـــدٍّ ، وإلاَّ فَلْتَجُدْ بـــدَم
فمن شروط الهـوى أن المحـب يـرى ... بؤس الهـوى أبـدًا أحلى مـن النّعَم

كذلك لا عجب أن نراه لا يدرى بعد الهجر من أمر نفسه شيئًا :

أرْسَلْتَ تسأل عنى : كـ ... ، وما ... لقيـتُ بعـدك مـن هـمٍّ ومن حَـزَن
لا كنتُ إن كنتُ أدرى كيف كنتُ ، ولا ... لا كنتُ إن كنـت أدرى كيـف لم أكن

* * *

لا كنـــــتُ إن كنـــــتُ أدرى ... كيـــف السبيـــــل إليكـــا
أفنيتنـــى عـــن جمعـــى ... فصـــرتُ أبكـــى عليكـــا

وثمـة بيت يشير فيه إلى أن ما حدث له كان من جراء بطره فى الحب :

قـد كنـتُ فـى نعمة الهـوى بطـرًا ... فأدركتنـــى عقوبـــة البَطَـــر

لكنه يعود فيدعى أن الله قد أوحى إليه بأنه أدناه إليه واصطفاه ، وخلع عليه خلعة الأمان :

خاطبنـــى الحـــق مـــ ... فكـــان علمـــى علـــى لســـانـــى
قرّبنـــى منـــه بعـــد بُعْـــد ... وخصنـــى اللـــه واصطفانـــى

أجبـــت لمـا دُعيـــتُ طوعًـــا ملبّيـــا للـــذى دعانـــى
وخفـتُ ممـــا جنيـــت قدمـــا فوقّـــع الحـــب بالأمـــان

وبعد ذلك صار يظنُّ نفسه كموسى عليه السَّلام ، فاللَّه يتجلى له ليكلمه ، وهو يخر غائبًا عن الوعى :

عقـد النبـوة مصبـاح مـن النـــورِ معلّـق الوحـى فـى مشكـاة تامورِ
بالله ينفـخُ نَفْـخَ الروح فى خَلَـدى لخاطـرى نفـخ إسرافيـل فى الصور
إذا تجلـــى لروحـى أن يكلمنـى رأيـتُ فى غيبتى موسى على الطـورِ

ورغم أن البيت الأول يغشيه الغموض فالبيتان الثانى والثالث واضحا الدلالة بما فيه الكفاية لما نحن فيه . ولا شكَّ أن القارىء قد تنبه لوصف الشاعر ربه سبحانه وتعالى بـ « روحى » . وهو ما سيفصّل القول فيه ويلح عليه ويؤكده فى مواضع أخرى من شعره ، كما سنرى بعد قليل .

وقد عاد الحلاج فشبّه نفسه ثانية بموسى عليه السلام ، ولكن دون أن يشير إلى الصعق والغياب عن الوعى . بالعكس إنه يصور نفسه واقفا على الطور فى قلب النور :

يا غافـــلا لجهالـةِ عـن شانـــى هـلاَّ عرفـت حقيقتـــى وبيانى ؟
فعبادتـــى للـــه ستـــة أحـــرف مـــن بينهـــا حرفـــان معجومـــان
حرفـــان أصلـــىّ وآخـــر شكلـــه فـى العجـم منسـوب إلـى إيمانى
فـإذا بـــدا رأس الحـــروف أمامهـا حـرف يقـوم مقـام حـرفٍ ثانـى
أبصرتنـى بمكـان موســـى قائمًـــا فـى النـور فـوق الطـور حين ترانى

وهو يقصد بهذه الحروف معنى « الاتحاد » ، الذى لم يشأ فيما يبدو أن يعلنه واضحًا صريحًا آنذاك .

وكانت الخطوة الثانية ، فيما يبدو ، زعمه الذى تعبر عنه الأبيات التالية من أنه تمرّ عليه أحوال يظن فيها أنه هو والله شىء واحد :

عجبـــت منـــك ومنـــى ... يـا منيـــة المتمنّـــى
أدنيتنـــى منـــك حتـــى ... ظننـــتُ أنّـــك أنّـــى
وغبـــتُ فـــى الوجـــد حتـــى ... أفنيتنـــى بـــك عنّـــى

على أن هذا الفناء فى اللّه ، حسب زعمه ، لم يكن دائمًا ، بل كانت تعقبه فتراتٌ من الانفصال والافتراق :

قـــد تحققتُـــك فـــى ســـرّى فناجـــاك لســـانـــى
فاجتمعنـــا لمعـــان ... وافترقنـــا لمعـــان
إن يكـــن غيَّبـــك التعـــظـــيم عـــن لحـــظ عيانـــى
فلقـــد صيَّـــرك الوجـــد ... مـــن الأحشـــاء دانـــى

وفى المقطوعة الآتية نراه يدعوه سبحانه أن يمحو المسافة الفاصلة بينهما حتى يكونا شيئا واحدًا على الدوام :

أأنت أم أنـا هـذا فـى إنهيـن ؟ ... حاشاك حاشاك من إثبات إثنين
هويّـةٌ لـك فـى لانيى أبـدا ... كلى على الكل تلبيس بوجهين
فأين ذاتك عنى حيث كنتُ أرى ؟ ... فقـد تبيـن ذاتـى حيث لا أينى
وأيـن وجهك مقصـودا بناظرتـى ؟ ... فى باطن القلب أم فى ناظر العين ؟
بينـى وبينـك إنّـى يـازعنـى ... فارفع بلطفك إنّيّـى مـن البين

ثم خطا خطوة أخرى فزعم أنه قد :

اتحـد المعشـوق بالعاشـق ... ابتسـم المومـوق للوامـق
واشتـرك الشكـلان فـى حالـة ... دامتـا فـى العالـم الماحـق

وإن كنت لا أفهم كيف تواتيه نفسه أن يقول عن اللّه ، الذى يزعم أنه قد اتحد معه وأصبحا شيئا واحدًا ، إنـه وإياه قد « امتحقا فى العالم الماحق » . إن هذه هلوسة بل أخشى أن تكون كفرا ، والعياذ بالله ! وقد مضى بعد ذلك فى ترديد هذا الزَّعم الخطير الرهيب :

مُزجتْ روحـك فـى ... كمـا تُمـزجُ الخمـرة بالمـاء الزُّلالْ

فـــإذا مسَّـــك شـــيء مسَّنـى فـــإذا أنـــت أنـا فـى كـل حـالْ

* * *

أنـا مـن أهـوى ، ومـن أهـوى أنـا نحـــن روحـــان حللنـــا بَدنًـا
نحن ، مذ كنَّا على عهد الهـوى ، تُضْـرَبُ الأمثـال للنـاس بنـا
فـــإذا أبصرتَنـــى أبصرتَـــه وإذا أبصرتَـــه أبصرتَنـــا
أيهـــا السائـــل عـــن قصتنـــا لـو ترانـا لـم تفـــرق بيننـــا
روحـــه روحـــى ، وروحـى روحـــه مـن رأى روحيـن حلَّـت بَدنًـا ؟

وانتهى الأمر بأن قال بكل تبجُّح وغرور :

أنـــا أنـــت بـــلا شـــكٍّ فسبحانـــك سبحانـــى !
وتوحيـــدك توحيـــدى وعصيانـــك عصيانـــى
وإسخاطـــك إسخاطـــى وغفرانـــك غفرانـــى
ولِـــمْ أُجْلَـــدُ يـــا ربّ إذا قيـــل : هـــو الزانـــى ؟ (٢)

وأعتقد أن البيت الأخير يكشف عن المراد من كلّ هذه اللفة الطويلة التى لفَّها الحلاَّج . إنـه يريـد التفلت من قيود الدين ، لا بالنسبة للواجبات فقط ، بل أيضا بالنسبة للآثام ، التى مثل لها بالزّنا .

وأحسب أن هذا قد يعضِّد الاتهام الذى شهدت به أمام القضاة ، حين محاكمة الشاعر ، زوجة ابنه ، إذ قالت إنها لم تشعر ، وهى نائمة فوق سطح البيت ، إلاَّ والحلاج قـد غشيها ، فهبت مذعورة تسأله عما يريد ، وكانت نائمة إلى جوار ابنتـه ، فهدَّأ روعها قائلاً إنه إنما جاء ليوقظها للصلاة (٣) . ولقد كان الأولى به ، لو كان صادقا ،أن يناديها هى وابنته من بعيد ، أو أن يوقظ ابنته أوّلاً وتوقظ هى بدورها زوجة الابن . ألم يكن هذا هو التصرف المنطقى السليم ؟

ولعلَّه من أجل ذلك قد كرر القول فى أشعاره بأنه يقول أشياء لا

يعلم بها اللوح والقلم ، ويجهلها فلا يسجلها الكرام الكاتبون :

شيء بقلبي ، وفيه منك أسماءُ ... لا النور يدرى به ، كلا ، ولا الظُّلَمُ
ونور وجهك سرّ حين أشهده ... هذا هو الجود والإحسان والكرمُ
فخذ حديثيَ ، حِبّي ، أنت تعلمه ... لا اللوح يعلمه حقا ولا القلمُ

* * *

قلوب العاشقين لها عيون ... ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنة بأسرار تناجي ... تغيب عن الكرام الكاتبينا

ومادام الكرام الكاتبون يفوتهم ما يقول فلا حساب إذن ، لأن الحساب إنما يكون على وفق صحائف الأعمال .

ثم أراد الحلاَّج أن يفلسف زعم « الحلول » الشنيع المستبشع فذكر « الناسوت واللاهوت » ، ظنا منه أنه يمكنه أن يبهر العقول بمثل هذه المصطلحات الغريبة على العقل والضمير المسلم . قال يدّعى أن الناسوت (أى الصورة الإنسانية) واللاهوت هما وجهان لحقيقة واحدة ، أى أن الإنسان والله شيء واحد :

سبحان من أظهر ناسوتُه ... سرَّ سنا لاهوته الثاقبِ
ثم بدا فى خلقه ظاهرا ... فى صورة الآكل والشاربِ
حتى لقد عاينه خلقُه ... كلحظة الحاجب بالحاجبِ !

إن كنت لا أفهم كيف « يلحظ الحاجب الحاجب » ، فاللحظ إنما يكون العين لا بالحاجب . وممّا ورد فيه من شعره أيضا لفظتا « الناسوت » « اللاهوت » قوله :

دخلتُ بناسوتى لديك على الخَلْق ... ولولاك ، لاهوتى ، خرجتُ من الصدق

بَيْد أن دعوى « الحلول » ليست هى الدعوى الوحيدة المستشنعة فى شعر الحلاَّج . لنسمعه يقول :

كفرتُ بدين الله ، والكفر واجبٌ علىّ ، وعند المسلمين قبيحُ

وهذا البيت الواضح العبارة والدلالة يحاول البعض أن يلويه عن حقيقة معناه ، زاعمًا أن المقصود به شيء آخر ، وأنّ « الكفر » هنا معناه « التغطية » ، أى أن مراد الحلاج أنه يغطى معتقده القائم على أن حقيقة الأديان كلها واحدة ، ولا يبوح به لعلوّه على أفهام الناس (٤) .

ولقد فات مَنْ أوّلَ البيت على هذا النحو العجيب أن « كَفَر » بمعنى « غطّى » لا تأخذ « الباء » ، إذ يقال : كَفَر الفلاحُ الحَبَّ » لا « كَفَر الفلاحُ بالحبِّ » . إنما الذى يأخذ « الباء » هو « الكفر » الذى يناقض « الإيمان » ، أى كفر « الإنكار » لا كفر « التغطية » . كذلك فلو كان الكفر فى بيت العلاج المزعج هو « التغطية » ، فلماذا خصّ المسلمين وحدهم ، مع أن أهل كل دين لا يقبلون دعوى الحلاَّج بتساوى الأديان كلها ، ويرون أن دينهم وحده هو الدين الصحيح ؟

ومن شناعاته أيضا قوله :

ألا أبلغ أحبائى بأنى ركبتُ البحر وانكسر السفينة
على دين الصليب يكون موتى ولا البطحا أريد ولا المدينة

الذى ينبرى لتحريفه عن معناه الخالى من أى لَبْس بعضُ الصوفية فيدعون أن « مراده أنه يموت على دين نفسه ، فإنه هو الصليب . وكأنه قال : « أنا أموت على دين الإسلام » ، وأشار إلى أنه يموت مصلوبا » . قال بذلك أبو العباسى المرسى (٥) . وهو كلامٌ غير مفهوم ولا متماسك ، وحتى لو سلمنا جدلاً بهذا التأويل الذى يرفضه العقل واللغة ، فماذا نفعل بـ « البطحا والمدينة » هاتين ، ومغزى ذكرهما هنا واضح تمام الوضوح ،

إذ الشاعر فى الوقت الذى يعلن فيه إيمانه بدين الصليب يتبرأ من مكة (البطحاء) والمدينة ، وهما مدينتا الإسلام المقدستان ، ويُرْمَز بهما إلى الكعبة والرسول عليه الصلاة والسلام ؟ إن دين الصليب هنا هو المقابل لدين الإسلام بلا لف ولا دوران .

وأعتقد أن هذا كله هو السبب الرئيسى وراء اهتمام ماسينيون النصرانى المتعصب بالحلاج ، ودفاعه الحارّ عنه ، وإعلائه المتهوس من شأنه ، والتشكيك فى خصومه جميعا وتحقيرهم (٦) .

ومن ألغازه الشعرية (وهى قائمة على تهجى حروف الكلمة التى يلغز فيها) قوله عن « الله » سبحانه وتعالى :

أحرفٌ أربعٌ بها هام قلبى ... وتلاشت بها همومى وفكرى
ألفٌ تألف الخلائق بالصفـ ... ـح ، ولامٌ على الملامة تجرى
ثم لامٌ زيادة فى المعانى ... ثم هاءٌ بها أهيم وأدرى

وكذلك هذه الأبيات عن « التوحيد » :

ثلاثة أحرف لا عجم فيها ... ومعجومان . وانقطع الكلامُ
فمعجوم يشاكل واجديه ... ومتروك يصدّقه الأنامُ
وباقى الحرف مرموز معمَّى ... فلا سفرٌ هنا ولا مُقَامُ

ثم هذه المقطوعة التى يلغز فيها عن « الاتحاد » :

يا غافلا لجهالة عن شانى ... هلا عرفت حقيقتى وبيانى ؟
فعبادتى لله ستة أحرف ... من بينها حرفان معجومان :
حرفان : أصلىٌّ وآخر شكله ... فى العجم منسوب إلى إيمانى
فإذا بدا رأس الحروف أمامها ... حرف يقوم مقام حرفٍ ثانى
أبصرتنى بمكان موسى قائما ... فى النور فوق الطور حين ترانى

فإذا أتينا إلى السمات الفنية لشعر الحلاّج فإننا نلاحظ الآتى :

أولاً : تكثر فى هذا الشعر ألفاظ « الوهم » ، و « السرّ والأسرار » ، و « الحق » ، و « الوجْد » ، و « السُّكْر » ، و « الحب » ، و « الحبيب » ، و « اللقاء » ، و « العشق » ، و « الشوق » و « النار » ، و « الضنى » ، و « السقام » و « العذاب » ، و « السروح » ، و « الكل » ، و « البعض والتبعيض » ، و « القلب » ، و « البحر والبحار » ، و « الخوف » ، و « القتل » ، و « الموت » ، و « الهجر » ، و « الجفا » ، و « مولاى » . وكلها كما ترى ألفاظ الصوفية ، وإن كان بعضها يجرى على ألسنة العشاق أيضا وأخذها منهم المتصوفة كما هو معروف :

ونَفْسَكَ ! نَفْسَكَ ! كن خائفا ... على حذر من كمين الجفا
فإن جاءك الهجر فى ظلمة ... فسر فى مشاعل نور الصفا
وقل للحبيب : ترى ذلتى ... فجد لى بعفوك قبل اللّقا

* * *

العشق فى أزل الآزال من قدم ... فيه به منه يبدو فيه إبداءُ
العشق لا حدث إذ كان هُو صفة ... من الصفات لمن قتلاه أحياء

* * *

كذا الحقائق : نار الشوق ملتهب ... عن الحقيقة إن باتوا وإن ناؤوا

* * *

لبيك لبيك يا سرّى ونجوائى ... لبيك لبيك يا قصدى ومعنائى

...

يا كلّ كلى ، ويا سمعى ، ويا بصرى ... يا جملتى وتباعيضى وأجزائى

...

حبى لمولاى أضنانى وأسقمنى ... فكيف أشكو إلى مولاى مولانى ؟

...

كأننـــى غـــرق تبـــدو أناملـــه ... تغوُّنـــا وهـو فـى بحـر من المـاء

وإن كنتَ بالغيب عن عينى محتجبا ... فالقلب يرعـاك فى الابعاد والنائى

* * *

عذابـــه فيـــك عَـــذْبُ ... وبعـــده عنـــك قُـــرْبُ

وأنـــت للعيـــن عيـــنٌ ... وأنـــت للقلـــب قلـــبُ

حسبـــى مـــن الحـــب أنـــى ... لمـــا تحـــب أُحـــبُّ

* * *

كتبـتُ ولم أكتـب إليـك ، وإنمـا ... كتبـتُ إلـى روحـى بغيـر كتـابِ

وذلـك أن الـروح لا فـرق بينهـا ... وبيـن محبيهـا بفصـل خطـاب

* * *

والعلم علمـان : مطبـوع ومكتسبُ ... والبحـر بحـران : مركوب ومرهوبُ

وخضتُ بحـرا ولم ترسب بـه قدمـى ... خاضته روحى وقلبى منـه مرعوبُ

لأن روحـى قديمـا فيه قد عطشت ... والجسم ما مسَّه من قبلُ تركيـبُ

* * *

مـن أحـب الحبيـب طـار إليـه ... إشتياقـا إلـى لقـاء الحبيـب

* * *

اقتلونـــى يـا ثقاتـــى ... إن فـــى قتلـــى حياتـــى

ومماتـــى فـــى حياتـــى ... وحياتـــى فـــى مماتـــى

سئمـــت روحـــى حياتـــى ... فـــى الرســـوم الباليـــاتِ

فاقتلونـــى واحرقونـــى ... بعظامـــى الفانيـــات

تجـــدوا ســـــرّ حبيبـــي ... فـــي طوايـــا الباقيـــات

* * *

لـي حبيـــب أزور فـي الخلـوات ... حاضـر غائـب عـن اللحظـات

...

هـــو أدنـى مـن الضمير إلى الوهـ ... ـم وأخْفَى من لائـح الخطـرات

* * *

وغـــاب عنـــي حفيـظ قلبـــي ... عرفـت سـري ، فأيـن أنـت ؟

أنـــت حياتـــي وســـرّ قلبـــي ... فحيثمـــا كنـــتُ كنـــتَ أنـــت

* * *

واللـــه لـو حلـف العشـاق أنهمـو ... موتى من الحب أو قتلى لما حنثوا ؟

قـوم إذا هُجروا مـن بعدمـا وُصلوا ... ماتوا ، وإن عـاد وصلٌ بعده بُعثوا

* * *

وانى ، وإن أُهْجِرْتُ ، فالهجر صاحبى ... وكيـف يصحّ الهجر ، والحب واحد ؟

* * *

قـد تصبـــرتُ ، وهـــل يصـــ ... ـبر قلبـــي عـــن فـــؤادى ؟

مازجـــت روحـــك روحـــي ... فـــي دنـــوى وبعـــادى

* * *

لأنـوار نـور النور فى الخلق أنوارُ ... وللسـرّ فى سرّ المسرّين أسـرارُ

* * *

يا موضـع الناظـر مـن ناظـرى ... ويا مكان السـرّ مـن خاطـرى

يا جملـــة الكـــل التـــى كلهـــا ... أحـب من بعضـي ومـن سائـرى

...

يســـرى وما يـدرى ، وأسـراره ... تســـرى كلمـح البـارق النائـر

كسرعـــة الوهـــم لمن وهمـه ... علـى دقيـق الغامـض الغائـر

فـى لج بحـر الفكـر تجرى بـه ... لطائـــفٌ مـــن قـــدر القـــادر

* * *

إذا سكن الحق السريرة ضوعفت ثلاثة أحوال لأهل البصائر :
فحالٌ يُبيد السرّ عن كنه وصفه ويحضره للوجد فى حال حائر
وحال به زُمّتْ ذُرا السرّ فانثنت إلى منظر أفناه عن كل ناظر

* * *

وأطيب الحب ما تم الحديث به كالنار لاتأت نفعا وهى فى الحَجَر

* * *

فأنت فى سرّ غيب همّى أخفى من الوهم فى ضميرى

* * *

لا الوجد يدرك غير رسم داثر والوجد يدثر حين يبدو المنظرُ

* * *

كفاك بأن السُكْر أوجد كربتى فكيف بحال السكر والسكر أجدرُ ؟
فحالاك لى حالان : صحو وسكرة فلا زلتُ فى حالىّ أصحو وأسكرُ

* * *

سرائر سرّى ترجمان إلى سرّى إذا ما التقى سرى وسرّك فى السّرّ
وما أمر سرّ السرّ منى ، وإنما أهيم بسرّ السرّ منه إلى سرّى

* * *

لو شئت كشفتُ أسرارى بأسرارى وبحت بالوجد فى سرّى وإضمارى
لكن أغار على مولاى يعرفه من ليس يعرفه إلا بإنكار

...

ما لاح نورك لى يومّا لأثبته إلا تنكرت منه أى إنكار

* * *

وطين ثم نار ثم نور وبرد ثم ظل ثم شمسُ

...

وسكر ثم صحو ثم شوق وقرب ثم وصل ثم أُنسُ

...

لأن الخلق خدّام الأمانى وحقّ الحقّ فى التقديس قُدْسُ

* * *

حويتُ بكلّي كلَّ كلّك يا قدسي تكاشفني حتى كأنك في نفسي

* * *

هم أهل سرّ وللأسرار قد خُلِقوا لا يصبرون على من كان فحّاشا

* * *

لي حبيب حبه وسط الحشا إن يشأ يمشي على خدي مشى

روحه روحي ، وروحي روحه إن يشأ شئتُ ، وإن شئتُ يشا

* * *

عجبتُ لكلي كيف يحمله بعضي ومن ثقل بعضي ليس تحملني أرضي

* * *

مازلت أجري في بحار الهوى يرفعني الموج وأنحطُّ

* * *

وصار كُلّي قلوبا فيك واعية للسقم فيها وللآلام إسراعْ

فإن نطقت فكلّي فيك ألسنة وإن سمعتُ فكلّي فيك أسماع

* * *

لما اجتباني وأدناني وشرفني والكلّ بالكل أوصاني وعرّفني

لم يُبْقِ في القلب والأحشاء جارحةً إلا وأعرفه فيها ويعرفني

* * *

جُبِلت روحك في روحي كما يُجْبَل العنبر بالمسك الفتقّ

* * *

فأنا الحق حُقّ للحق حقُّ لابسٌ ذاته فما ثَمَ فرْقُ

* * *

باحتْ بما في الضمير يكتمه دموعُ بثٍّ بسره نطقتْ

* * *

اتحد المعشوق بالعاشق ابتسم الموموق للوامق

* * *

أنـــا سقيـــم عليـــل فداونـــى بـــدواكْ
أجـــرى حشاشـــة نفســـى فـــى سفـــن بحـــر وضـــاك

* * *

أيـا مـــولاى ، دعـــوة مستجيـــر بقربـــك فـــى بعـــادك والتسلـــى

* * *

هيكلـىَ الجسـم ، نـوريَ الصميـم صمـديَ الـروح ديّـان عليـمْ
عـــاد بالـــروح إلـى أربابهـــا فبقـى الهيكـل فـى التـرب رميـم

* * *

أشـار لحظـى بعيـن علـمٍ بخالـصٍ مـن خفـىّ وَهْـم
ولائـح لاح فـى ضميـرى أدق مـن فهـم وَهْـم همـى
فخضـتُ فـى لـج بحـر فكـرى فـى مركـب فـى ريـاح عزمـى

...

قـد وسـم الحـب منـه قلبـى بميسـم الشـوق أىَّ وسـم

* * *

شـىء بقلبـى ، وفيـه منـك أسمـاء لا النور يدرى به ، كلاَّ ، ولا الظُّلَمُ
ونـور وجهـك سـرَّ حيـن أشهـده هـذا هـو الجـود والإحسان والكـرمُ

* * *

روحـه روحـى ، وروحـى روحـه مـن رأى روحيـن حلَّـت بدنـا ؟

* * *

مـا لـى بغيـرك أُنْـسُ إذ كنـتَ خوفـى وأمنـى

* * *

لم يبـق بينـى وبيـن الحـق تبيانـى ولا دليـل بآيـات وبرهـان

...

هـذا تجلـى طلـوع الحـقّ : نائـرةٌ قـد أزهـرت فـى تلاليهـا بسلطـان
لا يعـرف الحـقَّ إلا مـن يعرّفـه لا يعـرق القِدَمـىَّ المُحْـدَثُ الفانـى

* * *

قـــــد تحققتـــــك فـــى ســـــ ـــرّى فناجـــــاك لســانـــــــى

...

فلقـــــــــد صيـــــرك الوجـــــ ـــد مـــــن الأحشـــــاء دانـــى

* * *

إذا كـان نعـت الحـق للحـق بيّنـا فمـا باله فـى النـاس يخفى مكانه ؟

* * *

خاطبنـــى الحـــق مـــن جنانـــى فكـــان علمـــى علـــى لسانـــى

* * *

ألا أبلـــغ أحبائـــى بأنـــى ركبـتُ البحـر وانكسـر السفينـةْ

* * *

إن كتابـــى يـــا أنـــا عـــن فـــرط سقـــم وضنـــى

وعـــن فـــؤاد هائـــم وعـــن سقـــام وعَنَـــا

...

أتلفـــتُ فيـــه مهجتـــى وصـــار شوقـــى ديدنـــا

...

مالـــى رُميـــتُ بالضنـــا وبالصـــدود والونـــا ؟

* * *

نـــورك المبصـــر حقًّـــا لعيانـــــى لعيانـــــى

...

أنـــا فـــى الحـــب قتيـــل ومـــع الأحبـــاب فانـــى

* * *

قلـوب العاشقيـن لهـا عيـون تـرى مـا لا يـراه الناظرونـا

وألسنـــة بأســـرار تناجـــى تغيـــب عـن الكـــرام الكاتبينـا

...

وترتـع فـى ريـاض القـدس طـورا وتشـرب مـن بحـار العارفينـا

* * *

يا سـرّ سـرّ يـدق حتـى يخفـى على وهـم كـلّ حـيّ

* * *

وغـاص فـى أبحـر غـزار تفيـض بالخاطـر الوحـيّ

...

مـن حـار فـى دهشـة التلاقـى أبصرتـه ميتـا كحـيّ

وأحيانا ما يستخدم الحلاج الظرف (والضمير والاسم الموصول) على أنه اسم جنس :

فليـس للأيـن منـك أيـنٌ وليـس أيـنٌ بحيـث أنـت

أنـت الـذى حـزت كـل أيـن بنحـو « لا أيـن » ، فأيـن أنـت ؟

...

وجـزت حـد الدنـو حتـى لم يعلـم الأيـن أيـن أنـت

* * *

فأيـن ذاتـك عنى حيـث كنتُ أرى ؟ فقـد تبيـن ذاتـى حيـث لا أينـى

* * *

بينـى وبينـك إنّـىٌ ينازعنـى فارفـع بلطفـك إنّيّـى مـن البيـن

* * *

وإن رمتُ فوقـا أنـت فـى الفوق فوقه وإن رمتُ تحتـا أنت كـل مكـان

* * *

فلـم جـرى ذا يـا أنـا بحـق حـقّ الأُمَنـا ؟

منـك دعانـى مـا دعـا فجئتُـه بـلا أنـا

* * *

ناديـت : « يا من » ، لم أبح باسمه ولم أخنـه فـى الهـوى قـطُّ (٧)

كما أنه قد يَنْسُب إلى الضمير والحرف :

هويّـة لـك فـى لائيّتـى أبـدا كُلّـى علـى الكـل تلبيسٌ بوجهيـن

* * *

بينـــى وبينـــك إنّيّـــى ينازعنـــى فارفـــع بلطفـــك إنّيّى مـــن البَيْـــن

ويكثـــر عند الحلاج إضافة الاسم إلى نفسه أو تركيب يؤدى هذا المعنى :

يا عين عين وجودى ، يا مدى همى يـــا منطقـى وعباراتـــى وإيمانـــى
يا كلَّ كلّى ، ويا سمعى ، ويا بصرى يا جملتـــى وتباعيضـــى وأجزائـــى

* * *

يا كـــلّ كلـى ، وكـلّ الكـلّ ملتبس وكـــلّ كلّـــك ملبـــوس بمعنائـــى

* * *

وأنـــت للعيـــن عيـــــن وأنـــــت للقلـــــب قلـــبُ

* * *

لأنـــوار نـــور النـور فـى الخلـق أنـوارُ وللسـرّ فـى سـرّ المسريـــن أسـرار

* * *

ومـا أمـــر سـرّ السـرّ منّـى ، وإنّمـــا أهيـم بســـر السرّ منـه إلى ســـرى
ومـا أمـر أمـر الأمـر منـــى ، وإنمـا أُمِرْتُ بأمـر الأمـر لمـا قضَى أمـرى
ومـا أمـر صبر الصبـــر منـــى ، وإنمـــا أُمِرْت بصبـر الصبـر إذ عزّنى صبـرى

* * *

لأن الخلـــق خُـــدّام الأمانـــى وحـــقّ الحـــقّ فـى التقديس قُدْسُ

* * *

حويـتُ بكلـىّ كـلّ كلّـك يا قُدْسـى تكاشفنـى حتـى كأنـك فـى نفسـى

* * *

هـذا وجـود وجـود الواجديـن لـــه بنـى التجانس : أصحابـــى وخُلاّنـى

* * *

فـإن رمتُ شرقـا أنت فى الشرق شرقه وإن رمـتُ غربـا أنـت نُصْب عيانـى

...

وأنت محـل الكـل بـل « لا محلّـه » وأنـت بكـلّ الكـلّ ليـس بفانـــى

* * *

بيان بيان الحق أنت بيانه وكل بيان أنت فيه لسانه

...

تشير بحق الحق والحق ناطق وكل لسان قد أتاك أوانه

* * *

مواصلي بالصدود لمّا بحق حقّ الصدود صِلْنِي

* * *

وعن نحول ساقني طَوْعًا إلى فنا الفنا

فَلِمْ جرى ذا يا أنا بحق حقّ الأَمَنا ؟

...

فأوصلوا الوصل له بهجر هجر القُرَنا

* * *

قد قام بعضي ببعض وهام كلّي بكلّ كلّي

* * *

يا سرّ سرّ يدق حتى يخفى على وهم كلّ حيّ

كما يتكرر عنده كون الشيء نفسه ونقيضه فى ذات الوقت :

إني .....

....

.....

أعمى بصير ، وإني أبله فطن ولى كلام ، إذا ما شئتُ ، مقلوبُ

* * *

وكل كتاب صادرٍ منك واردٍ إليك بلا ردّ الجواب جوابي

* * *

ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي

* * *

ولـــــدت أمـــــــى أباهـــــــا إن ذا مـــــــن عجباتـــــــى

* * *

حاضـــر غائـــب ، قريـــب بعيـــد وهـــو لم تَحْـوِه رســـوم الصفـــاتِ

* * *

والبعـــــد لـى منـــــك قـــــربٌ والقـــرب لـى منـــــك بُعْـــدُ

* * *

واتصـــــل الوصـــــل بافتـــــراق فصـار فـــى غيبتـــى حضـــورى

* * *

روحـه روحـــــى ، وروحـــى روحـــه مـن رأى روحيـن حلـــت بدنـــا ؟

* * *

مـــا لـــــى بغيـــــــرك أنـــــس إذ كنـــــتَ خوفـــــى وأمنـــــى

* * *

زعمـــت أنـــى فنيـــتُ عنـــــى فكيـــف لـى بالدنـــوّ منـــى ؟

ومما تكرر عنده أيضًا دخول عدد من حروف الجر المتتالية على نفس الضمير ممّا يجعل المعنى أحيانًا عسر الفهم ، ويحس الإنسان فى أحيان أخرى أن الأمر مجرد بهلوانية لفظية من الشاعر :

العشـق فـى أزل الآزال مـن قـــدم فيـه بـه منـه يبـدو فيـــه إبـــداء

...

صفاتـه منـــه فيـــه غيـــر محدثـــة ومُحْـدَث الشـيء ما مبـــداه أشيـاءُ

* * *

قالوا : تـداو بـه منـه ، فقلت لهم : يا قوم ، هل يتداوى الداءُ بالـداءِ ؟

* * *

يا ويح روحـى مـن روحـى ، فوا أسفا علـىّ منّـــى ، فإنـى أصـل بلوائـى

* * *

كتابـا لـــه منـــــه عنـــه إليـــه يترجـم عـن غيـب علـم الستـاره

* * *

كان الدليلُ له منه إليه به من شاهد الحق فى تنزيل فرقانِ
كان الدليل له منه به وله حقا وجدنا به علما بتبيانِ

* * *

همّى به وله عليك يا من إشارتنا إليك

* * *

فيك معنى يدعو النفوس إليكا ودليل يدلّ منك عليكا

ويكثر فى شعر الحلاّج حذف الهمزة أو تسهيلها ، وزيادتها :

واللام بالألف المعطوف مؤتلف كلاهما واحدٌ فى السبق معناءُ

* * *

ذلوا بغير اقتدار عندما ولهوا إن الأعزّا إذا اشتاقوا أذلاّءُ

* * *

لبيك لبيك يا سرى ونجوائى لبيك لبيك يا قصدى ومعنائى

* * *

أدعوك ، بل أنت تدعونى إليك ، فهل ناديتُ إياك أم ناديتَ إيائى ؟

* * *

يا كلّ كلّى ، وكلّ الكلّ ملتبس وكلّ كلّك ملبوس بمعنائى

* * *

حبى لمولاى أضنانى وأسقمنى فكيف أشكو إلى مولاى مولائى ؟

* * *

يا ويح روحى من روحى ! فوا أسفا علىّ منّى ! فإنى أصل بلوائى

* * *

يا غاية السؤل والمأمول ، يا سكنى يا عيش روحىَ ، يا دينى ودنيائى

* * *

حقيقة الحق تستنيرُ صارخة : بالنَّبَا خبيرُ

* * *

لقد ركبتُ على التغرير ، واعجبا ممن يريد النَّجا فى المسلك الخَطِر !

* * *

نعم الإعانة رمزا فى خفا لطف فى بارق لاح فيها من عُلا خَلَلهْ
والحال يرمقنى طورا وأرمقه إن شا فيُغْشَى على الإخوان من قُلَلهْ

* * *

هذا تجلّى طلوع الحق : نائرة قد أزهرت فى تلاليها بسلطان

* * *

يا غافلا لجهالةٍ عن شانى هلاَّ عرفت حقيقتى وبيانى ؟

* * *

وتحققتُك ، فاصنع كل ما شئتَ بشانى

* * *

وعن نحول ساقنى طوعًا إلى فناء الفنا

* * *

فَلِمْ جرى ذا يا أنا بحق الأُمَنا ؟

* * *

فأوصلوا الوصل له بهجر هجر القُرَنا

وقريب من هذا قطعه لهمزة الوصل ووصله لهمزة القطع . وهو ، وإن كان من الضرورات الشعرية ، فإنه ليس حسنًا . كما أنه يدل على ضعف الشاعر فى النظم ، وبخاصة إذا كثُر كما هو الحال هنا . وهذه أمثلة على ذلك :

وفى التفرق إثنانِ إذا اجتمعا بالافتراق هما عبد ومولاه

* * *

والدهر يومان : مذمومٌ وممتدحٌ والناس إثنان : ممنوح ومسلوبُ

* * *

فى محو إسمى ورسم جسمى ... سألتُ عنى فقلتُ : أنت

* * *

من بعد ما حضر السجانُ ، واجتمع الأعوان ، واختطَّ إسمى صاحبُ الخَبَرِ

* * *

يا طالما غبنا عن اشباح النَظَرْ ... بنقطة يحكى ضياؤها القمرْ

* * *

وغاب عنى شهود ذاتى ... بالقرب حتى نسيتُ إسمى

* * *

لايستدلُّ على البارى بصنعته ... رأيتمو حَدَثًا يُنْبى عن ازمانِ ؟

* * *

هذى عبارة أهل الإنفراد به ... ذوى المعارف فى سرّ وإعلانِ

* * *

أأنت أم أنا هذا فى إلهينِ ؟ ... حاشاك حاشاك من إثبات إثنين

* * *

رقيبان منى شاهدان لحبه ... وإثنان منى شاهدان ترانى

ومن الضرورات الشعرية فى شعره أيضا تسكينه ميم « لم » لاستفهامية :

قل لى ، فديتُك ، يا سمعى ويا بصرى : ... لِمْ ذى اللجاجة فى نُخدى وإقصائى ؟

* * *

ولِمْ أُجَلَّدُ يا ربّ ... إذا قيل : هو الزانى ؟

* * *

فَلِمْ جرى ذا يا أنا ... بحقّ حق الأمنا ؟

ومن سمات شعر الحلاج كذلك الأخطاء اللغوية . فمن ذلك قوله :

كذا الحقائق : نار الشوق ملتهب ... عن الحقيقة إن باتوا وإن ناموا

حيث ذكَّر « ملتهب » ، وحقها التأنيث ، إذ هى خبر « نار » ، وهى

مؤنثة .

* * *

وقوله :

إنـــى شيـــخ كبيـــر * فـــى علـــو الدارجـــات

يقصد « الدرجات » .

* * *

وقوله :

واطيب الحب ما نم الحديث به * كالنار لا تأت نفعا وهى فى الحجر

إذ حذف حرف العلة من الفعل « تأت » ، مع أنه مرفوع لا مجزوم ، وإن كان له مع ذلك توجيه .

* * *

وقوله :

ومـــا آدم إلاّ * ومـــن فـــى البيـــن إبليـــسُ

حيث جعل خبر « ما » بعد « إلا » ضمير نصب متصلاً ، وصحته أن يأتى ضمير رفع منفصلاً .

* * *

وقوله :

من ساررره فأبدى كل ما ستروا * ولم يراع اتصالا كان غشاشا

بفك إدغام الفعل « سارّ » . والواجب هنا إبقاؤه على ما هو عليه دون فك .

* * *

وقوله :

عـــاد بالـــروح إلـــى أربابهـــا * فبقـــى الهيكـــل فـــى التـــرب رميـــم

والمفروض نصب « رميم » على الحالية .

وقوله :

روحـــه روحـــى ، وروحـــى روحـــه * مـــن رأى روحيـــن حلّـــت بدنـــا ؟

والصواب : « حلّتا » ، لأن الضمير فيها يعود على « روحين » ، وهى

مثنى كما هو بيّنٌ .

وقوله :

أدنيتنـــى منـــك حتـــى ظننـــتُ أنـــك أنـــى

والصواب : « ظننتُ أنك أنا » .

وقوله :

يا هـلالاً بـدا لأربـع عشـر فثمـان وأربـع واثنتـان

والصحيح : « لأربع عشرة » .

وقوله :

فلقـد صيّـرك الوجـ ـد مـن الأحشـاء دانـى

برفع « دانى » ، وهـو خطـأٌ صحّتُـه « دانيًـا » ، لأنها مفعول ثان لـ « صيَّر » .

وقوله :

عجبـتُ أنـى أمـوت شوقـا وأنـت يـا سيـدى تعدنـى

بتسكين دال « تعد » ، والصواب ضمُّها على رفع الفعل ، وإن كان لها توجيه كما قلنا قبلا .

وقوله :

وانظـر تـرى عجائبـا تحـار فيهـا الفطنـا

وصوابه « الفطنُ » على الرفع ، لأنها فاعل (٨) .

وإلى جانب الأخطاء اللغوية فقد وقع الحلاج فى بعض الأخطاء العروضية ، إذ ارتكب مثلا « الإقواء » فى حرف الروى فى البيت التالى ، حيث أتى به مكسورا على حين أن حرف الروى فى ساتر القصيدة مفتوح :

ويحشـر أعـداءه عاجـلا مـن الجـن والإنـس فى حـرّ نـارهْ

كما اضطُرّ إلى حذف التشديد من حرف الروى فى البيت الأول من المقطوعة التالية كى يتمشى مع نظيريه فى البيتين الثانى والثالث ، وإن بقى فى الطباعة مشددا :

تفكرت فـى الأديـان جـدّ محقّـق ... فألفيتُهـا أصـلاً لـه شُعَـبٌ جمّـا
فـلا تطلبـنْ للمـرء دينـا ، فإنـه ... يصد عـن الأصـل الوثيـق ، وإنمـا
يطالبـه أصـل يعبّـر عنـده ... جميـع المعالـى والمعانـى ليفهمـا

وقـد اضطـر لإقامة القافية فى البيت التالى إلى أن يكسر ياء المتكلم حتى تتمشى مع سائر القوافى ، وهو ما أخذه عليه أبو العلاء المعرى (٩) :

يا جملـة الكـلّ ، لسـتُ غيـرى ... فمـا اعتـذارى إذن إلـيّ

وكثيرًا ما يغمض المعنى عنده ، وذلك أمر متوقع ، إذ هو يحاول معالجة موضوعات هى غاية فى الشائكية والتعقيد . وهذه شواهد على ما نقول :

العشـق فـى أزل الآزال مـن قـدم ... فيـه بـه منـه يبـدو فيـه إبـداءْ

* * *

ولـدتْ أمـى أباهـا ... إن ذا مـن عجباتـى
فبناتـى ، بعـد أن كُـ ... ـنّ بناتـى ، أخواتـى
ليـس مـن فعـل زمـان ... لا ولا فعـل الزنـاة

* * *

سـرّ السرائـر مطـوىّ بإثبـات ... مـن جانـب الأفـق من نـور بطيّات
فكيـف والكيـفُ معـروف بظاهـره ؟ ... فالغيـب باطنـه للـذات بالـذات

* * *

لأنـوار نـور النـور فـى الخلق أنـوارُ ... وللسرّ فـى سـرّ المسريـن أسرارْ
وللكـون فـى الأكـوان كـونٌ مكـوّن ... يكـن لـه قلبـى ويهـدى ويختـارْ

* * *

يا طالما غبنا عن اشباح النَّظَرْ بنقطة يحكى ضياؤها القَمَرْ
من سمسم وشيرج وأحرف وياسمين فى جبين قد سُطِرْ
فامشوا ونمشى ونرى أشخاصكم وأنتمو لا تَرَوْنَنا يا دُبَرْ

* * *

وللحق فى الخلق حقٌّ حقيقٌ بحقٍّ إذا حُقَّ حق الزياره

...

فكلٌّ بكلّ ، جميع الجميع من الكل بالكلّ حرفُ نهارَه
هو الطين والنار والنور إذ يعود الجواب بعقب العباره

وقد لاحظتُ ورود بعض الألفاظ النصرانية فى شعره ، وهى ألفاظ « الناسوت واللاهوت » ، و « امتزاج الخمر بالماء » (للتعبير عن الزعم القائل بحلول الإله فى الإنسان) ، و « الرب » ، و « الصليب » ، و « الآب » ، و « تَرَهْبن » :

سبحان من أظهر ناسوتُه سرَّ سنا لاهوته الثاقب

* * *

إنى يتيمٌ ، ولى آبٌ ألوذ به قلبى لغيبته ، ما عشتُ ، مكروبُ

* * *

مزجتُ روحك فى روحى كما تُمْزج الخمرة بالماء الزلالْ

* * *

والربّ بينهمو فى كل منقلب مُحلُّ حالاتهم فى كلّ ساعات

* * *

دخلت بناسوتى لديك على الخَلْق ولولاك ، لاهوتى ، خرجتُ عن الصدق

* * *

على دين الصليب يكون موتى ولا البطحا أريد ولا المدينهْ

* * *

إلـــى متـــى أبقـــى أنـــا كعابـــد ترهبنـــا ؟

ومما لوحظ أيضا فى شعره قسمه بـ « وحرمة كذا » و « بحق كذا » :

ملكت ، وحرمة الخلوات ، قلبا لعبتَ به وقرَّ به القرارْ

* * *

وحرمة الود الذى لم يكن يطمع فى إفساده الدَّهْرُ

* * *

مواصلى بالصدود لمَّا بحق حق الصدود صلْنى

* * *

فَلِمْ جرى ذا يا أنا بحق حقّ الأُمَنَا ؟

وله غرام أحيانًا بتهجى الحروف الأبجدية :

واللام بالألف المعطوف مؤتلفٌ كلاهما واحد فى السبق معْنَاهْ

* * *

بواو الوصال ، ودال الدلال وحاء الحياء ، وطاء الطهارهْ

وواو الوفاء ، وصاد الصفاء ولامٌ وهاءٌ لعُمْر مدارهْ

على سرّ مكنون وجد الفؤاد وخاء الخفاء وشين الإشارهْ

* * *

وإنه لمع الخلق الذى لهمو فى الميم والعين والتقديس معناهْ

* * *

فالميم يُفْتَحُ أعلاه وأسفله والعين يفتح أقصاه وأدناهْ

ومن ذلك ما أوردناه له قبلاً من ألغاز ، فيرجع إليها .

وهو أحيانا ما يستخدم صيغا لفظية غريبة :

إن كنت بالغيب عن عينىَّ محتجبا فالقلب يرعاك فى الإبعاد والنائى

* * *

إنى ارتقيت إلى طود بلا قدم له فراق على غيرى مصاعيب

* * *

وانـى ، وإن أُهجرتُ ، فالهجر صاحبى وكيف يصح الهجر والحب واحد ؟ (١٠)

* * *

يســـرى وما يـــدرى ، وأســـراره تسرى كلمح البـارق النائـــر (١١)

* * *

فكـــلٌّ بكـــلّ جميـــعُ الجميـــع من الكل بالكل حرف نَهَـارَهْ (١٢)

* * *

وَهُـو هُـــوَ بـــدءٌ لبـــدء البدايـــا وهـو هُـوَ دهـر دهور الدَّهَارَهْ (١٣)

* * *

هـذا تجلـى طلـوع الحـق : نائـرة قد أزهـرت فى تلاليها بسلطان (١٤)

* * *

فـإن نشـكَّ فدبّـر قـول صاحبكـم حتى يقول بنفى الشكّ : هذا هو (١٥)

* * *

فأنـت عنـد الخصـام عـــذرى وفـى ظمائـــى فأنت ريّـى (١٦)

وفى نهاية المطاف أترك القارىء مع القصيدة التالية للحلاّج ، حيث يستمتع بانسياب الأنغام العذبة الحزينة . وهى من أحسن شعر الحلاج ، بل لعلها أحسنه ، رغم ما فى بعض أبياتها من غموض وبهلوانية :

اقتلونـــــى يـــا ثقاتـــــى إن فـــــى قتلـــى حياتـــــى
ومماتـــى فـــــى حياتـــــى وحياتـــى فـــــى مماتـــــى
أنـــا عنـــدى : محـــو ذاتـــى مـــن أجـــلّ المكرمـــات
وبقائـــــى فـــــى صفاتـــــى مـــن قبيـــح السيئـــاتِ
سئمـــت روحـــى حياتـــــى فـــى الرســـوم الباليـــات
فاقتلونـــــى واحرقونـــــى بعظامـــــى الفانيـــــات
ثـــم مـــرّوا برفاتـــــى فـــى القبـــور الدارســـات
تجـــدوا ســـرّ حبيبـــى فـــى طوايـــا الباقيـــاتِ

إننـــى شيـــخٌ كبيـــــــرٌ ... فـــى علـــوّ الدراجـــــات
ثـــم إنـــى صـــرت طفـــلا ... فـــى حجـــور المرضعـــات
ساكنـــا فـــى لحـــد قبـــرٍ ... فـــــى أراضٍ سبخـــــات
ولـــدت أمـــــى أباهـــا ! ... إن ذا مـــــن عجباتـــــى
فبناتـــــى ، بعـــد أن كـــــ ... ـــنَّ بناتـــــى ، أخواتـــــى
ليـــس مـــن فعـــل زمـــانٍ ... لا ولا فعـــــل الزنـــــاةِ
فاجمـــع الأجـــزاء جمعًـــا ... مـــن جســـوم نيّـــرات
مـــن هـــواء ثـــم نـــار ... ثـم مـــن مـــاء فـــرات
فـــازرع الكـــل بـــأرض ... تُربهـــا تُـــرب مـــوات
وتعاهَدْهـــا بسقـــي ... مـــن كـــؤوسٍ دائـــرات
مـــن جـــوار ساقيـــات ... وســـواقٍ جاريـــاتِ
فـــإذا أتممـــت سبعـــا ... أنبتـــت كـــل نبـــات

ثم مع هذه المقطوعة الشجيَّة :

وما وجـــدْتُ لقلبـــى راحـــة أبـــدا ... وكيـــف ذاك وقـــد هُيِّئـــتُ للكَـــدَرِ ؟
لقـــد ركبـــتُ علـــى التغريـــر . واعجبـــا ... ممن يريـــد النجـا فى المسلك الخطر !
كأننـــى بيـــن أمـــواج تقلبنـــى ... مقلَّبًـــا بيـــن إصعـــاد ومنحـــدرِ
الحزن فى مهجتى ، والنـار فى كبدى ... والدمع يشهد لى ، فاستشهدوا بصـرى

وأخيرا مع هذين البيتين :

لســـت بالتوحيـــد ألهـــو ؟ ... غيـــر أنـــى عنـــه أسهـــو
كيـــف أسهـــو ؟ كيـــف ألهـــو ... وصحيـــح أننـــى هُـــو ؟

الهوامش

١- انظر فى حياة الحلاج وشخصيته « تاريخ بغداد » / دار الكتاب العربى / بيروت / ٨ / ١١٢ - ١٤١ ، و « تكملة تاريخ الطبرى » / تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم / دار سويدان / بيروت / مجلد ١١ من تاريخ الطبرى / ٧٩ - ٨٩ ، و «وفيات الأعيان» / تحقيق د . إحسان عباس / دار صادر / بيروت / ٢ / ١٤٠ - ١٤٦ ، و « الفخرى فى الآداب السلطانية » لابن الطقطقا / دار صادر / بيروت / ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م / ٢٦٠ - ٢٦٢ ، و « دائرة المعارف » للبستانى / مجلد ٧ / مادة «الحلاج» ، و « تاريخ الشعوب الإسلامية » لكارل بروكلمان / ترجمة أبو العلا عفيفى / لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة / ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م / ص ٨٥ - ٨٦ ، و « ظهر الإسلام » للدكتور أحمد أمين / مكتبة النهضة المصرية / ط ٤ / ١٩٦٦ م / ٢ / ٦٩ - ٧٦ ، و « شخصيات قلقة فى الإسلام » للدكتور عبد الرحمن بدوى / وكالة المطبوعات / الكويت / ط ٣ / ١٩٧٨ م / ٥٩ - ٩١ (وهو ترجمة بحث ماسينيون عنه بعنوان « المنحنى الشخصى لحياة الحلاج شهيد الصوفية فى الإسلام ») ، و « العصر العباسى الثانى » للدكتور شوقى ضيف / دار المعارف بمصر / ط ٢ / ٤٧٧ - ٤٨٢ ، و « ديوان الحلاج » / صنعة د . كامل مصطفى الشيبى / دار آفاق عربية / بغداد / ط ٢ / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / ١٥ - ٢٢ .

٢- يسمى الصوفية مثل هذا الكلام « شطحا » . وهم يعرّفون « الشطح » بأنه « كلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى » ، وأنه « عبارة مستغربة فى وصف وجد فاض بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته » (السرّاج / اللُّمع / تحقيق ألن نيكلسون / ليدن / ١٩٤١م / ٣٤٦ ، ٣٧٥) . ويشرح د . عبد الرحمن بدوى ذلك قائلا : « الشطح إذن تعبير عما تشعر به النفس حينما تصبح لأول مرة فى حضرة الألوهية ، فتدرك أن الله هى ، وهى هو » (د . عبد الرحمن بدوى / شطحات الصوفية / وكالة المطبوعات / الكويت / ط ٣ / ١٩٧٨م / ١ / ١٠) . وهذه دعوى خطيرة غير معقولة . وأرى أن الأفضل تعريف « الشطح » بأنه « الزعم الزائف من قِبَل شخص ما بحلول الله فيه . وأساس هذا الادعاء هو الدَّجَل أو الخبل العقلى أو الاضطراب النفسى » .

ولم تكن هذه الشطحات الحلولية الحلاّجية مقصورة على الشعر ، فقد ذكر تلميذه إبراهيم الحلوانى أنه سمعه يدعو بعد الصلاة ذات مرة بكلام جاء فيه : « يا هو أنا ، وأنا هو ، لا فرق بين إنيتى وهويتك إلا الحدوث والقدم » ، ثم التفت إليه ضاحكا وقال له : « أما ترى أن ربى ضرب قِدَمه فى حدوثى حتى استهلك حدوثى فى قدمه فلم يبق له إلا صفة القديم ونطقى فى تلك الصفة ؟ والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدوث . ثم إذا نطقت عن القِدَم ينكرون علىَّ ويشهدون بكفرى ويسعون إلى قتلى » (أخبار الحلاج / جمع وتحقيق لويس ماسينيون / ١٩٥٧م / ٢٠) . والعجيب أن بروكلمان يرجع رفض علماء الدين هذه المزاعم الحلاجية السخيفة إلى خطورتها على « النظام الاجتماعى المتهافت » ، على حد تعبيره (بروكلمان / تاريخ الشعوب الإسلامية / ٢٣٨) . ولا أدرى ، ولست إخال أدرى ، ما العلاقة بين ادعاءات الحلاج هذه والنظام الاجتماعى للدولة العباسية فى عصره .

٣- انظر « تاريخ بغداد » / ١٣٥ ، وأحمد أمين / ظهر الإسلام / ٢ / ٧١ - ٧٢ .

٤- انظر تأويل هذا البيت فى « ديوان الحلاج » / صنعة د . مصطفى كامل الشيبى / ٣٩ / هامش ١ .

٥- ديوان الحلاج / ٨٥ / هامش ٢ ، ود . عبد الرحمن بدوى / شخصيات قلقة فى الإسلام / ٦٩ / هامش ١ ، ود . شوقى ضيف / العصر العباسى / ٤٨٢ .

٦- انظر مثلا بحثه « المنحنى الشخصى لحياة الحلاج شهيد الصوفية فى الإسلام » (ص ٥٩ - ٩١ من كتاب « شخصيات قلقة فى الإسلام » للدكتور عبد الرحمن بدوى) ، ورسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراه عن الحلاج ، إلى جانب جمعه وتحقيقه (مع باول كراوس) لـ « أخبار الحلاج » ، وغير ذلك مما تجده فى المقدمة التى كتبها د . عبد الرحمن بدوى لكتابه « شخصيات قلقة فى الإسلام » ، وفى مقالته عن ذلك المستشرق فى كتابه « موسوعة المستشرقين » .

٧- يوجد فى نثر الحلاج هذا أيضا ، كقوله : « ومن آواه محلٌّ أدركه أينٌ . ومن كان له جنس طالَبَه كَيْفٌ . إنه تعالى لا يُظِلّه فوقٌ ، ولا يُقِلّه تحتٌ ، ولا يقابله حدّ ، ولا يزاحمه عِنْدٌ ، ولا يأخذه خَلْفٌ ، ولا يحدّه أمامٌ ، ولا يُظْهِره قَبْلٌ ، ولا يُفْنِيه بَعْدٌ ، ولا يوجده كَانٌ ، ولا يُفْقِده لَيسٌ » (أخبار الحلاج / ٣١) .

٨- ظن د . كامل مصطفى الشيبى أن المفروض جزم « ترى » . والصواب أن الجزم والرفع كلاهما جائز فى جواب الأمر . انظر تعليقه (هامش ١ / ص ٨٨ من « ديوان الحلاج ») .

٩- انظر هامش ١ / ص ٩٥ من « ديوان الحلاج » .

١٠- أُهْجِرْت : هُجِرْت .

١١- النائر : المنير

١٢- النهارة : ؟

١٣- البدايا : البدايات . والدهارة : ؟

١٤- نائرة : منيرة .

١٥- دبّر : تدبّرْ

١٦- الظماء : الظمأ .

الحسن بن أسد الفارقىّ

هو الحسن بن أسد بن الحسن . وقد لُقِّب بـ « الفارقىّ » نسبةً إلى ميافارقين من مدن العراق ، وكنيته « أبو نصر » رغم أنه لم يتزوج قط طيلة حياته ، بل كان يكره النسل أيضا فيما يقولون . وعاش الفارقى فى القرن الخامس الهجرى ، وتوفى مقتولاً سنة سبع وثمانين وأربعمائة للهجرة .

وقد انغمس الفارقى فى بحر السياسة وتعرض لمحنها إلى أن انتهى أمره بالقتل . ومن ذلك أنه كان متوليا ديوان « آمد » أيام السلطان السلجوقى ملكشاه جلال الدين بن ألب أرسلان (الذى كان وزيره نظامُ المُلْك الحسنُ بن على بن إسحاق الطوسى المشهور) ، فاعتُقِل لاستخلاص الأموال منه ، وأسىء إليه وأهين . ثم أطلق سراحه فانتقل إلى ميافارقين .

وقد حدث أن مات السلطان ملكشاه وحدث خلاف بين ورثة العرش ، وساد الاضطراب البلاد ومنها ميافارقين ، حيث كان يعيش شاعرنا ، فتولى السلطة وحفظ الأمر هناك حتى وصل إليها الأمير ناصر الدولة منصور بن مروان ، فسلمه الفارقىّ الحكم ، وعينه هذا وزيرًا له ولقبه « محيى الدولة » .

ثم استدعى كبراءُ ميافارقين تتش أخا السلطان ملكشاه فأجابهم ووفد إلى المدينة حيث فرَّ منها الشاعر إلى حلب واختفى زمنا . ويقال إنه قد غلبته على نفسه عاطفة حب الوطن ، فرجع إلى ميافارقين وامتدح السلطان تتش بقصيدة منها قوله :

واستحلبت حلب جفنىّ فانهملا ... وبشّرتنى بحرّ القتل (١) حرّانُ

ويقال أيضا إن تتش قد أعجبته القصيدة ، بيد أن بعض الحاضرين عرّفوه بصاحبها وذكّروه بسيطرته على ميافارقين وتسليمه إياها لابن مروان وما إلى ذلك ، فأمر بضرب عنقه . وهو فى الواقع قرار غريب ، إذ إن هذا السلطان نفسه قد عفا عن ابن مروان ، الذى كان يتولى حكم المدينة فعلاً عند وصوله . فكيف يعفو عن الحاكم ويعاقب وزيره ؟ أما مسألة تسلطه ، قبل مجىء ابن مروان ، على ميافارقين فهذا أمر قديم قد مضى وانقضى . الحقُّ أن بنفسى من هذه القصة شيئًا ، وأنا غير مقتنع بها ، اللهم إلاَّ إذا كانت هناك تفصيلات لم نطّلع عليها يمكنها أن تزيل هذا الغموض وتلك الغرابة .

وهناك من يقول إن الذى أمر بقتله هو ابن مروان المارّ ذكره ، وقد كان عفا عنه بعد أن تشفع له عنده الشاعر الغسّانى الذى كان قد انتحل قصيدة للفارقى مدح بها ابن مروان هذا وستر عليه شاعرنا وأقرَّ له بها ، ثم عاد الفارقى لمدح ابن مروان ، الذى تقول الرواية إنه ضاق بعودته إليه طامعا فى نواله بعد أن عفا عنه ولم يعاقبه . أما سبب غضب ابن مروان على الشاعر فترجعه تلك الرواية إلى تسلط الفارقىّ على ميافارقين وإسقاطه اسم ابن مروان ، الذى كان يتولاها من قبل السلطان ملكشاه . هذا ، وسوف أناقش بعد قليل مسألة مدحه السلطان تتش (على هذه الرواية) أو ابن مروان (على رواية أخرى سأشير إليها حينذاك) .

وكان الفارقى ، إلى جانب كونه شاعرا ، نحويا أيضا . وقد ترك « شرح اللُّمَع » (وهو شرح لكتاب « اللُّمع » لابن جنى) ، و « الإفصاح فى شرح أبيات مشكلة » (٢) و « الألغاز » ،

و « الحـروف » ، و « الزُّبد فى معرفة كل أحد » (٣) .

وشعر الفارقى الذى جمعه هلال ناجى فى كتابه « الحسن بن أسد الفارقى - حياته والصُّبابة من شعره » يبلغ ١١٩ مقطعة ، معظمها بيتان بيتان أو مقطوعات ، والقليل منها ما جاوز ذلك بقليل . ويقع هذا الشعر فى تسعين صفحة من القِطْع الصغير ، وكل صفحة تحوى ما بين ثلاثة أبيات إلى ثمانية .

ويدور هذا الشعر على النسيب ، والشكوى من الإخوان والناس والزمان . وله فى الهجاء مقطعة واحدة ، وفى الخمر أكثر من مقطعة . كذلك له فى الوعظ شىء من الشعر ، وشىء مثله فى الفخر .

وليس فى الشعر الذى وصلنا للفارقى أى مديح . ومن هنا فإننا نستغرب الرواية التى تقول إنه وقف بين يدى السلطان السلجوقى تتش ينشده قصيدة منها :

واستحلبت حلبٌ جفنىَّ فانهملا ... وبشّرتنى بحرّ القتل حرّانُ

فسأل تتش عنه ، فقيل له إنه الفارقى ، فأمر بضرب عنقه (٤) ، إذ لا يمكن أن يُفْهم من وقوفه بين يدى ذلك السلطان وإلقائه القصيدة المشار إليها إلا أنه كان ينشده مديحًا كان قد أعدّه فيه . وقد قلنا إنه ليس فى شعره مديح . والقصيدة المذكورة ليست إلاَّ ستة أبيات ، وهذا نصّها :

لو أن قلبك لما قيل : قد بانوا ... يوم النوى صخرة صماء صوّانُ
لعِيلَ صبرك مغلوبا ونمَّ بما ... أخفيتَه مدمعٌ للسرّ صوّانُ
زجرتُ أشياء فى أشياء تشبهها ... إذ بينهن رضاعات وألبان
فقال لى الطلح : يومٌ طالحٌ ونَبًى ... وحقق البينَ عندى ما رأى البانُ
واستحلَبَتْ حلبٌ جفنىَّ فانحلبا ... وبشرتنى بحرّ القتل حرّانُ

فالجفن من حلب ما انفكّ من حلب والقلب بعدك من حرّان حرّانُ

وليس فيها ، كما ترى ، أى شىء يمت إلى المديح بأية صلة . ومن المستبعد أن يقف الشاعر بين يدى سلطان كان قد خرج عليه من قبل فلا يذكر إلا القتل ، وكأنه يوحى إليه بأن يعاقبه . كذلك فإنى لا أهضم حكاية وقوفه بين يديه دون أن يستأذن ويقدم نفسه (بدليل سؤال السلطان عن اسمه بعد إنشاده القصيدة) ، وكأن المسألة مغالبة من الشعراء بعضهم لبعض بحيث إن من يستطيع أن يدافع الباقين ويخترق الصفوف هو الذى يَمْثُل بين يدى السلطان .

وأولى من هذه الرواية بالتصديق قول الفيروزابادى إنه قد « تنقّلت به الأحوال ، فمات مشنوقا لأنه كان هاربا من سلطانه فظفر به بعض نوابه بحرّان ، فأمسكه وشنقه سبع وثمانين وأربعمائة . وأنشد عند خروجه من حلب أبياتًا كانت فألاً عليه (٥) . ومن جملتها :

واستحلبت حلب جفنىّ فانحلبا وبشرتنى بحر القتل حرّانُ

فالجفن من حلب ما انفكّ فى حلب والقلب بعدك من حرّانَ حرانٌ » (٦)

ولعل مما يرجح كلام الفيروزابادى وَصْفه الشعر الذى قاله الفارقى بأنه « أبيات » ، وهو ما يتطابق مع الواقع الذى بين أيدينا ، إذ هو ستة أبيات لا غير ، وليس قصيدة كما جاء فى رواية ابن تغرى بردى .

ونفس الشىء يقال عما رُوِى من أن الشاعر المسمَّى بـ « الغسّانى » سطا على قصيدة للفارقى وادعاها لنفسه وأنشدها بين يدى أحمد بن مروان مادحًا إياه لم يغير فيها إلا اسم الممدوح (٧) ، إذ أين تلك القصيدة ؟ إنه لا أحد هنا ، كما لا أحد هناك ، قد أورد لنا القصيدة المزعومة أو بعضا

من أبياتها .

والغريب أن يقال أيضا إن الفارقى لمَّا أضرَّ به العيش قصد ابن مروان هذا ، وكان قد خرج عليه وقرَّر ابن مروان قتله لولا أن تشفع فيه الغسانى السالف ذكره (ردًا على جميله عنده ، إذ أنكر ملكية القصيدة التى ادعاها الغسانى لنفسه) ، وأنشده قصيدة يمدحه بها ، فما كان من ابن مروان إلا أن قتله (٨) . إن السؤال هنا أيضا : أين هذه القصيدة ؟ بل أين ولو بعض أبياتها ؟

ومن الصعب أن يقال إنه كان للفارقى مديح ثم ضاع ، لأن من المستبعد جدًّا أن يضيع من شعره المديحُ بالذات .

ونسيب الفارقى كله آلام وشكاوى وحديث عن الهجر وأفاعيله به :

شاب رأسى لفرط ما أنا لاقى ... من هواكم أيام شرخ الشباب
وقرانى سيف الجفا بشباهُ ... أى داءٍ من جرح ذاك الشَّبَا بى !

* * *

يا ناكثا نَقَض العهود ولم يخَفْ ... ما فى كتاب عتيده ورقيبه
أنضَى هواك شبيبتى ، وذوى به ... عودى له ، وعريتُ من ورقى به
ورجوتَ أن تَرْقَى بعذرك . أين من ... رام الرقىّ بعذره فَرقى به ؟

* * *

قد كان قلبى صحيحًا كالحِمَى زمنا ... فمذ أبحت الهوى منه الحمى مرضا
فكم سخطت على من كان شيمته ... وقد أبحت له قبل الحمام رضا
يا من إذا فوَّقتْ سهما لواحظُه ... أضحى لها كل قلب قلَّب غرضا
ألبستُ ثوب سقام ميت صار له ... جسمى لدقته من سقمه غرضا
وصرتُ وقفا على همٍّ يجاذبنى ... أيدى الصبابة فيه كلما عرضا
ما إن قضى الله شيئا فى خليقته ... أشد من زفرات الحب حين قضى

فلا قضى كلفٌ نحبًا فأوجعنى إن قيل إن المحب المستهام قضى !

* * *

تراك يا متلف جسمى ويا مكثر إعلالى وأمراضى
من بعد أن أضنيتنى ساخطٌ علىَّ فى حبك أم راضى ؟

وهو يستعطف محبوبه أن يرق له ويرحمه :

يا من حكى ثغره الدر النظيم ومن تخال أصداغه السود العناقيدا
اعطف على مستهامٍ ضيمَ من أسف على هواك وفى حبل العنا قِيدا

* * *

يا بديعًا فيه خلعتُ عذارى وتناءى وجدى به عن وقارى
قلت لى : « اكتم هواى » والدمع فى خد ى له كاتب سطورًا وقارى
كيف أستطيع كتمه مع سقم ليس يخفى ومدمع فيك جارى ؟
صل أو اقطع ، فأنت إن غبتَ عنه عينُ أنسى ، وإن تنائيت جارى

* * *

صيرنى معدما هواكم وكنتُ فى الحب ذا يسار
فواصلونى ، فلى إليكم فقر يمينى إلى يسارى

* * *

قد آن لى لو رجوت مما ألقاه فى الحب أن ترقَّا
فاعكف على مدنف كئيب إذ منه مُلِّكتَ أنت رِقَّا

* * *

يا من تُسَلُّ علينا من لواحظه بيضٌ وسُمْرُ من ألحاظه أسَلُ
بحقّ معطيك هذا الحسن صلْ دنفا فإننى منك غَيْرَ الوصل لا أسَلُ

كما أنه يذكّره باللّه ويطلب منه أن يتقيه فلا يعذبه كل هذا العذاب بلا ذنب جناه :

تَقِ اللّه فى قرب المعنى ، فإنه من الشوق والأحزان بين كتائبِ
فما ليَ من ذنب وقد جئتُ تائبا وليس على ذنبٍ مصرٌّ كتائبِ

* * *

يا قاتلى فى الصدود ، رفقا بمُدْنَفٍ ما له نصيرْ
واخش إله السماء . إنا كُلاًّ إليه غداً نصيرُ

بل إنه ليبحث عمن ينصفه منه :

مَنْ مُجيرى من شادن قد جفانى لم يُسغْ فى فمى لذيذ الشراب ؟
فعلت عينه المريضة فى الحـ ـب بقلبى كفعل الشَّرَى بى

* * *

من منصفى من ساحر طرفه دلَّه عقلى صِرْفُه البابلى ؟
إن جئتُه أشكو طويل البلا إليه قال : اصبر من الباب لى

ومع ذلك فإنه فى موضع آخر من شعره يعلن عبوديته له :

سبيتنى بجمال لم يدع أحدا إلا وأذهله عن رشده وسبا

* * *

تَيَّم قلبى شادن أغْيَدُ مُلْكَ فالناس له أعْبُدُ
لو جاز أن يُعْبَدَ فى حسنه وظرفه كنت له أعْبُدُ

* * *

قد طالما لذتُ بالصبر الجميل فلم أجد لنفسىَ من لوعاته وَزَرا
فالآن وطنت نفسى أننى لكمو عبد ، وإن شاننى فى الهوى وَزَرى
فاستعبدونى ، فإنى كالرقيق لكم يطيع أنّى نُهى فى الحب أو أُمِرا
لم يبق بين الورى فى أننى كلف خُلْفٌ ، ولا بين مَنْ تحت السماء مرا

* * *

فاعطف على مُدْنَف كئيب إذ منه مُلِّكْتَ أنت رقّا

* * *

أمسيت فى حبى لها عبدا أضام وكنت عينا

وبعض شعره فى النسيب وصف للمحبوب وتغَنٍّ بجماله :

وبَدْر تمّ لو ان البدر يشبهه فى وصفه حين أعيانا ومَنْعَته

لم يستطع ناظرٌ يوماً تأمّله ... من نور إشراقه حسناً ومَنْعَتِهِ

* * *

يهدى كنشر الروض من نحوه ... إليَّ كالمسك له رائحهْ
ظبى جرى فى جسدى حبُّه ... جَرْيَ دمى جارحةً جارحهْ

* * *

هَويتُ بديعَ الحسن : للغصن قدُّهُ ... وللظبى عيناه ، وخداه للورد
غزال من الغزلان ، لكن أخافه ... وإن كنتُ مقداماً على الأسد الوَرْدِ

* * *

يا من حكى ثغرُه الدرَّ النظيم ومن ... تخال أصداغه السود العناقيدا

* * *

ظبى له طرف غدا ... أسدا على العشاق وَرْدا
لمَّا بدا فى تيهه ... فَرْدَ الجمال يهز قدّا

* * *

يأبى المبسم الذى هو أورا ... ق الأقاحى نُظمْنَ فى جُلَّنار
وفتور فى لحظ طرفك فيه ... صيّر الوجه والجوى جلّ نارى

* * *

رشأ فى جفونه سيف لحظ ... مثل سيف الإمام فى يوم بَدْرِ

* * *

فما المسك والريحان والراح شُعْشعتْ ... بماء سحاب ضُمّنَتْهُ الوقائعُ
بأطيب من عَرْف الذى مُذْ عرفته ... فبينى وبين العالمين وقائعُ

* * *

لقد بَرَعْتَ إلى أن قال قائلنا : ... أمالكا صاغك الرحمن أم مَلَكا ؟

* * *

فتن الناسَ أهيفٌ عطفت صدغا ... ه فى الخدّ عطفة الصولجانِ
مَلَكَ القلبَ فهو جان صَئُولٌ ... وعجيبٌ أن يُظْهر الصَّوْل جانى

كما تكلم عن زيارات طيف الحبيب له فى المنام :

زار ليـــلاً ففكنـــى مـــن غـــرام ... طـال منـــه فـــى قبضـة الحب أسْـرى
قلـــت : ألا زرت المحـــب نهـــارا ؟ ... قال : إنـــى كالطيف فى الليل أسـرى
قصـرت إذ دنـا فلـم يـك فـى لمحـ ... ـة عينـــى ســـوى عشـاء وفجـــر
فافترقنـــا ، فيـــا دموعـى على مـــا ... فـــات منـــه حتـى يعـــود فأجرى !

وتكلم عن الرسول :

أرسولـى ، إذا الحبيـــب قرا منـى ... كتابـــا فسلـــــه ردّ الجـــوابِ
وإذا قال : « كيف كان ؟ » فحدّثْـهُ ... بوجـــدى ، وفيـه فعـل الجـوى بـى

ولم ينس الحسود والعذول :

يـــا بـــدر تـــم مـــا بـــدا ... للنـــــاس رونقُـــه ولاحـــــا
إلا وخاصـــم فيـــه قلبـــى ... كـــــلَّ عذّالـــى ولاحـــــى

* * *

كـــم لامنـى فـــى حبـــه لائـــم ... ما نفـع القلـــب بـــل ضَـــرّهْ

* * *

لا أعْطـــــىَ الواشـــى إليـــــ ... ـك لهجرتـى مـا قـد نـوى لـى !

* * *

غـــاظ الحســـودَ لنـــا الوصـــا ... لُ ، فـــلا رعـــاه اللـه عينـــا !
فذمـــــت حرفـــا عاينـــــت ... عينـــاى فـــى أولاه عينـــــا

ووصف موقف الوداع :

ولما سمعـــت الحاديَيْـــن ترنّمـــا ... وقائلهم والعيس تُحْدَى بهم : « حثُّوا »
أسلت دمـوع العيـن حيـن ارتوت بهـا ... رمـال النقـا فـى إثرهـم والنقا حـثّ

* * *

لم يـدر يـوم البيـن مـن حيـرة ... بشَّـــر فـــى صالحـــة أم نعـــى
ولم أطـــق لمَّـــا جـــرت أدمعـى ... لهـــا مـــن الحرقـــة أن أمنعـــا

* * *

لـو أن قلبك لمَّا قيل : « قد بانوا » يـوم النـوى صخـرة صمـاء صـوّانُ
لَعِيـلَ صبـرك مغلوبـا ونمَّ بمـا أخفيتـه مدمـع للسـرّ صـوّانُ

وفَدَّى حبيبَه :

أفـدى بنفسـي مـن لـه ذكـرة عنـدى بـه غاديـة رائحـهْ

* * *

أفديـك يا مـن طـول إعراضـه عنـى قـد شيبنـى أمـردا

* * *

أفـدى بنفسـي بـدر تـم لـه بـدر الدجـى فـى حسنـه ضَرّهْ

وهذا كله كما ترى لا جديد فيه ولا أصالة فى معانيه ولا طرافة فى صوره ، بل هو عاديّ مما يقوله جميع الشعراء . ولعلك لاحظت أنه فى نسيبه يستعمل ضمير المذكر دائمًا .

وأمَّا بالنسبة إلى سخطه على الزمان والناس والخلان وشكواه منهم ومن غدرهم وانقلابهم فشعره ممتلىء بذلك لا تخفف منه نسمة ولو واهنة من الرضا بوفاء صديق . ويبدو لى أنه لو كانت قصته مع الغسانى الشاعر صحيحة وأنقذه هذا من الموت لوجدنا فى شعره تسجيلا لهذا الموقف ، فإنه لموقف عجيب . ومن شعره الساخط على الزمان والناس :

فشـا الريـاء فـلا قـوم أصحّـاءُ ولا أصـادقُ خـلاَّنٌ أوداءُ
فلسـت أدرى ذهـولاً مـن تلونهـم هـم الـدواء لمـا أشكـو أم الـداءُ

* * *

وقلـت لأيامـى : أسـأت فأحسنى وكُفّى ، فقد أوجعْتنى بالأسى ضربا

* * *

كـلَّ يـوم فينـا لـذا الدهـر خَطْبُ وصـروف تعـرو ونكـبٌ فنكـبُ
بينمـا نحـن فـى حلبـة الآمـا ل نجـرى إذ أعثرتْنـا فنكبـو
نستلـذ الدنيـا فنحـن إليهـا أبـدا غـرة نحـنُ ونصبـو

ونرجّى البقاء جهلاً ، وإنا ... غرض للمنون فيها ونصْبُ
أى عيش صفا لخلق وما كا ... ن له من حوادث الدهر قلبُ ؟
أفما فى الأنام ذو فطنه يفهـ ... ـم هذا ومن له فيه قلبْ ؟
فاستعدوا ، فإن للدهر أحداثا ... لها فى الأنام طعن وضربُ
ليس يبقى لها ، وإن أمهلته ... غفلات الزمان ، عبل وضرب

* * *

قديما كان فى الدنيا أناس ... بهم يحيى العلا والمكرماتُ
فلما غال فعلَ الخير دهرٌ ... به عاش الخنا والمكر ماتوا

* * *

هل من سبيل إلى خلّ أخى ثقة ... عليم نفس بما فى الود قد تاتى ؟
فقد سئمت مداجاتى بنى زمن ... ما منهمو غير جافى الطبع فتّات

* * *

كم ساءنى الدهر ثم سرّ فلم ... يُدم لنفسى هما ولا فرحا
ألقاه بالصبر ثم يعركنى ... تحت رحَى من صروفه فرَحَى

* * *

تبًّا لدهر أنا فى أمّة ... منه كثيرى الغدر أوغاد
أزهدهم فى غيه راتح ... حرصا على دنياه أو غاد

* * *

لا تطلبى فى الأنام خلاّ ... يصفيك ودّا وعنه عدّى
فلو عددتُ الذين خانوا ... فيهم عهودى أطلتُ عدّى

* * *

رأيت أبناء ذى الدنيا كأنهمو ... من التغلغل فى إفسادهم فارُ
كالماء هونا ، فسلن أذللتهم خمدوا ... وإن شرارة عزٍّ أدركوا فاروا

* * *

أى خليل لم يخنّى وقد ... صفا له وُدّىَ أو راقا
هيهات ! لو حاولت تعدادهم ... ملأت من ذلك أوراقا

* * *

كم صاحب قلت : علَّ ذا لى ... يفى بوعدى فما وفى لى
أضاع ما كنتُ منه أرجو ... وخاب زجرى به وفالى
فانضاف عندى إلى رجال ... علمى لهم نافذ ومالى

* * *

قد أرخصتنا الحاجات فيهم ... فكيف بعد الإرخاص تغلو ؟
فلست أدرى أهم نُقُولٌ ... أم نحن ، أم ذا الزمان نَقْلُ

* * *

صرتُ فى الناس أجنبيا لأنى ... فى زمان لم ألق فيه وفيا
فيه غدر ، وفىَّ حسن وفاء ... فتأمل ما قلت فيه وفيَّا
مذ عرفت الزّمان والناس ... أصبحت وحيدا تخالنى سامريا

وهو لا يثق حتى بمن يُظْهرون التدين والنسك :

فلا يغرَّنك من ... سبالِه قد سبتا
فإن كفِّىْ هذه الـ ... ـدنيا له قد سبتا

* * *

أيها المظهر نسكا ... ليس فى ناسكِ ناسك
أعلق الأيدى بذى الدنـ ... ـيا يدا ناسكِ ناسكْ

لقد كان للأوفياء والفضلاء وجود فيما مضى ، أما الآن فقد انتهى كلّ ذلك :

مضى الكرماء وانقرضوا فهم فى ... ثرى الأحداث أصداءٌ وهامُ
وأضحى ذكرهم لذوى الأمانى ... ضلالاً فيه قد تاهوا وهاموا

وهو من أجل ذلك قد اعتزل الناس :

ذرينى أصحب الدنيا وحيدا ... خفيف الحاذ سيّار الركابِ
رفيق ذوى الركا فى كل فج ... فلا نقةٌ خلال ذوى الركا بى

* * *

مذ عرفتُ الزمـان والنـاس أصبحـ ـتُ وحيـدا تخالنـي سامريّـا

وهو يرى أن الإنسان إذا ضاقت نفسه بمن حوله فعليه الارتحال بعيدا عنهم :

إذا مـا نبـا بلـد بـي رحلـتُ وألقيـت حبلـي علـى غاربـي
وأصبحـت ذا كوكـب طالـع لجـوب المفـاوز أو غـارب

...

فسـر أو تمـوت غريبـا بغيـ ـر أخ لـك راث ولا نـادبِ

* * *

وإن نَبَتْ أرض فشـدّى (٩) على ناجيـة رَحْلَـك أو ناجـي
المـرء إمّـا هالـك إن رمـى بنفسـه الغايـات أو ناجـي

* * *

أأرضـى بسكنـى بلـدة لم أجـد بهـا سوى جاهل أو زاهـد فـى الفضائل
وألبس ثـوب الهـون فيهـا إذ نَبَـتْ بفضل؟ فكم من مذهب فى الفضاء لى

هذا ، وليس للفارقى فى الهجاء إلا الأربعة الأبيات التالية :

يا فضلـة المـاء فـى الإنـاء إذا ما الكلـب فيـه لسانـه ولغـا
إن نلـت مـن عرضـى المحـال فمـن يجيـب من قال باطـلاً ولغـا ؟
وأنـت عنـدى أذل مـن جمـل أثقلَـهُ وسْـقُ حملـه فرغـا
إن كنـت فـى هجوى ابتدأت فمـن هجائـك اللـؤم منـه قـد فرغـا

وهـو هجاء فاتر لا أظن المهجوَّ تألم منه أو بالى به . إن الشاعر مشغول هنا ، كما كان فى كل شعره ، بالتفكير فى كيفية اقتناص الجناسات والتوريات . فإذا أضفنا إلى ذلك أنه عالم فى الأصل لا شاعر فهمنا لماذا كان هجاؤه ، بل شعره كلّه (أو بالأحرى : نظمه) فاترًا ضعيفا لا يثير انفعالاً قويا ولا يجعل الخيال يحلّق .

وهو يهاجم الخمر وشاربيها ، ويقبّح شربها ، ويسفّه ما يزعمه

عشاقُها لها من محاسن وآلاء ، ويبين لهم مفاسدها وأخطارها :

ضلّ امرؤ للدنان أنشا ... ثم لها بعد ذاك زَفَّتْ
وللكؤوس التي عليه ... منها عروس المدام زُفَّتْ
يعدا لرأى الغواة فيها ... ومن إليها عينيه لَفَّتْ
يزعم شُرّابها سفاها ... إذا لهم نُظِّمَتْ وصُفَّتْ
بأنها رأس كل عيش ... قد أخلصته لهم وصَفَّتْ
كم قتلت مسرفا عليها ... فأنحلت جسمه وشفَّتْ
وكم به أظهرت سفاها ... فأحرقت حاسدًا وشفَّتْ

* * *

يا صاح ، إن الخمر قتالة ... فأعْفِ عنها النفس يا صاحِ
فانظر ، فكم بين فتى طافح ... من سكر دسّ وفتّى صاحى
فخلّها وانْتَفِ منها كَمَنْ ... يحتلب الراحة بالراحِ
فالحقُّ ما أوضحتُ من أمرها ... والحقُّ لا يُدْفَعُ بالراحِ

* * *

حمتنى عن حميا الكأس نفسٌ ... إلى غير المعالى لن تَتُوقا
وما تركى لها شُحًّا ، ولكن ... طلبتُ فما وجدتُ بها صديقا

ومع هذا فإننا نراه يقول فيها :

لا يصرف الهمَّ إلا شدو محسنة ... أو منظر حسن تهواه أو قدح

...

بِكْرٌ تخال إذا ما المزج خالطها ... سقاتها أنهم زَنْدًا بها قدحوا

* * *

ووقتٍ غنمناه من الدهر مُسْعِدٍ ... معارٍ ، وأوقات السرور عوارى

...

أدار علينا الكأس فيه ابن أربع ... وعشر له بالكأس أى مدارِ
تناولها منه بكف كأنما ... أناملها تحت الزجاج مدارى

وفوق ذلك فهو يستمد منها بعض صوره : سواء التى تعبِّر عن ألمه أو تلك التى تصور فرحه وابتهاجه :

لم أفـــق مـــن خمـــار بينـــك إذ بنـــت ولا ذاقـــت الجفـون حثاثـــا

* * *

غـــر الزمـــان طماعـــةَ أبنـــاءه سكـــرت بهـا الأشياخ والأحـداث

* * *

فما المسك والريحان والراح شُعْشِعَتْ بمـــاء سحـــاب ضُمِّنَتْـــه الوقائـــعُ
بأطيـب من عـرف الذى مذ عرفتُـه فبينـــى وبيـــن العالميـــن وقائـــعُ

* * *

أريقًـــا مـــن رضابـــك أم رحيقـــا رشفتُ فلستُ مـن سُكْرى مفيقا ؟
وللصهبـــاء أسمـــاء ، ولكـــن جهلـــتُ بـــأن فـــى الأسمـاء ريقا

* * *

مـــن منصفـــى مـن ساحـــر طرفـــه دلَّـــة عقلـــى صرفُـــه البابلـــى ؟

والصـورة قبل الأخيرة هى أجمل الصور الخمرية عنده ، بل أجمل صوره طرًّا .

ولعلَّ هذه الأشعار المتناقضة فى الخمر تصور موقفه منها فى فترتين مختلفتين من حياته ، إذ رُبَّما كان يعافها وينفر منها أول الأمر ثم ضعف أمام إغرائها بعد هذا وأصبح من شرابها .

ومن فخره قوله :

وإن أنـــت ناديـــت أهـــل الحفـــاظ فعـــرِّض بذكـــرك أو نـــادِ بـــى
يجيـــك فتـــى نسَبَتْـــه الكـــرام مفاخـــرُه حليـــةُ الناســـب
شَرُفْـتُ فأكثـرتُ غيـظ الحسـود وأنكرنـى أعـرف النـاس بـى

* * *

يا نفـــس ، إن الحلـم لـى صاحـب فنافقـــى الحسّـــاد أو داجـــى

فإننـــى الهُـــونُ لهـــم والشَّجَـــى معترضـــا مـــا بيـــن أرداجـــى
والليـــل فـــى أوجههـــم حيثمـــا أمُّـــوا بطـــىءُ السيـــر أو داجِ

* * *

كـم خاطبتنـى خطـوب ما عبأت بهـا ولم أقل جزعا : « عن حوزتى حوزى »
علمـا بأنـــىَ مجـــزىٌّ بمكتسبـــى إن امـــرؤ بجـــوازى فعلـــه جـــوزى

وفى وعظياته نراه ينصح بالتجلُّد أمام مصائب الدهر والصبر على بلوائه ولأوائه ، والتطلع إلى انفراج الشدة وبزوغ فجر الأمل :

تجلَّـــدْ على الدهـــر واصبـــر بمـــا عليـــك الإلـــه مـــن الـــرزق أجْـــرَى
ولا يسخطنّـــك صـــرف القضـــا ء فتعـــدم إذ ذاك حظـــا وأجـــرا
فمـــا زال رزق الفتـــى طالبـــا بعيـدا إليـــه دجـــى الليـــل يســـرى
توقـــع إذا ضـــاق أمـــر عليـــ ـك خيـــرا ، فـــإن مـــع العســـر يسرا

ويوصى بعدم الجرى وراء الدنيا ، والاستعداد للموت وما بعده :

إنمـــا دنيـــاك عـــاره وهـــى بيـــن النـــاس عـــارهْ
فاجتنـــب فيهـــا فعـــالا تكســـب الإنســـان عـــاره
بَشَّـــرَتْ بالعيـــش غـــرًّا ظـــن فـــى الدنيـــا بشـــارهْ
جاءهـــا يُخْـــدع فيهـــا بـــ ـــرواء وبشـــارهْ
ويـــح مـــن ظنـــك يـــا دا ر الأســـى والبـــؤس داره
أيـــن كســـرى قبلـــه دا راهُ ؟ بـــل أيـــن ابـــن داره ؟
ذهـــب الكـــل فلـــم يُبْـــ ـــق الـــردى منهـــم أثـــارهْ
غيـــر ذكـــر ســـوف يخفيـــ ـــه الـــذى منهـــم أثـــاره
كـــم لفرســـان الليالـــى فيهمـــو مـــن شـــن غـــاره
واغتيـــال غـــال ضرغـــا مّـــا وأخلـــى منـــه غـــاره

ويحذر من التهالك على جمع المال :

لا تجمعـوا المال للأحـداث إن طرقت إن الحـوادث فـى أحوالكـم سـوسُ
وليـــس يغفـــل عـــن إحـــ ـــراز منقبـــة تبقـى عليـــه بمـــال مـــن لـه سوسُ

وينبه إلى أن الدهر قلّب بطبيعته لا يبقى على حال ، وأن الحظوظ فيه لا تجرى على قاعدة مفهومة . وهو لون من التعزية يراد به تهيئة النفوس لتحمل مصائب الحياة وعدم الأسى على حظ فائت :

أرى الدهر فى أفعاله ذا تلون ... كثير بأهليه كأنّ به مسّا
وما مسّ من شىء بأيدى صروفه ... فأبقاه ، فالدانى من الهلك ما مسّا
يصبّح منه الخَلْقَ بالشرّ مثلما ... يمسّيهمو ، فالويل صبّح أو مسّى
وفيه حظوظ تجعل المِسَّ عسجدا ... وكم جعلت من عسجد خالص مِسّا !

وهو أحيانا ما يوجه وعظه للآخرين كما مرَّ ، وأحيانا ما يوجهه لنفسه كما فى الأبيات التالية :

عشت يا نفس بالرفاهة دهرا ... فاطلبى الآن عيشة بانتهاز
واستخيرى الإله فى البين ، فالعا ... لم منى إلا إذا بنت هازى
وصلى الوخْد بالوجيف إليه ... بالنواجى ذات الخُطَا والجواز
وافعلى الخير ما استطعت على الخير ، فلن تعدمى عليه الجوازى

وبعد ، فليس فى شىء من هذا كله تقريبا جديد . ومع ذلك فلشعر الفارقى سماته ، التى يتميز ببعضها ويشترك مع غيره فى بعضها الآخر :

من هذه السمات سهولة اللفظ ، إذ لا يكاد القارىء يجد فيه كلمةً أو تعبيرا يحتاج إلى مراجعة المعجم . وفيما مضى من شواهد ، وهى كثيرة ، غناءٌ عن ضرب الأمثلة على ذلك .

على أن تركيباته وتلاعباته اللفظية كثيرًا ما تحوج قارىء شعره إلى التمهُّل فى قراءته حتى يعرف المراد :

فأما بالنسبة لتركيباته فهو كثير التقديم والتأخير لعناصر الجملة ، علاوةً على أنه كثيرًا ما يحوّل المفعول به إلى جار ومجرور ، أى يجعل

الفعل المتعدى بنفسه فعلاً لازمًا يحتاج فى تعديته إلى حرف جرّ . كما أنه قد يتبع حروف الجر مع الضمائر بعضها بعضا . لنأخذ مثلا قوله :

فما لى من ذنب وقد جئتُ تائبا وليس على ذنب مصرٌّ كتائبِ

حيث يوهم للوهلة الأولى تركيبُ الكلام فى الشطرة الثانية أن المقصود نفى وجود المصرّ على الذنب ، على حين أنه لو كان قد صاغه الصياغة العادية بلا تقديم وتأخير فقال : « ليس (الـ)مصرٌّ على (الـ)ـذنب كـ(الـ)ـتائب » لاتضح المراد من فوره .

وقوله :

ولم أطق لمَّا جرت أدمعى لها من الحرقة أن أمنعا

إذ حولّ الفعل « أمنع » من فعل متعد إلى مفعوله بنفسه إلى معتدٍّ له بحرف جرّ ، ومن ثم فبدلاً من أن يقول : « لم أطق من الحرقة أن أمنعها » حوّل المفعول به إلى جار ومجرور متقدم : « لها أن أمنعا » .

وقوله :

وأفردتنى بالهمّ حتى أرى الورى ضروبا ومنه فيه لى لا أرى ضربا

حيث تتابعت « من » و « فى » و « اللام » مع مجروراتها من الضمائر ، فغمَّضت المعنى بعض الشىء وأحوجت القارىء إلى شىء من التريث وإعمال الفكر .

ولعل أهم سمة فى شعر الشاعر هى تلاعباته اللفظية . وقد أشار إلى ذلك النقاد القدماء ، فقال العماد الأصفهانى إنه « كان ينظم الشعر طبعًا ، ويتكلف الصنعة فيه ويلتزم ما لا يلزم فى رويه وقوافيه ... ويقع فى منظومه التجنيس الواقع الرائق الرائع » ، (١٠) ، ووصفه ياقوت بأنه

« متمكن من القافية ، كثير التجنيس . قلما يخلو له بيت من تصنيع وإحسان وبديع » (١١) ، كما ذكر القفطى أنه كان يتعمد فى أكثر شعره التجنيس إلى أن صار ذلك ديدنًا له ومهر فيه مهارةً فائقة (١٢) . وتتمثل هذه التلاعبات اللفظية فى التجنيس فى آخر لفظة أو لفظتين من أبيات القصيدة أو المقطوعة . قال مثلاً :

قالوا : « همو مَلأٌ جمٌّ » ، فقلت لهم : لا معشرا أبقت الدنيا ولا مَلأ
هما الجديدان ، والدنيا وعاؤهما فكم لها فرغا منا ، وكم ملأ

فجانس بين « مَلأ » فى آخر البيت و « ملأ » فى آخر البيت الثانى . والأولى بمعنى « (أشراف) القوم » ، والثانية فعل ماضٍ يقابل « فرغ » المذكور قبله فى نفس الشطرة .

وإذا كان الجناس فى هذين البيتين بين اسم وفعل ، فإنه فى الأبيات الثلاثة الآتية قد جانس بين أسماء ثلاثة شكلها واحد ، ولكن معانيها مختلفة :

العيش أحقر أن يعْنيك ضرّاءُ منه ، وأقصر أن تُلْهيك سرّاءُ
فاستنهض العزْم ، وليصحبك معتزما نجم إذا دجت الظلماء سرّاءُ
فليس تَرْضَى بذل العيش فى وطن إلا قعيدةُ بيتٍ وهى سرّاءُ

فـ « سراء » الأولى عكس « ضرّاء » ، والثانية صيغة مبالغة من اسم الفاعل « سارٌّ » ، والثالثة بمعنى « الملازمة لبيتها لا تنكشف لأحد » .

وأحيانا ما يكون الجناس بين كلمة من جهة وأكثر من كلمة من جهة أخرى ، مثل :

فَسِرْ أو تموت غريبا بغير أخ لك راثٍ ولا نادبِ
وإن أنت ناديت أهل الحفاظ فعرّض بذكرىَ أو نادِ بى

حيث جانس بين « نادب » (كلمة واحدة ، اسم فاعل) و « نادِ بى » (وهو فعل أمر وفاعله وجار مجرور) . ومثل ذلك البيتان التاليان للبيتين السابقين من نفس القصيدة :

يُجبْـــك فتـــى نَسَبَتْـــه الكـــرا مُ ، مفاخـــرهُ حليـــةُ الناســـبِ
شَرُفْـــتُ فأكثـــرتُ غيـــظ الحســـو د ، وأنكرنـــى أعـــرافُ النـــاس بـــى

وفى البيتين الآتيين نجد أن الجناس بين أكثر من كلمة فى كل بيت من البيتين :

يا ناكثـا نقـض العهـود ولم يخـف مـا فـى كتـاب عتيـده ورقيبـهِ
أضنـى هـواك شبيبتـى وذوى بـه عـودى لـه ، وعريتُ مـن ورقـى بـه

وهو عادة ما يجانس بين كل بيتين جناسا مختلفا . لكنه فى بعض الأحيان يلتزم فى المقطعة كلها جناسًا واحدًا ، مثل :

أيـا ليلـة زار فيهـا الحبيـب أعيـدى لنـا منك وصـلاً وعـودى
فإنـى شهدتـك مستمتعـا بـه بيـن رنـة نـاى وعـود
وطيـب حديـث كزهـر الريـاض تضـوّع مـا بيـن مسـك وعـودِ
سقتـك الرواعـد مـن ليلـة بهـا اخضـرّ يابـس عيشـى وعـودى
وفـى لـى بوعـد ولا تخلفيـه إخـلاف دهـر بـه لى وعـودى
فلمـا تقضيـت أمرضتنـى فـزورى مريضـك يومًـا وعـودى

ومثل ذلك نونيته المكونة من خمسة عشر بيتا والبادئة بقوله :

بنتـم فمـا كحـل الكـرى لـى بعـد وشـك البيـن عينـا

كلها تنتهى بكلمة « عينا »

ولقد وجدتُه فى إحدى المقطوعات يجانس بين آخر كلمة فى البيت كلمة أو أكثر فى أول الشطرة الأولى منه أو فى وسطها :

آلَ مـا كـان يمنّيـى بـه مـن تدانيـه إلـى أن آلمـا

كنتُ أبغي الوصل حتى صار ما ... رمتـــه العلـــة فـــي أن صارمـــا
عـــاد مـــا غـــرك فيـــه لـــم يكـــن ... لرشـــاد فـــي هـــواه عادمـــا
ثـم عنـــه نـــاد مـن يسلـو ، فقـد ... طالمـــا أمسيـــت فيـــه نادمـــا

كما رأيته مرة أخرى يزاوج بين هاتين الطريقتين ، إذ جانس فى البيت الأول بين آخره وآخر كلمة فى الشطرة الأولى منه على حين جرى فى الأبيات الباقية على المجانسة بين كل بيتين :

سبحـان مـن بجمـال الحسن جَمّلكا ... موفـرا كـل قسـط منـه جَـمَ لكـا
حتـى نـراك بـلا مثـل تقـاس بـه ... لمَّـا أتمَّـك أوصافـــا وكمّلكـــا
فـلا تمكَّنَ فـى قلبٍ هـواك ، وكـم ... لـك استرق بـه حُـرّاً ، وكـم مَلَكـا
وقـد أتيتـك أرجـــو منـك عاطفـة ... ولم يخـب منـك راجٍ قـطُّ أمّلكـا
لقـد برعـت إلـى أن قـال قائلنـا : ... أمالـكا صاغـك الرحمـن أم مَلَكـا ؟

أما فى التجنيس بكلمة « جارحة » و « ناسك » فقد التزم تكرار كلتيهما فى كل مرة مرتين متتابعتين :

ظبـى جـرى فـى جسـدى حبـه ... جَـرْى دمـى جارحـةً جارحـهْ
يجرحنـــى لحظًـــا فمـــن ذا رأى ... كطرفـــه جارحـــة جارحـــهْ

* * *

وقـــد عَلِقَتْـــهُ أكُـــفُّ المنـــو ... ن ، ففـى كـل جارحـة جارحـهْ

* * *

أيهـــا المظهـــر نُسْكًـــا ... ليـــس فـــى ناســـك ناســـكْ
أعلـق الأيـدى بـذى الدُّلـ ... ـا يـدا ناسـك ناسـكْ

وقد يظن بعض من قرأ قول العماد الأصفهانى عن الفارقى إنه « كان يلتزم ما لا يلزم فى رويه وقوافيه » (١٣) أن شاعرنا قد اتبع خُطا أبى العلاء المعرّى فى « اللزوميات » . غير أن ذلك الظن يقصّر عن الواقع تقصيرا شديدا ، فأبو العلاء كان يكتفى بإشراك حرف آخر أو أكثر فى

التكرار مع حرف الرويّ ، أمَّا الفارقى فكان يكرر فى الأغلب الأعم من قوافيه كلمةً كاملة وأحيانا أكثر من كلمة . لقد تجاوز الفارقى المعرّى بخطوات ، ولم يعد تصنع أبى العلاء شيئا بجانب ألاعيب شاعرنا .

وهو فى سبيل هذه الجناسات يربك الجملة فيقدم فيها ويؤخر . وقد مثلنا لذلك من قبل ، ومنه أيضا :

يا من حكى ثغرُه الدرَّ النظيم ومن تخال أصداغه السُّود العناقيدا

وأصل الكلام : العناقيد السود » ، فقدم الصفة على موصوفها . ومثله قوله :

أبكى فإن عزَّنى دمع بكيتُ دمًا حتى تخال بعينى داميا وَدَجا

أما فى البيت التالى فقد قدم المفعول به على فعله المؤكَّد بلام التأكيد ، وهو ما ينبو فى الذوق والسمع :

فلو محا فيضُ دمع من تكاثره إنسانَ عينن إذنَ إنسانه لمحا

يقصد : « إذن لمحا (فيضُ دمعه) إنسانه (أى إنسان عينه) » . كذلك قدّم فى الشاهد التالى المفعول به على عامله (وهو خبر « ليس ») ، فصار التركيب غريبًا بعض الشىء :

أحاول فى دهرى خليلا مصافيا وهيهات ! خلاً صافيا لست واجدا

كما أنه قد يحوّل المفعول به إلى جار ومجرور ، وذلك بعد تقديمه على فعله . وهذه أيضا قد سبق التمثيل لها ، ومنها :

ضلّ امرؤ للدنان أنشا ثم لها بعد ذاك زفَّتْ

يقصد : « ثم إياها بعد ذاك زفّت » ، أى « زفَّتها بعد ذلك » .

ومنها كذلك الشاهد التالى :

لو جاز أن يُعْبَد فى حسنه وظرفه كنتُ له أعْبُدُ

وأصل الكلام : « كنت أعبده » ، فقدم « الهاء » على الفعل بعد إدخال حرف الجر عليها .

وقد يجعل الكلمة المجانس فيها مرادفةً لكلمة سابقة فلا يكون هناك جديدٌ تقدّمه . إنما هى شىء أتى به للتجنيس ، والسلام :

لست ترى فى الحب يوما ولا تسمع أشقى منه بختا وجدّ
ما وجد العذرىّ فى حبه عفراء إلا بعض ما قد وجد

فإن « جدّ » و « بخت » بمعنى واحد . وعلاوة على ذلك فقد ارتكب فى سبيل الضرورة الشعرية غلطة نحوية ، إذ كان حقّ « جدّ » النصب لعطفها على « بَخْتًا » ، كما لا يخفى . ونفس الغلطة النحوية ارتُكِبَتْ فى آخر البيت الأخير من البيتين الآتيين :

جُدْ لى بوصل منك يا من قد بُليت به ، وساعد
واشف الصبابة بالعنا ق موسّدى كفا وساعد

كما أنه فى آخر البيت التالى قد أتى بكلمة لا حاجة إليها ، وذلك فى قوله مخاطبا نفسه :

وإن نَبَتْ أرض فشدّى على ناجية رحلك أو ناجى

فـ « الناجية » هى الناقة السريعة ، و « الناجى » هو البعير السريع . ومعنى الكلام : « اركبى ناقة أو جملاً » ، وهذا سخف ، لأنه ليس المقصود التفصيل بالنصّ على المذكر والمؤنث ، وإنما الحث على الرحلة من أرض الهوان بغض النظر عن وسيلة الانتقال .

وأحيانًا ما يورد فى القافية لفظة أو صيغة غريبة ، لا لشىء إلاّ ليحقق بها الجناس الذى يلهث وراءه ، مثل « تريب » فى نهاية البيت الأخير من البيتين التاليين :

أُحِبّ على ما نالنى من قِلّتى وأُغضى على أشياء منك تَريبُ
ولو بعد أن أفْنَى وأبْلَى دعوتَنى أجابك عظم فى التراب ترِيبُ

إذ معناها « مترب » ، لكنه استخدم صيغة مهجورة . ومثلها كلمة « أسواء (جمع « سوىّ ») فى البيت الأخير من البيتين التاليين :

ما العمر لو فهم الإنسان غايته إلا مكاره لا تغنى وأنواءُ
وما البرية إلا واحدٌ ، وهمو فى قيمة الذات أكفاء وأسواء

ولعلّك لاحظت أن الجناس بين « أنواء » و « أسواء » جناس ناقص ، وذلك عند الفارقى قليل ، إذ هو فى الغالبية العظمى من الحالات جناس تام .

ومما يُضْطَرّ شاعرنا إليه جريا وراء الجناس حذف الهمزات وتسهيلها أو زيادتها ، مثل :

يا من إذا ما بدا والبدر كان له عليه فى الحسن إشراقٌ ولألاءُ
كم قد سألتك فى وصل فلا « نَعَمٌ » كانت جوابك لى ولا « لاء »

حيث جعل « لا » النافية « لاء » بزيادة همزة فيها .

وقوله

يا من حكى ثغرُه الدرّ النظيم ومَنْ تخال أصداغَه السود العناقيدا
اعطف على مستهام ضُمّ من أسف على هواك ، وفى حبل العنا قِيدا

يقصد « العناء » لكنه حذف الهمزة .

ومثله :

من كل واضحة التـرا ث سهلة الخديـن عَيْنا

أى « عيناء » .

ومنه :

صدّ عقيب الوصال من لم يعدل لنا غَدْرُهُ وَفاه

أى « وفاؤه » .

ومنه :

هـل من سبيـل إلى خـلّ أخـى ثقة ... عليم نفس بمـا فـى الودّ قد تاتى ؟
لقـد سئمت مداجاتـى بنـى زمـن ... ما منهمـو غيـر جافـى الطبـع قتّات

حيث سهّل همزة « تأتى » .

ومنه :

اقطـع ، فقلـت : أبعـد مـا ... لـم يَخْـفَ عـن كـلا المـلا ذا ؟

ومنه :

قلت لى : « اكتم هواى » والدمع فى خـ ... ـدى لـه كاتـب سطـورا وقـارى

وكذلك تسكين الفعل الماضى ، وحقه الفتح ، مثل :

وأصبحـتُ قـد أخلصـتُ فيـك إنابـةً ... شـأوتُ بهـا فـى الحب كـل منيـب
فصلنـى وصـالاً فيـه آمَـنُ كاشحـا ... مُنيـتُ بـه فـى حبكـم ومُنـى بـى

ومنه :

أنضَى هـواك شبيبتـى ، وذوى بـه ... عـودى لـه ، وعَريتُ مـن ورقى بـه
ورجـوتُ أن ترقـى بعـذرك . أيـن من ... رام الرقـىّ بعـذره فرقـى بـه ؟

وفى البيـت التالى نـراه قـد حـذف « أن » مـن بين المضا والفعل :

عجبـًـا عشيـة راح لـى ... إذ لم أمـت فـى وقـت راحـا

والمقصود : « فى وقت أن راحا » .

كما أنه ، من أجل اقتناص الجناس ، قد أدخل حرف جرّ على ج ومجرور ، وذلك حين قال :

مـا الـذى عـاق أن تقـول لغيـرى ... حين رام الوصال منك كَلى : « لا » ؟

يعنى : « ما الذى منعك أن تقول لغيرى ... مثلما قلت لى : لا ؟ »

وهذا أغرب شيء .

أما فى المقطوعتين التاليتين فإنه قد استخدم تقفية عادية لا جناس فيها . قال فى الشمعة :

وندیمة لی فی الظلام وحیدة ... مثلی مجاهدة کمثل جهادی
فاللون لونی ، والدموع کأدمعی ... والقلب قلبی ، والسهاد سهادی
لا فرق فیما بیننا لو لم یکن ... لهبی خفیًا وهو منها بادی

وقال عن رضاب ریق الحبیب :

أریقا من رضابك أم رحیقا ... رشفتُ فلستُ من سکری مفیقا ؟
وللصهباء أسماء ، ولکن ... جهلت بأن فی الأسماء ریقا
حمتنی عن حمیًا الکأس نفس ... إلی غیر المعالی لن تتوقا
وما ترکی لها شُحًّا ، ولکن ... طلبتُ فما وجدت بها صدیقا

ومما لاحظته عنده أيضا تكرر عدد من الألفاظ والتعبيرات عدة مرات ، مثل كلمة « سامرى » :

کُنْ سامریا . لا تکن ... ممن إلیها التفتا

* * *

مذ عرفت الزمان والناس أصبحـ ... ـت وحیدا تخالنی سامریًا

و « بدر تمّ » :

و « بدر تمّ » لو ان البدر یشبهه ... فی وصفه حین أعیانا ومنعته

* * *

یا بدر تم ما بدا ... للناس رونقُه ولاحا

* * *

أندی بنفسی بدر تم له ... بدر الدجی فی حسنه ضَرّة

و « الأسد الورد » :

غزال من الغزلان لکن أخافهُ ... وإن کنتُ مقداما علی الأسد الوَرْدِ

* * *

ظبـــى لـــه طـــرف غـــــدا أســـدًا علـــى العشـــــاق وردا

كما كرر فى البيتين التاليين قوله : « زجرى وفالى » فى جملتين بنفس المعنى :

أضـــاع مـــا كنـــتُ منـــه أرجـــو وخـــاب زجـــرى بـــه وفالـــى

* * *

مـــا أنـــــت أول صاحـــــب أخطـــا بـــه زجـــرى وفالـــى

والاقتباس من القرآن عند الفارقى قليل . وهذا مـا وجدتـه فى شعره منه :

فليـس يسمـــع عـــذلاً فـــى محبتـه سوى محب كذوب فى الهوى أشر (١٤)

* * *

توقـــع إذا ضـــاق أمـــر عليـــ ـك خيرا ، فإن مع العسر عسرا (١٥)

وبعد ، فهذا هو شعر ابن أسد الفارقى . وهو ، كما ترى ، شعر كله تصنُّع وليس فيه شىء جديد أو طريف . وما علينا ممَّا قاله فيه القدماء مما سبق أن أوردناه ، فإن الذوق الأدبى والنقدى قد تطوَّر تطورا كبيرا بحيث إن ما كان يستحسنه فريق من القدماء لم يعد يرضينا .

الهوامش

١- هناك رواية أخرى للبيت نصها : « وبشّرتنى بحُرّ الشوق حرّانُ » .

٢- ويُسَمَّى أيضا بـ « الإفصاح فى العويص » و « شرح الأبيات المشكلة الإعراب » وقد نشره سعيد الأفغانى بعنوان « الإفصاح فى شرح أبيات مشكلة الإعراب » .

٣- يُرْجَع فى ترجمة الشاعر إلى العماد الأصفهانى / خريدة القصر وجريدة العصر / تحقيق د . شكرى فيصل / دمشق / ١٩٥٩ م / قسم شعراء الشام / ٢ / ٤١٦ - ٤٣٠ ، وياقوت الحموى / معجم الأدباء » / ٨ / ٥٤ - ٥٦ بالهامش) ، والفيروزابادى ، البُلْغَة فى تاريخ أئمة اللغة / تحقيق محمد المصرى / منشورات وزارة الثقافة / دمشق / ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م / ٥٤ - ٥٥ ، وابن تغرى بردى / النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة / وزارة الثقافة والإرشاد القومى / القاهرة (طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب) / ٥ / ١٤٠ - ١٤١ ، وابن شاكر الكتبى / فوات الوفيات / ط ٢ / ١٢٩٩ هـ / ١ / ١١٦ - ١١٨ ، والسيوطى / بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / عيسى البابى الحلبى / ط ١ / القاهرة / ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م / ٥٠٠ ، وهلال ناجى / الحسن بن أسد الفارقى - حياته والصُّبابة من شعره / المكتبة الصغيرة (رقم ٢٦) / الرياض / ط ١ / ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م / ٥ - ٣٢ .

٤- ابن تغرى بردى / النجوم الزاهرة / ٥ / ١٤٠١ .

٥- يعنى أنه ذكر فيها أن حران قد بشرته بالقتل ، فقُتِل فعلا .

٦- الفيروزابادى / البلغة فى تاريخ أئمة اللغة / ٥٥ . وانظر أيضا القفطى / إنباه الرواة على أنباه النحاة (فى « معجم الأدباء » / ٨ / ٥٦ / بالهامش) .

٧- ياقوت الحموى / معجم الأدباء / ٨ / ٥٧ - ٥٨ ، وابن شاكر الكتبى / فوات الوفيات / ١ / ١١٦ - ١١٧ .

٨- معجم الأدباء / ٨ / ٦١ ، وفوات الوفيات / ١ / ١١٧ .

٩- الشاعر هنا يخاطب نفسه .

١٠- العماد الأصفهانى / خريدة القصر وجريدة العصر / قسم شعراء الشام / ٢ / ٤١٨ .

١١- معجم الأدباء / ٨ / ٥٤ - ٥٥ .

١٢- إنباه الرواة على أنباه النحاة (نقلاً عن « معجم الأدباء » / ٨ / ٥٦ / بالهامش) . كما أشار الزركشى فى « عقود الجمان » إلى ذلك قائلاً إنه « كان يعتمد التجنيس فى شعره إلى أن صار فى ذلك علما » (هلال ناجى / الحسن بن أسد الفارقى / ١٢) .

١٣- خريدة القصر / قسم شعراء الشام / ٢ / ٤١٨ .

١٤- من قوله تعالى فى سورة « القمر » : « كذاب أشر » ، وإن كان استخدم صيغة مبالغة أخرى من « الكَذِب » غير « كذّاب » ، كما هو واضح .

١٥- وهى الآية / ٥ من سورة « الشرح » .

الفهرست

المقدمة	٣
أبو الشمقمق	٥
مطيع بن إياس	٣٤
أبو الشّيص الخُزَاعى	٧٤
ربيعة الرَّقّىّ	١٠٧
الخُرَيْمىّ	١٣١
ابن العلاف	١٦٣
محمود الورّاق	١٨٥
ديك الجنّ	٢١٦
العَطَوىّ	٢٦٦
الحمدونى	٢٩٢
الحلاج	٣٢١
الحسن بن أسد الفارقى	٣٦٠